

رواية للعالم

مدائن الرماد

بدرية العبد الرحمن

مكتبة العبيكان

③ مكتبة العيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبدالرحمن ، بدرية

مدائن الرماد. / بدرية عبدالرحمن. - الرياض، ١٤٢٤هـ

٦٥٠ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٤٢٢-٤٠-٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية- السعودية أ. العنوان

١٤٢٤ / ٤٨١١

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١

رقم الإيداع: ١٤٢٤ / ٤٨١١

ردمك: ٦-٤٢٢-٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العيكان

الرياض- العليا- طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ - الرمز ١١٥٩٥ هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس ٤٦٥٠١٢٩



الإهداء

إلى جرح أمتي النازف حتى يجف..
وإلى النضال المقدس فوق كل أرض وتحت كل سماء..
إلى أمتي العربية في البرزخ بين الظلمات والنور..
إلى الدم.. والدموع.. والعرق..
وإلى صيحات الثائرين في وجه الطغيان..
إلى الحق..
إلى رامة..!



قبل البدء

سألوني كثيراً: ماهي مدن الرماد .. ؟! وكان علي ألا أتركهم في حيرة .. !

مدائن الرماد ..

مدائن تشكلت من خيبة التاريخ والإنسان ..

مدائن محموعة ..

محشوة بالبغض والإلحاد ..

مدائن يستنزل الإنسان فيها لعنة الرحمن ..

من دونها شعور ..

أو بعضا اعتذار ..

مدائن خطت على جدرانها ..

تبعثرات العار ..

ورقعتها بصمة الدمار ..

مدائن الرماد ..

خيوط عنكبوتة الربا ..

على جرف هار ..

تبنى من الفولاذ والحديد والخزف ..

لتعلو الشفق ..

ويزيد الغبار..
فيها ترجع الكوائن البئيسة..
تردد النعيب..
تمشي بلا هدف..
وتقضم الرغيف..
وتتشبي للعزف أو للخمر أو تتمر الأبقار..
تعمى عن الأضواء..
تبقى من دون زاد..
من دون أن تجوع..
وزادها إن اشتت مجاجة من طينة الخبال..
مدائن الرماد..
أتسمع العزيف..!٩
تصافق الهواء..
ألا ترى مدائن الرماد..
ولوحة الحداد..!٩
إذ تختفي الألوان..
وتتمحي الحياة..
وتستوي الحياة بالعدم..

إذا استوى الإنسان بالآلات والنعم..

سيغرق الإنسان حتماً..

دون أن يموت..

لأنه الإنسان..

يا خيبة التاريخ..

إذ بنى في ذروة السقوط..

مدائن الرماد..!



مدن الرماد..

محكوم علي بالإعدام، بل ميتة، منذ زمن بعيد بعيد ..

منذ كنت في الرابعة عشرة من عمري، كان ذلك المدى حد حياتي الحقيقية، بعدها وإلى الآن أواجه الموت كصديق، إلى أن يحضر الكتاب.

كان ذلك عندما كنت هناك، في (إسرائيل الداوودية)، في أبشع وأقذر تجمع قردي عرفته البشرية على الإطلاق، في الحكومة التي تأسست على أنقاض الحكومة السابقة، وتفوقت عليها بمنتهى البراعة في تطبيق قرديتها ووثيتها المنسوبة زوراً إلى السماء.

مكان لا يضاهاي بشاعته سوى الجحيم نفسه، جمعت فيه أكثر المخلوقات بربرية وقردية، في ظروف قاهرة قوية أتاحت لهذه المخلوقات أن تقيم لها دولة في أرضنا، لتطبق قانوناً تهون عند وحشيتها وطفغانه كل شرائع الطواغيت منذ بداية الإنسان، قانوناً تجمع من أقسى قوانين العهود الأروبية الإقطاعية وأبشع قوانين العهد الكنسي الإسباني.

شريعة تحتار في تحديد هويتها، وتتردد كثيراً في تصديق ما يقال لك عنها؛ فضلاً عن أن تتسب مبتكرها إلى البشرية، قوانين الغاب تختلف عنها في كونها غير منظمة مثلها، وقوانين الرومان والإغريق لا تضاهي وحشيتها، ثم هي أولاً وأخيراً مستمدة من العهد القديم كما يرددون.

في تلك الرقعة المكلومة كنت أسكن، وعاصرت انهيار الحكومة الأولى وولادة الجديدة، وتفتحت عيني مبكراً على القهر والظلم والطفغان؛

عرفت كيف أعيش بوصفي عربية تحت خط الذل والفقر، وأدركت جيداً قيمة الإنسان، والإنسان العربي بالذات في تلك الدائرة الملعونة، وعرفت جيداً كيف يجب أن أُمسح بوجهي الأحذية من أجل أن أعيش؛ وعاشت كثيراً كثيراً - حتى أصبح أمراً مألوفاً - أحكام الإعدام التي تجري للعرب وحدهم لمجرد الشك، وفي أقرب مكان متوفر، في الشارع، والأحياء، بين الناس، وأمام أي أحد، دون محاكمة غالباً، وبإبلاغ عن طبيعة الجريمة فقط في بقية الأحيان، الجرائم التي تتراوح بين بناء منزل دون تصريح، وبين إيواء الفدائيين الثوار..

والعقوبة الوحيدة هي الموت السريع، لأي فئة من فئات المجتمع، من الأطفال الرضع إلى الشيوخ الكبار..

أما الجرائم الأكثر فداحة كالسرقة والإقامة غير القانونية فعقوبتها السجن اللعين المنتهي بالموت جوعاً.. هكذا.. صدقوا أو لا تفعلوا! أما ما هو أعظم من ذلك ويتعلق بالمساس بالشخصية اليهودية مهما كانت، فإن عقوبته أمر آخر تماماً.

إلى جحيم من الشياطين..

إلى طوفان من الكلاب المسعورة..

إلى غابة من القروود تحولت فلسطين في أقل من عشر سنوات..

وفي ذلك الأتون المرعب..

بدأت حكاية مأساتي..

(٢) المجرمة..

صمت رهيب..

ذلك الذي تتخلله وقع خطوات بريئة مرتجفة..

مزق الصمت صوت صرخة ذعر مخنوقة:

- لا.. لا.. الرحمة.. آ..

اختلست العين المذعورة نظرة خائفة إلى الصليب الكبير المقام وسط

الأحياء..

حيث انهمك أربعة من الجنود الشاؤول في تثبيت رجل فلسطيني

إليه، وهو يصرخ في توسل:

- لم أش لأحد بأي سر.. لم أعرف من قبل أي فدائي.. أرجوكم..

حاكموني قبل أن..

وبتر عبارته بصرخة ألم هائلة اخترقت الأذن المذعورة لتنفذ إلى

القلب المرتجف، البائس البراء لتضعقه بصاعق رعب جديد..

عندما بدأت المسامير تدق في رجليه ويديه لتثبته على الصليب..

سالت دماؤه وآلامه الرهيبة تيبس لسانه المسحوق الجاف..

ازدادت الخطوات المذعورة سرعة عندما بدأ يصرخ في انتحاء هستيري:

- يا عرب.. يا مسلمون.. ألا من يسمعي؟! ينقذني!..

كان يجاوبه صوت الرياح الصامتة وهي تسفع وجهه المكدم..

ازدادت الخطوات البريئة سرعة حتى تحولت إلى هرولة..

تناهى إلى الأذن المذعورة صوت الرجل يصرخ:

- ستحرقونني.. نعم فلتفعلوا.. هذا ما يليق بكم أيها الخنازير

الحقيرة.. فلتفعلوا..

ودوت صرخته الأخيرة في كبد السماء الملهب؟ عندما اشتعلت

النيران السوداء في جسده..

بلا رحمة..!

الكل كان يسمع يمشي باتئاد.. دونما التفات.. دونما مبالاة.. لكن لم

يكن أحد ليتلفت أو يهتم.. ومن سيهتم؟!

عند هذا الحد كانت الخطوات المذعورة قد وصلت إلى حيث تدق

الساعة معلنة العاشرة والنصف في مدرسة نابلس..

الأطفال - أولاداً وبناتاً - من العرب المسلمين يرتجفون رعباً أمام

شاشة تلفاز مهترئة في انتظار المعلم (تيموث)، ليلقي موعظته اليومية

بالعبرية المعقدة، والتي يتحتم على كل طالب وطالبة تسميعها حرفاً حرفاً

من إلقاءين فقط..

كل أجواء الرعب تكتنف المكان وتخنقه بلا رحمة..

اللون الأحمر القبيح يكسو الجدران، والكراسي الخشبية المهترئة بلا

ظهور، والحر الشديد المنبعث من مصباح الصوديوم القديم الذي يدور

حوله الذباب بكثافة..

الغرفة مغلقة الباب الحديدي ذي الصرير المرعب، وبلا نوافذ، أشبه

بسجن في دولة من دول العالم الثالث..

روائح العرق تنتشر في الغرفة بفعل الجو الخانق الإرهابي الذي فرضته إدارة التعليم الشاؤولية على كل مدرسة عرب تفتحها لتضيف كمية أكبر إلى رصيد الذل في نفوس الفلسطينيين، ورصيماً أكبر في حساب العملاء الذين تجندهم لخدمة أغراضها.

الوجوه البريئة شاحبة، طلاب الصف التاسع صائمون منذ أربع عشرة ساعة بأمر المعلم، متمسكون بالأصنام أمام سبورتهم العتيقة... .
عندما دقت الساعة العاشرة، ازدرد كل طالب لعابه، حيث ارتسمت على عيونهم الخائفة صورة المعلم (تيموث) بلحيته الكثيفة وحاجبيه الكثرين وأنفه المعقوف، وصلبته التي التصقت بها قلنسوة تجمعت عليها الأوساخ، وتجاعيد وجهه الرمادي المخرق.

ومرت لحظات من السكون قبل أن يقول بعبرية هادئة وبصوت كريه:

- هل كلكم هنا أيها القطيع المتن؟!

وبتلقائية وأصوات منكسرة كنونات القطط، رد الطلاب جميعاً:

- حاضر أيها المعلم المبارك.

تحنح المعلم وهو يتمتم في ازدراء:

- لست أدري كيف تنفق الدولة مئآت الشيكلات على قطعان من

(الممزير) إياكم؟!

واستطرد متمتماً:

- دعوني أبحث اليوم عن طالب جديد آه!

أين (رامة)؟

سقطت قلوب الطلاب بين أرجلهم كالعادة..

وبصوت مرتجف النبرات ردت الفتاة:

حاضرة..

وازدردت ريقها قبل أن تقول بمرارة:

- يا أيها المعلم المبارك!

كان واضحاً أن المعلم يتلذذ إلى ما لا نهاية برؤية وجه الفتاة على شاشته، وهي ترتجف أمامه والعرق يتقاطر من جبينها العريض الأبيض على خديها وعينيها اللتين تفتحان وتقفلان بسرعة وتتابع لطرده الذباب الذي يسرح فوق بشرتها الناصعة الجميلة دون أن تستطيع ذبه خوفاً ورعباً.

وانتبهت الفتاة بعنف والمعلم يردد:

- سمعي لي السطر الخامس من موعظة الخميس.

أدركت رامة أنها معاقبة لا محالة كما يجري كل يوم، لكنها ازدردت

ريقها وهي تتحدى هذا الأمر التعجيزي وارتمد شريط ذاكرتها لتتذكر..

ثم فتحت فاما لتتكلم..

لكنها بغتة..

بصقت مصدرة صوتاً عالياً مقززاً، فزقق المعلم في غضب:

- ماذا دهاك يا لعينة؟!

بادرت البنت تقول في انكسار مذعور:

- لقد كانت ذبابة هاجمت فمي أيها المعلم المبارك!

كانت فرائصها ترتجف بشكل ملحوظ ومثير للشفقة وهي تنظر إلى عيني المعلم المتقدتين.

ومرت حقبة من الصمت في تقدير رامة قبل أن يقول المعلم بصوته العميق القبيح:

- حسناً يا أيتها المميز، ستكتبين الموعظة بخط يدك ثلاثمائة مرة.

ارتجف الطلاب وهو يردد في استمتاع سادي بشع:

- والموعظة من أربع صفحات، هذا يعني أنك ستملئين ما قيمته شيكلان من الورق، خمسمائة صفحة وزيادة بسيطة!

كل واحد من الطلاب ابتل بعرقه في ذلك الموقف الرهيب، وحمد كل منهم الله أنه لم يكن في مكان هذه اليتيمة المسكينة، والتي هي كغيرها أو أشد، لا تكاد تجد قيمة الورق والأقلام..

ولكن لدهشة الأطفال، بل لدهولهم، فقد حصل أمام أعينهم ما هو أغرب من الخيال، على الأقل في واقعهم هم..

لقد انتفضت الفتاة باكية وهي تقول بصوت يحمل ضراعة بحجم العالم:

- ولكنني لا أملك قيمة الورق أيها المعلم المبارك، وأمي مريضة ولا تجد ثمن الدواء؛ أرجوك يا معلمنا .

وهتفت بصوت حزين مفعم بالقهر:

- ثم إن الذباب هاجم فمي أيها المعلم المبارك وأنا أتكلم، ماذا حصل عندما بصقت رغماً عني؟!

تململ الطلاب في فرق عظيم، ووقر في أنفسهم أن رامة تجاوزت حدها كثيراً هذه المرة، خصوصاً وهم يرون المعلم الملعون مبهوراً على الشاشة.

مرت لحظات من السكون، رامة ترتجف خوفاً وقهراً، والمعلم ساكت مبهور غاضب، والطلاب مطرقون يرتجفون ذعراً، قبل أن يقطع السكون صوت المعلم قائلاً في تشف هستيري:

- أنت مفصولة من المدرسة أيتها الكلبة، مفصولة ولن تجدي من يتلقفك سوى كلاب الشوارع المشردة الحقيبة مثلك.

شحبت وجوه الطلاب هذه المرة هولاً وذهولاً..

الفصل بالنسبة للعربي في القانون الشاؤولي يساوي الإعدام جوعاً ومطاردة..

من لا يدرس لا يحصل على استحقاق البقاء في الأرض.

هذا يعني أن يلاحق ككلب مشرد حتى يستقر به المقام مطروداً خارج الحدود..

أو في زنازين السجن الانفرادي حتى الموت.

هل كنت تتصور أنها كانت لتناقش .. ١٩ لتتكلم .. ١٩

تفكر لحظة فيما أصدره اللعين من حكم .. ١٩

كل ذلك كان خيالاً .. لقد فعلت ما يجب أن تفعله ..

غادرت رامة كرسيها في استسلام، وتناولت حقيبتها القماشية البالية، وألقت نظرة بائسة تحمل مرارة هائلة إلى أصدقائها الصغار، وكلهم يرمقها في انكسار وألم وصمت.

وأغلقت باب الفصل الحديدي والدموع تغمر وجهها البريء، وتحول شلال دموعها بغتة إلى حمم ملتهبة، والقهر يتفجر في أعماقها، ويتفجر ...

ويتفجر.

أمام الناظر، وقفت يا عزيزي القارئ لأتحمل ضغطاً هائلاً من وابل الشتيمة والتحقير، وتحملت عدة صفعات على خدي بلا رحمة، ولكمات عنيفة على أنحاء جسدي الضعيف، وضربات بعصاه الغليظة التي يستخدمها لتأديب كلاب الحراسة حول المدرسة، كل هذا أثناء انتزاع رمز التعريف من ثوبي الممزق، والذي يشير إلى استحقاق وجودي في وطني، ويمنع السلطات من ملاحقتي وقتلي بتهمة البقاء غير الشرعي .. ١٩

في وطني....!

داس على وجهي بقدمه القذرة، وقذف بوجهي مادة فمه مرتين، و..
وطردني..

هذا هو المهم!

عرجت متألمة مقهورة على خن الدجاج الذي نسميه منزلنا..

ترددت كثيراً كيف سأعود إلى أمي المريضة؟

ماذا سأقول لها وماذا ستفعل؟

كانت الدنيا في عيني سوداء مظلمة، كل شيء كان يدور ويدور،
عيناى تزوغان، ومواضع الضرب تؤلني.

هل يا ترى ستضربني أمي زيادة؟

كما يجب أن تفعل..؟

ذلك ما أشغلني في طريقي للبيت..

عندما وقفت على باب المنزل المتهالك، التفتت إلى أمي هاتفة في دعر:

- ما الذي أتى بك الآن؟

وبوجه جليدي ومشاعر متبلدة قلت:

- فصلوني، هذا كل ما في الأمر.

(٣) يحيا الظلم..!

الجوع عدو خطير للإنسان، يجعله يتخلى عن مبادئه كثيراً، وعن إنسانيته أكثر وأكثر.. وإلا..

فما الذي يجعل الأم تأكل ابنها؟ والأب يقتل ولده؟ والأخ يلتهم أخاه؟ في نابلس، حيث تحولت إلى مدينة من الرماد منذ سنين، يزحف الناس ببطء نحو أعمالهم الوضيعة.

يتنثر الرماد فوق وجوه بيضاء من أثر السجود، تدور عيونهم في صمت ورهبة، وهم يواصلون زحفهم الكئيب نحو أهدافهم الصغيرة.. لم يعد هناك ما يستحق أن يعيش لأجله الإنسان؛ لا كرامة، لا إنسانية، لا أخوة، لا معيشة كريمة..

فرض الجوع على الجميع هناك أن يدوسوا على كرامتهم بأقدامهم، أن يقضوا باحترام للقرود المستأسدة، وأن يقطعوا كل علاقة (لا طعامية) بين بعضهم البعض..

تستيقظ من النوم صباحاً لكي تعمل وتعمل مثل حمار الناعور حتى الغروب دون كلام أو أخطاء...

لا تتكلم في حين يمر بك شاؤولي أو حتى تتحرك، ومن الأفضل لو تواريت عنه حتى لا تصيبه بالاشمئزاز.. هكذا..

بعد انتهاء عملك تعود إلى منزلك وتأكل الفتات للتمام ثم تستيقظ...
لم يعد للمآذن صوت في المدن الرماد...
حتى الناس، لا يجدون الطاقة الكافية ليتكلموا؛ وقد ألغت حياة
القهر والظلم كل معالم البشرية فيهم..
لم يعد هناك سوى حياة الطحن والقهر..
حتى تغريد العصافير مات...
في مدن الرماد....!

وقف قرد التفتيش اليهودي بقامته الضخمة وملامحه القميئة أمام
خن الدجاج الصغير، ونظر إلى الرقم الكبير على الباب، وتأكد من وجوده
على كشف للأسماء على دفتر صغير معه، قبل أن يركل الباب بحذائه
العسكري وهو يهتف بالعبرية:

- تفتيش هذا الشهر..

طالعه وجه الأم شاحباً كوجوه الأموات وهي تقف في رهبة شديدة
والزبد يكسو شفيتها..

كان الجندي يقف في كل خطوة لينظر، ويتمتم وهو يضغط على
أزرار الشاشة الصغيرة:

- وعلى هذه الكوة الحقيرة ضريبة الشهر ١٥ قرشاً..

واستدار نحو الأم قائلاً في صلف:

- أين النقود؟

مدت الأم يداً مرتجفة نحو صدرها لتخرج كيساً صغيراً وتفتحه في تهالك وتأخذ عدداً من الشيكلات مدتها نحو الجندي الذي قال في احتقار:

- ضعيتها هنا، داخل هذه الحقيبة..

واستدار نحو الباب فتتنفس الأم الصعداء قبل أن يتوقف ويستدير نحوها قائلاً في شك:

- هل هناك ما تخفيه أيتها اللعينة؟

هوى فؤاد الأم بين قدميها وهي تقول بصوت مختنق:

- لا

اقترب منها الجندي وهو يركز النظر على وجهها قائلاً:

- لم ترتجفين إذا؟

قال هذا وهو يهوي بكفه الضخمة على وجهها بصفعة قوية رنت في أنحاء البيت الصغير، وتهاوت العجوز على الأرض فزعاً وألماً رهيباً.

لحظتها سمع صوتاً ضعيفاً يخرج من ركن أحد الغرفتين، فأتجه إليها مسرعاً وركل الباب وهو يهتف في ذعر:

- من هناك؟ سأطلق النار فوراً.. هل تخفين فدائياً..؟

صرخت الأم في هلع شديد :

- لم أكن لأفعل ذلك.. نحن بئسسون مساكين ولا نريد المشاكل...

صدقني أيها الأدون..!

التفت إليها قائلاً وهو يصوب مسدسه نحوها :

- أيتها الحيزبون دعيني أسمع جيداً فأنت ميتة في كل الأحوال..!

أجابته صرخة أنثوية يائسة :

- كفى، كفى!

استدار نحو مصدر الصوت ليجد رامة، وهي تشهق بدموع بائسة

شديدة التلهب عند نافذة الغرفة المطلة على منور صغير ينصل بين

منزلها ومنزل جيرانها.

تمتم الجندي وهو يقترب منها في شراسة :

- إذا فهذه هي القصة كاملة!

قال هذا وهو ينتزعها من مكانها ممسكاً بشعرها وهي تصرخ :

- كفى، أنا لن أخفي شيئاً، أنا لا أحمل رمز تعريف منذ البارحة..

كنت طالبة مدرسة وطردت، هذا كل ما في الأمر.

ضغطها الجندي على الجدار وهو يقول في صلف واحتقار :

- بهذه البساطة!

واستطرد قائلاً

- أنت ستدفعين عمرك مقابل هذه الغلطة فيما أعلم..

قال هذا وهو يسحبها من شعرها بلا رحمة ويدفعها خارج المنزل قبل أن يلتفت إلى الأم التي تجمد لسانها لهول الموقف، وهو يقول:

- أما أنت أيتها المزيّر الحيزيون، فلا أظن أن ثمة حاجة لحياتك، فضلاً عن خطيئتك التي ارتكبتها..

إن إعدام العش كان ينبغي أن يحصل منذ زمن إحراق زوجك الفدائي وليس الآن فقط..

قال هذا وهو يسحب مسدسه ويطلق عياراً نارياً سريعاً على رأسها بمنتهى البساطة وينسحب بهدوء رهيب، وسط نظرات الجيران الذين يطلون في أسى واستسلام من شقوق أبوابهم وفتحات نوافذهم، ووسط دھول رامة...

وصيحات انتخائها المتشنجة الحارقة..

ودوامة الرماد التي غاب فيها وعيها...

إلى ما لا نهاية...

عمري كان ثلاث عشرة سنة، قاصر في عرف أغلب الدول..

ما الذي جعلني أقف أمام محكمة مكونة من صندوق صغير بشاشة يتضح عليها ضابط حاجب مهمته أن يملي علي تهمتي وعقوبتي التي كانت

ويكل سخرية (السجن المؤبد)، ولم أعرف في حياتي ما هو السجن المؤبد في قاموسهم اللعين، إلا عندما وقفت أمام جوقة تعذيب رهيبة، حطم فيها وجهي ببساطة، وصرخت حتى تمزق حلقي الماء، جوقة تضرب ببرود ومهارة..

إنهم رجال ماهرون..

جلادون ماهرون..

كل ذلك قبل أن تبدأ سنين العذاب القصيرة التي سأقضيها في صندوق بطول وعرض وارتفاع خمس وسبعين سنتيمراً، حتى أموت من الجوع والعطش..

كل ذلك من أجل أني بقيت في وطني بقاء غير شرعي مدة أقل من يوم؛ ولأنني تجرأت على نقاش كاهن وغد، هذا كل ما في الأمر.

ما حصل هو أني، وبعد أن نلت نصيبي الكبير من التعذيب بأيدي أولئك الوحوش، رقدت على أرضية الزنزانة الباردة، وأنا أدرك أني أصبحت ريشة صغيرة وسط زوبعة عظيمة.

بدأت أعد أيامي الباقية..

كم يصمد المرء بلا طعام أو شراب أو كساء أو حتى مكان واسع؟ كانت الزنزانة - يالعار البشرية - مكاناً أشبه بالقبر لا تتحرك فيه الأعضاء إلا قليلاً، ولا يمكن الجلوس باعتدال فضلاً عن الوقوف؛ كنت أسمع أنيناً خافتاً مريراً بجواري وفوقي.

كانت أقفاصاً تصلح لحبس الكلاب، مهترئة، صدئة الأعمدة، فوق

بعضها البعض..

كنت أشم روائح كريهة لا تطاق، ناتجة من تحلل بعض الجثث وتأخر التخلص منها.

انبطحت وقد فقدت عقلي..

وغاب عن ذاكرتي كل معنى للكرامة والإنسانية تماماً، وبدأت أتصرف - لا تستغرب - كحيوان ذليل، أفكر فقط كيف سأكل، كيف سأجد مكاناً أنام فيه، وحفرة قذرة اتقيأ فيها..

أما الهروب، فقد كان آخر ما أفكر فيه.. إن كان ثمت وقت أو معنى للتفكير..

انقبض قلبي بخوف رهيب وأنا أتساءل:

- أكل يوم سأضرب بقسوة هكذا.. ؟

أكل يوم سيحطمون وجهي.. ؟

رباه.. لأن الموت أهون من ذلك!

فجأة..

فتحت زنبراتي، وغمرها ضوء قوي بهر عيني بشدة، حجبت بذراعي الضوء عن عيني، وأنا أحاول تبين القادم.

سحبت يد قوية ذراعي بمنتهى العنف، فاصطدم رأسي بحافة الزنزانة وأنا أقف رغماً عني محتمية بذراعي، عندما تبينت أمامي كانت امرأة تمسك بمصباح يدوي كبير وهي تقول في غطرسة باردة:

- أياً كنت، فأنت السجينة الجديدة رقم (٢٣٢ .. و) لا أعلم

بالضبط..

هزرت رأسي في خوف رهيب ومذلة...

تبينت من ملابسها ولهجتها أنها سجانة، فذبّ الذعر في قلبي وأنا
أتساءل عما جاء بها.

لي أنا.. أتريد تعذبي في هذا الليل البهيم؟ أتريد أن تشغلني..؟
ماذا تريد؟

إلى أن قالت في برود بلهجة شديدة الغرابة والغموض:

- تستحقين الحياة، أنت جميلة، وأنا فرغت من الحياة تماماً.

دب الذعر في قلبي مرة أخرى وهي تتابع:

- مع أنك (جويس) حقيرة، إلا أنني لا أعترف بمبدأ الطحن والإبادة

الذي تنتهجه حكومتنا اللعينة، لو علموا بذلك، لقتلوني تعذيباً بشعاً،
ولذلك عندما رأيتك فكرت أنه بإمكانني أن أفعل شيئاً جيداً وطيباً قبل أن
أموت، يشعرني بشيء من الراحة في ما بقي من عمري من لحظات.

أحسست لحظتها أنني أعيش حلماً، خصوصاً وأني لم أفهم ما تريد..

قالت لي وهي تخلع ملابسها ببرود:

- هناك طريق وحيد مضاء بلون أبيض، يقودك بعد أن تتجاوزي هذا

الباب المنقح إلى الباب الرئيس، ما تحتاجينه هو مفتاح الأبواب، وهذا هو.

غمر الذهول كياني وأنا آخذ المفتاح الضخم من يدها دون أن أعلم ما

الغرض منه وهي تتابع خلع ملابسها قائلة:

- لو طلب أحدهم كلمة السر لليلة فهي «نابي» لن تحتاجيها لو أسعفك الحظ، والآن خذي ارتدي هذه الملابس على عجل.

تطلعت إليها في ذهول، فزعقت في شراسة:

- لا تثيري أعصابي..

ارتديت ملابسها على عجل وأنا أزدرد ريقي مرتجفة بشعور لا أعلمه، بينما هي تركز مصباحها على وجهي وتقول:

- قللي لهم لو قبضوا عليك: لقد خان (عزرا) (سالومي) بكل بساطة وكان قدراً، وجعلها أمام الجميع أضحوكة ساذجة.

فهمت الآن ما تنوي فعله، إنها تريد الانتحار، ولكن..

ماذا تريد مني..؟

و... و...

ولماذا يقبضون علي..؟

استدتت على الجدار المقابل وهي في هستيريا غريبة تتمم قبل أن تهتف في احتقار بالغ وهي تركز مصباحها تحت قدمها:

- ياللعين! ياللاشمئزاز!..

أكل يوم أعثر بذراعه القذرة دون أن يستجيب عامل النظافة لمطلبي بالتخلص من جثته المنتنة!

كانت - يالهل ما رأيت - ذراعاً بارزة من إحدى الزنازين..

وقد انسلخت وتحللت وبدا عظمها واضحاً!

هل تتصور ذلك غريباً..! إنه ليس غريباً علي في الحقيقة..

لقد رأيت مثل هذا المنظر كثيراً في حينا البائس.. وأبشع منه..

ولكن..

في زنزانة الخوف الشرس كان بعض ما رأيت كافياً لأن يفقدني

عقلي بلا أوبة..!

وأمامي هذه المرة وقفت السجانة وهي تضع مسدسها بين شفتيها،

فقلت في لا شعور:

- ماذا سأفعل..!؟

ردت في احتقار:

- ألن تهربي..!؟

فغرت فاي ذهولاً وأنا أردد:

- أهرب..!

وتفجر رأسها القذر..!

اشتعلت نابلس مرة واحدة، ومشطت كل بيوتها بأيدي أعضاء

(الشرين بيت)..

وقتل للاشتباه المجرد تسع نسوة، وألقي القبض على العشرات

للتحقيق، وحظر التجول لمدة شهر كامل.

عثروا على جثتين متحللتين، إحداهما اتضح أنها لولد، والأخرى لامرأة في الثلاثين؛ كأنما انشقت الأرض وابتلعتها، أو تبخرت.

كانت في تلك اللحظة قد وصلت بركضها المتواصل، إلى مزرعة أغنام في طرف المدينة، كانت يائسة من الحياة تماماً، وتذكرت أن مصيراً مفاجئاً ينتظرها لو قبض عليها مرة أخرى بثياب السجانة القتيلة.

لكنها كانت تركض.. لماذا.. ؟ لا سبب مقنعاً..

هي نفسها لا تدري.. لكن ربما لأنه كان عليها أن تركض..

كان الهواء البارد يسفع خديها المتورمتين وشفتيها الممزقتين، فاختارت الجلوس في مكان عميق داخل الزريبة تحت التبن.

وعندما بدأ النوم يتسلل إلى أجفانها لشدة تعبها بدأت تلعن غباءها الذي جعلها تتكلم أمام المعلم اللعين بوقاحة لتلقى هي وأمها المسكينة هذا المصير..

أما وهي تحت التبن تنتظر الموت بأبشع صورة، فإنها بدلاً من أن ترثي أمها، أخذت تفكر في حسد أنها ماتت وارتاحت برصاصة مسدس سريعة..

ماتت وانتهى أمرها وحسم سريعاً.

ألا فليلعن الله حياة الخوف والذل والرعب، التي تعلم الإنسان كيف يستمرئ مناظر الدم والموت.. التي تحول العالم من أرض واسعة تعيش تحت رحمة الله الرحمن، إلى رقعة محاصرة بأوامر الشيطان وأعوانه،

يركض فيها الإنسان كفأر ذليل بلا حول ولا قوة..

ينتظر العذاب والدمار..

وسياط الظلم تلهب ظهره المنحني خوفاً وذعراً..

فرق كبير بين إرادة الرحمن.. وإرادة الشيطان..

إرادة الإكرام.. وإرادة الإغواء..

إرادة المحبة والرحمة.. وإرادة التخويف والإرهاب..

ليلعن الله حياة الظلم والقهر التي تجبر الإنسان أن يلتهم أمه وولده،
ويضرب أباه ويقتل أخاه.

انتبهت على صوت غليظ يقول:

- أسرع يا شالوم، هكذا لن يمكننا الوصول إلى (بنت جبيل) في
الموعد المحدد.

رأت شاباً ينقل الأغنام بعنف إلى شاحنة كبيرة، ثم يقفز بجوار والده راكباً.
حدثت نفسها وهي داخل صندوق الشاحنة، حقاً كم تعيش الأغنام
بسعادة كبيرة، ترقد بأمان دون أن يطاردها اليهود ويحرقوها، وتمضغ
العلف بأمان، حقاً كم أحسدها!

لماذا لم أكن نعجة؟ أو فأراً؟ أو حتى ذبابة؟

تخيل نفسك في أكثر الأماكن أماناً في حياتي..

تحت التبن البارد، حيث يتسلل بول الخراف الدافئ إلى خدي

الملتصق بالأرض، ويداعب روثها جبيني وأطراف أصابعي؛ كل هذا في ثمان ساعات من السير المتواصل.

بغثة سمعت صوتاً يقول: تفتيش..

تجمد دمي في عروقي، وأحسست بالموت مرات بعدد خطوات جندي التفتيش الثقيلة؛ ركل العلف بعنف، فاحتمل بطني ألماً رهيباً، قبل أن ينزل المفتش ويغلق الباب، وتتحرك السيارة من جديد.

كانت دقيقتان أشد على قلبي من الموت نفسه؛ لذلك لا تتهمني بالجنون لو قلت لك أن فكرة غريبة مجنونة راودتني لحظتها هي أن أسلم نفسي للموت وأرتاح..

حقاً لا أصعب من الموت سوى انتظاره!

بعد ساعتين، كان عنقي فيهما قد تمزق لشدة العطش، وصلت السيارة إلي بنت جبيل، فتح الشاب الصندوق وقام ينزل الأنعام واحدة واحدة، غابا لحظة داخل المزرعة، فخرجت من السيارة وركضت مجدداً بعيداً.. بعيداً.. بعيداً^(١)...

✽✽✽

(١) إلى هذا الحد وأحداث القصة مستقاة من قصة حقيقية لرجل فلسطيني.

(٤) منصور..

في مزرعة جميلة على أطراف بنت جبيل، كان صوت العصافير يبدو قوياً يبعث البهجة ويصم الأذان، إلا أنه لم يمنع من ظهور صوت شجار حاد داخل زريبة المزرعة.

كان هناك رجل أشيب يبدو في الخمسين من عمره، يرتدي الزي الشعبي لأهل القرية، وهو يلوح بذراعيه في وجه شاب طويل القامة عريض البنية، ذي ملامح متجهمه هاتفاً في غضب.

- إذا لم يعجبك الوضع فارحل فوراً..

هتف الشاب في غضب:

- كيف تفعل ذلك يا عمي، ونصف المزرعة لوالدي الشهيد!..

هتف العم في إصرار:

- أنت لم تعمل بها لا أنت ولا والدك، أبوك التحق بالجيش وذهب إلى

رحمة الرب، وأنت تدرس في عمان منذ أكثر من سبع سنين، قل لي ماذا

فعلتما بها؟! كدحتما مثلي فلحتما!؟

هذا لن يكون وليس لك إلا ربع الغلة.

هتف الشاب في توتر:

- طيب يا عمي، تذكر من أين لك قيمة الأرض!؟

ألم يضع الشهيد كل حصاد عمره في تلك الأرض؟

هتف العم في تهكم:

- ولد صغير ولا تفهم في الحياة شيئاً، تعب سنين لن أناصفك إياه
مهما يكن الأمر.

قال الشاب: ووصية الشهيد؟

قال العم غير مبال: الحي أبقى من الميت!

عدل الشاب حلته وهو يقول: حسناً، سأزورك ثانية.

وخرج من الزريبة في ثورة مضطربة متجهاً إلى أشجار التفاح
العملاقة، وهو يقلب عينيه في الطيور التي تقفز بخفة ورشاقة بينها،
وتوقف متتهداً بعمق وهو يقول لنفسه:

- لست أدري كيف سأسافر إلى أمريكا هكذا، بهذه الطريقة المجحفة

لن أستطيع توفير مصاريف الحياة هنا.

وزفر محنقاً ساخطاً وهو يقول: تباً للظلم والظلمة، تباً لك من

أشمط ملعون..!

ورمى بجسده بين شجرتين وهو يزفر في حنق شديد، وقام يعبث

بالحجارة الصغيرة بين يديه وهو يردد في سره:

- ليسامحك الرب يا أبت، كنت أعلم أن قدر الشراكة لا يغلي،

خصوصاً إذا كان الشريك لصاً محترفاً مثل عمي بطرس..

ولوهلة ركز بصره على بقعة خضراء على بعد أمتار قليلة منه، ترى ما هذا ١٩
حك ذقنه بأصبعه وعاد يفكر في سخط شديد:
- ليس عندي ما يكفي ثمن تذكرة إلى الولايات المتحدة، وسيضيع
عمري على حساب هذا العم الأفاق الحرامي.
ركز بصره على تلك البقعة الخضراء وهو يتخيل أنها تتحرك قليلاً
جداً، وعاد يفكر:
- حتى لو رفعت دعوى قضائية، كيف سأثبت حقي في الأرض ولا
توجد حتى ورقة تثبت أن لي فيها شبراً ١٩
والدي كان أخرق مثلي، ويظن أن الشرف في صدر عمي سيمنعه من
أكل مالي، وها قد حصل ما كان ينهمني ويمنعني من مجرد التفكير فيه..
قذف حصاة في اتجاه البقعة الخضراء، ثم وقف متثاقلاً مشغول
البال ليتفقد ما هي..
وقف متسماً وندت منه آهة خافتة مدهوشة..
ركز بصره، فقد كان جسداً ضئيلاً يختفي رأسه تحت شجرة تفاح..
جسداً يرتدي لباساً عسكرياً فضفاضاً غريباً أشبه بملابس ضباط الأفراد..
دار على أطراف أصابعه حول هذا الجسد، مرة أخرى أطلق آهة
خافتة وهو يردد:
- يا للسماء!

نظر في دهشة كبيرة إلى الصبية الجميلة المقصودة الشعر، ذات الوجه المكدم المجروح، واليد المنتفخة المتورمة أطراف الأصابع.

مرة أخرى ردد وهو ينحني ليفحصها:

- يا أيها الرب، من تكون هذه؟

مد يده إلى عنقها وتحسسه برفق، كانت حية وتتفس جيداً، لكنها شاحبة شحوب الأموات، لا تشعر بخنفس الأشجار الذي يتمشى على خدها المصقول.

أزاح الخنفس برفق وهو يشعر بطوفان رهيب من الرحمة يكتف كيانه تجاه هذه المخلوقة الضعيفة التي ترتجف برداً، ومد يده ليهزها برفق قائلاً:

- استيقظي يا صغيرة، استيقظي فوراً.

وضغط حاحبها بقوة بأصبعه الكبير، فارتعش وجهها برهة قبل أن تفتح عينين فارغتين من الحياة، وبادرت شفتاها الممزقتان تتمتمان:

- ماء ماء

تراجع الشاب في خوف، وهرع إلى داخل المزرعة راكضاً، والتقط كوباً فخارياً قديماً ملاً بالماء من صنوبر الزربية، وهرع راكضاً إلى الفتاة وصوت عمه يطارده:

- أيها الخسيس:

تسمر العم مكانه وهو يرى الشاب يسند الفتاة إلى ذراعه ويبلل شفيتها بالماء وهي تشهق في ألم شديد، قبل أن تستطيع تجرع الكأس كله.

اقترب العم من الشاب قائلاً:

- وما هذه المصيبة الأخرى؟!

ناولته الشاب الكأس هاتفاً:

- أحضر آخر، إنها تحتضر.

زقق العم في نذالة:

- ما شأني لأحضر لها الماء..؟!

قاطعه الشاب في غضب شديد واحتقار:

- إنه .. كوب ماء وسأدفع ثمنه..

ارتعد العجوز وامتلكه الخجل وهو يلتقط الكأس، ونظر شزراً إلى الشاب الذي حمل البنت بعناية كبيرة إلى الزريبة ووضعها فوق كومة من الصوف غير المغزول، وتناول الكأس من يد عمه وهو يقول في نفسه:

- ويقولون إن حاتم الطائي كان عربياً!

تجرعت الكأس بصعوبة بالغة هذه المرة، والعم يرمقها بنظرات بغیضة لئيمة، حتى أغمضت عينيها في تعب عميق، والشاب يسندها إلى كومة الصوف لتنام، وجفف عرقه الذي يتصبب رغم برودة الجو قائلاً:

- هل عندك لحاف دافئ؟! إنها ستموت برداً شديداً..

قال العم في نذالة محاولاً صرف انتباهه:

- انظر إلى البطاقة على صدرها، أليس هذا اسمها؟

رفع الشاب البطاقة وهو يقرأ بصوت عال:

- سالومي بنعرين - شرطة نابلس - وحدة سجون الجوليم..

شهق العم في استغراب شديد وخوف هائل..

وانتفض الشاب في كراهية بلا حدود وهو يقول:

- إسرائيلية؟

ردد العم في ذهول:

- ماذا أتى بهذه المصيبة إلى مزرعتي بالذات؟

هتف الشاب في كراهية وحقد رهيبين:

- ألم تتذكرا عم من الذي قتل والدي؟ إنهم عشيرة هذه الملعونة!

ارتجف العم وهو يقول في توتر وخوف شديد:

- أخرجها، أخرجها، من مزرعتي على الأقل.

هتف الشاب في ثورة وهو يحاصرها بنظراته الحادة:

- إنه ثأر يا عم!

ورمى ببصره إليها وهو يقول: ولسوف آخذ به..!

فتحت الصبية عينيها بتناقل وهي تردد في ذهول:

- أمي، أمي .

نظر العم إلى الشاب وهو يرتعد قائلاً:

- إنها تتكلم العربية يا منصور .

تمتم الشاب في عداوة مرتابة: ماذا يعني هذا؟

واقترب منها وهو يركز النظر على وجهها في كراهية وهو يقول:

- ليست ملامح غريبة، شعر فاحم ناعم ووجه أبيض بعينين مدورتين

وأنف وفم صغيرين، هذه ملامح اليهود!

ومد يده إلى كتفها ليهزها بعنف وهي تردد:

- أمي .. أمي .. لا ... لا تلمسها ..!

هتف منصور في حقد جارف:

- استيقظي يا ملعونة، أمك ليست هنا ..

أخيراً فتحت الفتاة عينيها على آخرهما بصعوبة ..

أخذت تجيلهما بين منصور وعمه وملامحها ترتجف في خوف قبل

أن تهمس بصوت مخنوق:

- من أنتما؟

ضحك الشاب ضحكة هازئة وهو يقول:

- نحن من يفترض أن يسأل عن ذلك يا سالومي!

عقدت الفتاة حاجبها وهي تقول في دهشة مرتعبة بعينين خائفتين:

- سالومي!؟ اسمي هو رامة، وليس سالومي!

قال الشاب في كراهية مرتابة وهو يشير إلى البطاقة:

- هذه، أليست بطاقة تعريفك!؟

نهضت الفتاة بصعوبة وهي تنتزع البطاقة من صدرها قائلة في

خوف هائل:

- البطاقة!؟

وحدقت فيها مرتجفة في ذعر طفولي وهي لا تدري ما الأمر،

وعادت تحديق في عيني الشاب المتقنتين وهي لا تدري ما تفوه به..

انتزع البطاقة من يدها وهو يستبين عربيتها القحة، وردد النظر فيها

ثم في البطاقة قبل أن يزمجر:

- هل تخدعيني أيتها الأفاقة!؟

تحاملت على نفسها وضغطت على صدرها في ألم شديد والخوف

يقطر من عينيها دموعاً غزيرة وقلبها يخفق بقوة وخوف شديد، ورددت

ببراءة مذعورة:

- تسبني!؟ أنا لا أخدعك.. صدقني..

صمت الشاب وهو يحاصرها بنظراته الحادة في ارتياب، فتتهدت

بقوة وهي تقول في رعب طفولي مرتجفة:

- أخبراني.. ماذا يحصل هنا بالضبط!؟

نظر الشاب إلى عمه ثم التفت إليها قائلاً:
- تبدو عربية فعلاً، لهجتها لهجة أهل فلسطين..
انفضت بعنف وهي تنتحب في خوف بريء مرردة:
- فلسطينية .. نعم .. نعم .. من نابلس!..
ارتعش قلب الشاب وهو يردد في ارتياب:
- لم تلبسين هذه الملابس لو أنك فلسطينية!..
صمتت في حيرة الطفلة المغلوبة على أمرها قبل أن يزمجر:
- تكلمي أيتها الكلبة!..
وأطلق الخوف لسانها جيداً هذه المرة..
واستمعاً إليها وهي تروي، وتروي..
وتروي...

قال الشاب في حزم وحدة وهو يحاصرها بنظراته:
- طيب، وماذا ستفعلن الآن؟!
أجابته رامة بصوت مرتجف مخنوق وهي تشخص عينيها المذعورتين
الدامعتين في وجهه المتجهم:
- أنا لن أموت من الجوع، وسأجد حتماً من يساعدني، سيساعدني
الله أولاً كما أنقذني من السجن الرهيب بأعجوبة.

قهقهه العجوز في سخرية وهو يقول بصوته الأجش:

- من قال لك ذلك؟ وهل يموت الناس إلا من الجوع؟

نظرت إليه رامة في انكسار شديد ومسكنة، قبل أن تتفجر عيناها
بشلال من الدموع قائلة بصوت خافت:

- الله رزاق كريم!

ركز الشاب بصره في تقاطيع وجهها المكدودة الكسيرة، وأحس أن
طوفاناً عجيباً من مشاعر الرحمة يتدفق لديه تجاه هذه المخلوقة، كأول
مرة يحس فيها بالرحمة تجاه أي أحد، غير أن الشك لم يلبث أن استعر
مرة أخرى في داخله ونهش قلبه القاسي وهو يقول:

- هل أنت مسيحية؟

ردت رامة في خوف وهي تجاهد دموعها المتدفقة خوفاً رغماً عنها:

- أنا مسلمة.. هل أنتما كذلك..؟

هز الشاب رأسه في ضيق وهو يصمت في احتقار، بينما كررت:

- أنتما مسلمان..؟

تجاهلها وهو يردد في تبرم شديد:

- وعمرك أربع عشرة سنة فقط، إنها لمشكلة عويصة، كيف ستعيشين هنا؟

هنا حارة النصارى!

هزت رامة رأسها في مذلة، وهي تنهض متثاقلة في إعياء، بينما كان

الشاب يقول في صرامة:

- لا حاجة لك في المكث هنا، اخرجني من هنا فوراً واعتني بنفسك جيداً.

بادر العجوز بالقول في خبث:

- ولماذا تخرجها؟!

إني أريدها، ربما كانت قادرة على العمل في المزرعة بدلاً من أن تتشرد هنا وتموت جوعاً.

نظر إليه الشاب نظرات حادة مستغربة، فقال العجوز في إصرار:

- لا تناقشني يا منصور، إنه قراري..

صمت الشاب قليلاً وهو يحدد الفتاة بنظرات مرتابة، قبل أن يتهد قائلاً:

- حسناً، تذكر أنها صغيرة، واعتن بها جيداً.

وصمت قليلاً قبل أن يتابع:

- واحذر..!

خلال عشرة أيام في بنت جبيل، أتيح لي أن أحيا من جديد، وأن تشفى جراحات وجهي، وأن ترجع ملامحي إلى شكلها الآدمي مرة أخرى. أحسست في هذه المزرعة بحرية كبيرة رغم أنني لم أكن فيها أكثر من خادمة، أستيقظ في الصباح الباكر قبل سيدي (كما أمرني أن أدعوه) لأغسل وجهي من ماء الساقية البارد، وأجري بحرية كبيرة بين الأغنام

والبقر، أحلبها، وأجلس معها أو فوقها، وأنا أطعمها أو أسقيها، كانت أروع أيام عرفتھا منذ ميلادي التمس.

كان سيدي ينتهرني كثيراً ويذلني، يضربني أحياناً بعصاه الغليظة لأتفه سبب، كنت أعلم أنه عجوز طيب وعصبي المزاج؛ ولذلك كنت أتقبل تصرفاته الغبية بسذاجة وقلب ممعن في البراءة، يكفي للحقيقة أنه آواني وأفرد لي فراشاً من الصوف غير المغزول في عليّة البيت، بعد أن ينتهي جهدي المضني اللذيذ بعد الغروب، أعود إلى غرفتي الفخمة في نظري وأكل بقية عشاء سيدي وزوجته العجوز الخرفة، وأناام بعد أن أصلي العشاء، لا شيء يطاردني، سوى ثغاء الأغنام اللذيذ!

تجاوز منصور بقسماته الجامدة سور المزرعة متجهاً إلى البيت الصغير على طرفها، قبل أن يهتف بصوته الجهير:

- عمي، أين أنت؟!

رد عليه صوت العم وهو منهمك بعمله:

- قادم.. أنا قادم..

استند الشاب إلى سور المزرعة وهو يتابع أغنامها بعينيه شاردًا، قبل أن يأتي عمه منتفخ الأوداج قائلاً في ضيق:

- ما الذي أتى بك؟!

صمت الشاب قليلاً قبل أن يقول بلهجة استعطاف:

- عمي، أنت لن تصيخ لطلبي بمناصفتك الغلة، ورغم أن هذا ظلم في مجمله، إلا أنه لا أمل في إقناعك..

فتح العجوز فاه ليتكلم لولا أن قاطعه منصور بقوله:

- لكن يا عمي أرجوك، هلاً استمعت لي، أنا لست بحاجة لغير ثمن التذكرة إلى أميركا، ومن هناك سوق أعمل وأحصل الجنسية الأمريكية؛ ولذلك فقط أريد نقود التذكرة إما عطاء أو سلفة.

تململ العجوز قائلاً في ضيق:

- السلف تلف!

هتف منصور في اعتراض:

- يا عمي، أنت تشفط أموالني منذ ست سنين وترفض حتى إعطائي ثمن تذكرتي؟

هل تريدني أن أتسول من الناس وأنت تشفط أموالني منذ سنين؟

قال العجوز في خوف وحذر:

- اهدأ يا بني، اهدأ ولن يكون إلا الخير.

كنت أستمع إليهما من خلف باب الزريبة في حذر وخوف، التمعت الفكرة في ذهني..

مادمت معرضة للخطر حتى الآن، ما الذي جعلني لا أفكر في طريقة

للنجاة...؟

ما الذي جعلنى أنسى الأمل الذي طالما تشبث به قلبي وقلب أُمي
كلما دهمنا خطب؟
إن لي.. لي ..
خالاً أمريكياً بعد كل ما حصل..
نعم .. أمريكيا..
خالي معن يحمل الجنسية الأمريكية منذ أكثر من عشرة أعوام..
كان مناضلاً بأسلاً، تورط في قضية تهريب أسلحة ليحكم عليه
غيابياً بالموت حرقاً مثل أبي..
ونفذ الحكم في والدي، على محرقة الحي..
ونجا خالي لأنه كان في الأردن.. ومن هناك هرب بجلده.. هرب..
بلا وعي.. بلا عقل.. بلا مال أو ولد.. بلا شيء.. بجلده فقط..
وكان توفيقاً من الله أن حصل على حق اللجوء، وعلى الجنسية
بسرعة غريبة..
خالي (معن) ورسالته الأخيرة البائسة التي لم تصل إلا قبل مأساتي
وأُمي بيوم؟
إنه خالي المحبوب الذي لم أره قط في غير الصور..
ولم يرني بعدما كبرت قط في غير الصور..
ولم يعرفني من قبل إلا خلال رسائلتي الركيكة التي تصله تهريباً..
حقاً إنها لفكرة جيدة..

لم لا أرسله على عنوانه الذي أحفظه عن ظهر قلب ليأتي ويأخذني معه؟
اضطربت يداي وأنا أحمل وعاء الحليب الكبير لأفرغه في قدر
الغلي، ورجعت أدراجي إلى الزربية حيث كان منصور يقف بقامته الفارعة
وحده متأملاً إياي قبل أن يقول بضحكة هازئة: شكلك مضحك!
ابتسمت في براءة وأنا أقول له: تعال قليلاً.
جاء مسرعاً ليداعب شعري في حنان وهو يقول: شعر أسود محلو،
وطفلة في الرابعة عشرة، وملابس عجوز في الستين!
رددت عليه ضاحكة في سداجة:
- أعطتني إياها سيدتي، وسيدي أخذ ملابس السجانة وأخفاها.
هتف منصور في تهكم شديد:
- يا ااه، وحرامي ملابس أيضاً؟
فهمت ما يقول: فقلت له في ابتسامة خائفة:
- لا تقل ذلك يا منصور، ربما سمعك فطرمني من المزرعة.
نظر إلي في استغراب قائلاً:
- يسمعي؟ هل ترين أحداً؟ ثم حتى لو سمعني، ما شأنك أنت ليعاقبك؟
أنا المخطئ وليست أنت!
أفحمني كلامه..
لويت شفتي لأتكلم..

لم أجد ما أقول، فصمت وأنا أطرق في خجل واضح.

كان ينظر إلى وجهي في شفقة كبيرة، كثرة تردده على المزرعة ولقائه لي جعل الشك في قلبه يختفي تماماً، ويحل محله رحمة ورأفة لا تخلوان من التهكم والاستخفاف بسذاجتي وجهلي المفرطين، كنت أحس بذلك وأسعى لأن أظهر أمامه بمظهر الخبيرة المتعلمة، كان يدرك ذلك فيكتفي بالصمت مبتسماً في تهكم، أو يردد هازئاً:

- مسكينة، كم أحبك!

أو يزجرني في صرامة:

- أنت ما زلت صغيرة، اجري إلى الزريبة فوراً.

بادرته بالقول في شجاعة مترددة:

- لماذا كنتما تصرخان؟

تنهد وهو يلقي بنفسه على كومة التبن قائلاً:

- مشاكل ماليه يا صغيرتي، لن تفهميها وأنت في هذا السن!

قلت له في انكسار وخوف: كم عمرك؟

نظر إلي بطرف عينه مبتسماً في سخرية وهو يقول:

- هل يضايقك أن أعتبرك صغيرة؟ انظري يا صغيرتي.. احسبي..

عندما ولدت كنتُ في الثامنة عشر من عمري..

أصلح لأن أكون والدك؛ ألا ترين أنني يحق لي أن أعتبرك صغيرة يا رامة؟

ازدردت ريقى وأنا أتابعه يمضغ عود علف شاردأً بفكره، قبل أن أقول
بشجاعة بصوت خافت وأنا أجلس أمامه على الأرض:

- أنا أفهم، هو الظلم يا منصور، أليس كذلك؟

نظر إلي في صمت وأن أتابع:

- هو الظلم، أعرفه وأعرف طعمه البشع، ذقته في شاؤول مراراً.

ارتسمت ابتسامة إعجاب ساخرة صغيرة على شفثيه الصارمتين وهو
ينظر إلى وجهي وأنا أتابع:

- عمك ظلمك لأن لا شهود لديك، ولا ضمير لديه، ألم يفكر أن الله

تعالى يراه..؟

نظر إلي هذه المرة في إعجاب واضح وأنا أتابع مطرقة بذات اللهجة:

- ما الذي يبيع لعمك أكل الغلة كاملة؟ إنه قلة خوفه من الله تعالى..

قهقهه في استخفاف وهو يقول:

- يبدو أنك كنت تتجسسين علينا أيتها الصغيرة..؟

لم أرد عليه، كانت الأحقاد تترى في قلبي، كنت أقارن بين عمه وبين
الكلاب المسعورة التي تعيث في وطني..

من أباح لليهود أن يدوسوا على وجوهنا صباح مساء؟ من أباح لهم أن

يذلونا؟ أن يقتلوا فينا.. يذبحوا.. يسلخوا.. كما.. كما يفعل بالحيوانات؟

قلوبنا البيضاء تورمت بالحقْد والثأر، ولا يكاد يمر يوم دون أن

يعتصر القهر والرغبة في الانتقام قلوبنا الطاهرة المتوضئة..

نُور؟ تلتهب الجمرات، وفي غمضة عين..

تتطفئ، ينتهي كل شيء، يصبح كل شيء رماداً في رماد ..
 نظر إلي في حنان مكتوم وهو يضع ذراعيه خلف رأسه ويرمق عيني
 البائستين وهما تشردان قبل أن أتابع في أسى طفولي:
 - لست أدري لماذا يظلم الإنسان ما دام أن في وسعه ألا يفعل!^{١٥}
 قهقهه في عجب هذه المرة وهو يقول:
 - لأنه الإنسان يا صغيرتي.. الإنسان لا يعيش دون ظلم..^{١٦}
 كنت أضغط صدري في ألم ومرارة..
 الظلم يملأ الأرض، مثلما تملأ النفايات البرميل..
 نجد أننا في الحقيقة نصحو وننام على شكل جديد للظلم، بحيث
 تتجمد قلوبنا ولا تعود تحس بالظلم ولا طعمه البشع.
 الشيطان يأمر ونحن نطيع، ونظلم، الكبير يضرب الصغير، والصغير
 يكبر ليظلم صغيراً آخر، والدول تحتل بعضها البعض لتحرق وتظلم..
 الشعوب الضعيفة تضع مصيرها بين يدي حفنة حاكمة تتفنن في مص دماء
 شعوبها التي على حسابها استقلت وصعدت على أكتافهم ولحومهم وعظامهم..
 الملايين المساكين، من الكادحين المطحونين..
 الذين يصفقون للظالمين وظهورهم تحتل سياط جلادهم لئلا تتحول
 إلى سكاكين حادة تخترق قلوبهم المحروقة بنار القهر والألم والمعاناة
 والجوع، والجري الذليل خلف لقمة العيش..
 جلس منصور هذه المرة وهو يتأمل، وينظر في عيني اللتين احتبست
 فيهما دمعتان كبيرتان وأنا أطرق قائلة في أسى:

- في أرضنا المعمورة بالظلم، ألا يموت الفقير من الجوع، ويموت
الغني من التخمّة؟

ألا يزداد الفقير فقراً والغني غنى؟

تمتم في عنجهية:

- لا أحد يرضى بذلك.. ولكنها الحياة.. هي الحياة أن يجوع شخص
ليشبع آخر!

هززت رأسي البريء في احتقار..

هي الحياة..؟ لكن هل يرضى الله تعالى عن ذلك..؟

ناس يفلحون الأرض كما نفعل في وطننا المحتل..

تتمزق أيديهم من فلاح الأرض وسياط جنود الرقابة، فوق هذا كله
يعيشون على حافة الحياة..

الملايين التي تكدح.. وتموت وهي تكدح.. لماذا.. لماذا..؟

هتف منصور في استخفاف غاضب هذه المرة:

- يا للسماء، كفي عن البكاء يا رامة.. يا حلوة يا رامة!

هززت كتفي في صمت وأنا أرجع إلى حالة الإفحام من جديد، وهو
يتابع في حنان:

- يبدو أن حياتك في ذلك الجحيم قد علمتك شيئاً في حياتك
الصغيرة، أن تبكي بلا انقطاع مثل قطرة جائعة!

قلت له في سذاجة:

- دعك من هذا، أخبرني كيف أرسل رسالة إلى أمريكا؟!

اتسعت عيناه دهشة ساخرة وهو يقول بلهجته المتهكمة البغيضة:

- كيف تعرفين أمريكا؟!

أطلقت ضحكة معترضة وأنا أقول له في ابتسامة غاضبة:

- منصور! لم لا تختار ألفاظاً حلوة؟!

واستغرقت معه في ضحكة ساخرة، قبل أن أقول في صوت خافت:

- خالي هناك، ولا بد أن يأتي هنا ليأخذني..!

هتف منصور في استغراب:

- خالك..؟ هل تتكلمين جادة يا بنت..؟!

ضحكت في براءة وأنا أقول له:

- اسمه معن.. خالي معن.. وهو يحبني وسيأتي ليأخذني، لأنني هنا

أقيم بصورة غير شرعية.. أخشى أن يطاردني الشاؤول، لا أريد أن أعيش

طريدة بقية حياتي، أريد أن أعيش في أمان وهدوء..

انتبهت على صوت العجوز وهو يقول:

- لم أكن لأضع نفسي في موضع ورطة بسببك أيتها الصغيرة المتعبة!

التفت إليه في دهشة خائفة، ومنصور يتمتم في بغضاء:

- ماذا فعلت بهذا الشأن؟!

جاء وجلس بجواري على كومة التبن وربت على ظهري قائلاً:

- عندي شهادة ميلاد لبنت لي ولدت قبل عشر سنوات، ماتت بالسل ودفنتها دون علم السلطات وقد كانت في الثالثة من عمرها، وأنت أتيت إنقاذاً من الله لي من ورطة الغرامة والسجن، وستذهبين معي غداً أو بعد غد لتصويرك، لتدخلي المدرسة.

هزرت كتفي في سذاجة قبل أن أهمهم في خوف شديد:

- ولكن يا سيدي.. أنا مسلمة وأنت ماروني..!

رد منصور:

- وما الخطب..!

هزرت كتفي في غباء وإفحام قبل أن أقول:

- ماذا لو كشفوا كل هذا التزوير؟!

هز العجوز كفيه في إصرار قائلاً:

- لا أحد سيفكر في كونك مسلمة أو غير ذلك، هذا لا يعني لي شيئاً، ولا للسلطان أما عن معاملة إدخالك المدرسة فأني أعرف واحدة تشتغل في مصلحة الأحوال الشخصية، وسوف تتغاضى عن ذلك مقابل بعض الخدمات..

اجتاحت موجة من الاستنكار قلبي، هذا كنا نسميه في بلادنا.. رشوة.. برطيل! لكنني أضمرت في قلبي نية للهروب إلى أميركا مع خالي.. نعم كذلك..

- أشكرك يا سيدي، أنت طيب القلب جداً، وتحبني كثيراً.

لم أَلح ابتسامته القبيحة الساخره جيداً، وانشغلت بما هو في خاطري..

ركضت خلف منصور الذي اتجه لباب المزرعة، فصوت له قائلة:

- منصور، أريد إجابة لسؤالي!

التفت إلي قائلاً في صرامة:

- هل تخدعين نفسك أيتها الصغيرة البائسة؟!

من سوف يضحى ويأتي من أميركا مرة واحدة ليأخذك وكأنك كنت

في منتجع أو بلاج؟!

قلت له في براءة الأطفال:

- خالي سيفعل ذلك..

أطلق ضحكة هازئة وهو يقول في تهكم:

- هذا لو أنك في بيروت وخالك في صيدا، ليس وأنت في بنت جبيل

وهو في أمريكا أيتها الخرقاء الصغيرة..!

وتابع وهو يركز النظر في عيني الخائفتين في تهكم مرير:

- يا حبيبتي، خالك لم يهاجر إلى هناك ليعود، ثم إنهم ينسون أن لهم

عوائل وأهلاً بمجرد وصولهم هناك..

وإذا أردت نصيحتي حقاً...

وربت على خدي برفق وهو يتابع في صرامة:

- عليك أن تتسي الأمر تماماً وتشغلي بجلب عنزاتك دائماً!
قال هذا بمنتهي القسوة، وأنا أهز رأسي بالموافقة الذليلة في يأس
وأكفكف دموعي التي انهمرت رغماً عن مقاومتي..
لقد أحرق قلبي بقسوته الشديدة بلا رحمة..
لعله لاحظ ذلك فقال في ملاطفة صارمة:
- غداً عندما آتي سأحضر لك فستاناً حلواً بدل هذ المزري، فستان جميل
يليق بالفتيات في عمرك، ويصلح لأن ترتديه في المدرسة عندما تدرسين..
هيا كفي عن البكاء فلقد مللت من رؤية دموعك تسيل لأتفه سبب
مثل الأطفال الصغار!
هززت رأسي في استسلام مرير وأنا أجر قدمي عائدة إلى المزرعة
في خيبة قاتلة..
نظرت إلى قرص الشمس الأصفر في كبد السماء..
هل حقاً ليس من أمل..!
الشمس الساطعة التي أحرقت عيني، هل تسخر مني هي الأخرى..!
غاب أمني في دوامة اليأس التي قذفتني فيها كلماته الحجرية..
التفت إليه لأراه يمضغ عود العلف وهو يتأمل وجهي بنظرة شفقة
عظيمة.. عظيمة!

من الغد ذهبت مع سيدي لتصويري، عرجنا قبل ذلك على محل ملابس؛ ثرثر كثيراً معي، أخبرني أنه سيحضر عاملاً ليعمل في المزرعة بدلاً مني، أدهشني كثيراً أن اختفت لهجة التبرم مني من كلامه، وحل محلها كلمات حانية رقيقة واضحة الاصطناع.

سحبني من يدي إلى محل ملابس استقبلنا صاحبه بشيء من الازدراء وهو ينظر إلى ملابس العجوز التي أرتديها، مقارنة بوجهي الطفولي، سأله سيدي بصوت عال مفتعل البهجة:

- أريد أجمل فستان لهذه الحورية الجميلة.

كنت مشغولة بالتفكير في أمر البائع ونظرات الازدراء التي غمرني بها؛ نظرات الازدراء التي لم أستمرئها رغم أنني لم أعرف غيرها منذ وعيت وجودي في هذه الدنيا؛ بل ما زلت أوجسها لساعات سوط رهيب؛ سوط كبير قبيح المنظر، موجود في هذا الكون، معارضاً لرسالات الحق؛ وميزان الرحمن الذي أنزله بالقسط..

سوط يدعي مرة الكبر، ومرة الظلم، ومرة..

لا أعلم في الحقيقة!

أعلم أن الله تعالى ليس راضياً.. وليس غافلاً عما يعملون..!

انتبهت لصوت سيدي وهو يهتف: هذا!

والتفت لأراه يتفحص ثوباً أحمر بكمين قصيرين؛ هرع البائع ليضعه

على صدري قبل أن يقول:

- إنه مناسب.

قلت في صوت خافت مرتجف خائف:

- ولكنه قصير جداً! يبدو أنه لفتاة في التاسعة.

قهقهه البائع قائلاً في مجاملة:

- أوه يا صغيرتي، بل هو لفتيات الرابعة عشرة، ولكن تصميمه (ميني

جيب).

لم أفهم الكلمة الأخيرة فلذت بالصمت وأنا أشاهد سيدي يدفع النقود ويطلب من البائع إحضار أزياء أخرى مع بعض سراويل الجينز، ولدهشتي فقد اشتراها كلها؛ كلها رغم بخله الشديد..

قلت في نفسي:

- مسكين هو! كم هو طيب القلب وحنون!

طلب مني البائع هذه المرة أن أتجه لغرفة تغيير ملابس، وأرتدي سراويل جينز أزرق، وقميصاً قصير الكمين؛ عندما خرجت أطلق البائع صفارة إعجاب طويلة حققت وجهي بالدماء، ممزوجة بضحكة سخرية وازدراء فجرت شعور التمرد المكتوم في داخلي.

قام سيدي يتفحصني ويدور حولي قبل أن يقول:

- هيا بنا.

قلت له ببراءة: وملابس سيدتي؟!

أشار بفمه إشارة عدم مبالاة وإهمال، فتبعته بخطوات خائفة مرتبكة، وأنا ألتفت إلى البائع خلفي وهو يلتهمني بنظراته الذئبية الشرهة.

أخذني هذه المرة لتصويري، وعرفني بتلك المرأة الكهلة المخيفة، التي تشتغل في مصلحة الأحوال الشخصية، والتي قاستني بنظراتها المخيفة الحادة من شعري وإلى أخمص قدمي.

كل هذا قبل أن تتناول رزمة الأوراق النقدية من يد سيدي، وتتمتع له بطلاسم لم أفهمها، فيرد عليها بمثلها؛ قبل أن تقول وقد كشفت عن أسنانها القذرة:

- تم يا أبو الخير!

أمراني أن أخرج وأجلس في الاستراحة، حيث لم يكن هناك كراسي، وقفت في براءة شديدة داخل الاستراحة، وعقدت ساعدي على خصري النحيل وأنا ألهث والدماء تفور في وجهي، والعرق يتصبب من جبيني حراً وتعباً وخجلاً للنظرات التي غمرني بها الجالسون والجالسات هناك.

لم أعود أن ينظر إلي أحد ولا أن أنظر لأحد، حيث تعودنا - هناك في فلسطين - أن نمشي وعيوننا في الأرض خوفاً ورعباً.

لحظتها داهمتني عطسة حاولت كتمها، غير أنها غلبتني وخرجت كما لو لم أعطس من قبل!

كاد وجهي أن يلتصق بصدري خجلاً مريعاً وأنا أحاول مداراة آثار عطستي، حتى تبرع كهل بمنديل دسه بين ذراعي الملفوفتين وهو يقول: أنت حلوة ومؤدبة.

ابتسمت في وجهه ابتسامة مضطربة لمحا سيدي وهو يخرج من غرفة تلك القبيحة، فهرع إلي والتقط كفي الصغيرة وهو يقول في غضب:

- لا تحدثي الغرباء أبداً يا ابنتي!

وخرجنا وأنا أسمع صوت امرأة مترفة تقول:

- يا لها من فتاة مسكينة، تبدو انطوائية بسبب هذا الأب القاسي.

ضحكت في أعماقي وأنا أتشبث بيد سيدي وذراعه بقوة وأقول في

خاطري:

أحبه، أيتها المترفة التي لا تعلم شيئاً.. ولو كان قاسياً كما تقولين.

قلت هذا وأنا أتأمل وجهه المغضن في براءة..

ولم أعلم قط ما يختبئ لي..

ببراءتي..

بطفولتي التعسة..

في ثنايا الأيام المقبلة...

معه..!

(٥) قدس..

عندما دخلت سيارة العجوز المزرعة كان في انتظاره منصور، متكئاً
كعادته علي سياج البقر.

وعندما رأى عمه ينزل بصحبة رامة أطلق قهقهة طويلة معجبة وهو
يهتف: رائع، رائع!

ابتسمت رامة وهي لا تفهم ما يرمي إليه، ورجت أن يكون قد غيّر
رأيه بعد توبيخه الممض لها البارحة.

انتبهت لصوت العجوز وهو يقول:

- هل أعجبك شكل (قدس) بعد التغيير؟

التفت إليه منصور ورامة وهما يقولان بصوت واحد:

- من (قدس)؟

التفت العجوز إلى رامة قائلاً في ملاطفة حانية:

- أنت طبعاً يا عزيزتي، هل نسيت أنك ابنتي منذ اليوم، وأني سجلتك

باسم ابنتي الراحلة في المدرسة؟

ابتسمت رامة في مجاملة خائفة وهي تقول:

- اسم جميل.

قال منصور هازئاً:

- أفضل من رامة، لعل تصرفاتها تتغير!

واستطرد بلهجة وقورة:

- وأكثر لياقة لفتاة طاهرة قديسة مثلك..

اتسعت ابتسامة رامة وهي تقول: أشكرك..

هتف العم في حزم:

- هيا يا ابنتي، خذي الأكياس إلى غرفتك، وأحضري قدحين من

القهوة، هيا بسرعة كوني نشيطة..

تمتم منصور بصوت خافت حقود: ماذا حصل يا عمي؟ غرفة

وملابس ومدرسة؟

هل تنوي تبنيها فعلاً؟

قال العم وهو يسترخي على الأرض:

- هذا ما فعلته حقاً، إنها ابنتي قانوناً وترثني.

قال منصور في دهشة شديدة:

- كيف ذاك؟ هل كانت الرشوة التي دفعتها كبيرة إلى هذا الحد؟

تجاهل العجوز كلامه وهو يقول:

- بنت صغيرة وضعيفة، لا حول لها ولا قوة، أين ستذهب في زحمة الحياة؟

كتم منصور رغبة شديدة في الضحك وهو يقول لنفسه:

- منذ متى وعمي بطرس يتكلم عن المساكين؟

تابع العجوز:

- وأنا عجوز درويش مسكين، أحتاج من يرعاني في نهاية عمري أنا وعجوزي الخرفة..

قال منصور وهو يضم ركبتيه إلى صدره:

- طيب، هل أخذت رأي أولادك ناصف وميخائيل؟

لوح العجوز بكفه في تأفف وهو يقول:

- منذ متى كنت أستشير هذين العاقين اللذين تركاني للفقر والوحدة وهاجرا لكندا؟

قدس هي بنتي ووريثتي الوحيدة بعد اليوم.

هز منصور كتفيه قائلاً في لا مبالاة:

- هذا لا يعنيني بشيء، المهم يا عم..

قاطعه العم بقوله:

- اسمعني أنت، فقد قررت إعطائك ثمن التذكرة، نصف سلفة،

والباقى عطاء..

لأجل تراب والدك الشهيد، وليس بسبب لسانك السليط..

هتف الشاب في حبور شديد:

أحقاً؟

تابع العجوز في صرامة:

- عليك أن تأتي غداً لأرتاح منك..

قبل الشاب يد عمه قائلاً في سرور:

- أقسم أن تعود لك النقود عندما أعمل وأحصل الجنسية..

كانت رامة تقف متكئة على سياج المزرعة قبل أن تقول في هدوء

حزين:

- ستركنا يا منصور؟ سأفتقدك، صدقني!

قهقه منصور قائلاً في سخرية:

- هل أحببتني يا بنت.. ألا تخجلين.. ؟

ردت رامة في براءة:

- بالتأكيد.. أرجوك لا تذهب وتتركنا بهذه السرعة!

قهقه الرجلان في سخرية ومنصور يردد:

- وهل تعرف واحدة في عمرك الحب؟ ولرجل يصلح أن يكون أباه؟!

ثم إني لن أطيّر اليوم ولا غداً، يلزمني أسبوع على الأقل لتجهيز

رحلتي..

زوت حاجبها في حيرة الأطفال وهي تتساءل عما يقصد..

ابتسم العجوز قائلاً في وقاحة:

- ستجدين العديد من الأصدقاء، أكثر وسامة وأكثر مالاً منه.

ردد منصور هازئاً:

- وأكثر مناسبة لبنت درويشة مثلك، صديقتي تنتظرني هناك، في أمريكا، جميلة وجريئة وذكية، وتجيد الحب كثيراً.. يا ... !

وفرقع صوته بضحكة بالغة السخرية وعلائم الارتياح على وجهها..

فتحت فاهها البريء لترد على هذه الهجمة والعجوز يتابع:

- في لبنان كل الأولاد أصدقاءك، كل الناس أصدقاءك، ستعيشين الحب حتى تملي منه!

زعلت في اعتراض مباغت طفولي: -

- كفى..!

وتكومت علائم الخوف على وجهها وهي تقول:

- لم أقصد سوى أنه رجل طيب..

ازدرد منصور لعبابه وهو يردد النظر إليها في استغراب..

وتذكر للتو فقط أنها صغيرة..

وتمنى أنه ما قال كلامه للتو وجرحها هكذا..

تمتمت في غضب وخوف:

- أنتما لا تفهماني أبداً!!

واستدارت مولية صوب بيت المزرعة قبل أن تتوقف والعجوز يناديها، فاستدارت في خوف وهي تعود إليه وقد وقف منصور وهو ينفذ بنطاله مبتسماً في وجهها في ملاطفة، وغادر المكان فوراً.

قال العجوز وهو يجلس رامة بجواره في عتاب:

- لماذا أخرجتني يا بنتي أمامه؟

هل من خطب عندما قلت أنك ستجدين العديد من الأصدقاء؟

ازدريت ريقها وهي تقول في هدوء وبراءة:

- عندما قتلها أحسست أنك تتهمني بحبه!

ولدهشتها فقد قال في ثبات:

- وماذا يحصل إذا كنت تحبينه؟ ألم تقولي ذلك...؟

فتحت فاهها لترد وهو يتابع:

- كل البنات يحبن ويعشقن ويتبادلن الرسائل مع محبوبهن!

كانت تراقبه بعينيها المتسعيتين في دهشة وهو يقول في خبث:

- أخبريني، ألم تعرفي في وطنك ومدرستك السابقة أصدقاء أولاداً؟

ردت في هدوء بريء وهي تهز كتفها في دهشة:

- كانوا جيراننا، أو أصدقاء مدرستنا؛ كنا نعمل معاً في جمع

القمامة؛ أو نلعب معاً، ونساعد آبائنا وأمهاتنا؛ ولكننا لم نكن نعشق

بعضنا؛ هذا عيب كبير!

وغمر الدم وجهها وهي تطلق ضحكة مكتومة قائلة في دهشة بريئة:

- ثم إننا ما زلنا صغاراً جداً على الزواج!

قال العم في خبث:

- ومن أتى بسيرة الزواج؟ أنا أسألك، ألم تخرجي مع أحد أصدقائك مرة إلى حفلة راقصة أو تنكرية؟ ألم تسهرا مرة إلى الليل؟
- هزت رامة كتفيها وهي تقول في براءة بالغة:
- ما معنى حفلة تنكرية.. ماذا قلت سيدي..
- هتف العجوز بغتة:
- قولي أبي، لا أريد الوقوع في مشاكل!
- ازدرت ريقها في خوف وقد تلاحت أنفاسها المذعورة قائلة:
- أعني يا أبي.
- استدرك العجوز بالقول في ملاطفة:
- حبيبتي، أنا اشتقت لكلمة أبي، لم أسمعها منذ زمن!
- هزت رأسها في مجاملة وهو يتابع:
- غداً تبدئين يومك الدراسي الأول، سوف ينقلونك للصف الرابع الابتدائي بعد يومين.
- هتفت في سخرية ضاحكة: هل سأدرس مع أطفال؟
- قال العجوز غير مبال:
- إنها مدرسة داخلية وغير معروفة، هذا يعني أن أمر دراستك فيها لن يطول..

لم تدر تلك اللحظة، لماذا انقبض قلبها بعنف عندما شاهدت أسنانه
القدرة تبدو من خلال ابتسامته الذئبية القبيحة!

وقفت أمام الفصل يا عزيزي القارئ، وتشنجت على شفتي ابتسامة
خجلى ساخرة وأنا أتجه إلى المقاعد الخلفية وأمامي قطط صغيرة
وأرانب تلتفت كل ثانية لترمقني وتتبادل التعليقات الساخرة والمستغربة
معاً، ثم تعود وجوهاً للأمام عندما تصرخ المعلمة في قسوة .

زعقت المعلمة الطويلة في صلف: أنت، قفي!

وقفت في صمت وعينا المدرسة تلتهمني بنظراتها وتركز على شعري
الحليق قبل أن تقول في صلف:

- أنت قدس بطرس رجوب؟!

هزرت رأسي وأنا أردد: نعم، هي أنا..

ردت بسرعة وهي تستدير نحو السبورة في تقزز:

- اذهبي للمديرة..

اختطففت حقيبتني بسرعة وأنا أرسل ابتسامة إلى الأطفال الصغار
الذين غمروني بنظراتهم البريئة، وأرسلت إليهم قبلة على أطراف
أصابعي مستغلة انشغال المدرسة، وأغلقت باب الفصل، وهرعت إلى
مكتب المديرة..

أثناء مشيي ظلمت أعقد مقارنة بين مدرستي هذه ومدرستي في نابلس المنكوبة.. كنت أسمع لأول مرة الحروف العربية، بدلاً من الحروف العبرية المنتنة:

(ألف، بيت... فاف دالت.. أوه) والتي عرفنا القراءة على أساسها، وتعلمنا ثقافتهم الملوثة بها، بل وصرنا نرطن بها في مدرستنا تحت طائلة العقوبة الرهيبة ... الفصل!

انتفضت لتلك الذكرى الأليمة وأنا أقف أمام باب المديرية وأطرق الباب في أدب، فاستقبلتني بابتسامة غاصت في أكوام الشمع في وجنتيها وعنقها وهي تقول:

- قدس يا حبيبتني، اجلسي هنا..

كنت أعيش في عالم من الخيال، فمنذ متى وأنا أعامل هكذا؟

قالت لي في ملاطفة وحنان:

- كم أنت حلوة، ورغم أنك صغيرة الملامح، وجسمك نحيل جداً..

إلا أن جسمك مناسب لسنك تماماً، من يراك يعرف أنك امرأة في

الرابعة عشر من عمرها، عروسة!

أطرقت في خجل وأن أبتسم في مجاملة طفولية، وهي تتابع بصوتها

المخنوق وهي تمسح عرقها المتصبب من وجهها المكتظ:

- من اليوم يا بنتي ستبدئين عملك، ألم يخبرك والدك بذلك؟

قلت لها بصوت خافت مرعب: بلى، لقد قال لي.

لحظتها لاحظت علامات الاستياء الشديدة على موظفة كانت منهمكة في ترتيب بعض الملفات، وهي ترمقني بنظرات مخيفة، قبل أن تخرج بخطوات مضطربة من الغرفة.

نبهني صوت المديرية وهي تقول في غطرسة لاهثة:

- اسمي المدام فيفيان، وأحب أن تتأديني به.

قلت لها في براءة:

- مدام فيفيان، أريد أن أسألك، ألن تمنع الحكومة في دراستي الصورية عندكم مقابل بعض الأعمال لحسابكم؟!

ارتسمت علائم الشراسة على وجهها المكتظ وهي تتهرني قائلة:

- طبعاً! كل شيء هنا قانوني ١٠٠٪!

وجففت عرقها المتصبب وهي تتابع:

- هناك عشر فتيات من هذه المدرسة، أكبر منك وأصغر، ويقمن بنفس العمل لأنهن تعرضن لذات الظروف، من حق الفتاة في بلادنا أن تأخذ شهادة صورية من مدرسة خاصة إذا فاتها القطار التعليمي مثلك! وأنهت عبارتها بابتسامة شديدة السخرية لم تفتني وأنا أرمقها بطرف عيني وأنا أستاذ إلى ركبتي بمرفقي، فنهرتني قائلة:

- استقيمي! هكذا سيصاب ظهرك بالاعوجاج وتحذودبين وأنت في

سن صغيرة..

في اللحظة نفسها دخل المكتب رجل طويل ضخم الجثة وهو يقول:
مدام فيفيان..

ردت في سرعة: أهلا بك جداً يا «موفق»!
والتفتت إلي وهي تقول لاهثة:

- يا قدس، هذا حارس المدرسة وهو أميننا وحبيبنا رغم أنه ليس من حارة
النصارى، وسيكون صديقك بعد اليوم، اذهبي الآن معه إلى مكان العمل، ستجدين
رفيقاتك في ذلك المكان، قمن بعملكن على أحسن وجه..

اتجهت إليه حيث التقط كفي وأنا أبتسم في وجهه في مجاملة
مفتعلة فهتفت فيفيان..

- يبدو أنك ستقومين بعملك جيداً!

التفت إليها وأنا لا أفهم ما ترمي إليه..

كنت أمط شفتي بابتسامة عريضة بلهاء دون معنى..

نبهتني قرصة الحارس لي في خدي وهو يقول: هيا بنا يا حلوة!

حاولت متابعة خطواته السريعة والقوية إلى سيارته الـ «فيات» مظلمة
النوافذ، كل شيء حتى الآن مثير للريبة والدهشة وأنا لا أعلم بالضبط
ماذا يريدون مني، هل سأكون عاملة في مصنع نسيج؟ أو شغالة في
التطريز الفلسطيني؟

أو..

بترت أفكارى وأنا أسأل الحارس الذي اعتدل بجوارى وانطلق بالسيارة:

- أنت لست من حارة النصارى، هل أنت مسلم؟

رد علي بابتسامة شرهة:

- نعم، يمكنك أن تقولي ذلك، أنا من طرابلس، المسلمون هناك كثير..

استجمعت جرأتى لأسأله في براءة:

- ماذا سأفعل؟ هل تعلم شيئاً عن ذلك؟ أهو مصنع أم مشغل أم ماذا؟

التفت إلي قائلاً في دهشة عارمة: ألم يخبروك؟

هزرت كتفي في صمت، فردد النظر إلي في قلق وهو يردد:

- اللعنة، هذا سيثير المشاكل..!

قلت له في خوف:

- ما هو...؟

نظر إلي في حيرة قبل أن يقول غير مبال:

- هذا ليس من شأني، قوليه لضييفان.

دب الذعر في قلبي هذه المرة، ما الذي يمنهم جميعاً من إجابة

سؤالي البسيط؟

وتفجر السؤال بعنف في صدري: ماذا سيفعلون بي؟

خواطر رهيبية عصفت بي لحظتها، ماذا أفعل؟

هل أهرب وأشكوهم لأبي؟ أنا كنت غبية كعادتي..

قادوني برضاي كالخروف إلى المسلخ! ماذا لو كانوا شاؤوليين؟

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ضحى، ساقاي ترتجفان في دعر عظيم وقد فقدت القدرة على التفكير فضلاً عن التصرف.

عند ذاك توقفت السيارة عند مبنى فخم محاط بغابة كبيرة؛ أكثر ما لاحظته أن هذا القصر بعيد جداً عن العمران ولا يكاد أحد يمر بجواره؛ كنت قد أزمعت أن أطلق ساقلي للريح لو حصل أنهم شاؤوليون، عندها سيطلقون علي النار وسأموت بشكل مريع.. فكرة جيدة!

غاصت كفي الصغيرة في كفه الضخم وهو يقودني إلى داخل المبنى، لفت انتباهي أشباح تمر بسرعة بعيداً بين الأشجار الضخمة وأصوات ضحك أنثوية تلهو هناك؛ وغيره، فتاة هادئة الملامح، ذات شعر أشقر طويل منقوش جميل الشكل، ترتدي بنطالاً من الجينز مع قميص بلا أكمام وهي تدخن سيجاراً ضخماً، وتراقبنا من على كرسي خشبي ببرود شديد وهي تتابع تدخينها الفظيع، هتف الحارس لما رآها:

- (بن جور) جورجيت، ألم يأت كميل بعد؟

لوحت له بطرف كفها وهي لا تكاد تتحرك بروداً.

قادني إلى داخل المبنى، كان فخماً لا يكاد عقلي يصدق وجودي فيه، كل شيء كان أحمر فخماً، السجاد، الدرج، كنت فعلاً كالبقرة أمشي وراءه، وقد أحسست بشيء من الاطمئنان لرؤية غيري هنا.

بغثة علا صوت صراخ فتاة تبكي:

- يكفي، يكفي أرجوك!

نظرت إلى الحارس في زعر عظيم، فهم ما أشعر به فربت على خدي مراراً وهو يقول:

- لا تقلقي يا صغيرتي..

قال هذا وهو يدفعني داخل غرفة كبيرة بباب مزدوج، وقعت عيناى على السرير الكبير الأحمر، السجادة الحمراء، والجدران والستائر، هذا جميل ورائع، هتفت وأنا ألتفت إليه قائلة:

- ما كل هذا؟! أهو لي؟! إنه أروع من الخيال يا سيدي.. يااه..

فابتسم في سخرية صامته وهو يتمتم في عنجهية:

- سيروق لك دائماً يا قدس.. كل يوم سيروق لك..

قال وهو يقودني إلى غرفة ملابس ويفتح صواناً كبيراً بداخلها وهو ينظر إلي متفحصاً قبل أن يخرج ثوباً أحمر فاقع اللون، بلا أكمام أو أكتاف، قصير جداً ويضعه على صدري قبل أن يقول:

- إنه مناسب، هيا ارتديه.

ازدرت ريقى وأنا أتناول الثوب من يده، ومرت دقيقة من الصمت قبل أن أقول في صوت خافت بريء:

- أين تنورته؟!

زوى حاجبيه وهو يقول في صرامة:

- كفي عن العبث والبسيه!

ترددت كثيراً قبل أن أقول: مع البنطال؟!

هتف في احتقار وهو يخرج أدوات تجميل من صوان الغرفة:

- حمقاء! البسيه لوحده واخلي ما سواه.

بدأ قلبي يدق في عنف، وأنفاسي تعلو وتهبط بسرعة، ليتني أفهم ما يريدون..

اقترب الحارس مني وبدأ يسكب المساحيق على وجهي بمهارة وهو يرمق الباب قائلاً في ارتباك وخوف: -

- أيتها الشقية، ليس لدينا وقت نضيعة، هذا الماكياج يكفي، البسيه هذا الثوب بسرعة، فإنه لا يتأخر عن مواعده كثيراً..

انتفض جسدي بذعر هائل وأنا أراقب حركاته المضطربة..

من هذا الذي لا يتأخر عن مواعده..؟!

الشاول..؟!

ال..

هتف في قسوة وازدراء: بسرعة، فيم تحديقين؟!

قلت له في ذهول: لا ... لن ألبسه أبداً..

رفع يده ليصفعني، لولا أن سمعنا صوتاً ناعساً يقول من الخلف:

- دعها يا موفق، أريدها بلا كدمات!

(٦) أنطون ..

التفت، واتسعت عيناى دهشة وذعراً، كان رجلاً وسيماً أشقر الشعر، يرتدي بذلة سوداء وخلفه رجل ضخيم يدخن سيجاراً ..
لم أر في حياتي مثل هذه الأشكال الناعمة، المترفة .. المتأنقة ..
لا أعلم ..

هتف الحارس في ارتباك ومجاملة:

- أوه، أنت لا تتأخر عن موعدك يا سيد أنطون، المأساة أنها لم تستعد ..

استوقفه الرجل بإشارة من يده وهو يتمتم مركزاً في:

- لا يهم.!

وأشار بطرف عينه إلى حارسه الشخصي قائلاً:

- أنقذه الثمن بسرعة يا جوزف، مع إكرامية لائقة.

لم أفقه ما يقولون، ولذلك لذت بالصمت، وأنا أشتغل بمطالعة وجهه الوسيم وتفحص بذلته الشديدة الفخامة؛ انتبهت ليد الوسيم وهي تسحبني إلى أريكة كبيرة أمام السرير ..

لست أدري أي شعور بالجفول راودني لحظتها، رغم أنني أتجه خلفه كالمنومة.

كان الدم يهرب من وجهي وقد شحب شحوب الأموات، وأنا أتطلع في وجهه الوسيم وهو يضع ساقاً على أخرى ويهزها في هدوء، ويتأملني بنظرات باردة ناعسة ويبتسم ابتسامة غريبة منقوعة بالغطرسة والفوقية..

كان عقلي مشغولاً بما يمكن أن يفعله..

انتبهت لحظتها إلى أننا وحيدان في غرفة شبه مظلمة رغم أننا في وضع النهار، كانت الستائر الحمراء قد حجبت ضوء الشمس تماماً، وتكفلت ثريا كبيرة في وسط الغرفة بنثر ضوء خافت برز من خلاله وجهه الوسيم كبقعة من النور الأبيض..

تتحنن قليلاً قبل أن يقول في برود:

- ما اسمك يا.. صغيرة؟

قلت له بعد دقيقة كاملة من الصمت المذعور: قدس!

قال في غطرسة باردة منبهرة:

- أنت تأتين هنا لأول مرة، تبدين صغيرة جداً، ولكنك حورية جميلة!

اغتصبت ابتسامة مجاملة وأنا أسترق النظر لباب الغرفة الذي اتضح أنه مقفل من الخارج، فأطلق صفارة إعجاب طويلة وهو يقول ببرود وازدراء:

- ابتسامة كفيفة بالتحطيم، لا تغير أسلوبك يا أنطون، حتى لا تظهر

ضعيفاً..

صمت طويلاً وأنا أردد في خاطري:

- لا يبدو على ما يرام! هل يحدث نفسه..؟

قال في برود: أعشق الشطرنج، وألعبها بمهارة..

وابتسم في تودد مشوب بغطرسة مصطنعة وهو يقول:

- سنلعب معاً ثلاث جولات، ولكل واحد فرصة للفوز عندما يفوز بجولتين..

تسللت إلى أذني أنغام موسيقى رومانسية هادئة ومخيفة، وأنا أراقبه

في استغراب شديد، يبدو أنني أخطأت، وأن العمل، هو هذا..

لعب الشطرنج!

عند هذا الحد بدأ التماؤل يكسو قلبي وأنا أسمعهم يقول بغطرسة

قبيحة:

- دورك يا قدس.

هزرت كتفي، فأنا لم أعرف الشطرنج في حياتي؛ رأيت قد حرك

قطعة للأمام فقلت في نفسي: أقلد حركاته!

وحركت قطعة للأمام، ونظرت إلى وجهه الذي احتوى بابتسامة

غامضة، فابتسمت بدوري، وخلتني قد هزمته، غير أن ابتسامتي تكسرت

على شفتي وهو يقول في برود:

- كش ملك، هذا أسهل انتصار سجلته في حياتي، يبدو أنك لا

تعرفين اللعبة..

بدا لي الموقف لعبة هازئة، ومكثت طويلاً أحرق في وجهه الوسيم
قبل أن أطلق ضحكة هادئة وأنا أقول:

- ألعبا جيداً، لكنك ماهر!

تمتم وهو يعيد القطع في مكانها في غطرسة ممقوتة الاصطناع:

- إنها لضحكة ينخلع لها القلب يا أنطون!

جفل قلبي من جديد وأنا أقول في غبطة طفولية: إنه يتغزل كثيراً..
مثل منيب.. ابن الجيران.. ونسيت الأمر وأنا أركز على لعبه وأنهمك في
تحريك القطع لدقائق، قبل أن يقول وهو يضرب قطعة بقطعة أخرى
وبلهجة تفوح منها رائحة السادية:

- كش ملك!

قلت له في حماس وخوف وأنا أقف بسرعة:

- يبدو أنك فزت، سيكون الحظ لي مرة أخرى، لقد سعدت بلقائك،

أنا أستاذن..

وقف بسرعة وهو يمسك بذراعي قائلاً في برود مدهوش:

- يبدو أنك لا تعرفين قوانيني.. يبدو أنك تصنعين قوانينك..

واقترب بوجهه من وجهي قائلاً في بلاهة وغطرسة مضطربة:

- أنا عندما أنتصر، فأني أحصل على مكافأتي فوراً..

اضطربت الحيرة والشك في عيني مرة أخرى..

حذرتني أمي كثيراً من الرجال..

كانت تحذرنني من الاقتراب منهم ومن عالمهم الغامض المخيف..

لم تكن تفصح لي عن السبب..

كان أي جسد ضخم فاره، وأي وجه مملوء بالشعر يثير ذعري، لماذا يا

أمي..! أين أنت..! ١٩..

ماذا سيفعل بي هذا الوسيم الضخم..! ١٩..

كانت أمي حضاناً دافئاً مثيراً للغموض، لم تكن كثيرة الكلام، كانت

قاسية جداً رغم أنها شديدة الخوف علي..

أمي دفنتني بحنانها الغامض القاسي في كومة الجمل الدافئة

اللذيذة، واكتفت بإمتاعي وإلهائي ببعض الحكايا البريئة التي كانت تشغل

عقلي الصغير حتى أستغرق في النوم بين ذراعيها القاسيتين..

كانت كل مخاوفي تنتهي عند حدود حضنها الرمادي المليء

بالتهدات..

وكل تساؤلاتي كانت تتبعثر عند صرامة عينيها المتغضنتين..

أمي..

أيتها المسكينة الكبيرة التي تزوجت أبي الثائر في سن متأخرة جداً،

وأنجبتني ولم تتجبي غيري..

أين أنت الآن لأدفن في صدرك الدافئ الغامض..! ١٩..

أين أنت لتحميني كما كنت تزعمين دائماً.. لما يهاجمني منيب
ابن الجيران أو تهددني بنات المدرسة..
ثم لا تفعلين شيئاً.. دائماً دائماً؟
صرخت في ذعر هائل وهو يدفعني على السرير متمتماً ببعض
كلمات غير مفهومة..

قلت له والدموع البريئة تتفجر من عيني الساذجتين:
- دعني أذهب لأبي.. أرجوك..
قهقهه في برود وغلطسة وهو يهز رأسه في انتشاء شيطاني..
دبت الحيرة في عقلي مرة أخرى..
اقترب مني وهو يبتسم في خبث، فصرخت ملوحة بكفي ببراءة
الأطفال:

- لا تضربيني.. لا تضربيني..
رد في برود وتلذذ:
- اسمعي الكلام، ولن أضربك..
احتبست في حلقي صرخة مذعورة..
وهو يقول ببروده الغريب:
- إنه ثمن انتصاري يا قدس، لماذا تبدين مذعورة هكذا؟
وتمتم في قذارة وهو ييصق على الأرض:

- ماذا تريدین؟ مجوهرات ونقود؟

لا أريد إفساد طبعك على الست فيفيان!

هوى قلبي بين قدمي عندما قالها ..

لم أفهم لحظتها أن المديرة ما كانت إلا قوادة قدرة باعتني وباعت

غيري مثلما باعت ضميرها بحفنة دولارات..!

ردد الرجل في احتقار وهو يتشبث بشعري في قسوة:

- ثم إنك تفعلين هذا مقابل أكلك وشريك في العادة، ما الذي تغيّر؟

أم أن زميلاتك المحترفات قد أخبرنك أنني ثري؟

ازداد الرماد كثافة في عقلي وأنا أبكي في مرارة طفلة صغيرة

محاولة تخليص شعري..

وجدتني بكل الضراعة في قلبي أصرخ كما لم أصرخ من قبل.. بكل

ما أوتيت من طاقة:

- أمي .. أمي .. ماما ..!!!!

تخيلت تلك الأم المسكينة قليلة الحيلة وهي تهز منكبيها في

استسلام كماداتها..

تستدير للمجهول وتتركني..

تختطفها الرصاصة السريعة اللامبالية..

كما لو كانت هملاً يستحق التخلص منه..

بذات الغموض والقسوة في مهب الريح.. يا لها من أم بغیضة لا
تجید غیر الحکایا البلاء..

تمنیتها تنقذني، ولو ضربتني، ولو وبختني كعادتها..

حاولت أن أقاوم، أن أهرب، أن أضربه، أقتله، لكن الأضواء سطعت
على وجهه الوسیم هذه المرة، لیبدو كأشع مخلوق على الإطلاق؛ على
الأقل..

تلك اللحظة.....!

- يا عم...!

هكذا هتف منصور وهو يمضغ عقب سيجار قديم قبل أن يتمتم
في غیظ.

وهتف مرة أخرى:

- يا عماه..!

دار في المزرعة ليقف مراقباً عمه وهو ينفذ غبار سجادة قديمة
ويفرشها على أرضية غرفة قديمة منعزلة..

اقترب منصور قائلاً في مجاملة: هل أساعدك يا عماه..؟

ابتسم العجوز في كراهية وهو يقول:

- لم تستشيرني إذا أردت أن تفعل ١٩٠٠

جول منصور ناظره في الغرفة قائلاً:

- عمي، هذه الغرفة قديمة، متى بنيتها ١٩١٠!

تجاهله العجوز وهو يسعل بشدة، فردد منصور:

- متى بنيتها ١٩٠٠!

هتف العجوز في ضيق:

- لم أبنها، إنها مبنية من أيام (العصلي) ١٠٠٠!

قهقه منصور قائلاً في سخرية:

- وكل هذا الغضب يا عمي لأنني لم أساعدك ١٠٠٠!

حدجه العم بنظرة ملتهبة غامضة وهو يتابع:

- إن ملابسي جديدة في الحقيقة ولا ..

قاطعة العم بغضب غريب هاتفاً:

- اخرج إذاً .. اخرج، لا أريد أن أراك اليوم كله، وإن استطعت، العمر كله ١٠٠٠!

استغرب منصور بشدة هذه النبوة، وبدا له أن يرد، لكنه تراجع وهو

يستدير مولياً ..

والتفت مرة بعد مرة، وبصق عقب السيجار، والعجوز يرمقه بنظرة

غامضة بعيدة الغور!

وقف أنطون وهو يقول في زهول بصوت خافت مذعور:

- يا للسماء!

كان ينظر إلى رامة وهي ترقد على السرير غائبة عن الوعي تماماً،
وقد تقيأت ..

لم يبد في وجهها ما يشير إلى أنها تنتمي لعالم الأحياء سوى
شهقاتها الهستيرية التي بدت متناسقة مع آثار الضرب الشنيع في وجهها
البريء ..

كان قدراً .. أليس كذلك .. ؟

فكر قليلاً ببلاهته الغريبة:

- إذا فهذا ما كانت تعنيه ..

كانت طاهرة قديسة، وبريئة و ...

وصغيرة .. نعم وصغيرة!

وركز على وجهها الصغير، كان رغم ذلك يكتسي بأقسى وأبشع علائم
الخوف والرعب والألم، كل تلك المشاعر القاسية اجتمعت لتكون لوحة
شديدة المأساوية في وجهها البريء الطاهر.

فرك عينيه بتكاسل وهو يقاوم شعوراً غريباً اشتعل في جسده
النجس، لأول مرة منذ كان يزور القصر الملعون يشعر بهذا ..

ما الذي حصل لي .. ؟

الأجل مومس صغيرة يحصد...

انقبض صدره بمشاعر هائلة، وأحس بصداع رهيب يفلق رأسه..

وأخيراً صاح بأعلى صوته في اختناق كئيب:

- يا للسماء.. يا للسماء.. ماذا فعلت.. ماذا فعلت..!٩٠

مرت دقائق طويلة، لم يسمع فيها صوت حارسه الخاص وهو يدق

الباب قائلاً في خوف:

- سيدي، هل من خطب..!٩٠

دقائق كالدهور، ارتد فيها شريط حياته المسعورة كفيلم، ومضى

يستمتع إلى شهقاتها المرعبة وهو يتساءل:

- أنا من فعل ذلك..!٩٠

أنا من اغتصبها..!٩٠

هل يمكن..!٩٠

معقولة..!٩٠

رنت صيحات استغاثتها بأمرها في أذنيه، وفهم الآن لماذا قاومت،

ولماذا خمسته بأظافرها القذرة، فانهال عليها صفعاً ولكماً!

فهم لماذا قامت تصرخ: كلهم كلاب.. كلهم كلاب..

فرك عينيه مرة أخرى وهو يردد في بلاهة مذعورة:

- لا ليس أنا، وحتى لو.. ألم تأت إلى هنا.. بقدميها.. و..

شهقت بغته وهي تهمهم:

- مااااا .. ماام .. أن .. أم ..

انتفض الذعر في قلبه مرة أخرى وهو يصرخ في نفسه:

- بلى. بلى هو أنت يا أنطون.. هو أنت من اعتدى على هذه البائسة

الصغيرة!

مرت الدقائق في عينيه دهوراً من العذاب..

ردد في نفسه في ذهول هائل:

- ألهذا الحد كنت قدراً..؟

كنت حيواناً لدرجة أنني لم أفهم إباءها كما يجب أن يكون الفهم؟

ألهذا الحد كنت أبله، وحقيراً، وحشرياً، لم أفهمها، كنت كل هذه

الأوصاف وأكثر...!

وازدرد لعابه ومشاعر خوف وندم وكآبة شديدة، تكتنف قلبه وهو

يردد في داخله:

- يارب، لم كان أنا؟

لم كان أنا الذي لابد أن يرتكب هذه الجريمة، ويلوث هذه الفتاة

ويعتدي على عفافها؟

لم كان أنا؟ وماذا فعلت حتى أعرف هذه الصغيرة وأذبحها هكذا؟

لم ؟

كان الشيطان ينفث في روعه بأنها مومس، وتستحق ما جرى لها،
وأنها وأنها...

كل هذا استمع إليه أنطون، ولكن طوفاناً هائلاً من مشاعر الندم
والحسرة ما زال يجلد قلبه بقوة رهيبة..

بدا له أنه لن يحتمل أكثر من هذا..

اتجه إلى الباب وخرج قائلاً في صرامة:

- جوزف.. هل معك..

رد الحارس الشخصي في استغراب وهو يلاحظ وجه سيده الأصفر
الشاحب:

- أمرك...

وأسرع يناوله مظروفاً من الهيروين..

عندها أغلق الباب، واستدار للطفلة البريئة الميتة..

اجتاحته زوبعة من الاكتئاب وهو يسرع بفك المظروف، وينثر
محتوياته على كفه الناعمة النجسة، ويبدأ في الشم بشراهة مجنونة..

لا يدري كم مر من الوقت وهو يترنح في جنون مراقباً البنت
البريئة..

قام يقهقه في هستيريا وهو يهمهم:

- لا لا .. أنا.. أنا فعلت يا أنطون.. أنا..

واجتاحته عاصفة الانقباض مرة أخرى لتمزق قلبه الأغلف..
مكث يطالع ضحيته المسكينة، قبل أن يقول في نفسه، وقد امتلأت
عيناه بدمعة كبيرة:

- اغفري لي أيتها المسحوقة البريئة، اغفري لي أيتها الصغيرة الغبية!
وشهق وهو يتابع في نفسه:

- لقد خدعوك أيتها الحمقاء، قادوك إلى مسلخ حقيير كنت أحد
جزاريه، وقتلتك بلا رحمة.. لم تكوني تعلمين أين يقودونك كالنعجة
البلهاء، كنت صغيرة وكنت أنا قذراً، ماذا فعلت بنفسك؟ ماذا؟!

كان يستند إلى الباب وقد تشنجت يداه على المقبض في رعب، خيل
إليه أن هذه الصبية ستقوم، وتتحول إلى مسخ عات، يعاقبه كما يجب
على ما فعله..

خيل إليه أنه يسمع صوتها وهي تقول:

- لماذا يا أنطون؟!

هز رأسه بقوة وهو يوقن أن طيف هذه الفتاة سيظل يلاحقه ما بقي
على قيد الحياة، ويظل يعذبه بذكرى فداحة وبشاعة ما فعله..

كل هذا كان غارقاً فيه وهو ملتصق بالباب في ذهول، قبل أن ينتبه
لطرقات رصينة، فقفز قلبه وهو يهتف: من؟!

جاء صوت حارسه وهو يقول: تأخرنا يا سيدي..

فتح الباب وهو يقول في عصبية:

- أيها الوغد، هات دفتر الشيكات.

واختطفه من يده وأغلق الباب..

بينما مكث الحارس يحدق مبهوراً في وجهه الشاحب وهيئته الرثة..

واستدار نحو الطفلة..

لا يدري ماذا كتب قبل أن يتجه إليها ويمد يداً مرتجفة، ويدس

الشيك في يدها وهو يقول:

لا تخبري بذلك أحداً..

شهق مفزوعاً عندما ارتعشت عيناها وفتحتها على آخرها كعيني

بومة ميتة، وجرى إلى الباب وهو يقول بلهجة جاهد بلا جدوى لإزالة نبرة

التوتر منها:

- هذه النقود لك، لا تخبري بذلك أحداً، وإلا سرقها منك الذين

قادوك إلى هنا أنفسهم لأجل النقود..

خذيها واجري بعيداً عن هذا الجحيم الممتن، لا تعودى إلى هنا أبداً..

خذي النقود واهربي بعيداً عن هذه الحياة الوضيعة البشعة..

اهربي بعيداً، ولو إلى بيت لوحدك، ولو إلى غابة أو جبل بين

الحيوانات..

قد تكون قلوب الحيوانات والوحوش أرحم من قلوب البشر..

أرحم من قلوب من جروك إلى هنا ليكسبوا المال مقابل عفافك
وطهارتك وقدسيته..

خذيها واهربي.. اهربي.. اهربي...!

جلست على السرير وهي تتأمل وجهه المحمر من شدة الانفعال، وقد
التصق بالباب مرتجفاً، وصوته المرتعد الغاضب يرن في أذنيها لا تفقهه،
وهو يتكلم.. ويتكلم.. لا انقطاع!

ياالصوص اللحم يا تجاره..... هكذا لحم السبايا يؤكل
منذ أن كان على الأرض الهوى..... أنتم الذئب ونحن الحمل

قباني

عندما استعدت وعيي، وبعض عقلي الذي فقدته، وجدتني بلا شعور
أقف مترنحة وألم رهيب يكتنف جسمي، بدا لي الموقف كله أنطون،
بحيوانيته الرهيبة..

بصفعته الهائلة وسبابه الفاحش..

كان يخيل إلي أشباح سوداء ترقص أمامي..

والستائر الحمراء أصبحت أمواجاً من الدماء في عيني..

غطى عيني ستار من الكآبة والعمى وأنا أجر قدمي مترنحة إلى
الدرج الواسع، كان هناك فتاتان تضحكان، ظللت أقول وكأنني لم أر من
يضحك من قبل: ماذا تفعلان؟

بغثة فتح أحد أبواب الغرف السفلى، وخرجت منه الشقراء التي
رأيتها في الصباح تدخن، كانت تصرخ بأعلى صوتها:
- يكفي أيها القدر، يكفي!

ارتعد قلبي برعب رهيب وهي تتعثر وتسقط، وهي تشهق رعباً
وفزعاً، قبل أن يأتي من خلفها رجل ضخم ويمسك بشعرها بكل قسوة
وهي تصرخ صراخاً مخنوقاً، وهو يدمدم بلهجة قبيحة:
- أقسم أنني سوف أقضم كبذك أيتها اللعينة!

ودفعها بمنتهى القسوة على الجدار ليرتطم رأسها به بعنف وهو
يقول:

- إنها ثلاثمائة ليرة أيتها السكيرة اللعينة، وأنت تعرفين القوانين
جيداً..

قال هذا وهو يسحبها من شعرها بمنتهى القسوة إلى داخل الغرفة
ويغلق الباب، حيث استحالت صيحاتها الفزعة إلى صرخات ألم هائلة،
وأصوات الخبط والركل تصلني خارج الغرفة..

لم يبد على الفتاتين أدنى اهتمام، وإحداهما تقول في اشمئزاز:

- يا له من لعين هذا (الكميل)!

أوه، لست أدري أي طاقة يمتلكها ليضرب هذه الحشرة مدمنة الحشيش بهذه القوة؟!

غامت الدنيا في عيني وأنا أحرق فيهما، وأظلم كل شيء لحظتها، ولم أعد أرى سوى شفتيهما تتحركان وتثرثران بلا توقف.. هرعت راكضة إلى بوابة الخروج..

صدمني لحظتها مخلوق كبير وهو يقول في غلظة: أين؟ توقفت لحظتها عند السؤال! حقاً أين أذهب؟!

انعدم داخلي لحظتها كل شعور وهو يدفعني بقسوة داخل القصر.. جلست على الأرض وأنا أحرق في كل شيء بلا شعور، وأتحسس جسمي وإحساس الفاجعة يحاصرني.. هل خسرت كل شيء يا ترى؟!

انتبهت إلى إحدى الفتاتين وهي تقترب مني ورائحة سيجارها تخترق رأسي، قبل أن تتحني وهي تقول ساخرة:

- هيه.. أيتها البلهاء الصغيرة.. يبدو أنهم استقدموك هذه المرة من مستشفى المجانين.. وإلا لما جلست هكذا!

كانت تشبه الشيطان، بشعرها الحريري الأشقر وطولها الفارع، كانت تمضغ كلماتها وهي تقول:

- لو أردت نصيحتي يا هذه، كوني مطيعة لئلا تتعرضي للأذى، مثل هذه الغبية التي في الغرفة ٤ ، جورجيت شقراء، هل عرفتھا؟
إنھا غبية، مدمنة للحشيش وتعمل هنا لتوفير احتياجاها منه، ولكنها تتصور أن أحداً سيدفع لها بسخاء دون مقابل، إنها تتصور ذلك عندما تكثر المشروب أحياناً؛ ولذلك تتمرد وترفض طاعة الأوامر، وحظها التعيس جعل هذا الزبون الفظ عميلها دائماً، وھا أنت ترينها المسكينة، لأنها غبية وتعصي أوامره وتتمرد عليه، وجهها لا يكاد يشفى من كدمة حتى يتعرض لكدمة أخرى..

أحسست لحظتها بامتهان رهيب لإنسانيتي وبأنني أصبحت - في غمضة عين - حيواناً حقيراً بلا كرامة..

أحس برغبة عارمة في التقيؤ..

هل يا ترى يوجد عالم بهذه القذارة..؟

على الأرض التي أعيش عليها..؟

وهل حقاً إنني فيه الآن..؟

قلت وأنا أفرك عيني في ألم.

تابعت بلهجة يشوبها الأسى:

- ماذا نفعل؟ إنه قدرنا! نحن فقيرات وعلينا أن نجد طعامنا

وملابسنا..

عيشة السخرة أهون مائة مرة من الجوع!..

استجمعت جرأتي لأقول بصوت مخنوق:

- ولم لا تعملين عملاً شريفاً؟ عاملة نظافة؟ خادمة؟ بائعة خردة؟

زعقت في سخرية: - عم تتحدثين يا هذه!..

أو لست مثلنا .. بنت ليل .. عاملة .. ولو كنت مبتدئة!..

صحت فيها والدموع تخنقني والانقباض يهاجمني بلا رحمة:

- لا .. أنا .. أنا أشرف .. من الشرف ..

لقد سحبوني إلى هنا دون علمي .. فيفيان القذرة .. موفق ..

كلهم كلاب .. أولاد حرام!..

تفحصتني وهي تسحب نفساً طويلاً من سيجارها قبل أن تقول في

سخرية وأسى:

- عملنا أسهل من هذه المهن الحقيرة التي يتزاحم عليها الناس .. ثم

من يريدنا وسجلاتنا السوداء تمتلئ بالتدخين والمخدرات والأسلحة

والدعارة!..

كلنا كذلك .. أنت كذلك .. أليس كذلك!..

لذت بالصمت وهي تتابع:

- جورجيت مثلاً، يتيمة عاشت في ميتم قذر، هربت منه مبكراً إلى

الشارع، ثم أدمنت المخدرات وتركت الدراسة مبكراً، ولأنها صغيرة، فلا

يسمح لها بمزاولة مهنة، وتشردت في النهاية لتجد نفسها منذ أكثر من ستة أشهر، هنا بمحض إرادتها!

وتابعت وهي تنفث سيجارها:

- أما أنا، فيتيمة كذلك، عشت عند عمي العاطل عن العمل، رباني منذ كنت صغيرة، لأجدني في هذا المكان منذ بنوا القصر منذ سنة، ولكن الشرق بيني وبين جورجيت هو ..

وأشارت إلى رأسها وهي تتابع:

- أنا أوّمن بأنني وضعت في مكان يليق بالحيوانات، ولكن ماذا أفعل؟! إنه أهون من الجوع والضرب بالسوط.. ويدر بعض الدولارات.. ما دمت هنا رضيت أم أبييت، فعلى الأقل أبتعد عن كل ما يجلب لي الضرب من عمي ومن الزبائن!

لحظتها قلت لها:

- ولكنني لم أعلم ما كانوا ينوونه لي؛ لقد أخذوني من المدرسة إلى هنا ..

قالت في سخرية: وما الفرق؟! هناك الكثيرات مثلك؛ يعشن في سعادة هنا ..

ينسين، يشربن كأساً واحدة من النبيذ اللذيذ، تتسين كل همومك معها ..

ما دمت ستعيشين هنا بقية عمرك؛ فحاولي أن تكسبي شيئاً!
لحظتها فتح حارس القصر الباب ليبدو لي العجوز وهو يبتسم
ابتسامة ذئبية حقيرة، أظهرت لي كل جوانب لوحته القذرة.. بمنتهى
الوضوح!



(٧) لصوص اللحم..

سطعت الأضواء بقوة هذه المرة على وجه العجوز وهو يتجه إلى رامة قائلاً في تودد صارم:

- هل راق لك المكان يا قدس؟!

وقفت في إعياء شديد وهي تتشبث بالجدران قبل أن تقول بصوت مخنوق:

- ألا تعلم حقاً ماذا يجري هنا يا أبي؟!

بدت علائم الدهشة العارمة على وجه الفتاة بجوارها وهي تردد:

أبوك؟!

لم تسمعها رامة وهي تتابع بصوت يحمل حجم فجيعتها الهائلة:

- إنه بيت دعارة يا أبي!

قهقه العجوز في قذارة وهو يمسك بيدها في وداعة قائلاً:

- ذلك كان في الماضي يا بنتي! إنه مكان للهو والمتعة، ومن حقك أن

تفعلي ما يفعله غيرك من البنات!

جذبت يدها بعنف من يده وهي تهتف بصوت مخنوق:

- لكنني لا أريد فعل ذلك، إنه مكان يليق بالحيوانات، ولن أعود إليه

مرة ثانية!

تمتم العجوز في ضيق وهو يتناول يدها مرة أخرى:

- سيروق لك الأمر فيما بعد، وهيا بنا الآن.

تشبثت بيده هاتفة في اعتراض:

- حرام! حرام! يا أبي! لقد جعلوني كفار.. كصرصار.. أنا لن أعود

إليه أبداً.. أبداً.. آآآآ

وشخصت عيناها وهي تبتتر عبارتها في زعر هائل عندما سحب

مسدساً صغيراً من تحت ثيابه القذرة وصوبه نحو رأسها قائلاً بلهجة

تفوح منها روائح نفايات الدنيا وقذارتها:

- غباؤك العظيم يا صغيرة هو ما يمنعك من الفهم جيداً؛ هل كنت

تتصورين أنني سوف آويك هكذا دون مقابل؟!

هيا بنا وإلا فإني سوف ألحقك بقدس الحقيقية؛ ثم أدفع غرامة

مخفضة مقابل إهمال بنت صغيرة وتركها تعيث بمسدس!

ارتجفت الفتاة بجوارها وهي تركض هاربة في خوف..

لا تعلم بالضبط ما يجري وما يقولان..

إنها تعودت مشاهد التهديد بالسلاح داخل هذا المكان بالذات؛ لكن

ذلك يحصل من العملاء الأقدار ضد المومسات؛ لكن ما تراه الآن هو

تهديد من والد لابنته عندما رفضت ممارسة البغاء؛ إنها طاهرة وعفيفة

كما تقول..

ما الذي أتى بها هنا؟

هل جروها إلى هنا؟

بموافقة أبيها؟

ما ذنبها؟

حقاً ما ذنبها وهي ترفض البغاء؟

هل يمكن لأب أن يفعل ذلك لابنته؟

هل هو حقاً أبوها...؟

زوت حاجبيها الجميلين وهي تراقبهما في رهبة وهو يسحب رامة من ذراعها، وهي تلتفت إليها وقد يبس الزبد على شفتيها، وامتألت عيناها بذعر لا نهائي واكتسى وجهها بذهول الخوف المفجع..

بلا حدود.....!

توقفت سيارة العجوز عند المزرعة، ونزل منها وهو يقول بقسوة رهيبة:

- خذي هذه الأغراض إلى المطبخ فوراً.

نزلت مرتجفة وعيناها تركزان على المسدس في جيبه، كانت ساقاها لا تكادان تحملانها إعياء، وقلبها يهوي مرة بعد مرة، ذعراً هائلاً، وذهولاً شديداً، و... ومشاعر أخرى ما تزال بلا اسم...

تحاملت خوفاً ودموعها تجري بلا شعور على خديها، والزبد يجف على شفتيها المتورمتين، وعيناها تتسعان وتشخصان في شرود داهل..
كانت الصدمة قد دمرت عقلها بلا رحمة..

حملت الأكياس وساقاها ترتجفان بقوة، وهي تمسح بذراعاها النحيل وجهها المبلل بالدموع والأسى؛ قبل أن تشهق بقوة شهقة كادت أن تخرج روحها، عندما ظهر أمامها منصور جالساً على سياج البقر وهو يقضم تفاحة كبيرة؛ قبل أن يهتف في تودد كبير:

- هيه قدس، تعالي هنا يا حبيبتي!

قذفت بالأكياس وهي تبتعد بخطوات شديدة الاضطراب، لم تكن تستطيع الركض أبداً، وكان توازنها قد تخلخل تماماً..

كانت تحرق فيه بخوف رهيب وإحساس هائل بالعار..!

هتف مرة أخرى في تودد ودهشة وهو يلاحظ جيداً مشيتها المضطربة وساقها المرتجفتين ووجهها المكسو بذعر لا نهائي:

- تعالي هنا، انظري ماذا أحضرت لك، تعالي، ماذا دهاك؟!

تعثرت في مشيتها وهي تتراجع في اضطراب وهو يصرخ في غضب:

- تعالي هنا يا بنت! ماذا دهاك - يالبطرس اللعين!

وركض نحوها وأمسك بكتفيها هاتفاً:

- لماذا تتجاهليني؟! ماذا دهاك؟!

وأجلسها بقوة وهو يتحسس وجهها الأصفر وينظر إلى قميصها
المتسخ الممزق قبل أن يقول في ريبة وشك شديد:
- من فعل بك هذا؟ أخبريني؟

كانت تنظر إليه بعينين شاخصتين ذهولاً وذعراً، فhezها بقوة وهو
يصرخ غضباً:
- ماذا فعلوا بك؟

حدقت فيه في خوف وبلاهة، قبل أن تطلق أنة طفولية متحشجة
ودموعها تتساقط من عينيها اللتين تركزان على ملامحه القوية
الصارمة..

انتبه على صوت عمه القبيح وهو يقول في قذارة:
- لقد سرقت مني دولاراً وضربت بها بقوة، كانت تبكي، وهربت في غباء
فسقطت وسط الشارع وكادت أن تدهسها سيارة لولا أن أنقذتها!
تمتم منصور في غضب شديد:

- حقاً؟ أنت تسرقين يا قدس؟
هزت رأسها بالنفي بقوة وهي تفتح فاهها الجاف بصعوبة لتتكلم،
فأوقفتها صفة قوية على رأسها والعجوز يهتف بصوت عال:
- وتكذبين أيضاً! وتكذبينني؟

وجذبها بقسوة من شعرها إلى بيت المزرعة وهو يهتف:

- أعرف كيف أريك!

وقف منصور وهو يردد في استنكار شديد:

- تسرقين يا قدس؟ هل تجرؤين؟

وأنت التي كنت تحدثيني عن الظلم وعن المبادئ؟

قال هذا وهو يسدد صفة قوية إلى وجهها قائلاً في احتقار:

- ماذا تركت للحرامية إذا بدأت بالسرقه من الآن؟

كانت الصدمة أكبر مما تتحمله هذه المرة، فأطلقت صرخة هستيرية

تحمل مرارة بحجم فواجعها المتتابة، وهي تهوي بين أيديهما، وعقلها

يهوي في دوامة مظلمة شديدة السواد!

قال منصور في ندم وهو يستند إلى سياج المزرعة:

- ما كان ينبغي أن نفعل بها هكذا وكأنها أول من يسرق في هذه

الدنيا؛ يبدو أنها مصابة بمرض ما في أعصابها وإلا لما تشنجت هكذا..

قال العجوز وهو ينفث دخان نرجيلته في عصبية:

- كلبه! الجراء البائسة إذا ذاقت طعم الدلال أفسدها..

هكذا تفعل دائماً عندما أضربها حتى أكف عنها.

قال منصور في اعتراض:

- وأنت تتصرف معها وكأنها ابنتك حقاً؟

ليس من حقك ضربها أبداً، ثم هي ليست أول من سرق، كل الأطفال والمراهقين في سنّها يسرقون، ثم هي لم تسرق سوى دولار واحد، ماذا يدريك؟

المسكينة البائسة! ربما كانت جائعة..

ربما تريد شراء شيء وتخاف أن تطلب منك نقوداً، ما كان ينبغي أن تفعل هكذا، ولا أنا أيضاً، ينبغي أن نتعاون لنجعل منها إنسانة صالحة لا أن نحطمها ونعقد نفسيّتها المضطربة هكذا..

ثم هي مراهقة صغيرة، وهذه المرحلة العمرية مصحوبة بأخطاء كثيرة لا تعالج بالضرب والإهانة!

زم العجوز شفّتيه في لا مبالاة وهو يردد:

- العصا ستريّيها جيداً..!

رد منصور في لهجة غريبة:

- ماذا عن الكبار الذين يسرقون بمختلف الطرق، مباشرة وغير

مباشرة، من يضربهم ليتربوا؟..

كيف بالأطفال والمراهقين؟

دعنا لا نلمها هي فقد كشفتها بحاستك المالية بسهولة، لكن ماذا

تقول عن الذين يسرقون بمختلف الطرق ولا يستطيع أحد كشفهم؟

واستطرد قائلاً:

- هي أولاً بريئة وساذجة، لا يمكن أن تسرق لو أنها تعلم ما هي السرقة!

والآن قل لي: أين هي؟ ماذا فعلت بها؟

قال العجوز في صلف:

- حبستها في غرفة الضيوف، وضعت عندها الماء، ستستيقظ بعد وقت وكأنها الكلب في نشاطها!

وقف منصور متجهاً إلى غرفة الضيوف وأدار رتاج الغرفة ليجده مقفلاً، فهتف في صرامة:

- قدس؛ يجب أن تفكري بغلطتك جيداً، لقد سرقت وكذبت وعرضت نفسك للخطر، أنت تستحقين ما جرى لك اليوم!

ودس يديه في جيبه وهو يقول في سخرية:

- هذا لو أنك تسمعينني!

كانت لحظتها قد زحفت في إعياء رهيب نحو الباب والدموع قد تركت طبقة بيضاء على أجزاء وجهها، وهي تجاهد لإخراج صوت من رئتيها يهتف بمرارة المظلومين:

- اسمعني، منصور!

هتف في سخرية ودهشة:

- آه! إذا فقد كان كلام عمي صادقاً، ها أنت كالقرد الشقي في
الغرفة يا صاحبة المتاعب!

دفعت نفسها لتتهف ببقية الهواء في رثتها:

- لم أسرق يا منصور، لم أفعلها في حياتي كلها، صدقني!

سمعها وهو يستند إلى الباب فردد في عتاب:

- وحتى لو فعلتها، نحن لم نفعل ذلك لأننا نكرهك، لكن نريد

مصلحتك، لا نريدك أن تكوني حرامية محترفة..

وخفض صوته وهو يقول ساخراً:

- مثل بطرس مثلاً!

سحبت هذه المرة هواء كثيراً ودفعته للخارج وهي تصرخ بصوت

مبحوح واضح:

- حرامي وابن حرام..

ابن حرام..!

دب الغضب في صدر منصور وهو يقول بصوت منخفض:

- تجاوزت حدك أيتها الصغيرة الحشرية، عندما آتي غداً سأجلدك

بنفسي على هذه الكلمة البذيئة!

وخبط الباب بقبضته في غضب..

رددت في تحد وذهول وكأنها لا تسمع ما يقول:

- ابن حرام .. ابن حرام..!

زهر في غضب وهو يصمت متلفئاً خلفه، وهو يحس أن نبرة الإصرار
في لهجتها تعني شيئاً غامضاً..

وراء الأكمة..

غامضاً جداً.. جداً..!

استيقظت يا قارئ لأجد الغرفة مظلمة تماماً، كان الوقت بعد
منتصف الليل، كنت جائعة جداً، وزحفت لأرتطم بجرة الماء..

انسكب ما فيها فصرخت في حسرة، وانكبت على الأرض أبل فمي
الممزق بالماء المسكوب، لحظتها سمعت صوت فتح الباب، وصريراً مزعجاً
بطيئاً، وأضيئت الغرفة بنور مصباح صوديوم..

بهر النور عيني بشدة ففركتهما بقوة ليظهر لي وجه العجوز القبيح
وهو يبتسم قائلاً:

كيف حالك؟!

ازدرت ريتي وأنا أقول في سرعة:

- ألا تعرف الله؟! ألا تعرف النار؟!

مد يده لي متجاهلاً وهو يقول: أحضرت لك هذه..!

كانت قطعة خبز محشوة بشيء لا أعلمه، فانقضضت عليها بأسناني
في نهم، والتهمتھا في وقت قصير.

عندما رفعت عيني إليه كان ينظر إلي في سخرية وهو يقول:

- حقاً يقولون؛ الجوع يهذب الطبوع..

وجذبني لأقف بقوة، وسحبني إلى الساقية الصغيرة، وأمرني أن
أغسل وجهي جيداً، ثم قال لي وأنا أرتجف برداً:

- اسمعيني يا قدس، أنت تعلمين جيداً أن لا أحد في الدنيا يبقى
لأحد، ألا ترين أنني عندما أويتك كنت قد فعلت شيئاً لم يفعله أحد من
قبلي؟

لو لم أفعل لكنت الآن قد مت جوعاً، مثل حالك قبل قليل، أليس من
حقي أن تفعل لي شيئاً جيداً؟

كانت تعابير وجهي تكتسي بالمشاعر الرهيبة التي تعصف في
صدري، والتي لن يصفها أي بيان على وجه الأرض..

أخذني إلى الغرفة مرة أخرى وأمرني أن أرتدي ملابس جديدة وهو
يقول:

- كوني عاقلة، لكي لا تموتي من الجوع، دعينا نتعاون، ونكن مثل
الأصدقاء، وسأنفذ كل ما تريدون لو صرت مطيعة!

ازدرت ريتي وأنا أقول في مجاملة: حقاً؟

هز رأسه فبادرت بالقول في توسل:

- إذا أرجوك، أحضر لي بعض الماء، وأي طعام، كل هذا ريثما أرتدي ملابسني..

هز رأسه وهو يقول في قذارة:

- وماله؟ أحضر لك ما تريدين من عيني!

وأغلق الباب..

لما غيرت ملابسني تحسست قطعة ورق في جيبني..

كانت الشيك..

لا تستغرب لو قلت لك أنني لم أر هذه الورقة ولا مثلها في حياتي كلها، لكنني حررت في نفسي أنها ذات قيمة وليست كأوراق الدفاتر العتيقة..

كانت رحمة ربي قد أعمتهم عن هذا الأمل الأخير.

لفت نظري أن غرفة الضيوف كانت مزدحمة بالسجاجيد الفخمة المطوية والمغبرة.

هرعت إلى إحداها ودفست الشيك بعناية كبيرة ونفضت يدي من الغبار وأنا أرتدي ملابسني على عجل عندما سمعت صوت قفل الباب وهو يفتح، كان قد أحضر لي ما طلبته، هرعت والجوع الشديد ينهش معدتي إلى ما بيديه، ولكن لحسرتي ودهشتي فقد وضعه في ركن

الغرفة، ولذعري الشديد فقد تناهى إلى سمعي أصوات مختلطة لرجال خلفه، وهو يقول في قذارة:

- كما اتفقنا، عندما أتأكد من طاعتك، أنفذ ما تريدين، وأعطيك الطعام!

رددت النظر في سحناتهم القبيحة، كانوا ثلاثة شبان وكهلاً أنيقاً..
كان اليأس يعربد في قلبي المحترق، وأنا أشاهدهم يلتهموني بنظراتهم الجائعة الشرهة؛ ورددت لحظتها بكل اليأس في قلبي:
- لم يعد ثمة مفراً!

طلب مني أن أصب لهم شراباً كالماء، لم أعلم أنها خمرة..
بدؤوا يعربدون ويشربون وأوصالي تتفكك رعباً ويأساً..
كان الباب مقفلاً، فأين أهرب؟
سحبوني إلى وسط الغرفة، طلب الكهل مني أن أرقص وكان يترنح بشدة، بينما انهمك الباقون بتدخين سجائر ضخمة.
دارت الدنيا في عيني بشدة وأنا أنفجر ببكاء ضارع وأهتف:
- لا تفعلوها!

أرجوكم.. لا تفعلوها!

ألا تعرفون الله..؟

تحطمت الزجاج في يدي وجرححتي قليلاً..

ضحكوا في استمتاع وأنا أدور عليه أستعطفهم واحداً واحداً، كانوا
يبتسمون في سخرية وقد تحولوا إلى خنازير بشعة بلا قلوب..
بدووا يسحبون أطراف ثوبي..
علمت أن لا مفر الآن..

جمدت الفاجعة أعصابي، وسريعاً انهارت، وتتمر السبع في داخلي،
وأنا أقاوم وأصرخ، وأقاوم وأصرخ، ويزدادون جنوناً وإصراراً..
حطمت زجاجة خمر وجرحت بها أحدهم في صدره القذر..
انهالوا علي ضرباً، وأطفؤوا سجاثرهم في جسدي..
كان آخر ما أتذكره من تلك الليلة الرهيبة، هو قطعة ثوبي الممزق
التي تشبثت بها يدي الدامية، قبل أن ترتخي يدي..
ويسقط الثوب!

خلال أسبوع كامل، لم أذق النوم إلا قليلاً، فقد حاصرني العجز
كالسبية، يأخذني في الصباح إلى قصر الدعارة، ويتسلم عمولته،
ويأخذني في آخر النهار إلى المزرعة؛ حيث تبدأ مهزلة منتصف الليل..
كنت قد تعرضت لتعذيب مخيف بسبب مقاومتي؛ لذلك استسلمت
نهائياً وأنا أدرك أنني قد خسرت كل شيء..
كل شيء!..

عندما يأتي ليأخذني خلسة من القصر القذر، أكون قد أنهكت تماماً،
وجلست لوحدي أبكي مصيري الأسود وأتحسس الكدمات الأليمة في
جسدي ووجهي، وأماكن الضرب والكي بالسجائر والولاعات.

لا تطلب مني أن أصف مشاعر الفاجعة في ذلك الأسبوع الأسود،
فكل اللغات لا تحيط بها بياناً..

لم يحط بما في نفسي من الكآبة والذهول والمفاجأة والانقباض
سوى الله وحده..!

كيف أتحول بغتة من فتاة بريئة هاربة من جحيم اليهود إلى فتاة
تجبر على البغاء في الصباح والمساء؟!

إلى مومس بالقوة والضرب؟!

كرهت نفسي، واحتقرت كل شيء ينتمي إلي، احتقرت جسدي،
ازدرت صوتي.. عيني، ملابسني الممزقة.. كل شيء يذكرني بنفسني
التائهة صرت أبغضه.. أمقته..

رائحة الدخان والخمر التي تفوح من أجسادهم القذرة الفاجرة،
وتصطبغ بملابسي وشعري الجميل الذي نتفوه.. صارت خيلاً غولياً لا
يمكن أن أتخلص منه..

كابوس لعين يتشبث بمخيلتي رغماً عن مقاومتي..

تعذيبهم الفظيع لي يمنعني من النوم..

لم يعد من يفهمني، أو يرحمني..

لا ناصر لي لحظتها سوى الله تعالى؛ كنت أعلم أنه يراني ويعلم ما يجري لي؛ كنت أعلم أنه غير راض عنهم أبداً؛ ولذلك كنت أعلم أنه سينتشلني يوماً من هذا الجحيم..

لا محالة .. سبحانه عما يشركون!

رأيت أنطون في القصر مرة أخرى.. لم أبد أي ردة فعل..

لفت نظري أنه ارتدى صليبا ذهبياً حول عنقه، يبدو أنه أعلن توبته - كما يعتقد في دينه - وكان يضع بعض المال في يد جورجيت المسكينة..
عندما لمحي انتفض بقوة، تلفت في اضطراب شديد.. شديد جداً..
جداً جداً..

وبصق على الأرض وهو يتمتم في غطرسة مقبلة..

ثم هرب بسرعة..

كان مكاناً ملعوناً لن يطهره سوى الجحيم!

في خفقات نومي القليلة، كانوا يطاردونني دوماً ويغتصبونني،
كوابيسهم بعضها يكفي لأن تفقد عقلك، وبعضها يكفي لأن يقتلك..!

بخطوات رتيبة متثاقلة دخلت رامة منزل الأشباح، ترنحت بعنف
عندما دفعها الحارس بمنتهى قوته إلى الداخل، وارتمت على الأرض

تبكي في مرارة شديدة؛ أحست خلفها بحركة ما، التفتت في خوف وهي تصرخ:

- لا تفعل.. حرام عليك .. أأ...!

طالعها وجه جورجيت وهي تربت على كتفها قائلة في سخرية مريرة:

- لا عليك يا صغيرتي، خذي هذه السيجارة..

ردت رامة في براءة: أن لا أدخن!

ربت على خدها في وداعة قبل أن تقول:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟! أنت ما زلت صغيرة جداً على العمل، وعلى هذا العمل بالذات، من في سنك يدرسن ويلعبن بالعرائس، ما اسمك يا حلوة؟!

قالت لها في مرارة وبراءة طفولية والبكاء يغلب كلامها:

- اسمي قدس، وقد جروني هنا جرّاً، كانوا كلاباً ولم أعرف ما سيفعلون..

صمتت جورجيت قبل أن تقول:

- أنا كذلك كنت يا صغيرتي، لكن لا تكثري من تهويل الأمر، الحياة قصيرة، استمتعي بها.

قالت رامة لها بصوت لا يكاد يفهم:

- لكنه ظلم!

أنا لم أرد هذا العمل القذر، وهم سيدفنونني حياتي كلها في هذا
الجحيم، ثم إنه حرام!

زوت جورجيت حاجبها الجميلين وهي تقول:

- أنت مسلمة كما يبدو؟

هزت رامة رأسها بالإيجاب قائلة:

- وهو أمر عظيم وخطير لنا!

انتهتا على صوت غليظ خلفهما يقول:

- ها قد أتيت في موعدي يا عشقي جورجيت!

شهقت رامة فزعاً هائلاً، بينما استدارت جورجيت ببطء لتواجه
كميل بجشته الهائلة، هو يقترب منها ملقياً نظرات غادرة على رامة التي
تكومت في مكانها وهي ترتجف ذعراً والدموع الخائفة تملأ وجهها، قبل
أن يبتسم في تودد قائلاً:

- لا تخافي يا حلوة..!

ثم استدار إلى جورجيت قائلاً في قذارة:

- ولسوء حظك اليوم، فقد دفعت ثلاثمائة دولار! ألم أقل أنك عشقي

إلى النخاع؟

تجهم وجه جورجيت وهي تقول:

- أنت قدر جداً، أنت حيوان .. بوهيمي صفيق .. يوجد الكثيرات
غيري، لم لا أشكوك إلى الحارس؟ حقاً لم لا أشكو!..

وعلا صوتها وهو يسحبها بقسوة خلفه:

- هذه الصغيرة جديدة، اتركني أيها اللعين .. افهمني .. هناك غيري
الكثير .. هذه واحدة اذهب معها ..

أغلق الباب عليهما قبل أن يعلو صوت الضرب الشنيع ..

لم تلمها رامة لحظتها فقد كانت تشعر بما تشعر به، لو كانت مكانها
لفضلت أن تدفع أمها ثمناً للنجاة!..

تحسست ساقها المكدمتين، لم تدر لحظتها لم قامت تفكر بالموت
كأجمل حلم؛ على الأقل تلك اللحظة!

كان منصور يستند كعادته على سور المزرعة، وهو ينتظر عمه في
ابتهاج حيث استطاع أن يحجز مقعداً على رحلة يوم الثلاثاء إلى الولايات
المتحدة، أي بعد سبعة أيام ونصف اليوم .. هاها!..

قالها وهو يتجه إلى أشجار التفاح الضخمة ويلتقط تفاحة ضخمة
ويمسحها بكمه ويقول:

- بدأت أعد اللحظات والثواني للرحلة الموعودة؛ ليت شعري أي بغض
أحمله للانتظار!

وقضم قضمة كبيرة وهو يتجه مسرعاً إلى حيث سمع صوت سيارة عمه، واستقبله قائلاً:

- عمي؛ كيف أنت اليوم؟

تجاهله عمه وهو يقول:

- أرجوك قل لي إنك قد وجدت رحلة إلى أمريكا!

قال منصور وهو يحيط كتفي عمه بذراعه:

- بلى، قد فعلت، قل لي مبروك، لي ولك حيث كل واحد سيرتاح من

الآخر!

قال هذا وهو يقبله في وجنته المتغضنة، ويستغرق معه في ضحكة

ساخرة.

وقفز على سياج المزرعة في رشاقة وهو يقول:

- أين قدس؟ هل درست اليوم؟

ارتبك العم بشكل ملحوظ وهو يقول:

- أجل، ماذا ستفعل هنا؟

قال منصور في اهتمام:

- هل كانت حزينة؟ هل قدمت اعتذارها؟

قال العجوز في لا مبالاة:

- هذا لا يعني، لقد استيقظت وأكلت ونامت.

قال منصور ساخراً:

- مثل البغلة، حتى تعيش فقط!

واستطرد قائلاً في اهتمام:

- ولكن دوام المدارس انتهى قبل ساعات، أين هي الآن؟

رد العجوز في عصبية: - وماذا تريد منها بالضبط؟

هز منصور كتفيه وهو يقول حائراً:

- أعدها منذ أكثر من أسبوع بفستان، أريد أخذها إلى محل ملابس

كي أنفذ وعدي، إنها مسكينة والهدية تعني لها الشيء الكثير، ومن الممكن

أن تعدل سلوكها المعوج..

قال العجوز في عصبية: - لا داعي لذلك .. عندها الكثير.

انتبه منصور للهجة الارتباك في صوت عمه، كان واضحاً، أنه يخفي

شيئاً ما، ترى هل يكون قد طردها، أو ... أو خنقها...؟

كتم منصور رغبة شديدة بالضحك وهو يتابع عمه بعينيه وهو يتجه

إلى بيت المزرعة، وردد في سخرية: - كل شيء يجوز على عمي الحرامي!

فجأة، انتفض صوت رامة في أذنية قبل أسبوع، وهي تصرخ:

- حرامي .. وابن حرام .. وابن حرام..!

تساءل هذه المرة بمنتهى الجدية: - ما الذي يدري بنتاً في عمرها عن

هذه الألفاظ القذرة!

ثم لماذا كذب عليها واتهمها بالسرقه لو أنها صادقة في أنه كذب عليها؟

سحب نفساً طويلاً وهو يرمق عمه الذي أقبل إليه وشعور مُلح يهتف في داخله بمنتهى الإصرار:

- ماذا فعلوا بها؟ ماذا فعلوا بها؟



(٨) الهروب الكبير..

شهقت رامة فزعاً؛ لقد عاودها الكابوس المرعب؛ قعدت على أرض
الغرفة على السجادة الحمراء، وعندما رأت أعقاب السجائر وزجاجات
الخمير الفارغة، أدركت أنها تنتهي من جحيم لتعود إلى جحيم آخر.

أوشكت الشمس على المغيب، فانقبض صدرها بكآبة وخوف رهيبين
وهي تتذكر ما يعني ذلك، وتفجرت عيناها بشلال من الدموع وهي تردد
بمرارة بحجم مصائبها الأليمة رغم صغر سنها:

- مطاردة في كل مكان، سجينه فوق كل أرض..

من لي؟ من لي؟

كانت عيناها الجميلتان قد غارتا وجفتا، وتحولتا إلى كرتين تدوران
في محجرين أزرقين، وقد اشتعلت في وجهها الطفولي خطوط سوداء من
أثر الشحوب والسهر والجوع..

كل جزء في جسمها كان ينطق بالفاجعة كما يجب:

- عظامها البارزة؛ يداها المرتجفتان، ساقاها الضعيفتان..

وملامح وجهها تشكلت لتبدو لوحة حية لأثار الطغيان والإرهاب
والوحشية التي تسكن الوحش البشري ضد أخيه؛ لوحة تتكرر سوى أن
الأسلوب يختلف شيئاً قليلاً..

وعندما بدأت جوقة الفساد في منتصف الليل؛ لم تعد تفرق بين أولاء
الأربعة وبين الخنازير البرية المسعورة..

علا صراخها الأليم الملتاع عندما بدؤوا بتعذيبها؛ وذاقت هذه الليلة
ما لم تذقه في أيام مضت..

لأنها قاومت وتنمرت وشتمت وركلت واستخدمت قبضتيها
الصغيرتين كما لم تفعل من قبل!
أخيراً..

رقدت في شبه غيبوبة، بينما لم يهتموا وانهمكوا بالسكر، وسكر
معهم العجوز حتى ثملوا وناموا..

لمحت بطرف عينها اثنين يسحبان المفتاح من العجوز ويخرجان،
ويتركان الباب مفتوحاً..
نعم مفتوحاً..

كان الصداق يفلق رأسها؛ لكنها تحاملت وعدلت ثيابها الممزقة،
ووقفت في رهبة شديدة وهي تتجه للباب في حذر بالغ..
لكنها تذكرت شيئاً.. الورقة..

هل لا بد أن أخذها..؟

تساءلت مائة مرة قبل أن تتسلل إلى السجاجيد؛ من هناك
استخرجت الورقة، وهي تتخيل المسدس المصوب إلى رأسها..

تتخيل هذا القرد العجوز القبيح وهو يسحبها من شعرها كما هؤلاء
الخنازير يفعلون..

خرجت تجر قدميها المنهكتين؛ وبكل ما أوتيت من جراءة أغلقت باب
الغرفة الحديد بالقفل..

كان الفجر قد ذر بعض خيوطه على وجهها الجاف، فهرعت إلى
ساقية الماء تشرب وتشرب وتغسل وجهها، وصدرها المنهك يدفع شهقات
قوية ليست بقوة الفاجعة التي عبثت بعقلها الصغير وعطلت حواس
الإنسان فيها ومشاعره..

جعلتها حيواناً أبله يروم الهروب.. نعم حيواناً بكل صفاته البهيمية..
لا تتصور لحظة أنها كانت بشراً في تلك الدقائق..!
كانت تلتفت كل دقيقة وهي تركض، تصطدم كالمجنونة بأي شيء..
لا تشعر بشيء..

لكنها تركض..
ظلت تركض في اتجاه مستقيم بين تلك المزارع دون توقف..
تعثر؛ تضعف ساقاها؛ لكنها تعود تركض..
تلتفت خلفها..

يطاردها أشباح لصوص اللحم؛ تصرخ بغتة في هستيرية وجنون؛
لكنها تعود وتركض.. وتركض..!

عندما بزغت الشمس، كان العطش قد بلغ بها كل مبلغ؛ ورثتها كانتا قد جفتا تماماً، حتى لم يعد في وسعها أن تتنفس..
سقطت على ركبتيهما وهي تجاهد لإدخال هواء إلى رئتيها عندما سمعت صوتاً يناديها:

- قدس، قدس، توقفي!

سعلت بقوة كادت أن تخرج روحها، وانتشرت بعض قطرات الدم من رئتيها على قارعة الطريق.

هتف منصور وهو يركض مترجلاً من سيارته:

- قدس، ماذا هنا تفعلين؟

وأمسك بذراعيها ورفعها ليوافق وجهها المكدم المعصور الأصفر، والذي اكتسى بأشع علامات الرعب والإعياء..

كانت تبدو كالمشقوق وهو يتأرجح في الحبل قبل خروج روحه.

هتف والدموع الغاضبة تتفجر في عينيه وهو يتشبث بها:

- يا أولاد الزنا..

يا أولاد الكلب؛ أي شيء لم يفعلوه؟

وتابع وهو يضغط على أعصابه متشبثاً بها وهو يقرأ وجهها جيداً:

- عليك لعنات الرب المتتابعة يا بطرس؛ أيها الخنزير الملعون، كنت

أعلم أنك لن تفعل شيئاً دون مقابل أيها الكلب!

كانت تلهث زائغة العينين وهو يحملها إلى سيارته ويرقدها على المرتبة الخلفية؛ وينطلق بها إلى منزله قائلاً بكل الغضب في أعماقه:

- سوف تعلم هذه المرة يا بطرس كيف أنتقم!

وتابع وهو يزفر بشدة وقد تحولت عيناه إلى جمرتين ملتهبتين:

- كيف آخذك إلى حبل مشنقتك بنفسي!..

بكل ما في قلبه من الاستنكار والصدمة هتف منصور:

- تقولين ماذا؟! هل فعلها هذا العجوز الكلب؟!

كانت في حالة يأسف لها العدو، وهي تستلقي على بطانيته الممزقة في شقته الصغيرة الفوضوية؛ وكان هو في حالة صعوبة من الدهول والصدمة، وهو يكرر في لهجة مخنوقة كالمجنون:

- وهو الذي يقول إنه عمي ! عمي بطرس!

لم تعد رامة تحسن التصرف؛ فبعد أن ارتمت على الفراش المتواضع؛ وأطلقت عدة صرخات هستيرية؛ وشهقات مذعورة مجنونة؛ تقيأت على الفراش.. لم يغضب منصور أو يقلق.. أو حتى يشعر..

كان مشغولاً بأن تسترخي وهو يربت عليها في رفق.. وذهول هائل.. حتى تحسس ورقة صغيرة في جيبيها..

سحبها برفق وقرأ..

كانت شيكاً بسبعة آلاف دولار..

أنطون أميل..

يا للذهول..

كانت في حالة بالغة السوء من الإعياء والذهول؛ عندما قال في توتر:

- من أين لك هذا.. يا... يا رامة؟!

كرر عليها السؤال، فسعلت بقوة لتتسلل بعض قطرات من الدم حول شفيتها الممزقتين؛ هرع ليحضر لها كوباً من الماء كرعته وشعور بالغثيان يهاجمها بلا رحمة؛ لم يهتم لكونها قد لوثت فراشه تماماً؛ وملابسها وجزءاً من بنطاله كذلك..

كان لحظتها يحس بشعور هائل بالخزي والعار؛ كان يحس بمسؤوليته التامة عما جرى لها..

هاجمته لحظتها صورتها البريئة وهي تتوسل إليه أولاً لكي يصلها بخالها وهو يرفض..

ثم صورتها وهي تقسم أنها لم تسرق..

وصورتها وهي تصرخ لكي يستمعوا لها وهم يضربونها..

وهاجمه صوتها البريء وهي تصرخ:

- ابن حرام.. ابن حرام..!

لحظتها قام يتخيلها كالفرسة المذعورة بين أيدي أولئك الوحوش..

قام يتخيل براءتها وطهارتها وهي تطحن في آلة الرذيلة المتوحشة..

بلا رحمة.. بلا رحمة..!

قام يهتف في داخله وشعور رهيب بالذنب يهاجمه:

- ماذا كان سيضيرك لو لبيت مطلبها أيها الحقير منصور؟

ماذا سيكلفك بريد إلى أميركا؟

وثانياً ماذا رأيت من بطرس الخنزير لكي تصدق ما يقول بشأن أنها

سُرقت منه؟

ألم يسرقك أولاً أيها الأبله؟

هل يعقل أن يُسرق السارق؟

لماذا ضربتها وساعدته لكي يستغلها في أبشع تجارة ملعونة؟

لماذا كنت حقيراً وعاملتها بهذه القسوة وكأنها حشرة؟

هل لأنها طريفة مشردة؟

أو ليست عربية مثلك؟

ولو كانت مسلمة؟

أو ليست تشاركك المصير والحلم العربي؟

لماذا فعلت هذا أيها البشع؟

لماذا كنت نفاية بالغة القذارة كعمك بطرس؟

وردد في داخله في ألم شديد:

- لقد كنت حقيراً وكلباً يا منصور؛ نعم، أنت كل هذه الأوصاف وأكثر..
- انتبه إلى تنفس رامة الضعيف وهي تجاهد لإخراج صوت يسمع بصعوبة شديدة؛ قال في حنان بالغ:
- ماذا؟ هل تريدني ماء؟
- هزت رأسها في إعياء شديد وهي تخرج صوتاً ضعيفاً كحشرة الذبيح؛ ألصق أذنه بوجهها ليسمعها تقول:
- أنطون أعطاني؛ أنا لم أسرقها.
- ردد في سرعة:
- أبداً أبداً؛ أنت لم تسرقها؛ أعرف ذلك؛ كنت أسأل فقط.. لم أقصد شيئاً!
- وتهد في شروود قبل أن يقول مستدركاً في استغراب:
- تقولين أنطون؟
- نظرت إليه بعين زائغة شبه ميتة وهو يردد:
- أنطون أميل؛ أليس هو؟ كيف تعرفته؟
- لم ترد عليه وهو يردد في إصرار:
- أتعنيه هو؟ أنطون أميل الثري المعروف في حارة النصاري؟
- الأشقر الشعر؛ ويبدو كالفتاة في تأنقه ومشيته؟ قولي إنه هو؟
- هزت رأسها بالموافقة؛ فردد قائلاً في حيرة:

- طيب كيف تعرفته؟ كيف عرف حالتك؟

ارتعشت شفتاها وهي تجاهد لتتكلم، بينما كان هو شاردًا يقول في حيرة:

- رغم أنه يحب عمل الخير كثيراً، إلا أنه فاسق سكير معروف جداً
بنزواته الملعونة، إنه على أية حال من أم بريطانية، والكثير يحاول التقرب
منه للاستفادة من أموال والده التي لا تنفد..

وردد وهو يحدق في عينيها اللتين امتلأتا بدمعة شديدة التلهب:

- هو طيب على أية حال، أتصور أن طبيته دفعته لأن يعطيك.

وبتر عبارته عندما تحشرج صدرها بالدموع وهي تردد بصوت
محنوق تماماً:

- كلب، كلهم كلاب، كلهم بلا استثناء..

صمت وهي تتابع ما أوتيت من طاقة:

- أنطون كان لصاً مثلهم، أعطاني الورقة بعد أن .. أن ..

لم تستطع إكمال عبارتها وصدرها يتفجر بشهقات وحشرجات
طفولية أليمة بالغة الحرارة...

عندها فقط تمتم منصور بكل الذهول في داخله:

- لا تقولي ذلك، أنطون كان مثلهم .. كان ..

وبتر عبارته والدموع الغاضبة تتفجر من عينيه وهو يصرخ:

- يا أولاد الحرام.. يا أولاد الحرام!..!

اندفع منصور داخل المزرعة متجهاً إلى غرفة الضيوف التي ينبعث

منها صوت طرق عنيف وصراخ مزعج، وهتف في سخرية مكتومة:

- لحظة لحظة يا عم، لا يوجد حتى مفتاح!

هتف العجوز من الداخل:

- المفتاح معي، خذه من تحت الباب..

استغرق منصور في ضحك شديد السخرية وهو يرى العجوز محمر

الوجه منتفخ الأوداج، هو ورفيقاه، وهم يلهثون في إعياء وخوف، وقال في

سخرية:

- من فعل بكم هذا أيها الأغبياء؟!

أين قدس؟! لم لم تفتح لكم الباب؟!

هتف العجوز في غضب هائل:

- اللعينة قدس هي من فعل بنا هذا، بعد كل ما فعلته لها، تحبسنا

منذ الفجر وحتى الظهر في هذه الغرفة!

قال منصور في استغراب مفتعل:

- ولم تفعل كل هذا؟ أين هي الآن؟ ماذا يفعل هذان؟ ما القصة أصلاً؟

هتف العجوز في غضب:

- لقد هربت! يبدو أنها سرقت نقودي.

ابتسم منصور قائلاً في سخرية مكتومة:

- هربت؟ ما الذي يدفعها للهرب؟ ماذا أتى بكم أصلاً لغرفة

الضيوف؟

أأستدعي الشرطة؟

زعق العجوز في ثورة:

- أنت توجه الأسئلة بالجملة، أحضر بعض الماء..

وردد في ضيق وتوتر:

- ثم لماذا الشرطة ما دمت قد تخلصت منها بهذه السهولة؟ صحيح

إنها سرقتني حتماً، لكن هذا لا يهم، فسيعوضني الرب.. لقد سامحتها!

امتلاً صدر منصور بالسخرية الشديدة مع ما امتلاً به قبلاً من

الحقد والكراهية لهذا القرد الأشمط..

كان يعرف أنه يعزف على الوتر الشديد الحساسية عند عمه

الخيث، كان عمه يرتجف عند سماعه كلمة الشرطة.

يعرف ذلك جيداً بسبب تجاوزاته القانونية المتكررة، يدرك أنه لو وقع في أيديهم متلبساً بشيء من جرائمه السابقة في مجال المخدرات والتزوير والرشاوي، فضلاً عن تهمة القوادة التي تعتبر أشنع وأبشع الجرائم في كل البلدان فضلاً عن بلده لكانت المشنقة بانتظاره.

كتم منصور بعض رغبته الملحة في الضحك..

ووقر في نفسه أن طوفان الطغيان والفساد يمكن أن توقفه قشة ضئيلة..

بشرط واحد؛ هو أن لا تتحني....!

كانت رامة تنظر من نافذة الشقة الصغيرة إلى العالم في الخارج، كانت هناك فتاة صغيرة تتحني في تعب وتهالك وهي تمد يدها للمارة الذين كانوا يقطعون الطريق دون أن ينظروا إليها، سواء دسوا في يدها بعض المال أم لم يفعلوا..

لا أحد ينظر لأحد..

كانت حياة أشبه بالبحر المتلاطم، من يستطيع السباحة فسينجو وإلا فسيغرق حتماً لأنه لن يجد من يمد يده إليه..

قالت هذا في نفسها وهي تتابع البنت وهي تطوف الشارع وتستجدي المارة، قبل أن يتجمع عليها عدد من الأولاد وهم يهتفون بعبارات لم تفهمها ..

كانوا يسخرون منها ..

هذا واضح من دموعها البائسة التي انهمرت وهي تتقرفص في مكانها وترمقهم في خوف وحقد، قبل أن ينقضوا عليها ويختطفوا ما بيدها من القروش القليلة.

صرخت في غضب بائس والدموع المعترضة تتفجر من عينيها الصغيرتين، وقد سال أنفها على شفتيها القذرتين؛ ركضت خلفهم وهم يضحكون ساخرين ويبصقون عليها ..

انطلقت تهتف بسباب طفولي بريء، قبل أن يهجم أحدهم عليها مهدداً بذراعه ..

تراجعت خوفاً وانكساراً وترددت في اللحاق بهم مرة أخرى، قبل أن تستسلم وتعود إلى الرصيف البارد وهي تبكي في مرارة شديدة ..

كانت رامة لحظتها تشهق في تأثر بالغ بدموع سخينة وهي تردد:

- كلنا هذا المصير أيتها المسكينة، كلنا ..

وعاد ناظرها الدامعان يجولان في الشارع البائس، كل شيء يستحيل في عينيها إلى الرماد ..

الرصيف، الأبنية؛ السيارات، الناس..

كل شيء..

كل شيء يتحول إلى الرماد ..

يموت؛ يذبل عندما ينتفخ الطفيان، ويزهو ويقهر رقبة العدل والأمن..

اختفت كل معالم السعادة والبهجة..

أقدام المارة تسحق كف الطفلة المتشردة عندما تستلقي على قارعة الطريق..

القوي يلتهم الضعيف..

والأولاد الأشقياء يلتهمون الحلوى التي اشتروها بمال هذه المتشردة..

ترمقهم بعين الحقد وقلة الحيلة، ودموعها المقهورة الحاقدة تنهمر

في صمت على خديها اللذين اصطبغا بلون أزرق وأسود لقطارتهما

وبرودتهما..

حتى الأشجار لم تعد تخضر..

كل شيء جميل مات في المدن الرماد..!

قطع أفكارها الأليمة صوت الباب، ونفذت إلى أنفها رائحة الخبز الطازج..

سمعت صوت منصور وهو يقول:

- ماذا فعلت يا رامة؟! أنت تثيرين خجلي؟!

ونظر في إعجاب إلى شقته التي بدت شيئاً جديداً عندما نظفتها

رامة ورتبتها، قبل أن يسحبها من يدها الصغيرة إلى المطبخ وهو يقول:

- دعينا نأكل الآن..

نظرت إليه في عذوبة الطفولة..

حاولت أن تعبر عما في قلبها الكسير المتجمد من عرفان..

لكنها كانت أصغر.. وأغبي.. من أن تفعل..

تذكرت فجأة ما رتبت كلماتها لتقوله له وهو يصيح بها:

- تعالي لتأكلي يا أميرتي...!

وأطل عليها متودداً قبل أن يسحب يدها قائلاً في سخرية:

- فيم تحديقين..؟ في جمال الشوارع النظيفة..؟

قالت ببراءة: - ماذا فعلت بشأني يا منصور..؟

قال لها في تودد وهو يمزق رغيفاً ويدسه في فمه:

- كل شيء سيكون على ما يرام يا قدس، ولكنك تستعجلين.

صمتت وهي تتطلع إليه في حيرة ورغبة شديدة بالكلام، فقال لها

في تودد:

- الآن كلي، وسأخبرك ما فعلت فيما بعد .

قالت له في استعطاف: منصور!

تهدد وهو يقول في صرامة حانية: - حسناً حسناً.. لقد ذهبت إلى

الجوازات لأستخرج لك جواز سفر، وتم الأمر بكل بساطة.. ببعض

المساعدات طبعاً..

هتفت في فرح عظيم: أحقاً؟ وأين هو الآن؟ أين جوازي..؟

قال لها في سخرية: - أعطوني إياه بمنتهى السرعة ومعه قطعة حلوى هدية لك..

وهتف في صرامة:

- إجراءات الجواز بطيئة، افهمي ذلك، لن يخرج إلا بعد إجراءات طويلة..

قالت له في لهجة حزينة بريئة:

- وموعد سفرك؟ إنه غداً.

قال لها في لا مبالاة مصطنعة وهو يحشو فاه الطعام:

- لقد أجلته طبعاً، إننا سوف نساfer على طائرة واحدة يا بنتي..

اتسعت عيناها في دهشة وهي تقول في امتنان طفولي:

- تقول أجلته؟ هل فعلت ذلك من أجلي؟

هز رأسه في ثقة وهو يقول في أبوية مقاوماً انقباضه الشديد:

- هل كنت تتصورين أنني سأتركك بعد كل هذا وأساfer؟

لقد ألغيت الحجز فقط وتوجد رحلة بعد خمسة أيام..

امتألت عيناها بالامتنان وهي تردد في وداعة طفولية:

- لقد أرسلك الله سبحانه لي سنداً، كنت أعلم أنه لن يتركني!

ابتسم منصور في أبوية أليمة صامته قبل أين يقول في تودد:

- تحبين الله، أليس كذلك..؟

ابتسمت رامة لسذاجة السؤال قبل أن تغرد في براءة:

- هل تشك في ذلك..؟ من هناك لا يحب الله.. الخالق.. الرازق..؟

وقهقت في عذوبة وهو يتابع تغريدها الطفولي في إشفاق، قبل أن

يقول:

- هل تسامحينني يا رامة..!

حدقت فيه في بلاهة طفولية قبل أن تقول:

- نعم أسامحك.. ولكن لماذا..؟

أشاح والانقباض يكسو قلبه الجليدي قبل أن يقول محاولاً تغيير

الموضوع:

- أنتم المسلمون تتعلقون كثيراً بالرب.. هذا رائع..

ردد منصور في هدوء:

- يعجبني في دينكم أيها المسلمون هذا التعلق الرائع بالرب، أنتم

تحبونه حقاً؟ ولذلك فهو معكم ويوفقكم.

أجدادكم تعلقوا بالرب كفاية.. ولذلك انتصروا بمنتهى القوة وكان

الرب معهم..

كان معهم حقاً..!

وتابع ساخراً:

- ولكي نتصر من جديد .. علينا أن نتعلق بالرب كفاية من جديد..!
نظرت ملياً في وجهه الوسيم بمنتهى البلاهة.. كانت تحبه.. تثق به..
أليس كذلك...!

✽✽✽

(٨) إلى الجحيم الصامت..!

مرت الأيام سريعة..

وجدتني أمسك بتذكرتي في وقت قياسي وأنا أتجه خلف منصور إلى
ممر الطائرة..

لأول مرة أرى هذا المخلوق الكبير بعدما كنت أسمع عنه فقط، رغم
ذلك لم تساورني لحظة أي مشاعر للخوف والرغبة؛ كنت وبفارغ الصبر
أنتظر لحظة الإقلاع؛ لا شيء مثل لحظات الانتظار البغيضة، ولا شيء
مهما كان خطره سيخيفني أكثر مما واجهت في بلادي وفي هذه المدينة..
أنا لا أنكر أنني أحسست بمغص الرهبة وأنا أجلس بجوار منصور وأطلع
للمرة الأولى على مدرج الطائرة، إلا أن ذلك كان لسذاجتي وبراءتي المفتالة..
تلفت كثيراً وأحسست براحة هائلة عندما بدأت الطائرة تبتعد عن
الأرض كما كنت أسمع في النداء..

ودعت في تلك الأرض البغيضة أطنان الحقد التي ينوء بها قلبي
الكسير..

كمية الكآبة القاتلة التي تطحن قلبي حالت بيني وبين أن أحس بلذة
لحظة الهروب، لحظة الحرية..

وأنا أحلق في فضاء الله العظيم..

أحسست بعظمة الرب الرحيم..
ونفحاته الربانية النقية بعيداً عن دخائن الأرض وأوساخها..
الذي يراك حين تقوم..
وتقلبك في الساجدين..
الذي هو في السماء إله.. وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم..
الجبار الذي تذلل له الجبابرة يوم يبعثون..
شاؤول.. فيفيان.. بطرس.. أنطون..
آين الجبارون.. آين المتكبرون..
كل هذا في فضاء الله تعالى.. بعيداً عن الأرض المقيتة..
عن عالم الطغاة.. عالم الطواغيت..
العالم الملعون.. عالم البشر..
عالم الكراهية والحقْد.. والمال.. والبغاء.. والقتل والعدوان.. والحرب!
تطلعت في الأرض البغيضة المملوءة بالطغيان، هتف في قلبي هاتف
البؤس الثائر:
- أيتها الأرض المقيتة، أنت لأبنائك المساكين سجن كبير، سجن
عظيم، يفر منه الإنسان من الجحيم للجحيم، من الجوع للموت، من
الحميم للنار..
من كل شيء بغيض إلى أبغض..

التفت إلي منصور وهو يقول:

- ماذا؟ هل كنت تكلميني؟

لم أرد عليه، فقد زاغت عيناى بشدة، ونيران الحقد وبراكين الثأر
تتفجر في صدري، وأنا أردد بصوت مسموع بلا شعور:

- الأرض، كل الأرض، سجن كبير..

كبير...

كبيير...!

تهدت رامة بقوة وهي تقول:

- لقد تعبت كثيراً يا منصور، لكننا وصلنا، هذا هو المهم.

رد وهو يرتشف كوب قهوته في فندق متواضع في نيويورك:

- حمداً لله على سلامتنا يا قدس.

ظلت تتطلع إليه في امتنان شديد وهو يشرد بفكره بعيداً، قبل أن
تقول في هدوء:

- لست أدري كيف أجزيك على ما فعلت؟ لقد كنت مخلصاً أرسله

الله لخلاصي من ذلك الجحيم.

رد في برود مقاوماً شعور انقباضه وهو لا ينظر إليها:

- أنت طفلتى المحبوبة التى لم أنجبها.. ثم..

وابتسم ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- يا صغيرتي متى تفهمين أنه ما دام البشر هم البشر فلن يتغير شيء؟

الفرق هنا هو أن الكل تحت القانون.

استمعت إليه في اهتمام وهو يقول:

ولأن القانون سهل وهش للغاية فما أسهل أن تكوني فوقه عندما تكونين غنية وتستطيعين تفويض بعض الأبواق الماهرة لتدافع عنك وتساعدك على اختراق القانون، ما أسهل ذلك، وما أسهل أن تقعي في قبضة القانون بالمقابل، تناقض غريب، ولعين كذلك، إنه ظلم وتحايل مفبرك ومموه.. فقط لا غير!

سرحت بخيالها وهو يسترسل في الحديث عن أميركا.. الجحيم الصامت..
حيث يرتع الظلم كما لا يرتع في أي مكان سوى أنه فقط.. في أميركا..
مغلف بغلاف العدل.. حيث القوانين التي ترحم المجرم وتعاقب الضحية والمغفلين..

ويستطيع الذكي والغني اختراقها بمنتهى السهولة..
ولا يستطيع البريء والفقير والصادق اختراقها أبداً..
هناك .. في الجحيم الصامت..
حيث اللا ضمير..!!

حدثها كثيراً عن المكان الجميل ذي السمعة المهيبة في أرجاء العالم،
والذي يختبئ في زواياه وأزقته القذرة أبشع مظاهر الظلم والوحشية
البشرية، وأقسى مظاهر الفقر والجوع والتشرد ..

في ذلك المكان الرهيب الذي ينتصب فيه ذلك الصنم الضخم ..
والذي يدعونه زيفاً وادعاءً رخيصاً :
- تمثال الحرية !

وردد وهو يرتشف بقية قهوته في كراهية :

- أيتها الحرية، ما أسهل أن يقهر المقهورون باسمك !
تراجعت في مقعدها والكآبة والخوف يدبان في قلبها مرة أخرى،
أيقنت الآن فقط أنه ما دام البشر بشراً .. فلن يتغير شيء أبداً .. !

مرت الأيام سريعة في نيويورك ..

واستطاع منصور أن يجد مكان خالي (معن) بسهولة بواسطة عنوان
بريده في نيوجيرسي ..

طلب مني أن أطلب رقماً طويلاً في الهاتف، وانتفض على الطرف
الآخر صوت أجش باك يهتف :
- رامة .. رامة ابنتي ..

ماذا يمكن أن أقول في هذه اللحظة ؟!

دعوني من زخرفة الكلام..

مكثت وقتاً طويلاً بعد مكالمتي الساخنة، وأنا أحاول تجاوز المفاجأة الهائلة الذهول..

حتى كان خالي في نيويورك بعد يوم فقط..

ضحك منصور كثيراً وهو يمسح دموعه التي سالت لفرط تأثره وهو يرانا نتعانق لأول مرة..

وقد أعجز البيان كلامنا..

تخاطبنا بالدموع، وعينا كل واحد منا تطفحان بكومة المآسي والفواجع في صدره..

تشبث بي خالي كثيراً وهو يحتوي وجهي الصغير بين كفيه..

كان يبدو كالمخبول وهو يخشى أن أطيّر من يده فجأة كما جئته فجأة..

تحدث منصور عني كثيراً في اعتزاز وفخر..

عن أني بطلة صغيرة، وكيف هربت من شأؤول وو...

وكذبنا عليه معاً بأن ثمن تذكرتي كان هدية من فاعل خير لبناني ثري..

لم أشأ أن أثير لدى خالي شعوراً بالمصيبة أكثر مما لديه بخصوص أُمي المسكينة..

كان يعرف ما جرى لها بوصفه وريثها الوحيد معي..

بعد أن قصصت عليه بعض الحقيقة بخصوص هروبي، هتف في

فخر وتأثر بدموع سخينة:

- كنت شجاعة.. كنت بطلة صغيرة.. أثبت شجاعتك وجدارتك
بالبطولة في سن مبكرة كخالك تماماً!..
عندما التقط كفي واحتضنني بعيداً عن الفندق، كان الذهول
والمفاجأة ما زالا يكتنفان صدره الواسع..
كان يتصور أنه ما زال يحلم.. ولذلك ضحك كثيراً..
وبكى أكثر..
كان منصور يقف على باب الفندق ملوحاً لي بكفه ببروده المعتاد..
لوحث له بكفي بقوة وأنا أحس أنه قد انتزع من بين أحشائي..
بمروءته، بنبله المتناهي..
نظرت إليه من خلف كتفي نظرة أخيرة..
كان قد لبث وهلة يراقبنا قبل أن أراه يستدير ماشياً بهدوء..
وهو يختفي..
وينوب..
وينوب..
في زحام نيويورك..
تماماً!..

(٩) الخال معن..

أدركت جيداً حجم الفرق بين عيشتي في نيوجيرسي، وبينها في فلسطين..

خالي معن كان يمتلك متجراً صغيراً للملابس، فضلاً عن عمله الأساس كعضو في الجالية الإسلامية، كان مخلصاً للحق، متديناً وطيباً.. استطاع بحسن أخلاقه أن يكسب شعبية كبيرة في حيه.. وتحول العديدون من جيرانه إلى الإسلام بسبب أسلوبه الدعوي الخاص..

كم أحب خالي..!

كانت روايتي الملفقة حول فاعلي الخير الذي تبرع أحدهما بتبنيّ والآخر بثمن تذكرتي، تلقي ظلالاً من الشك الكبير في ملامح خالي.. تزداد كلما رويتها مرة بعد مرة..!

قرر خالي أن يغير هويتي ويتبناني في الأوراق الرسمية، لأحصل مثله على الجنسية الأمريكية، أخبرني أن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً جداً.. لكنه بدأ بإجراءاتي فوراً.

خلال شهر من الإقامة في أمريكا كنت أكتب كتل الكأبة التي تحجرت في صدري، وأحاول ما استطعت ألا يراني خالي الحبيب حزينة، كنت أرحل لحظات الحزن إلى الليل، حيث كنت أبكي بشدة وبلا انقطاع حتى أنام..

لكن ذكائه وفطنته لم تغفلا عن نبرة الحزن في صوتي، وشرخ المأساة
الغامضة في عيني..

كنت كالبلهاء صامته شاردة الذهن لا شيء يثير انتباهي..

كان شعور الخزي والذل والعار يطاردني بلا رحمة..

وأنا أتذكر أيام العذاب الرهيبة..

كان خالي يسألني كثيراً عما بي..

لغبائي وقلة لباقتي لم أكن أجد ما أرد به عليه، فأظل أحرق فيه في صمت..

أرسم على شفتي ابتسامة مضحكة واضحة الاصطناع..

كانت تصيبه بمزيد اكتئاب وضيق.

ذات يوم استيقظت وشعور الكآبة والذعر يخنقان صدري بلا رحمة،

كنت أصرخ بمنتهى الرعب..

الكابوس اللعين يهاجمني بشراسة ووحشية.

التقطني خالي إلى مستشفى الولاية، هناك قال الطبيب وهو يقرأ

سجلي الطبي:

- إنها منهارة عصبياً بشكل خطير قد يفقدها قواها العقلية، لابد من

عرضها على وجه السرعة على طبيب أمراض عصبية.

وردد وهو يحرق في وجهي في تأثر واستغراب شديد:

- عمرها أربعة عشر عاماً، وتخزن كل هذه الكمية من المآسي في

وجهها الجميل البريء؟!

صمت خالي في خوف وأسى، ونظر ملياً في وجهي ثم رفع عينيه
ليتبادل مع الطبيب نظرة حزينة مفعمة بالحيرة...!

كان الخال جالساً بجوار رامة وهو يراقبها في أسى، مكث ملياً يحدق
في وجهها قبل أن يهتف بصوت مخنوق والدموع تحاصر عينيه:
- ألا تبأ لهذه الدنيا..

تبأ وسحقاً لإرادة الشياطين والطغاة...!
وردد في داخله:

- يا لك من صغيرة بائسة.. هل حقاً أن أمك قتلت أمام عينيك...!
زفر بكل ما في قلبه المكدود من ألم وقهر..
هو.. رامة..

وصور الطحن والقهر والعذاب تتدفق في مخيلته مثل مياه المجاري
النتنة..!

ما أنت إلا نموذج مصغر لمأساة فادحة يعيشها شعبنا المطحون...!
مكث بجوارها وهي ترقد في سكون تام وقد تكومت في تقاطيع
وجهها مأساتها كاملة..

لم يدر بالضبط كم مر من الدقائق والثواني..
وهو يبكي بمرارة كما لو لم يبك من قبل مصير أخته المروع..

أخته الوحيدة.. التي ماتت برصاصة عابرة سبيل..

والعذاب الذي يرتسم على وجه هذه الصغيرة..

وسنين العذاب السابقة التي عاناها هو في فلسطين..

وعقود النكبات التي تجرعها الشعب الفلسطيني..

بكفاحه وعرقه ودمه الطاهر الذي يغلي ثأراً في كل أرض مقدسة
سفع فيها ضحية الطغيان وجنون البشريين..

وردد ودموعه الحارة تتساقط على لحيته الوقورة وزفراته الملتهبة
تتصاعد إلى السماء:

- يا لشعب فلسطين المقهور!

وارتدت ذاكرته لتتراص في مخيلته صور المجاهدين الذين رووا أرض
المقدس من دمائهم الزكية، منذ عهد الانتداب البريطاني..

وإلى الآن..

عز الدين القسام..

فوزي القاوقجي..

عبدالرحيم الحاج محمد..

صورهم الجميلة وجباههم الشامخة تنتصب في عزة، والسلاح
البسيط في أيديهم..

صنعوا بإيمانهم العميق بالله تعالى، وبصدق قضيتهم، وإرادتهم
الصخرية، ما لم تفعله حقبة تالية من الفرقة والخداع والتحايل..

كل ذلك كان يمر في مخيلته ويهز صدره المكدود بالذكرى الأليمة الجميلة..
 بأنفاس بركانية وهو يردد ذاهلاً:

- مهما عثرنا يا أرضنا السليبة، سنقف يوماً على أقدامنا، لنأتيك ولو
 حبواً، نعم بشمة لترابك المقدس، نجاور في المسرى الشريف..
 نموت على ذلك التراب الطاهر المقدس..
 سنفعل ذلك حتماً..!

وردد والدموع تغرق وجهه الوقور:

- حتماً يا فلسطين.. سنفعلها حتماً..!

انتبه لصوت أنين خافت، التفت إلى رامة وهو يقول:

- ماذا هنالك يا حبيبتي؟

ولدهشته..

بل لفرعه..

فقد تحول أنينها المتقطع إلى صرخة ألم وذعر شديدين وقد فتحت
 عينيها على آخرهما في فزع وأمسكت بطنها بقوة وهي تصرخ في ذعر
 هائل وألم فظيع:

- خالي.. خالي.. بطني.. بطني.. أنقذوني..

هرع الأطباء والمرضون إلى الغرفة، كانوا يتصورون أنها نوبة
 عصبية، ولكن لدهشتهم، بل لذهولهم ورعبهم، كان سرير الفتاة طافحاً

بالدماء وهي تتلوَّى في ألم رهيب، وقد تلتطخ ساقاها وقدمائها ويدها
بدمائها النازفة..

كل ذلك جرى وسط ذهول الخال الذي ظل يصرخ في هستيريا:

- ماذا يجري؟ لماذا تنزف؟

ولم يجد من يجيب على سؤاله..

قال الطبيب في ذهول:

- أمر لا يصدق!

وكرر في غضب:

- أمر مثير للتعجب يا سيد بوشعيب، خصوصاً وأنكم مسلمون، وعرب، وأنك

بالذات داعية كبير لدينك.. هل يمكن أن يحصل هذا. هذا بالذات.. عندكم!

كان الخال مصعوقاً لا يحير جواباً، والطبيب يتابع:

- لقد كانت حاملاً في شهرها الثاني؛ وقد أجهضت جنينها؛ لقد كانت

ضحية اغتصاب وعنف يا سيد بوشعيب، وسيتم إحالتك وإياها إلى التحقيق..

انظر يا سيدي..

تطلع الخال المصدوم في الصور التي التقطها الطبيب الشرعي

لمناطق من جسمها تعرضت لأقسى أنواع التعذيب، مضروبة بعنف..

وآثار حرق بالسجائر..

وخدوش بآلات حادة وأظافر بشرية..

وآثار عض وركل..

وغيرها وغيرها..

مع تقريره الذي أرفقه في ملف التحقيق الذي فتح واستمر إلى سنة كاملة.

تحدث صحفيو الولاية عن أصغر فتاة تتعرض للإجهاض في الولاية،

وتتلقى الآن العلاج والرعاية النفسية الفائقة في مركز لإعادة التأهيل..

أما هي، فبعد أن بدا كل شيء واضح تماماً..

واسترخت الفضيحة الشائكة في حياتها التعيسة..

بعد كل ذلك..

لم يبق لديها ما تخسره..

لم يبق لها سوى إيمانها بالله تعالى..

وبقية من عقلها الذي مزقته مصائبها تماماً، فحولتها إلى مختلة

ذاهلة بائسة..

تدور عيناها بلا معنى، وتتنظر دون أن تعي..

لا تجيد الكلام.. مثلما تجيد الصراخ والعيول..

لم تعد تفرق بين أنواع الكتل أمامها..

كل شيء صار مربعاً..

كل شيء بلا استثناء..

كل شيء تحول في عينها إلى الرماد..

وكل الناس أصبحوا أمامها وحوشاً..

وخنازير بشعة..

كل الرجال بطرس.. كلهم أنطون.. وكميل.. وبيار.. وجورجي..

وكل النساء فيفيان..!

الكل مرعب لا يمكن الاقتراب منه..

تخرج إلى باحة مركز الرعاية، يحاصرها الصحفيون بآلات التصوير

وأستلثهم..

لا تدري ما يقولون، لا تراهم سوى كتلاً مضطربة متزاحمة من الرماد..

تتجول بعينها اليائستين في أرجاء الحديقة، تجلس على الأرجوحة

وتظل تتأمل الأطفال المعاقين الذين يلهون ويعيثون..

تتأمل الطيور، الأشجار، كل شيء..

كل شيء.. بلا استثناء..

تحول إلى الرماد..!

عندما انتهى كل ذلك...

حزم الخال أمتعته وأخذها إلى ولاية ميشيجان..

كل شيء نقله إلى اسمها..

وهناك حصلت على الجنسية بعد وقت قصير..
وهناك تابعت حياتها المشوهة العرجاء..
وهناك.. وهذا ما يجب أن تتذكره جيداً..
حطت رامة رجالها..
وحطت رجال مأساتها هناك..
إلى حين....!

✍️

(١٠) غضبة قرد..

تل أبيب - الحي الرئاسي - منزل الرئيس الشاؤولي:

كانت الساعة الثالثة صباحاً، حيث دق جهاز الاتصال بجوار أذن الرئيس الذي استيقظ قائلاً في تكاسل:

- من هذا اللعين؟!

جاءه صوت رئيس وزرائه قائلاً:

- أعتذر لمقام الفخامة، ولكنه من الضروري إخبارك بأن عليك أن تفتح شاشة استقبالك الفضائي، الآن.

تهد الرئيس في ضيق شديد وهو يقطع الطريق نحو أحد غرف قصره قائلاً:

- ماذا هنالك أيضاً؟!

رد رئيس الوزراء:

- مؤتمر صحفي يقيمه الرئيس الأمريكي، حول عملية ٧٠٥ في حي العمارنه برام الله، افتح الشاشة فقط.

استرخى الرئيس أمام الشاشة بينما كانت حواسه تتحفز بحقد أسود؛ كان الرئيس الأمريكي يتكلم بلهجة ساخطة أمام حشد كبير من الصحفيين:

- علينا أن نعلن أمام الله، وأمام أنفسنا وأجيالنا القادمة، وأمام العالم أجمع وأمام التاريخ، استنكارنا الشديد، ليس فقط لما حصل في رام الله قبل البارحة، وإنما لحقبة مشؤومة من الإرهاب، ضد الشعب العربي الذي يقطن إسرائيل، حقبة بدأت منذ قيام الحكومة الشاؤولية قبل خمس وعشرين سنة من الآن، وامتدت إلى الآن وستمتد إلى وقت مجهول.

تمتم الرئيس الشاؤولي في هدوء وحقد: هكذا إذا!

وتابع الرئيس الأمريكي وهو يهتف:

- إنه لمن العار على الشعب الأمريكي أن يصفق بحرارة لما تفعله الحكومة الشاؤولية من التفرقة العنصرية ضد العرب مهما يكن السبب، وإنه لمن حق الرب علينا، ومن حق التاريخ أن أعلن أن مذبحه رام الله ليست أقل من جريمة غبية تستحق أشد الاستنكار.

زم الرئيس الشاؤولي شفتيه في حقد هائل وهو يستمع إلى عاصفة التصفيق الحارة التي قوبلت بها جملة الرئيس، وتمتم:

- لو أنكم لم تفعلوها مراراً أيها البيض (العاريل)!

وتابع الرئيس وهو يكمل في حماس:

- الشعب الشاؤولي بجميع طبقاته هو من أكثر الشعوب صداقة لشعبنا، ونحن نعتز أنه بالرغم من انخفاض الميزانية السنوية التي تقتطعها حكومتنا لمساعدة الحكومة الداوودية - بالرغم من ذلك، فإننا مازلنا نعلن تأييدنا وتقديرنا الكبير للشعب الشاؤولي، ولحكومته، لكن

ذلك لا يعني أن نتخلى عن أبسط مبادئ الإنسانية ونتجاوزها؛ ما فعلته الحكومة الداوودية في رام الله كان جريمة بشعة نكراء، ولا توجد أي عقلية تؤيد فرم سكان حي كامل تحت عجلات سيارات السفلة، عدد من البشر يبلغ مائتين وستين شخصاً ما بين رضيع وعجوز، وامرأة ورجل، سحقوا بلا رحمة تحت عجلات سبع عشرة سيارة من سيارات السفلة؛ إنها لجريمة يهتز لها ضمير الإنسانية، جريمة بلا داع تضاف إلى سجل العمليات الإجرامية التي فعلتها العقلية الدموية المفرطة الإرهابية، والتي تسيطر للأسف على شعب شاؤول المحترم دون مبرر..

ضغط الرئيس الشاؤولي أعصابه وهو يستمع إلى الرئيس الأمريكي: - إنه لمن العار ومن المخزي أن تظل هذه الجرائم ترتكب ضد الشعوب قليلة الحيلة، والتي تعاني العنصرية والفقر والجوع؛ لمجرد أنها تسكت وتعجز عن المقاومة.

إننا نعيش في القرن الحادي والعشرين، ذلك القرن الذي يفترض أن تعيش كل الشعوب فيه بلا فوارق تحت مظلة المحبة والإخاء، يفترض أن يتطور الإنسان ويترفع عن انتهاج شريعة الغاب، القرن الذي يجب أن يتوقف فيه مد الدماء؛ وقد وصلت البشرية إلى مستوى عال من التمدن، وصلت إلى كواكب المجموعة الشمسية، وهي في طريقها لإنشاء مدن في الفضاء الخارجي، لحل مشاكل البشرية أجمع بلا فوارق، كل هذا كنا نحلم به قبل أن نستيقظ على وصمة العار التي لحقت هذا القرن،

وأحقته بغيره من القرون المتخلفة، وصفحات التاريخ السوداء، قبل أن نستيقظ على مذبحة (رام الله) لنكتشف وبكل أسى أننا كنا نحلم فقط...! ضجت هتافات مؤيدة وصرخات باكية ممزوجة بالتصفيق الهائل:

- كلنا نكرههم، كلنا نكره الشاؤوليين.. كلنا ..

انتفض الرئيس الشاؤولي بحقد هائل وهو يردد:

- هكذا إذا أيها (العاريل)١٩

وتتهد في ضيق شديد وهو يدرك أن العالم بأجمعه بدأ يتململ من النفوذ الصهيوني ويبيدي عداوته له كما كان الحال قبل ثلاثة قرون من الزمن، هكذا لن يستطيع مشروعنا أن يكتمل وقد أوشك..

المقامون الإسلاميون البغيضون ينتشرون ويتكاثرون كالدود حول اورشليم (القدس) ويتسببون في خسائر في صفوفنا لا تقل عن ثلاثين في اليوم الواحد، والجنود الجبناء يفرون وينزحون عن اورشليم المقدسة.. إنها لمشاكل كثيرة، بعضها يكفي لإثارة الجنون..١٠

قطع أفكاره صوت رئيس وزرائه وهو يقول:

- هل سمعت يا سيدي الرئيس١٩

رد الرئيس في حقد ممزوج بثقة:

- لقد أعلنت أمريكا عداوتها جهاراً، ماذا ننتظر١٩

صمت رئيس الوزراء على الجانب الآخر، بينما تابع الرئيس:

- سوف نسحب سفيرنا، ونعلن تجميد العلاقات الدبلوماسية، سوف نعاقبهم كما يجب على هذا التدخل، كل هذا ريثما.. ريثما..
واختلطت ضحكاتهما الساخرة القذرة...!

١٥٦

(١١) في ميشجان..

قطعت فتاة محجبة الطريق إلى بيت صغير وهي تتأبط حقيبتها في وقار قبل أن تمت يدها إلى جرس باب البيت الحديدي وتدقه في أدب، قبل أن يرد عليها صوت أنثوي صارم:

- من بالباب؟

ردت الفتاة مداعبة:

- إنه لص مسلح، بمدفع وقاذفة صواريخ..!

قالت هذا وهي تدفع باب البيت وتدلف وتخلع حجابها قائلة:

- أين أنت أيتها الشقية؟

برزت من إحدى الغرف فتاة نحيلة القوام، ترتدي معطفاً أنيقاً أسود طويلاً إلى منتصف ساقها، وبنطالاً فضفاضاً أسود، وتغطي شعرها بغطاء أسود مزركش جميل يحيط بوجهها الأبيض الهادي البالغ الجمال. هتفت الفتاة في دهشة واعتراض:

- أوه! لقد استعددت للخروج.. أين تتوین الخروج في هذا الوقت بالذات؟

ردت الفتاة الأخرى في صرامة وودية:

- أنت تعرفين برنامجي الروتيني يا عائشة، اليوم موعد التموين الشهري.

تهتدت عائشة وهي ترمي جسدها على أريكة قريبة قبل أن تقول في خبث:

- لو أن هناك أحداً آخر في البيت لما اضطررت للخروج للتموين.

حدجتها الفتاة بنظرة جانبية صارمة وهي تعدل وضع غطاء رأسها

أمام المرأة، بينما تابعت عائشة في خبث:

- كنت ستمكثين كالأميرة في بيتك، تعدين الأطباق الشهية بانتظاره

وهو يحمل أكياس التموين، وتساعدينه عندما يدخل والأكياس تكاد

تسقط منه، وتقولين له:

- كم أحبك يا زوجي الحبيب..!

كتمت الفتاة رغبة بالضحك الساخر وهي تكز شفيتها في سخرية

وتهز رأسها في صمت، بينما تابعت عائشة في شجاعة:

- نعم.. أنت سعيدة بهذا الخيال.. قللي ذلك يا رامة...!

رامة...!

نعم رامة أيها القارئ..

بعد ثلاث عشرة سنة من العيش في ميشيجان..

أعد النظر في الصورة مرة أخرى..

إنها رامة بعدما أصبحت منذ ذلك العهد رامة أبو شعيب..

المواطنة الأمريكية الصالحة، والتي قذفت ماضيها الأسود في بوتقة

النسيان بعدما تلقت أكثف علاج وعناية نفسية لمدة أربع سنوات كاملة..

تبلغ الآن سبعاً وعشرين سنة، وتعمل في صحيفة محلية، بعد
تخرجها في جامعة ميشيجان في تخصص الإعلام..
من يراها لأول وهلة يصاب بالرهبة لشخصيتها المتأنقة المهيبة،
ورائعة ومؤدبة وصارمة ووووو.....

كل هذا فيها.. واضح وصريح دون مواربة.
لكنه في الحقيقة لم يكن أكثر من ماكياج صنعه الأطباء لنفسية
مشروخة غير طبيعية، تحمل كتلاً قبيحة من العقد النفسية. دون
إرادتها..

نفسية معذبة تعيش على المهدئات والأدوية، وقبل ذلك كله تعيش على
الإيمان العميق أكثر وأكثر بالله تعالى..
تلكم هي رامة يا عزيزي القارئ، وهي تستدير إلى عائشة وتقول في
صرامة ساخرة:

- من قال إنه يسعدني يا عائشة؟ إنه يثير سخريتي فقط!

ردت عائشة وهي تعترض:

- الزواج يثير سخريتك يا رامة؟ كيف تقولين ذلك؟!

حملت رامة حقيبة يدها وهي تركز شفيتها في سخرية؛ فوقفت
عائشة وهي تقترب منها قائلة في عتاب وودية شديدة ممزوجة برجاء:

- لابد من أن تعيشي حياتك طبيعية يا رامة، إذا كنت قد تعذبت في مرحلة من حياتك..

هل يعني هذا أن تعيشي في صندوق مغلق؟ أو تحت صخرة؟

أو لوحدك في جبل؟ هذا غير منطقي يا رامة.. أبداً!

تشبثت رامة بحقيبتها وعائشة تتابع في رجاء:

- رامة يجب أن تتخلصي من الخوف؛ أنت فتاة رائعة؛ خطأ كبير أن

تذهب روعتك وإيجابيتك وأفكارك ضحية مرحلة سوداء من عمرك القصير!

ردت رامة في عناد ويدها ترتجفان بشكل غير طبيعي وهي تتصنع

الوقار:

- أكل يوم سنناقش هذه القضية العقيمة؟

أليس في عقولكم ما هو أكبر من الزواج وتداعياته؟

تشبثت عائشة بكتفيها وهي تقول في لهفة:

- الزواج سنة الله في خلقه يا رامة، وأنت مسلمة وتنتمين إلى جاليتنا

الرائعة الموحدة، المؤمنون يتزوجون مثل رسول الله ﷺ، المؤمنون يفعلون ما

تمليه عليه فطرتهم السليمة دون أن يخلجوا أو يتصنعوا، والادعاء تغيير

لشيء خلقه الله، لا يفعله المؤمن..

الزواج أنس وأمان..

نظرت إليها رامة وهي تقول في صرامة:

- كل هذا أعرفه يا عائشة، لكنني شيء آخر.. و..

قاطعتها عائشة وهي تقول في عتاب:

- اسمعيني يا رامة؛ يجب أن تقدرى موقعك في الجالية وتعرفي

دورك فيها؛ الكثيرون من أفراد الجالية لا يجدون زوجات صالحات؛ هل

نرضى أن يضطروا للزواج من الطرف الآخر؟ ونحن نتفرج؟

صمتت رامة وهي تعبت بحقيبتها في عصبية قبل أن تقول:

- عن إذنك، لقد أشغلتي عن مواعيدي..!

وأسرعت الخطى نحو الباب وهي تتجاهل صوت صديقها وهي تقول:

- خديجة ستأتي وبرفقتها مريم.. لا تتأخري..

ردت رامة وهي تقفل الباب:

- أقفلن الباب جيداً، انتبهن لأنفسكن.

كانت تضغط أعصابها وهي تقذف بالمعلبات داخل عربة المشتريات،

هربت بالكاد من أختها الأمريكية المسلمة..

أول صديقة وأخت عرفتها في حياتها المعذبة، وأروعها..

حيث يجتمع الإيمان العميق بالله مع العلم الشرعي والحماس للدعوة

إلى الإسلام..

كانت تتمم كلما رأتها وهي تلقي كلماتها في مسجد الجالية، أو وهي

توزع الكتب المجانية في سيارتها على أفراد الولاية:

- هكذا الإسلام، وهكذا يكون المؤمنون!

لكنها منذ أن بدأت تخنقها بطلبها اللحوق أن تتزوج شقيقها الشيخ
عبدالقادر، وهي تحس بالضيق منها ومنه.
إنها لا تتكر أنه رائع..

مسلم أمريكي متمسك بالدين ومكافح في سبيل الدعوة، ويحبها
لذات الله تعالى، وكذلك يحبها لذاتها وروحها الصافية.
كل هذا تعرفه، لكن..
هي..

هي لا تصلح للزواج كما صرخت بذلك مراراً في وجه عائشة وشقيقها..
ما كان يعذبها هو أن عبدالقادر يعرف كل ما جرى لها، ويدرك ما
تعانيه من أمراض نفسية، كانت تظن أنه يريد لها كي يعالجها..
هكذا اعتقدت وتصورت..

إنه يتصدق عليها كما يمليه عليه إحساسه العميق بالمسؤولية تجاهها
بوصفها جارته.

تمتعت وهي تدفع الحساب في عصبية:

وأنا أرفض الصدقة، أرفضها بشدة...!

ابتسم المحاسب في هدوء وهو يراقبها تحمل أكياسها في عصبية
قبل أن يقول ساخراً:

- مسكينة! يبدو أنها لم تتناول دواءها اليوم.

كانت تشعر بالضيق الشديد وهي تتذكر مواقف الشيخ عبدالقادر معها..

كانت تحس أنه يفرض نوعاً من الوصاية عليها لأنها مريضة..

تذكرت كيف اقتحم بيتها بعنف لكي يطفئ حريقاً بسيطاً في

مطبخها وأجبرها بعد ذلك على الاحتفاظ بطفايتين للحريق..

تذكر كيف يحملها قسراً بسيارته إلى المستشفى عندما تداهمها نوب

التشنج في بيتها..

كيف يقوم بالصيانة الدورية لسيارتها دون علمها، ودون إذنها لو

علمت..

مواقف كثيرة فعلها معها تثبت أنه يشفق عليها ويفرض عليها وصايته

كطفلة رغم أنه لا يكبرها بأكثر من ثمان سنوات..

إنها متأكدة من ذلك تماماً رغم أنه يعاملها بلطف واحتشام ويؤكد

على محبته لها. ورددت في غيظ: كم أكره تصرفاتك!

وشهقت بقوة وهي تراه يخرج من منزله بثوبه الأبيض وعباءته البيضاء

ولحيته الشقراء ووجهه الوسم حاملاً حقيبته متجهاً إلى المسجد، حاولت أن

تتحاشاه بأن أبطأت في سيرها، لكنه توقف وهو يسترق النظر إلى سيارتها،

قبل أن يستدير وهو يقول في نفسه في صرامة متوترة:

- إنها تستطيع الاعتماد على نفسها في هذا.

تنفست رامة الصعداء وهي تحمل أكياسها بسرعة داخل البيت،

وعندما دلفت استقبلتها مريم بصوتها الرقيق:

- السلام عليكم يا رامة.

وساعدتها في حمل الأكياس وهي تقول:

- لا تبدين على ما يرام اليوم، هل من خطب؟!

تجاهلتها رامة وهي تتجه إلى المطبخ؛ فتمتمت مريم:

- لاشك أنكما تشاجرتما يا عائشة بخصوص الزواج.

هزت عائشة رأسها وهي تقول في سداجة مندفة:

- لا بد من زواجها، هكذا يقول أخي، أولاً لأنه سنة الله في عباده، ثم

إنها مصابة بمرض (الفوبيا) ضد كل الرجال، لا يعقل أن نتركها في

محنتها لوحدها، يجب أن نعالجها ولو رفضت، ثم إنها مصابة بالهستيريا،

ولابد من وجود أحد يرعاها، لو أصابها مكروه فنحن السبب، ثم هي فوق

كل هذا وذاك امرأة ضعيفة بحاجة لرجل يسندها.

تتهدت مريم وهي تتحسس بطنها المتكور قائلة:

- يا عائشة، هذه الفتاة مسكينة، ما تعانيه كنا سنعاني منه لو تعرضنا

لنفس الظروف وبقينا غير مسلمين، دعينا لا نجبرها على شيء لا تريده

حتى لا نفيق ونجدها قد هربت من ميشيجان!

رددت عائشة في اعتراض:

- لا يا مريم، إنها عاقلة، ثم إن بيت وثروة خالها الشيخ معن رحمه

الله هنا ولن تفرط بها مهما كان الوضع.

وأشارت إلى أرفض الكتب المتراسة وهي تقول:

- انظري إلى ثروتها العظيمة من الكتب، والتي تنفق عليها جل راتبها، حاسوبها وموقعها على الشبكة المركزية، أكوام الأقراص المدمجة، عالمها الذي صنعتة المسكينة لنفسها لكي تنسى ما لقيته في لبنان وفلسطين، وتمحو عن نفسها لقب الساذجة، المريضة نفسياً ونزيلة دار الرعاية النفسية وإعادة التأهيل سابقاً؛ إنها ثروتها يا مريم فكيف تهرب وتتركها إلى عالم آخر غير مأمون تقفل على نفسها بالحديد لخشيته؟!

رددت مريم في تأثر:

- لكنها مسكينة، أنتم تعذبونها وتطلبون منها أمراً مستحيلأ لها بالذات..

كيف تطلبون منها الزواج والإنجاب وقد تعرضت للاغتصاب والعنف في مرحلة مبكرة من طفولتها ومراهقتها؟!

هذا مستحيل تماماً، وحتى لو افترضنا أنها تزوجت شيخ عبد القادر، هل تتصورين أن زواجها سيستمر وينجح بالقدر الذي تخططون له؟!

إنه زواج منهار من البداية!

نهرتها عائشة بقولها:

- لا تكوني متشائمة، نحن نرجو الله تعالى ولا شيء مستحيل على

إرادة الله..

ثم إن أخي مستعد لتقديم كل التنازلات، ومستعد لأسوأ الظروف في سبيل أن تكون رامة زوجته، أخي رجل مسؤول ويعرف كيف يتصرف معها، ثم لا تتسي أنها جارتنا منذ أكثر من عشر سنوات ونعرف أحوالها جيداً.

وتابعت في جدية:

- صحيح أنها صرخت بوجهينا مراراً، اتركوني لوحدي، اتركوني في حالي..

لكننا لن نستسلم، ولن نتنازل عن شعورنا تجاهها بالأخوة والمسؤولية، كالبنيان يشد بعضه بعضاً..

لاذت الاثنتان بالصمت عندما أقبلت رامة وهي تحمل طبق الفاكهة، وعندما رأتهما صامتتين أدركت أنهما كانتا يتكلمان عنها؛ تجاهلت ذلك وهي تمد الطبق إلى مريم قائلة في تودد:

- الحوامل أكثر احتياجاً..

فرقع صوت عائشة بضحكة عالية، فالتفتت إليها رامة وهي تقول في سخرية:

- لا داعي لكل هذا القدر من الافتعال يا عائشة، نعرف أنك مرتبكة.

صمتت عائشة وهي تحقق فيها قبل أن تطلق ضحكة أشد وهي تهتف:

- يا لك من شديدة الملاحظة والنقد، ذكاؤك الغريب يمكنك من قراءة

الأفكار..

ولسانك السليط لا يكف عن إبداء المساوئ، لست أدري كيف
سيتحمل أخي المسكين كل هذا؟!

عضت رامة شفيتها وهي تقول في تحد:

- لن يتحملة أبداً، أعلم ذلك!

ردت عائشة في ودية:

- بل سيتحملة، وأنا أكاد أتخيل ذلك..!

أرادت مريم تغيير دفة الحديث فقالت:

- هناك أمور أهم، ترى هل نشر مقال زوجي في صحيفتكم يا رامة؟!

هزت رامة رأسها وهي تقول:

- لكنه لم يحدث الضجة التي توقعتها له يا مريم، خصوصاً وهو

يتحدث عن واقع التفرقة العنصرية في البلاد، موضوع مثير وقد تعمدت

أن أجعله في مكان بارز، لكن أحداً لم يعقب عليه بكلمة..

وقضمت قطعة من الفاكهة ويداها ترتجفان بشكل ملحوظ، عندما

لاحظت مريم ذلك امتلأت عينها بدمعة تأثر كبيرة وهي تردد في

نفسها:

- تباً لمن أوصلك لهذه المرحلة أيتها المسكينة، لهم عذاب الحريق!

واستغرقت في التفكير بهذه الأعجوبة المتناقضة أمامها؛ القوية

الشديدة، المتناهية الضعف، الواسعة المعرفة، الشديدة البراءة، الواضحة التكلف والاصطناع، والمفرطة في العفوية؛ كل هذا تتذكره وهي تردد:

- إنها لأعجوبة حقاً، أن تصبح هكذا رغم ظروفها القاسية وبعد فترة علاج، مكسب عظيم وإنجاز مذهل.

قالت هذا وهي تتأمل رامة وهي تعبث بشعرها الأسود الحريري الطويل وقد استغرقت في تفكير عميق، استطاعت أن تقرأه من خلال شرح المأساة في عينيها السوداوين العربيتين الجميلتين..!

هتف السفير الأمريكي في ثورة عارمة:

- أنت تتجاوز حدودك يا أدون مزراح، وكأنك بهذا التصرف تفرض وصايتك ووصاية حكومتك على الإرادة الأمريكية.

رد الرئيس الشاؤولي في برود وحقد:

- هذا ما اتفق عليه مجلس الحاخامات الأكبر، لقد سحبنا السفير في طريقنا لقطع العلاقات الدبلوماسية ما لم تتوقف الحملات الدعائية ضد السامية؛ من أفراد شعبكم العزيز، وأدبائكم، سياسيينكم وصحفيينكم، كلكم عليكم أن تلتزموا الأدب وتصمتوا عن التدخل فيما لا يعنيكم، أما أنت فلن ننتظر كثيراً حتي ترحل..

رد السفير الأمريكي ثائراً:

- أنت تهين الإرادة الأمريكية بقولك هذا!

رد الشاؤولي ساخراً: ماذا تعني بالإرادة الأمريكية؟

هل أعلنتم مسبقاً فرض سيطرتكم على العالم؟

صمت السفير الأمريكي في غيظ هائل ومزراح يتابع:

ألستم تدعون العدل؟

إذاً ليس من العدل أن تتدخلوا في شؤوننا ولا نتدخل في شؤونكم..

أليس كذلك؟

رد الأمريكي في ثورة:

- تصرفاتكم العنصرية أقضت مضاجع الشعوب، رؤساء العرب

والمسلمين بدؤوا يهددون الإرادة الأمريكية ويتحدونها بجرأة خصوصاً مع

انهيار معاهدة حظر السلاح التدميري الشامل قبل عشر سنوات،

العرب والمسلمين بدؤوا يلوّحون لنا بالحرب الشاملة، نحن وأنتم يا

شاؤول..

وشعبي الغبي يضغط علي لإيقاف مد تصرفاتكم المفرطة العنصرية..

معاملتكم الوحشية والحيوانية للشعب المستسلم لمصيره الأسود، حيث

تحول الإنسان عندكم إلى أقل من حشرة.. نعم حشرة..

والذي يختبئ في أقبية سجونكم ومكاتب تحقيقكم ضد المقاومين

الإسلاميين حول القدس وداخلها أعظم وأفضع؛ لقد فعلتم في عقد من

الزمن ما لم يفعله هولاء التتري، وبونا برت المخبول، وهتلر وموسوليني وفرانكو وكل الطغاة، هذا غير طبيعي، هذا جنون يا أدون مزراح، ما لم تتمسكوا بمبادئ إنسانية فعلى الأقل خافوا من عواقب هذا الضغط الرهيب على الشعب العربي، ها أنتم ترون كيف تتدلع المقاومة كالثيران الهائجة التي تسحق جنودكم الأغبياء بلا رحمة..

ألا ترون كيف تتفجر العمليات الفدائية في كل لحظة..

لا أحد يرضى الذل والهوان، فما بالك بالعرب... ١٩١

رد مزراح في قحة وقردية:

- لا نتدخل في شؤون غيرنا، وأنتم تفعلون..

هتف الأمريكي في انفعال:

- من قال إنكم لا تتدخلون؟

ماذا تسمون تصرفات لوبيكم وجاليتكم التي تحرق أعصاب الساسة

منذ العهد الأول للعم سام؟

رد مزراح في خبث حقير:

- تصرفاتهم لسنا مسؤولين عنها، لا شأن لنا..

لوح الأمريكي بيده وهو يهتف:

- ماذا عن الشاعر (ولهم ستو) والذي قتل بأيدي متطرفيكم في بيته؟

ردد مزراح في برود:

- نال عقابه وقتل نفسه بنفسه؛ من الذي أمره أن يتدخل في

شؤوننا؟

من الذي دفعه لكتابة ديوانه «أيها الفلسطيني»؟

بل من أباح له أن يعترف بشيء اسمه فلسطيني؟

صمت الأمريكي في غيظ حارق ومزراح يردد في سخرية:

- قتلوه بسبب قصائده التي أحفظها عن ظهر قلب!

قال الأمريكي ثائراً: هكذا إذاً؟

تجاهله مزراح وهو يقول:

- أيها الفلسطيني المعذب..

يا من تسكن روحه لعنة الشقاء...

منذ ١٩٤٨م..

أيها النسر المهيض الجناح...

والمحارب الثائر بلا سلاح...

في لوحة وجهك أغصان الزيتون ونكهة الزعتر والبرتقال..

ودماء العروبة والشجاعة..

رغم ذلك تعيش مرغماً مثل الأرض تداس...

ويلصقون بك الشر والإرهاب...

ما كأن لك حقاً في الدفاع عن إرثك الطاهر القديم..
عذبوك بالإذلال قبل السياط والسلاسل وأحواض الحامض..
يفقؤون عينيك..
لكنك ترى كرامتك بقلبك الكبير الشجاع..
يا أيها المسكين المقهور...
هل كانت غلطتك أنك دافعت عن حقك بشجاعة؟
أي جرم اقترفت لتبقى محروقاً كسيراً؟
محروماً من أبسط حق للإنسان؟
محروماً من شجرة تفاحك وتكعيبة كرمك وبياراتك الجميلة؟
لا تشم هواء وطنك نقياً..
تذكر ماذا فعلت؟
حتى استطاع الشاؤولي أن يفرغ عقده الرهيبة...
التي تجمعت لديه منذ مئات السنين..
في جسدك المقهور؟
ماذا فعلت؟
حتى استطاع هذا المريض نفسياً أن يشنقك بكوفيتك الخضراء..
ويعلق زوجتك من ساقها بحجابها الأسود الكثيف؟
هتف السفير:

- لم يقل إلا بعض الحقيقة، ثم إنه لا حق لأحد في قتل أحد..

ولوح بذراعه في لهجة تهديد متهورة:-

- أنتم جنس من الشعوب لا تقنعون بغير مبادئكم المريضة المتعفنة وتطبقونها بوقاحة أينما وجدتم؛ ما لم يعتدل هذا الوضع يا أدون مزراح فسوف تفيقون لتجدوا أنفسكم في محارق النازي مرة أخرى.. وهذه المرة لن تجدوا أبداً من يهتز قلبه شفقة عليكم، لأن المحارق سينصبها لكم العالم بأسره وليس فقط العرب والمسلمون؛ حينها ستلجؤون إلينا كعادتكم وتطلبون مصاصة الأطفال المدللين؛ نحن الذين نتحمل وندفع ثمن حماقاتكم دائماً؛ لا شيء عندي أقوله لشعبي، ولقد بدأت أتخوف كثيراً من تهديدات الدول المسلمة التي تملك السلاح الشامل الدمار، وتحدث دائماً عن إعادة الوحدة الدينية وإقامة الخلافة من جديد، كلهم تمللوا بعد سنوات من الصبر..

ضبط الشاؤولي أعصابه وهو يعدل بذلته قائلاً:

- كما أكدت لك، لا دخل لنا بشؤونكم الداخلية، يمكنك حل خلافاتك العائلية داخل منزلك كما أفعل أنا..

قال هذا وهو ينسحب من الاجتماع، والسفير الأمريكي يكاد يلتهم شفتيه غيظاً.. وغضباً...!

كانت رامة تجلس على مكتبها في مقر الصحيفة التي تعمل بها، منهمكة في عملها إلى النخاع.

كان زميلها ينظر إليها في سخرية وهو يهمس لزميلته الشقراء:

- ألم يخطر ببالك أن تعدي كلماتها منذ استلمت الوظيفة قبل سنتين؟

ابتسمت زميلته وهي تهمس في سخرية:

- إنها غير ودودة، فضلاً عن أنها مختلة العقل كما يشاع عنها.

رد زميلها في حذر:

- لا أتصور أنها مختلة كما يشاع عنها، إنها تعمل بكفاءة عشر موظفين

وذكية وحذرة وخبيثة أحياناً، وفوق هذا تثير غيظي، وتكرهنا بوضوح.

ردت زميلته هامسة:

- بل هي مختلة تماماً، سمعت أن محكمة الجالية الإسلامية قد

فرضت عليها وصاية سرية لا تعلم بها، وتراقبها بحذر لئلا تعرض نفسها

للخطر، مختلة، مختلة، أنا متأكدة..!

لم يبد على رامة أنها تسمعهما وهي تنهمك في عملها، وهمس

الزميل يرتفع قليلاً وهو يقول:

- أفراد الجالية الإسلامية الذين يشكلون ثلث سكان الولاية الآن،

ودودون جداً خصوصاً عندما يتعلق الأمر بدينهم والدعوة إليه، خصوصاً

نساءهم اللاتي هن أكثر تشدداً من هذه النحيلة، يغطين شعورهن

ويرتدين المعاطف السوداء الفضفاضة، رغم ذلك فهن ودودات جداً

ويتكلمن بثقة عن أحكام دينهن، ويدعونني كثيراً للدخول في الإسلام،

لسن مثل غريبة الأطوار هذه.

قالت الزميلة بصوت مسموع:

- دعك منهم، فأنا أكرههم جميعاً ولا يعنيني أن يكونوا متشددين أو معتدلين.

قال الزميل: كلنا نكرههم، لكن المعتدلين الذين يطبقون الإسلام الوسط كما يدعون، أخف ظلاً من المتشددين الذين يشبهون رهبان القرون الوسطى، والذين يهددون أمن البلاد كالمتشددين الكاثوليك والأرثوذكس، والمتشددين اليهود كذلك، كلنا يكرههم بالوزير..!

همست الزميلة في حقد:

- يضيقون البلاد علينا، ويزاحموننا في أعمالنا، لم يبق إلا أن يقذفوننا..

ولدهشتها فقد ردت رامة بصوتها المفتعل الصرامة والخشونة:

- من ذا الذي يجرؤ على أن يرمي سلالة العم سام في البحر أو البر كما فعلوا بأبناء فلسطين عام ١٩٤٨

صمت الزميلان وهما يستمعان في خوف ورامة تتابع بهدوء وبرود غريب:

- لأننا طردنا من بلادنا فقد أتينا هنا وليس لأننا نحب وجوهكم المنتفخة كالطماطم..!

احمر وجه لويز غضباً والزميل يقول في خوف محاولاً تهدئة الموقف:

- آنستي رامة لا تقولي هذا، فلم نكن نقصد شيئاً كلنا نمضي قدماً لخدمة العلم الأمريكي، والعم سام لا يفرق بين أبنائه..

ابتسمت رامة وهي تقول في عصبية مكتومة:

- أتَهْزَأُ بي؟ أم أنك تتلو علي بنداً في دستوركم لم ولن يطبق؟

بادرت لويز تقول في عنجهية:

- آنسة رامة، أنت تتحدثين عن البلاد كما لو لم تكوني أمريكية، لم لا

ترحلين إذا لم يعجبك الوضع؟

ردت رامة في برود وهي تحرر ورقة أمامها:

- لا أحد يرغب في العيش خارج وطنه، ماذا لو عرض عليك العيش في

كندا رغم تشابه الظروف؟ هل كنت ستعيشين هناك ما لم تكوني مضطرة؟

صمتت لويز عندما ركلها زميلها برفق في ساقها محذراً ورامة تتابع

وهي تمضغ كلماتها كطريققتها في الكلام دائماً: - أنا لا أكره العلم

الأمريكي، ولكني لا أدعي أنني أسعى لخدمته، أنا مسلمة، والمسلم خلقه

الله لكي يصلح به ما يفسده أغبياء البشر، خلقه الله محباً للبشرية

وساعياً لهدايتها، هذا يعني أنني بوصفي مسلمة، مسخرة لخدمة

البشرية أنني وجدت في أميركا أو في الهند مجرد خادمة للحق.

رد الزميل وهو يمسخ عرقه في محاولة لقطع الحديث:

- كلنا كذلك، نحن نحب فيكم هذا الأمر أيها المسلمون ونحن كذلك

سوى أننا ننفذ إرادة العم سام.

ردت رامة في برود وهي تركز على ورقة أمامها:

- العم سام هو وثكم الذي تعبدونه من دون الله في الحقيقة، تسعون لتحقيق إرادته مهما بلغت أخطاؤها، تماماً كما يسعى اليهود في بلادهم لتففيذ رغبات كهانهم الذين يملون عليهم رغباتهم الدموية، ما الفرق إذا كانت الرغبة التدميرية موجودة في النموذجين ولو متفاوتة؟

رد الزميل في اعتراض باعتدال واضح الافتعال:

- آتستي، من قال: إننا تدميريون؟ من قال: إن العم سام يريد ذلك؟ هزت رامة كتفيها قائلة في سخرية:

- قاله تاريخكم المكتوب والمصور عن مذابحكم ضد الهنود الحمر، وعنصريتكم القبيحة ضد الزنوج إلى نهاية القرن العشرين، بل ضد من تسمونهم الملونين إلى الآن..

من ينكر ذلك منكم أنتم؟

فتح الزميل فاه ليتكلم لكن رامة تابعت مشيخة وهي تكتب:

- ألم يكن في وسعه أن يأمركم بالتعايش السلمي مع الأجناس الملونة التي تحتقرونها لئلا شيء رغم أنها أثبتت تفوقها العقلي مراراً وأثبتتم تفوقكم الجسدي عليها، الجسدي فقط.. من وضع في اعتباركم أفضليتكم بسبب لونكم الأبيض؟ وتتشفقون بالمساواة؟

من الذي يدفعكم الآن للمنافسة على لقب الأقوى ما دمتم تتادون بالسلام العالمي..

أليس هو العم سام الذي تغيرون إرادته كلما كثر المحتجون على تصرفاته السلبية؟

وتابعت في سخرية:

- أنا لا أردد أكثر مما رددت علماءكم ومفكروكم الذين أحب فيهم نزاهتهم وتجردهم للحق، كلهم بلا استثناء، بل إن نسبة كبيرة من شعبيكم الذكي المتمرد يؤكد أن توصيات العم سام لم تكن أكثر من أكاذيب ملفقة مغلطة بالعدل والديموقراطية..

ووقفت وهي تحمل ملفاً، ولوحت بذراعيها قائلة في حركة مسرحية:

- أيتها العدالة.. كم من المظالم ترتكب باسمك..!

(١٢) العلم الملعون..

على مبنى زجاجي ضخّم في تل أبيب، كان الغموض يخيم تاركاً ملايين علامات الاستفهام حوله، وحول لونه الغريب الذي يعكس ما هو خارجه مخفياً بقوة ما في داخله..!

في أحد ممرات ذلك المبنى الزجاجي قطع رجل نحيل فارغ القامة، ذو ملامح قردية قميئة، وشعر أبيض خفيف، الطريق نحو باب ضخّم إلكتروني، اقترب من رتاجه الذي يقع على أحد ظلفتيه، ونقر بأصبعه على لوحة مفاتيح صغيرة عليه، برقم سري طويل، لينفتح الباب ببطء كاشفاً عن قاعة هائلة الاتساع، يصطف على جانبيها عدد كبير من أجهزة الحاسب عليها عدد من العلماء الذين يرتدون معاطف بيضاء خاصة بمتخصصي البيولوجيا.

وقف هؤلاء العلماء احتراماً وهم يهتفون بصوت واحد:

- لحياة حكومتنا الشاؤولية.

فرد عليهم بهزة باردة من رأسه وهو يقول:

- سأتابع معكم على حاسوبي نتيجة عملكم اليوم، كونوا معي.

وجلس على حاسوبه الضخم وبدأ ينقر على مفاتيحه حتى ارتسمت على شاشته محتويات الشاشات الأخرى، وتكلم قائلاً بصوته الأغن

القبیح البارد: إذاً فقد توصلتم تقريباً إلى منتصف المرحلة العشرين، هذا جهد طيب وقياسي في أقل من يومين.

تكلم أحد الباحثين قائلاً في ارتباك:

- سيدي البروفيسور إلياهو، يبدو لي أن الاكتفاء بنهاية المرحلة العشرين من تطوير الفيروس أمر طيب ومستحسن.

زوى البروفيسور حاجبيه الكثرين قائلاً في برود: ولماذا؟

عدل الباحث نظارته على أنفه وهو يقول بلهجة ملعثة:

- المرحلة العشرين كافية لتحقيق الهدف، وهي بالمقابل آمنة بالنسبة لنا، لو تجاوزنا هذه المرحلة فسوف نجد أنفسنا مطاردين بفيروس قوي لا يمكن مقاومته.

تمتم البروفيسور في صرامة وبرود:

- ليس هذا من شأنك يا دكتور حاييم، ما عليك فعله هو أن تمضي في عملك.

ازدرد الطالب ريقه وهو يلوذ بالصمت في ارتباك شديد؛ بينما قال البروفيسور:

- ستبدأ تجاربكم البشرية غداً؛ لقد وصلت دفعة من الجويم البارحة: ستة من العرب، وستة من المغول، وثمانية أوروبيين وأمريكان، وبعض الزنوج والهنود، لقد أبلغتني إدارة التمويل بذلك.

صفقت إحدى الباحثات وهي تقول في تدلل: هذا رائع يا بروفيسور.
تجاهلها البروفيسور وهو يقول في صرامة: الأوامر الرئاسية
والكهنوتية تقتضي أن ينتهي المشروع خلال خمس وأربعين يوماً من الآن،
أنا واثق من همتكم جداً.

وقال وهو يغادر القاعة:

- تذكروا أننا نفعل ذلك لكي نحقق أمراً طاملاً حلم به آباؤنا.

وتابع في حماس ودموية:

- لنتربع على عرش العالم أجمع!

✽

(١٣) عبدالقادر..

استرخى عبدالقادر في كرسي حديقته وهو يقول في هدوء:

- ما الجديد يا عائشة؟ ما الذي دفع رامة لأن ترسل لي هذا

العصير الذي يبدو لذيذاً؟

قالت عائشة في غضب وهي تدفع الكأس إليه:

- عبدالقادر، اشرب الكأس، إنه لا يحتوي شيئاً.

رد بهزة رفض خفيفة من رأسه وهو يقول في حذر:

- ليس قبل أن تجربيه أنت، ماذا لو كان يحتوي سمّاً؟

هتفت عائشة في غيظ: هذا وأنت تنوي الزواج منها؟

استدرك بالقول في سخرية:

- ليس سمّاً بالشكل الذي تتخيلينه، ملح بدل السكر مثلاً، فلفل، أو

أي شيء يمكن أن يكون إجراء انتقامياً من مشاجرة البارحة..

ردت عائشة في غيظ:

- لو كنت مكانها لقتلتك بلا تردد، وإلا فمن سيتحمل تدخلك البارحة

في حادث مروري بسيط حصل لسيارتها وهي تتسوق بسلام، لتسحب

مفتاح سيارتها وتجبرها على العودة معك بحجة أنها لم توقف سيارتها

بشكل صحيح؛ صدقني أنها سخافة وتجاوز للحدود لا يطاق ولو كنت
عبدالقادر، ولو كانت هي رامة!

رد عليها في صرامة:

- رامة تحت الوصاية، هذا حكم المحكمة، ووصية خالها رحمه الله
ويجب تنفيذه بمنتهى الصرامة.

ردت عائشة في غيظ: لو كنت مكانها لقتلتك مع أني أختك!

قال في برود وهو يركز على كتب بين يديه:

- أنت لست تحت الوصاية، ولست مريضة مثلها، أنا لا أفعل هذا
عداوة وإنما حماية لها، هي تعرف حالتها المرضية وتكابر وترفض
الاعتراف بها، ولولا تدخلني لما وجدت هذه الغريبة الأطوار غضاضة في
قيادة سيارة مصدومة، فضلاً عن أنها لن تقوم بصيانتها أبداً، وهو ما
فعلته مباشرة بعد ما قذفتها أمام منزلها وهي تصرخ هياجاً وشراسة
بدلاً من أن تقول جزاك الله خيراً!

قالت عائشة في غضب:

- وقد أخرجتها بفعلك أمام العالم! تريد أن تشكر! ألم أخبرك

أن أسلوبك الفظ هو ما سيحملها على الجنون!

هز كتفيه العريضتين في مبالاة وهو يقول مركزاً على كتابه:

- هذا لا يهمني، ما يهمني هو إرضاء ربي، وراحة ضميري تتعلق بذلك، ولولا أنني فعلت ما فعلت، وتعرضت هذه المسكينة للخطر بسببي لما سامحت نفسي إلى الأبد!

ردت عائشة في غضب:

- هكذا لن تتزوجا، ولو فعلتما فلن تتفاهما.

قال لها في سخرية:

- الزواج أمر آخر، عندما يذوب قلبها حباً لي لن ترى أي عيب من عيوبي التي ليس أكبرها فظاظتي..

هي تحبني.. هكذا أشعر...!

قالت عائشة في حدة:

- إنها شخصية متمردة وقلقة، لن ترضى بأسلوب رعاة البقر هذا..

ابتسم ساخراً وهو يشيح وهي تتابع في حزم:

- ثم دعنا في حاضرننا، ماذا ستفعل لو أنك مريض نفسياً حقاً ووجدت من يحصي عليك أنفاسك بحجة أنك تحت الوصاية، أقسم بالله أنك لو كنت مجنوناً لما رضيت بذلك أبداً، فكيف بها وهي جارتنا الحميمة اللطيفة، وتعمل بصورة طبيعية معنا وفي صحيفتها، وذات آراء وأفكار شديدة التور والذكاء؟!

أي عذاب تعانيه والمجتمع ينظر إليها نظرة شفقة وعطف لأنه يتصور أنها مريضة؟

رد عبدالقادر في غيظ؟

- أنا لا أفعل ذلك إلا لأن تصرفاتها تثير جنوني، كيف تسافر خلسة دون علم محاميها الوصي ثم تتكرر ذلك؟

كيف تختفي في اليوم مائة مرة ثم تعود وكأنها لم تفعل شيئاً؟

كيف تقود سيارتها تحت تأثير دوائها كثيراً رغم تحذيري؟

وكيف تعرض نفسها للخطر ثم ترفض أن يساعدها أحد؟

أليس كل هذا دلالة على اختلالها؟

ردت عائشة في استغراب:

- أنت لست ومسؤولاً عنها، ثم هي تحمل هوية مستقلة منذ عشر سنين، وهي لا تكذب أبداً، ولكنك أنت الذي تريد أن لا تغيب عن ناظريك وجوارك..

ثم هي مسلحة بمسدسها دائماً، أي خطأ تفعله؟

قال عبدالقادر في إصرار:

- أنا رجل أمن يا عائشة، ومن واجبي بوصفي مسلماً، قبل أن أكون رجل أمن، أن أحميها بقوة ولو رفضت، عنادها الفظيع يجعلني متأكداً من أنها ستعرض لمصيبة على غرار حرائقها المتكررة في مطبخها، وحوادث سيارتها التي لا تحصى.

وصمت قليلاً قبل أن يقول في هدوء وجدية:

- ثم لا تنسي أنها ستكون زوجتي بقليل من الصبر، هذا يجعلني أشعر أكثر بمسؤوليتي عنها، وبأنها...

وبأنها لي، ولا بد ألا يمسه سوء!

قال هذا وهو يتبادل مع أخته نظرة عميقة قبل أن يمد يده ليأخذ الكأس من يدها وهو يقول:

- سأشربه، لتعلموا فقط أنني أحبها..

ورفع الكأس إلى شفثيه مبتسماً في حب، وجرع منه قليلاً قبل أن يقول:

- لذيذ، ماذا يحصل يا ترى؟

وشرب الكأس كاملاً وهو يقول في سعادة:

- بدأت أشعر مع كل رشفة أنه عربون حب، ألا تشعرين؟

ردت عائشة في خبث وتشف:

- أبداً ليس كذلك، لقد أعطيتها علبة مسهل قوي المفعول لتخلطها

كاملة مع عربون الحب هذا؟ أنا فعلت..!!

نظر إليها في ذهول غاضب وهو يمسك بطنه قائلاً:

- هل فعلتماها أيتها الشيطانان؟

وركض متأوهاً بالأم داخل المنزل، بينما اختلطت ضحكات شقيقته

بضحكات رامة المتشفية من خلف الحديقة...!

كانت رامة تقود سيارتها متجهة نحو بيتها بعد انتهائها من حضور مؤتمر صحفي لعمدة الولاية جيسي ويليامز، كانت الساعة تقترب من الثامنة مساء.

كانت تغمر سيارتها بجو حالم وردي بفعل آيات القرآن الكريم التي تتردد من مسجل السيارة، كانت منسجمة حتى الصميم في تأمل تلك المعجزة الرائعة التي تذيب أعنى القلوب وتصيبها بالرهبة والخشوع؛ لم يعد غريباً أن تكون آيات القرآن هي المهدئ الواضح الفعالية لأعصابها وتصرفاتها في أي وقت وتحت أي ظرف؛ كانت تردد في سرها أن هذا ليس إلا شيئاً يسيراً من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العظيم..

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ

إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ... الآيات ﴿

كانت يداها ترتجفان حول المقود وقلبها يهتف بكل ألم:

- ترى أين أنتم يا من تدعون محاربة العدوان والظلم؟

أو ليس في هذه الآيات العظيمة ما سيمنع الظلم ويقطع دابره؟

العدل، ولا شيء غير العدل، هو ما سيحل مشاكل العالم كلها..

العدل الذي هو في صميم هذا الدين العظيم، وهذا القرآن المعجز..

الظلم ما زال موجوداً، ولا بد له أن يختفي ليعيش العالم سعيداً..

عالم من الحيوانات البشرية هو الذي يكرس هذا الطفيان الكاسح،

ويدشن آله الضخمة المعقدة التفاصيل، ولا بد لهم أن يموتوا بلا رحمة

حتى يخفت صوت الفساد النشاز..

ويموت معهم الظلم بلا رجعة!

بدأ عقلها المضطرب يستعرض محتوياته الضخمة، عن بداية الظلم،

وعن بداية الجنون البشري الذي طار يعد بعد انتشاره عقلاً وحكمة.

ارتسمت في مخيلتها صورة لموقف ابني آدم، حيث كان قابيل يهتف

في جنون في مقابل حكمة أخيه وتعلقه بالإيماني: «لَأَقْتُلَنَّكَ، لَأَقْتُلَنَّكَ»!

وتخيلت ما كان سيحدث لو أن كل من في الأرض طبق مبدأ العقلانية والحكمة الإيمانية: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٨ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ

ارتعشت مرة أخرى في خشوع وهي تردد في انبهار عظيم:

- نعم، نعم كيف لم أنتبه من قبل؟

ذلك جزاء الظالمين، ذلك جزاء الظالمين..

النار الجحيم، جزاء الظالمين!

وارتجف قلبها المكدود بغبطة شديدة وهي تتخيل أقطاب مأساتها العميقة، وهم لا يردون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون، ورددت في سعادة كبيرة في شعور عميق بالانتقام:

- وذلك جزاء الظالمين، وذلك جزاء الظالمين!

وحانت منها التفاته إلى السماء العظيمة الخلق، الرهيبة المنظر، تخيلت أن الميزان بكفتيه يملأ السماء، وتساءلت:

- ماذا سيحصل لو أن كفة واحدة مالت ميلاً طفيفاً؟ ما الذي

سيحصل في هذا العالم؟

ماذا لو كان الميل عظيماً كما يحصل الآن؟

ووقر في نفسها أن العالم الآن يغطس في مستنقع آسن منتن من الخطايا التي تدور في فلك الظلم والطغيان، من الشرك والإلحاد، إلى القتل والجريمة، إلى التحايل والغش..

لا عدل .. لا عدل ... !

عند هذا الحد انقطع تفكيرها وهي تنظر مدهوشة أمامها، قبل أن تركن سيارتها بسرعة وتنزل راكضة، إلى بار (ملهى) ليلي، ونظرت إلى ساعتها التي اقتريت من التاسعة، لم يبدأ وقت اللهو بالنسبة للمدينة؛ لكنها اقتريت في توجس من حارس الملهى وهي تقول:

- أريد الدخول لمقابلة..

قاطعها الحارس بقوله في سخرية وهو يتأمل غطاء شعرها:

- لم يبدأ العرض بعد يا آنسة!

تضايقت وقالت بسرعة:

- من سيحيي الليلة؟!

رد عليها في سخرية:

- مكتوب على الملصق يا آنسة، لو أنك تعرفين اللهو.

هتف في صرامة:

- قل لهم إذاً أن هناك من ينتظر في الخارج لمقابلة.

زوى الحارس شفتيه وهو يقول:

- يمكنك الدخول، لكنني لست مسؤولاً لو طردوك لرفضهم المقابلات

الصحفية.

دخلت بخطوات سريعة إلى غرف الملابس، حيث كان أفراد الفرقة

يتدربون على وصلتهم، فقالت في لطف وهدهوء:

- سعدت بلقائكم، هل كل أفراد الفرقة موجودون؟

قال أحدهم في فجاجة وهو يتأملها بقحة:

- الراقصة ترتدي ملابسها.

قالت في اهتمام: ما اسم الراقصة؟

همهم أفراد الفرقة ساخرين:

- كيف تسأل عن واحدة لا تعرفها؟

قالت في صرامة ويدها ترتجفان في عصبية:

- فقط أخبروني؟

رد أحدهم: جي - تي، الراقصة ألا تعرفينها؟

انتبهت لصوت رقيق ناعس يقول من الخلف:

- من الذي يسأل عني؟

إن كان صحفياً فسوف أبصق في وجهه؟

التفتت رامة بسرعة لتواجه الراقصة التي كانت ترتدي بقية ملابسها

في بطء، ملابسها التي لا تتجاوز قطعة صغيرة علوية بلا أكمام، وتنورة

فاخرة طويلة ومشققة إلى الأعلى.

كانت تزوي حاجبيها وملامحها في صلف واضح الاصطناع، وقد بدى

وجهها بدون ماكياج كقطعة من الجلد الباهت، لكن تقاطيع وجهها بدت

مألوفة جداً..

جداً جداً عند رامة التي اقتربت منها الراقصة ببطء وهي تعدل ملابسها في سلحفائية، هي تلوك كلماتها قائلة في صلف:

- من هذه الصغيرة؟ كيف أستطيع مساعدتك؟

عصرت رامة ذاكرتها وهي تدلك جبهتها قائلة:

- أنا أعرفك، صدقيني، لكنني نسيت اسمك، لا تخبريني، اسمك هو .. هو ..

انفجر بقية أفراد الفرقة ضاحكين في سخرية ورامة تردد:

- أنت .. أنت ..

كانت الراقصة تنظر إليها في ازدراء مفتعل وسخرية حقيقية وهي تحيط خصرها النحيل بكفيها الشاحبتين، قبل أن تقول:

- إن كنت متسولة فأنا لا أعمل أعمالاً خيرية، وإن كنت تحبين التعارف فأنا أصيلة ولا ...

صرخت رامة فجأة:

- نعم نعم ...

جورجيت .. جورجيت شقراء ..!

وانفجرت جملتها كقنبلة في المكان ...

كان عبداً لقادر يدور في قلق وتوتر وهو يقول لأخته:

- لم يكن من الحكمة أن تذهب لهذا المؤتمر أبداً في مثل هذه الساعة، كان عليك أن تمنعيها أو على الأقل....
قاطعته أخته في غيظ:

- للمرة المليون يا عبدالقادر، لا تتدخل في شؤون رامة، لقد أخبرتني بأنها ستذهب مع أنه لم يكن من الواجب أن تخبرني أبداً.
رد أخوها في صرامة:

- لا تجعليني أحنقك يا عائشة، فقد كررت عليك مبدئي بدوري مليون مرة، ولست بحاجة لأعيد عليك أن علينا مراقبتها في كل خطواتها..
قاطعته بقولها:

- لكي نحميها من الأخطار والأخطاء؛ لأنها مريضة وغير مسؤولة عن نفسها وووو...
ورددت في غيظ:

- متى تمتع عن احتقار مسؤوليتها؟ أنت ومحاميها؟
كيف تعتبرونها غير مسؤولة عن نفسها وغير محاسبة على تصرفاتها
كالمجانين؟

هذا لا يطاق أبداً!

رد عليها في حسم وغيظ:

- عندما تكف عن هذه التصرفات الهوجاء وتعترف بأنها امرأة ضعيفة ومن الممكن أن تتعرض للأذى، عندما تكف عن رعونتها سأكف أنا!
- ونظر في ساعته في قلق وهو يهتف:
- إنها التاسعة والرابع، هذا لا يحتمل وقد قالت لنا أنها ستعود في الثامنة!
- واتجه إلى باب منزل أخته وهو يقول في غضب:
- رجل الأمن الناجح لا يقف مكتوف اليدين، سأبحث عنها.
- قال أمير زوج أخته في سخرية:
- يا عبدالقادر، أنت تهول الموقف وهو لا يستحق ذلك، اتصل بهاتفها النقال لتعرف أين هي الآن، وارتح من هذا العناء.
- رد عليه عبدالقادر وهو يعدل طاقيته على شعره الذهبي الحريري:
- أتهزأ بي يا هذا! ١٩..
- قال أمير في صوت خافت:
- لها كل العذر لو قطعت الاتصال...!
- رد عليه عبدالقادر في غضب وهو يخرج من المنزل:
- كلكم أغبياء وخالون من المسؤولية تماماً!
- وصفق الباب بقوة وسط قهقهات أخته وزوجها الساخرة..!

(١٤) الراقصة جون..

امتتع لون الراقصة بشدة وهي تقول في ذهول:

- كيف تعرفيني؟ هل لديك تلك الذاكرة القوية التي لا أملكها؟

قالت رامة بابتسامة باردة وهي تستسلم ليدها التي سحبتها بعيداً:

- جورجيت شقراء من لبنان، بنت جبيل!

عقدت الراقصة ذراعيها قائلة في سخرية:

- عرفت الآن لماذا لا أتذكرك؛ لأنك عرفتني في مرحلة ما قبل

التاريخ!

وقهقت في رقة ممجوجة مصطنعة البرود وهي تقول:

- أنا كذلك عرفتك.. أنت..

ضحكت رامة في رقة وهي تقول في أسى وتردد:

- لأننا أصحاب قضية واحدة يا جورجيت، يؤلمني أن..

لكنها فرصة سعيدة بلقائنا غير المتوقع...

ربتت الراقصة على خدها في وداعة وهي تقول:

- لا عليك يا حبيبتي قديسة.. أو قداس..

رددت رامة:

- رامة أبو شعيب، وليس قدس، هذا اسمي الحقيقي.

بادرت الراقصة بقولها :

- أنا كذلك، اسمي هو (جي - تي) اسمي الحركي، أما في الأوراق الرسمية فأنا جون جولد، شيء من التزوير البريء..

هزت رامة رأسها وهي تقول:

- كيف أتيت هنا؟

ردت جون جولد في لا مبالاة:

- وجدت فرصة وهربت من لبنان، ودعت حياة الكلاب التي عشناها معاً، وعندما هبطت على أرض المطار مزقت جواز سفري أمامهم..

وتابعت في نرجسية:

- لا أنكر أنني جعت كثيراً كثيراً حتى حصلت على الجنسية الأمريكية، لكنني احترفت الرقص الشرقي، أنا إحدى أشهر الراقصات الشرقيات إن لم أكن أشهرهن في كل الولايات المتحدة، يجرون معي المقابلات الصحفية حتى ضجرت، وبرنامجي مزدحم للغاية بالحفلات والسهرات.

قالت رامة في صراحة:

- لم ألم أعرفك ما دمت شهيرة هكذا؟

ردت جون في غضب:

- لأنك غبية ولا تتابعين المطبوعات، مجلة أضواء واشنطن الفنية أجرت معي لقاء، النيويورك هذا اليوم نشرت تفاصيل حياتي كاملة.

قالت رامة في استنكار: كاملة!؟

هزت جون رأسها في ثقة، فرددت رامة والدموع تتزاحم على عينيها
ويدها ترتجفان في عصبية وتوتر وهي تبتسم ابتسامة عصبية:

- أنت شجاعة، أنا دفعت عشرين ألف دولار على مدى حياتي هنا
لأنسى تلك الفترة الرهيبة التي أجبرت فيها على .. أوه..

وانهمرت دموعها وهي تبتسم في تماسك قائلة:

- علينا أن ننسى.. كان علينا أن لا نتحدث في هذا الأمر بتاتاً..!

قالت جون وهي تريت على خدها في حنان واستغراب:

- أجبرت!؟

قالت رامة وهي تضغط أعصابها في تماسك:

- إنها قصة طويلة.. طويلة..

وانطلق لسانها يروي ويروي..

نزل عبدالقادر مسرعاً وهو يقول في قلق:

- ها هي سيارتها، يا للمعتوهة!

وتطلع حوله في قلق وهو يسأل: أين ستكون!؟

انتبه لصوت الحارس وهو يقول في فجاجة:

- إنها تخص آنسة نحيلة جداً ذات جمال هادئ ومثير، إنها هنا.

رد عليه عبدالقادر في غيرة وهو يضم قبضته في وجهه:

- لم أطلب منك أن تتغزل بها .. أين هي؟

أشار الحارس إلى الملهى وهو يقول ساخراً في حقد:

- ثمت تطور، المتعصبون بدؤوا يدخلون الملاهي!

اتسعت عينا عبدالقادر في استنكار شديد، قبل أن يدلف بخطواته

القوية وهو يقول:

- حقاً لا أعلم ماذا دهي هذه المعتوهة؟ ماذا تفعل في بؤرة الفساد هذه؟

وتسمر مكانه عندما رآها وهي تستند إلى صدر جون جولت وتنتحب

في مرارة شديدة بصوت مرتفع، بينما كانت تحاول تهدئتها؛ فاندفع يهتف

في غضب عارم وقلق شديد:

- ما الذي فعلته بها أيتها السخيفة؟

هل أذيتها بشيء أيتها الغانية؟ هل أخفتها بشيء ما؟

إنني رجل أمن وسوف لن تغلتي من العقاب أيتها الدنيئة.. سوف

أقبض عليك الآن وأعرضك للمساءلة فوراً..

أخبريني ماذا فعلته بها؟ إنها لن تدخل هذا المكان دون أن تسحبها

إليه لغرض في نفسك الدنيئة، أخبريني هل سرقتها؟ أم عرضت عليها

المخدرات أم ماذا؟

لماذا تبكي هكذا لولا أنك قد فعلت بها شيئاً؟

كانت عينا جون جولت قد اتسعتا عن آخرهما لهذا الهجوم الفظ
المباغت الغريب والتهم الموجهة بالجملة إليها، وألجم لسانها صوته الرنان
وأصبعه الموجه إليها بقوة وهو يكاد يهجم عليها قبل أن يلتفت إلى رامة
التي كانت تسدد له نظرات غاضبة مغيظة وهو يقول في حنان:

- هيا يا صغيرتي رامة، أخبريني ماذا فعلت بك هذه الوقعة، لن
أدعها تفلت ولو

قاطعته رامة بزعة قوية:

- إنها لم تفعل لي شيئاً، إنها صديقة حميمة.. وأنت الذي كنت فظاً
وقحاً ولا تعرف كيف تتنقى ألفاظك أو تتبين ما الخطب، عجول وصاحب
شكوك.. اعتذر بسرعة لكيلا أفقدها بفجاعتك المجنونة.. هيا..!

ازدرد ريقه وهو يردد النظر فيهما في حيرة؛ قبل أن يقوم في ندم
وخجل شديدين وهو يهرش شعره الأصهب:

- أنا آسف.. آسف جداً أيتها الرفيقة العزيزة، كان سوء فهم مني؛ إنه
لن المخجل أن يتصرف مؤمن مسلم بهذه الطريقة يا عزيزتي، ولكنها
عاطفة الأبوة الجياشة..

أنا أكرر اعتذاري لوقاحتي وسوء أدبي..

أكرره بشدة أيتها الرفيقة.. سامحيني!

قالت جون في سذاجة ساخرة:

- أهو أبوك هذا الذي يتعامل معك كابنة عشر سنوات أو أقل؟

هزت رامة رأسها بالنفي فيما بادر هو بالقول في ارتباك:

- إنها قريبتي، ولذلك فعلت هذا يا عزيزتي، أنا أكرر اعتذاري!

رددت جون في سخرية:

- أنت محظوظة إذ وجدت قريباً تلجئين إليه هنا، وليس أي نوع من

الأقرباء.. بل نوع فريد وغريب ونادر...

رددت رامة في ضيق:

- ومثير للأعصاب كذلك.. أنا أستاذن.

قال عبدالقادر في حزم: هيا بنا، اركبي سيارتك فوراً.

هتفت جون: بطاقة تعريفي يا رامة، هاك.

التقطتها رامة وهي تتجه إلى سيارتها متجاهلة عبدالقادر الذي تبعها

وهو يقول:

- كعادتك دائماً، تسببت لي في مشكلة كيف سأخرج منها؟

من يضمن لي أن هذه الغانية ستسسى ما فعلته لها ولا تعتبره مؤشراً

سيئاً عن المسلمين؟

كله بسببك!

وركبت سيارتها وهي ترفع صوت مسجلها في عصبية شديدة وهو

يكرر خلفها غاضباً:

- تصرفاتك تزيد سوءاً يوماً فيوم، لن أسكت على هذا .. اخفضي صوت المسجل وردي على سؤالي؛ لماذا تأخرت عن موعدك؟ هه؟ هل تلومني عندما أ تدخل في شؤونك وأنت لا تحسبين حساباً لتصرفاتك؟ وضرب بقدميه الأرض في غيظ عندما انطلقت بسيارتها متجاهلة إياه تماماً، وركب سيارته وانطلق بها بينما كانت جون تراقبهما في غبطة وسخريّة:

وانطلقت قهقهاتها المجلجلة....!

- حسناً .. حسناً.. ماذا لديك يا صغيرتي هذه المرة.. !
هكذا ردد عبدالقادر في امتعاض وهو يجلس على أريكة مقابلة لرامه في منزلها، بينما انهمكت في العمل على حاسوبها وهي تقول:
- لو تساعدني بابتعادك عن طريقي في كل خطوة أخطوها..!
رد في عصبية وأخته تشير له ليصمت:
- اتعنين أنك كنت تريدني أن لا أسأل عنك، هكذا...؟ لا أسأل عن مكان وجودك وقد تغيبت إلى التاسعة في ليل أميركا المخيف.. هذا ما تريدن بالضبط وأنا أفهمك جيداً جداً، لكن أنت لن تفهميني حتى تحصل لك مصيبة.. صدقيني..!

قهقهت في سخرية في وجه عائشة وهو يتابع:

- ثم أخبريني.. تلك الراقصة ماذا تريدن منها.. كنت تعرفينها في لبنان.. لكنها راقصة وهذا يكفي..

ردت في صرامة ساخرة:

- أنا أتذكر أنك كنت عازف بوب قبل أن ...

قاطعتها صائحاً وسط قهقهات أخته:

- أن أسلم.. أنا لم أقصد شيئاً.. أيتها السيئة.. أيتها البنت الخبيثة..

أنا أقصد أن عالمهم مدفون بالمخدرات.. بالرديلة .. بال....

قاطعته بقولها في برود وهي تنهمك في عملها:

- أميركا كلها كذلك.. لم نتحدث عن الدعوة إذاً..

هتف في انفعال وشقيقته تستغرق في الضحك المتواصل:

- يالله.. كيف أجعلها تقرأ أفكارى هذه الغريبة.. افهميني.. أنا كنت أقول ..

التفتت إليه في حماس فجائي هاتفة:

- حقاً يا عبدالقادر .. لدي فكرة كبيرة .. كبيرة جداً..

هرش شعره في إحباط وهو يستسلم لقهقهات أخته وهي تستغرق

في ضحك هستيري، فيما زعقت رامة:

- ما بك...! أنت تضحكين من حوالي نصف ساعة دون توقف..

هتفت عائشة بصوت متقطع:

- لو كنت سجلت شجاركما ..

أشاحت عنها وهي تلتفت إلى عبدالقادر هاتفة في حماس شديد :

- يشكل المسلمون خمس سكان الولايات المتحدة الآن. ما الذي فعلناه

لننتشل المجتمع البغيض الذي نعيش فيه من هاوية الرذيلة؟!

استمع عبدالقادر في اهتمام مصطنع وهو يزدرد كوب عصيره وهي

تتابع:

- أنا لا أتحدث عن الدعوة للإسلام الحنيف.. جهودنا في هذا المجال

قوية وواضحة بحمد الله.. لكن الرذيلة تستعر في الولايات المتحدة

والعالم كله، العالم كله تحول إلى ماخور كبير.. أسمعني.. العالم كله

أصبح مستقماً بشع القذارة.

هل تتصور أن هؤلاء المساكين الذين يعيشون حياة البهائم في أركان

الأزقة وبيوت الدعارة والشذوذ الجنسي، هم.. بل وفي الأرصفة وقوارع

الطرق بشكل مخز ومفجع؛ هل تتصور أن هؤلاء المبتلين سيفكرون لحظة

بالتوحيد والإيمان والعقيدة الصافية؟!

بينما تابعت بمنتهى الغضب:

- وأثرهم السلبي واضح وصريح، ونحن نعيش بينهم، ماذا سنفعل؟!

رد عبدالقادر في حزم:

- المسلمون يشكلون ربع السكان الآن يا ابنتي وليس الخمس، وهذا الواقع المر استطعنا التعايش معه في فترة تتجاوز المائة عام، لقد فعلنا ما لم تفعله غيرنا من الجاليات بحمد الله..

نحن مجتمع وسط مجتمع، لنا مؤسساتنا الدعوية ومرافقنا الحيوية الخاصة، ولا أحد يتدخل في شؤوننا أو مجتمعا الذي صنعناه لأنفسنا، حتى إدارات الأمن تمنحنا معاملة خاصة، لنا خصوصيتنا التي استمددناها من عزة ديننا، وقد تفوقنا بقوة الإسلام، تفوقنا كثيراً؛ ولقد أخطأ أفراد الجالية بنوع من الخصوصية بإطار إسلامي يتيح لنا إفادة هذا المجتمع، ويمنع إلا قليلاً، الامتزاج الأيدولوجي بيننا وبينهم.

ردت رامة في حماس:

- كل هذا أعرفه، لكن ماذا عن جيلنا القادم الذي سيخوض المعركة رغماً عنه؟

نحن نعيش هنا.. أسمع.. والامتزاج الأيدولوجي حتمي، لم لا نحاول بوصفنا مسلمين وأهل الدين الحق تغيير هذا الواقع؟

قهقهه عبدالقادر في سخرية:

- مرة واحدة.. ١٩٠٠ تغييرين الوجه الجنسي القذر لأمريكا.. ١٩٠٠ هتفت في صرامة:

- لم تكن يوماً بهذه العبثية يا عبدالقادر.. تذكر معي أن كل مبدأ يدافع عنه صاحبه ويصر سينجح في نشره، تذكر أن الشواذ قبل مائتي عام كانوا يحرقون، والزناة يشنقون، بعدها بمائة عام صار الشواذ يشنقون والزناة يسجنون، وبعدها بخمسين عاماً أودع الشواذ المصححات العقلية، وبعدها أسقط الشذوذ من قائمة الأمراض النفسية، قل لي بغض النظر عن هول هذه المعلومة وبشاعتها، ألم يحصل كل هذا بإصرار أهل الرذائل على جرائمهم؟

رد في اعتراض:

- لكن ليس تغييراً بالشكل الذي تتحدثين عنه.. أنت واحدة و..

قاطعته في حماس:

- إبرهام لينكولن، ألم يستطع أن يوقف مد الطغيان الأبيض في حركة الاسترقاق؟

ههه! ويحدث نقلة رهيبة في تاريخ السود في أميركا رغم أنه لقي حتفه بسبب ذلك؟

أليس كل هذا بالإصرار؟

بالإصرار وحده نستطيع أن نعيد أميركا إلى عصر العفة - على الأقل - ...!

هتف في سخرية هائلة وهو يبادل أخته النظر:

- واوووو.. عصر العفة مرة واحدة.. يالك من لذيذة الخيال...!

ردت في إصرار:

- يا رجل.. إنها فكرة في سبيل الدعوة إلى الله.. اسمعني.. لدي فكرة بسيطة حاول أن تستوعبها..

ماذا عن أولاء المساكين الذين يتساقطون كالجراد في جحيم الرذيلة؟
ماذا عن الأحكام التي ترتخي وترتخي في مكافحة الرذيلة شيئاً فشيئاً؟
نستطيع أن نعيد هذه الملايين إلى رشدها في طريقنا لتنظيف عقلاها
ولفت انتباهها لقضية التوحيد والعقيدة الرشيدة، أما وهي تسبح في هذه
الوعدة القاتلة، أما وهي لا تفكر بغير حاجات الحيوان الحقيرة، فلن
تلتفت أبداً لأمر اسمه هدف، فضلاً عن اتجاه هذا الهدف وصحته..
أميركا والعالم كله ينهار، العالم يدمر كل يوم دون أن نشعر، والأرض
تحولت إلى مزبلة رذيلة هائلة الاتساع، يختنق فيها الناس ويطحنون بلا
رحمة أو إرادة..

الأمم تجثو على ركبها أمام الإيدز وأمراض البلاء التي عاقب بها الله
هؤلاء البهائم، تستجدي شعوبها أن توقف مد الفواحش بلا جدوى..
لا نريد أن نصحو يوماً لنجد أنفسنا وقد حاصرتنا نيران هذا الواقع
البشع، ولا أحد غير المسلمين من سينتشل العالم من هذا الدمار ويعيده
إلى رشده.

ردد عبدالقادر وأخته:

- رامة، أنت تتحدثين بمثالية شديدة، الواقع صعب التنفيذ جداً، من يعلق الجرس بالشكل الذي تطمحين إليه؟

ردت رامة في حماس وغضب:

- أنا أعلقه، فقط أعطوني فرصة لإثبات ذاتي بعيداً عن نظرتكم الحقيمة لي..

رددوا بصوت واحد:

- ماذا ستفعلين مثلاً..؟

هتفت في حماس مبالغت وهي تقفز جذلاً:

- موقع الفضيلة..!

بعد ذلك اللقاء القصير توطدت علاقة رامة بجون جولت كثيراً، حتى إن الأخيرة قررت أن تسكن في ميتشيجان بدلاً من كولورادو حيث كانت؛ بطبيعة الحال توطدت علاقتها مع الأخوات المسلمات عائشة ومريم وخديجة وفاطمة وأميمة، بالرغم من إضمار عبدالقادر امتعاضه منها، ونصائحه الدعوية المخلصة لها، والتي لم تجلب أي نتيجة لعقلية خالية من غير الكوكائين والخمر.

كانت الأخوات يسخرن منه عندما يراها مقبلة بسيارتها، فيزم شفثيه وهو يتمتم في عصبية بينه وبين نفسه، ويسمينها رفيقته المخلصة، كان واضحاً أنه يخاف بشدة على رامة منها، أو كما صرحت أخته عائشة في سخرية:

- يغار على رامة منها!

تغيرت أشياء كثيرة في حياتها على مدى ستة أشهر معهم، أصبحت تشعر بسعادة بلا حدود في هذا المجتمع النظيف المحتشم، أصبحت تخجل من ملابسها، وغيرت طريقة لبسها إلى أسلوب أكثر احتشاماً، على الأقل أمام رجال الحي المسلمين.

وبالرغم من التناقض الشديد بين شخصيتي رامة وجون، إلا أنهما توافقتا كما لم تتوافقا مع أحد من ذي قبل، الأمر الذي أصاب عبدالقادر بالجنون، وجعله يردد أمام أخته أن هذا تأكيد قاطع لاختلال رامة وجنونها وغبابة أطوارها.

تحدثتا كثيراً، وتوطدت علاقتهما في سنة أكثر وأكثر، رغم رقابة عبدالقادر الذي تأكدت له مع مر الأيام ودية جون جولت وسذاجتها، فتوافق هو بدوره معها، وأصبحت تقريباً جزءاً منهم لا يستغنون عنه، ويسعون لإصلاحه.

انبهرت جون جولت بشدة عندما دخلت منزل رامة لأول مرة، ولاحظت ميزته البارزة، الكتب، الأقراص المدمجة، تملأ كل ركن في البيت، والحاسب الآلي الذي لا يتوقف عن العمل أبداً، أحست برهبة وهي تقول لرامة:

- هل كل هذا للديكور؟

ردت رامة في سخرية شديدة: بل للقراءة.

شهقت جون وهي تهتف: كل هذا الكتب تقرئينها؟

ردت رامة: نسبة ٨٠٪ منها قرأتها كاملة.

ردت جون في امتعاض:

- أعوذ بالله، الحمد لله أنني لم أكن إياك!

واشتركتا في ضحكة ساخرة، قبل أن تبادر جون بالقول في فضول:

- عبدالقادر يارامة، لماذا يتعامل معك بهذا الأسلوب الغريب؟

هزت رامة كتفيها في ضيق وهي تتجاهل سؤالها، فقالت في سذاجة:

- لأنني سمعت مريم تتحدث قبل فترة عن أنه يطلب يدك وترفضين.

صمتت رامة قبل أن تقول في ضيق:

- لا أحب الحديث في هذا الأمر.

باغتها جون بالسؤال: ولكنك تحبينه، هذا واضح.

كزت رامة شفتيها في سخرية واستنكار وقد أحمر وجهها بشدة وقالت:

- من قال ذلك، لولا أنه مسلم لقدفته من ..

والتفتت في عناد قائلة:

- ثم هو أبيض أوربي الملامح، أشقر الشعر بشدة، وأنا أكره هذه الأشكال ..

صمتت جون وهي تراقب وجهها في حنان وحذر وقد استغرقت في

تفكير عصبي واضح من ارتجاف يديها وشفتيها وعضلات وجهها، قبل

أن تقول في صوت ضعيف:

- لا واحدة تتعرض للاغتصاب تفكر بالزواج بعدها، أبداً، إنها تجربة مريرة وهائلة، الاغتصاب أشد أمر تتعرض له المرأة فكيف إذا كانت صغيرة كما جرى لك في لبنان ١٩

هزت رامة رأسها بالموافقة وهي تشرد ببصرها إلى أعلى، فارتشفت جون كوب عصيرها وهي تقول:

- طيب لا داعي أن تتزوجيه.. ما دام إنه يروق لك كثيراً.. لم لا تتخزينه صديقاً.. ١٩

لمحت التماع النكير الهائل في عيني رامة فبادرت تقول مستدركة:
- صحيح..... آسفة.. أنت مسلمة وأنتم متشددون في هذا الأمر..
لكن...

وتابعت ساخرة وهي تخبط كفها في ود:
- يا للساذجة رامة...!
نحن في أميركا، وهم يقدسون الحرية مثلي...
عني أنا.. لدي بوي فريند من الدرجة الأولى..
اتسعت عينا رامة عن آخرهما وقد انعقد لسانها في خوف شديد،
بينما تابعت جون:

- الأمر لنا عادي لأننا نصارى، أنتم متشددون في هذه الأمور أيها المسلمون، الأمر يبدو عادياً.. عادياً للغاية ..

هتفت رامة بكل ما في قلبها من الاستكثار العارم:

- هل جننت؟ كيف يكون الأمر عادياً؟ إنه بشع، بشع..!

هتفت جون في سخرية ضاحكة:

- يا رامة، الحرية مطلوبة.. وأنا امرأة.. ولا..

ردت رامة هي قسوة شديدة:

- ابقى بلا رجل إذاً..!

صمتت جون وهي تراقب عيني رامة الفاضبتين، وقد أدركت أن

الموضوع شديد الجدية لها وهي توبخها قائلة:

- ماذا يعني كونك نصرانية؟ أخبريني يا جون.. هذه ليست حجة..

ولوحت بذراعها وهي تدور في الغرفة بعصبية شديدة هاتفة:

- إن لم تفكري في الدين الحق وتشريعاته التي تحرم هذه الشنيعة،

فعلى الأقل تذكرني أننا عرب.. عرب..

وقبل ذلك نحن بشر، أي عقل أخبريني ذاك الذي يستسيغ هذه

الأفكار الأمريكية المنتنة؟

بالعقل؟

بالعروبة التي تتشدين بها على الأقل؟

تقرفصت جون في مكانها وهي تستمع في خجل، بينما تابعت رامة:
- الأفكار البشعة التي تنتشر في هذا المكان الموبوء الذي دخلناه
مرغمين ليست لنا..

ليست لنا على الإطلاق....!!

ودارت على نفسها في ألم وهي تهتف في مرارة وذهول:

- إلى أين يتجه العالم المسكين..؟

الرجل يتحول إلى امرأة والعكس، والرجل يتزوج رجلاً والمرأة امرأة،
والشواذ يصفق لهم بلا حدود، والبارات والبيوت السرية لا تغلق أبوابها..
الأرحام تدفع وتقذف بالأجنة إلى الشوارع ومعامل البيولوجيا،
والأطفال يولدون ليقذفوا في الشوارع، ويكبرون ليمارسوا الفواحش
وينجبوا أولاداً بالخطأ..

الفضيلة اختفت وماتت هنا منذ زمن طويل؛ ويجب أن لا يجرفنا
التيار يا جون..!

وازدردت ريقها وهي تقول في ألم:

- يجب أن نتعاون مع الشرفاء هنا لنفك آلة الرذيلة الضخمة التي
يديرها الذين يتبعون الشهوات، والذين يريدون أن نميل ميلاً عظيماً..
عظيماً.. أسمعهم..؟

فكري بهذا اللفظ القرآني المثير للرغبة، والذي ينطبق تماماً على من استغلونا في بلادك، وعلى سادة المجالات الصفراء، وأصحاب القنوات الجنسية، وعلى من يدفعون ببناات الليل اللواتي يقفن بريطاتهن الحمراء بانتظار الزيائن، وعلى اللواتي ترين صورهن عاريات تماماً داخل كبائن الهاتف وتحتها العناوين والهواتف..

تلك الآلة الملعونة الرهيبة، من يكرسها؟!

ماذا يريدون منا بالضبط؟!

ولوحت بذراعها بقوة وهي تهتف في غضب وألم:

- لقد قالها الله تعالى.. لقد قالها:

- أن تميلوا ميلاً عظيماً! أن تميلوا ميلاً عظيماً!

هذا ما يريدون، بغض النظر عما يصير بعد ذلك، إيدز، سرطان،

تفكك أسري، مجتمع بهيمي...

كل هذا لا يهم.. ما دمت النقود تسيل كالماء بين أصابعهم بسبب

لهات الأغبياء المحموم وراء الشهوات!

وتابعت بكل السخط في قلبها المكدود:

- إنهم يريدون للأرض أن تتحول، كل الأرض، إلى ماخور كبير.. كبير!

والتقطت أنفاسها وهي تقول في رجاء:

- لا تكوني يا جون، ليس لأجلي، بل لأجل الله تعالى..

أرجوك لا تكوني مسماراً صغيراً جديداً في آلة الرذيلة الملعونة..
أرجوك...!

صمتت جون طويلاً قبل أن تمسك بكف رامة وهي تقول في صوت
خافت:

- لن أفعل..

اتسعت عينا رامة في رضى وهي تتابع:

- أقسم على ذلك..

من أجل الله أولاً..

ثم لأجلك يا رامة.. ولأجل الفضيلة..

وتبادلتا نظرة عميقة المغزى.. قبل أن تتعانقا.....!



(١٥) آنسة الفضيلة..

التقطت رامة نقالها وهي تقول:

- السلام عليكم، من المتحدث؟

وزمت شفيتها بامتعاض وهي تقول:

- مرحباً بك يا شيخ عبدالقادر.

رد عليها في حزم:

- أنا أتصل لا لأتساجر كالعادة، ولكن لأهني حرارة.

ردت في استغراب: على ماذا؟

قال في إعجاب شديد:

- محاضراتك الثلاث التي ألقيتها على موقعك خلال يومين، الكل

يعجز عن التعبير عندما يسمعها، مع أن الشبكة تمتلئ بالمحاضرات.

صمتت وهي تحرر ورقة أمامها وهو يتابع في إعجاب:

- لقد دخل على موقعك أكثر من ألفي متصفح في يومين فقط، كلهم

أبدى شديد إعجابه بالأسلوب الساخن الذي ألقيت به المحاضرات حول

موضوع الفضيلة الشديد الحساسية..

أكثر من أخ يؤكد أن غالبية هؤلاء لم يتمالك نفسه من البكاء إزاء تلك

القضية الحساسة والأسلوب المتميز المتفجر..

هتفت في فرحة:

- هل عملتم استفتاء ١٩٠٠

رد في جدل:

- وأغلبهم من الأمريكان البيض هذه المرة يا رامة، أتسمعين أيتها

العنصرية... ١٩

حتى تختفي نظرتك المتعصبة ضد قومي الأولين.

ردت رامة في اهتمام:

- هل هذا صحيح، تقول ألفان ١٩ من قال ذلك ١٩ أخبرني يا شيخ

عبدالقادر ١٩

كز شفتيه وهو يقول في بهجة:

- حمزة، وإلياس، أمير وصلاح الدين، و... وأنا... كلهم كانوا يعملون

ما يشبه التحقيق الإعلامي حول محاضراتك الرائعة.

رددت في اهتمام وهي تشرد في بهجة:

- آآه، صحيح صحيح.. ١٠

تتحنق قليلاً قبل أن يقول في حزم:

- هل تأذنين لي بمداخلة على موضوع محاضرات القيم ١٩

قالت له بعد صمت: تكلم..

اندفع يقول في حماس غاضب:

- لقد كررت وأنت تبكين في محاضراتك أن الله وضع تشريعات الزواج المتداخلة والمتعددة لهدف ذكره سبحانه في نهاية تلك الآيات:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ هذا رائع يا رامة.. لكن..

دعيني أسألك الآن بمنتهى الصراحة يا رامة، ما دمت مقتنعة حتى الصميم بمبدأ الزواج، فلماذا ترفضيني؟

صمتت قليلاً وقد أفحمها قبل أن يتابع بلهجة استعطاف:

- رامة، لم لا تطبقين ما تدعين إليه؟ لم تحرمين نفسك من الأمومة والاستقرار وأنت لا زلت شابة في السابعة والعشرين؟

ردت عليه في قسوة وفظاظة:

- لقد ناقشنا هذه القضية حتى بحث حلوقنا معاً، ولو فكرت يوماً في الزواج رغم أنه مستحيل، فلن يكون منك أبداً يا عبدالقادر!

ازدرد ريقه وهو يقول في تماسك وغيظ:

- وأنا؟ من تتزوجني إذا لم تفعلني؟

ردت عليه وهي تنهي الاتصال:

- ليس هذا من شأني، ستجد ألف امرأة لو أردت...!

قذف بهاتفه بعنف وهو يردد في نفسه مفتاضاً :

- معتوهة.. مجنونة أنت يا رامة...!

تمطت جون جولت على فراش رامة وهي تقول في ضجر:

- لم تعودي توليني اهتماماً، لقد أخذ هذا الموقع عقلك منذ أن بدأت

فكرته قبل أربعة أشهر، ونجح للأسف..!

ردت رامة في ضيق: ولماذا الأسف؟!

ردت جون في صراحة:

- لأن عينيك ازرققتا من كثرة التسمر على الحاسب، وازداد جسمك

نحولاً وهزالاً، بل وازدادت عصبيتك كثيراً..

قالت رامة في برود:

- عصبيتي تثور لأن هناك من يثيرها، وقد زادت حدة تصرفاته..

ردت جون في هدوء:

- طبيبك عزا زيادة نوبات تشنّجك لكثرة الجلوس أمام الحاسب،

وكثرة الضغط العصبي أثناء مناقشاتك الساخنة على هذا الموقع الفعال؛

تذكرني كم مرة تشنّجت خلال الأسبوع الفائت؟!

ردت رامة في برود:

- وتذكرني أنت أنها كلها كانت بعد مشاجرة ساخنة مع عزيزنا

عبدالقادر بسبب سيارتي وصيانتها..!

ضحكت جون وهي تقول في حب:

- أنت لم تفهميه، إن رائع ويغلب العقل، إنه حنون ويخاف عليك؛ إنه رائع جداً ولكنك أنت التي لم تعرفي كيف تعاملينه، إنني أحبه بشدة وأحس بأبويته وهو يوبخني على الكوكابين والخمر، أو وهو يعظني ويقرأ علي كتبه..!

تمطت رامة وهي تغادر كرسيها قائلة: أحس بالعطش!

ردت جون:

- ما دمت تثرثرين طوال سبع أو ثمان ساعات عن الفضيلة..!

قالت رامة في غضب وهي تجلس بجوارها:

- إنني لن أغفر له أبداً إنه تسبب في تقييدي بهذا الشكل، وزاد من مواعيدي مع طبيب الأعصاب، بدأت فعلاً أحس بكراهيته كما لم أفعل من قبل، وهو يزيد حماقة وإصراراً على موقفه مني.

وتجرعت كأسها قبل أن تقول في عصبية ساخرة:

- خمس سنوات كاملة، وأنا على هذه الحال معه، تخيلي أنك مكاني!

قهقهت جون وهي تقول:

- سأكون سعيدة جداً برجل يحميني ويقسو علي!

وانحنى عليها لتقول في حنان:

- أنت كما يقول طبيبك، بحاجة لعلاج طويل من الفوبيا، الرجال كما يسميها؛ أنت ترفضين العلاج لأنك لا تريدين أن تكون لك علاقة برجل أبداً.. أليس كذلك يا رامة...!

قالت رامة في كراهية مصطنعة: أنت من يفهمني فقط يا جون، وإلا فمن سيحب هذه المخلوقات الضخمة؟ خصوصاً إذا كانوا من الأمريكان البيض؟

قالت جون في صراحة:

- هذا مرض يا رامة، خوفك من الرجال بهذا الشكل وكراهيتك لهم، ومرض خطير يحتاج لعلاج طويل، هذا الرهاب سيمنعك كثيراً من ممارسة حياتك الطبيعية وتحقيق أهدافك..

يكفي أنه يمنعك من التفكير بالزواج ويجعله فكرة قبيحة مرعبة، كونك مريضة نفسياً ليس عيباً يا رامة، العيب أن تصرّي على موقفك وترفضي الاعتراف بمرضك..

أشاحت رامة في عناد وجون تتابع:

- ثم ماذا يعني كونه أمريكياً وأنت تتحدثين كثيراً عن الظلم والعدل؟ وعن العنصرية وأضرارها؟

ردت رامة في شراسة:

- لولا أن البيض ارتكبوا من الجرائم ما لطخ جبين التاريخ لما قلت هذا.
وتابعت في حقد هائل:

- تذكري، أثينا، حريق نيرون، محارق النصارى في روما، التعذيب في الكنائس، محاكم التفتيش، المقاصل، آلات التعذيب المعقدة، سجن الباستيل، الاستعمار، مصر، سوريا، العراق، وليبيا، ماذا عانت شعوب العالم العربي بسبب أميركا؟!

أرض القدس كيف سرقوها؟! مثلما سرقوا هذه الأرض من أهلها الأصليين، ولم يكتفوا بذلك بل ذبحوهم كالحيوانات، كلهم كانوا دمويين وولدوا ليكونوا دمويين، ودمويين فقط..

هؤلاء هم البيض كما تقولين...!

سكتت جون وعيناها تتسعان في استنكار وضيق بينما تابعت رامة في جنون:

- كلنا نكرههم، قولي ذلك، الوحشية تسري في دمائهم مثلما تسري العنجهية والكبر لأجل ذلك اللون البغيض الشبيه بلون الخنازير، أكرههم منذ أن ظهرُوا على وجه الأرض في روما وأثينا...

ورددت في هياج شديد: أكرههم، أكرههم....!

انتبهتا على صوت حازم يأتي من الحديقة:

- عذراً أيتها الفتاتان، أنا لم أكن أتلصص في الحقيقة، ولكنني مررت هنا صدفة وأنا أقلم أشجارك يا رامة..

انفجرت جون تضحك بقوة لما ضغطت رامة فكيها غيضاً وهي تتمتم
بكلمات غاضبة.

تابع عبدالقادر وهو يرش الحديقة:

- هل أفرج عن رخصة قيادتك يا رامة؟

ردت رامة في شراسة وهي تغلق ستار النافذة:

ليس وقد اتهموني بسببك بالقيادة تحت تأثير مخدر، واستغفر
التأكد من كوني غير مدمنة يومين في مستشفى الولاية..!

رد عليها في حزم:

- هذا أفضل، أنت تستحقين ذلك في الحقيقة؛ أن تتعرضي للمشاكل
أهون من حادث أليم، ثم ليكن ما حصل لك درساً حتى تكوني أكثر
حذراً.. أليس كذلك؟

وكرر في سخرية:

- أليس كذلك...!

واستغفر في ضحك عميق عندما أجابه الصمت الغاضب وردد في
داخله في حب:

- كم أحبك أيتها المعتوهة الرعناء...!

تمتم البروفيسور إياهو في ذهول وغبطة:

- نتيجة مذهلة...!

ردت أحد الباحثات في تدلل:

- وتستحق حفلة كبيرة...!

وربت على كتفها وهو يردد شاردأ:

كل الأجناس، كل أنواع الكائنات الحية من الأميبا، وحتى الإنسان..

أبدت ردة الفعل نفسها للفيروس..

وصمت قليلاً قبل أن يقول في ذهول وكراهية:

- سوى هؤلاء العرب الستة....!

رد أحد الباحثين في ثقة وقذارة:

- استعنا بخبراء في علم الاحتمالات، وطلبنا من إدارة التمويل أكثر

من عشرين عربياً للتجربة، كلهم أبدوا ردة الفعل نفسها بلا استثناء..

تتحنح الباحث حايم وهو يقاوم اشمئزازه قائلاً بلعثته المعتادة:

- يصيب الفيروس العربي بسهولة تعاد...ل ثلاث مرات ما عند

غيره..، ويبدأ تكاثره بسرعة جنونية وبمعدل يفوق ٢٠٠٪ و... خلال

ساعة ونصف فقط.. تبدأ الخلايا الطلائية بالتوسف و... تبدأ شبكة

الأوعية الدموية.. بالتفكك... ثم الانفجار والوفاة...

دوى صوت البروفيسور وسط الباحثين بقوة وهو يهتف في سعادة:

- رائع.. رائع.. هذا ما لم نحلم به من قبل...!

- كل القطعان الموجودة في إسرائيل... تموت بعد أربع ساعات..
والمحيطة بنا كذلك.. أربع ساعات أو أربع أيام.. لن يستطيعوا تدارك
الأمر... سنجد البلاد العربية خالية من الأطلسي إلى حدود سوريا
والعراق والسعودية.. كلهم سيموتون..!

قال الطالب حاييم في ارتباك شديد:

- الحقيقة يا بروفيسور.. هذه فكرة عقيمة.. نحن والعرب من سلالة واحدة،
ونحن لم نحدد بالضبط أي جين هو المسؤول عن تفعيل الفيروس بهذا الشكل
المروع.... بالتالي ما يحصل لهم قد يحصل لنا ببساطة..

رد البروفيسور في صرامة:

- دكتور حاييم.. هذا شأن اللجنة العليا.. ليس شأنك..!

صمت الشاب في ارتباك والبرفيسور يتابع:

- الآن سوف نعد التقرير النهائي الذي سيرفع إلى أبينا المبارك ليفي
ورئيس الدولة..

ذلك يعني بداية مشروعنا العظيم..

وضم قبضتيه وهو يردد في جنون:

- مشروع الفيروس المسخ.....

وانطلقت عاصفة من التصفيق القذر..

- تهدت مريم وهي تسترخي على أريكة في منزل رامة وهي تقول:
- لا أشعر بأني على ما يرام اليوم، لقد اقترب موعد ولادتي كثيراً..
- نظرت رامة إليها في سداجة وصمت بينما كانت وعائشة تربت على بطنها في حنان وتقول:
- أكثرني من شرب السوائل يا حبيبتي، الانتفاخ يزداد في وجهك كثيراً، ويداك أصبحتا كقفازي ملاكمة، ثم إنك لا تمشين أبداً، ما رأيك أن نخرج للتمشية قليلاً...!
- انتبهتا لرامة وهي تتمتم في غضب وتركز على شاشة الحاسب:
- تباً لكم..!
- قالت عائشة في قلق:
- من هم يارامة..!
- أشارت رامة إلى الشاشة في غضب قائلة:
- أترين...!
- كانت الشاشة ترسم عليها صورة لقبر وتحتها كتب:
- «آنسة الفضيلة.. هذا مكانك المناسب..!»
- هتفت مريم في غضب:
- تباً لكم يا أعداء الفضيلة..!

وتابعت: لكنهم لن يستطيعوا إسكات صوت الفضيلة.. أليس كذلك يا
رامة... ١٩.

أنت لن تستسلمي لهذه التهديدات.. موقفك الأقوى مهما فعلوا..
بائعوا الهوى وأصحاب الشهوات يقض مضجعهم أن تبور تجارتهم بسبب
موقعك الفذ... إنهم يريدون أن تصمتي..!
ردت رامة في قوة:

- أنا لها....!

واغرورقت عيناها بالدموع وهي تنهمك في العمل.. بعد أن تم
اختراق موقعها..

لقد بدأ الملاعين في إزعاجها منذ وقت.. وأحدهم اتصل ليهددها
بالاغتصاب علناً..

الأمر الأكثر شدة..

هي تلك الاستفسارات التي ترددها حول ما إذا كانت مختلة كما يقال
عنها.. ٢٠.

وعن حقيقة الوصاية التي تخضع لها منذ وفاة خالها..!
لكنها تلقت كل هذا بقلبها الكسير.. وكنتمته بمنتهى الصبر..

لأن الكل كان يؤيدها هذه المرة..

والكل كان في صفها..

يمضون يدكون معاقل الفساد ..

ليمحو عار البشرية بأيديهم ..

في مواجهة طوفان الفواحش !..

اختلطت الأصوات الصاخبة والضحكات بأصوات الموسيقى الصاخبة التي يرقص عليها المدعوون للحفل الكبير المقام على شرف الباحثين في مشروع الفيروس المسخ ..

خلال ساعتين، تم تكريم الباحثين والباحثات المشاركين في المشروع الذي نجح نجاحاً منقطع النظير، وصفق المدعوون طويلاً للبروفيسور الشيطان الذي كان رائد تطوير هذه الفكرة القاتلة ..

وسط الزحام كان الباحث الدكتور حاييم يزفر في ضيق واضح وهو يتأمل الجائزة التي تسلمها وشهادة التقدير وهو يقول في نفسه:

- كم من البشر سيعاني ونحن أولهم !٩٠٠ لم لا يريدون أن يفهموا !٩٠٠

انتبه لصوت زميلته راشيل وهي تقول: - مابك يا حاييم !٩٠٠

رد عليها في وجوم وهو يتحسس بطنه:

- لا أشعر أني على ما يرام !..

ردت وهي تتحسس شعره في تدلل:

- تناول حبة مسكن يا حبيبي، لا تجعل هذا يفسد فرصة هذا الحفل

البهيج !..

رد عليها في ضيق شديد وهو يزيح يدها:

- لا أظن أنني سأفعل.. ربما أغادر الآن...!

هتفت في احتجاج:

- والرقص... ألن ترقص معي..؟

رد عليها في ارتباك:

- فيما بعد حبيبتي.. لقد لهونا كثيراً وبإمكاننا أن نفعل فيما بعد..!

قال هذا وهو يقطع الطريق إلى بوابة الخروج متصنعاً الألم وسط

صيحاتها المحتجة:

- سأراقص إفرائيم أيها الملعون حاييم...!

وذاب صوتها في زحمة الموسيقى الهائلة...!



(١٦) البائسة..!

هتفت رامة في اعتراض باك:

- ماذا تقصدون بهذا الإجراء... لم لا تعطونني فرصة للدفاع عن

نفسي..!٩٠

رد عليها مدير تحرير المجلة التي تعمل بها:

- آنستي رامة، هناك الكثير من الشكاوى ضدك، نحن المجلة الرسمية

الناطق باسم الضاحية، لنا سياستنا الخاصة التي اخترقتها كثيراً...!٩٠

ردت في غيظ وهي تدق الأرض بقدمها:

- أخبرني يا بين.. من وشى هذه المرة..!٩٠ أي اختراق فعلته..!٩٠

رد وهو يقدم لها بعض الأوراق:

- اقرئي بنفسك.. مقالاتك تحولت إلى دعوة صريحة للإسلام، ولقد

حذرتك من أن يأخذك تعصبك لدينك إلى هذا المنزلق..!

هتفت في اعتراض قوي:

- بين، عليك أن تتأكد، أنا ملتزمة بديني ولست متعصبة له كما تزعم،

ثم أخبرني، أي قانون في الولايات المتحدة يمنع من هذا.. ثم قل لي،

أليست جوديث الراهبة تكتب مقالات تبشيرية، والأهم من ذلك أنها

تهاجم الإسلام كثيراً وتحض على الكراهية، مع ذلك..

قاطعها في سخرية:

- جوديث مسيحية يا صغيرتي.. ثم إن جوديث شيء آخر إنها عضو فعال، مطيعة..

زوت رامة حاجبها في احتقار وهي تتمتم:

- نعم بالضبط أعرف..!

تابع في قذارة بصوت يقطر بروداً:

- والحقيقة أن هذا ليس أكبر قضية دعتي للنظر في عملك.. الحق أن الكل بدأ يتململ من وجودك باعتبارك المسلمة الوحيدة الملتزمة هنا في المجلة..

أنت لست ودودة كما يقولون..

هتفت رامة في عصبية وهي تلقي الأوراق على المكتب:

- قل إنك لا تريدني.. لا تطيق وجودي في مجلتك.. قل ذلك يا بن..!

هز كتفيه في سخرية وخبث وهو يحدق في عينيها الغاضبتين قبل أن

يقول:

- أنت مكسب يا صغيرتي، نشاطك الفذ.. مقالاتك المتفجرة وانتقاداتك

المستمر للحكومة الأمريكية، لمجلس الشيوخ، للضرائب.. تجعل لك الكثير

من الأعداء..!

هتفت رامة في دهشة واستنكار:

- يا بين يا عزيزي.. أنا الوحيدة في بحر الولايات المتحدة التي تنتقد

الحكومة والضرائب..٩

هل أنا أول من ابتدع ذلك .. ١٩ يا ديموقراطية يا .. ١٠

هز كتفيه غير مبال وهو يتابع في برود وخبث مرير:

- إضافة إلى .. موقع الفضيلة الذي أنشأته .. الكثيرون يعادون هذا

الموقع، وما ترد فيه من .. من ... توصيات.. مناقضة للحرية .. قصص
فانتازية .. مثلاً ..

ابتسمت في عصبية وهي تقول:

- مثل قصص الرؤساء الذي يستغلون مرؤوساتهم في أعمال غير

مشرو...

قاطعها ساخراً في عصبية شديدة:

- مثل هذا .. بالضبط ..

هتفت في عصبية:

- ماذا تريد بالضبط .. تدميري... ١٩

هز كتفيه في استخفاف وهو يقول:

- أنت تعلمين كل شيء يا صغيرتي .. ولكن .. عندي لك اقتراح حلو ..

تجاهلته وهي تتجه خارج الغرفة وهو يقول:

- اقتراح جيد .. اسمعيني فقط ..

زعقت في عصبية ساخرة مريرة ودموعها تتصبب على وجنتيها:
- وفّر اقتراحاتك الحلوة لمن لا يمانع في تنفيذ قذاراتك مقابل
العمل.. وفرها جيداً..!

وصفقت الباب وسط قهقهاته الساخرة..!

عندما خرج حاييم من الحفل، كان يتلفت في خوف واضح وهو يركب
سيارته منطلقاً بها إلى مطار تل أبيب الدولي.

في خوف ورهبة حل رباط عنقه وهو يلهث متوتراً رغم أنه أعد
للأمر عدته وبدا واثقاً من خطته..

عندما وصل نزل والتقط حقيبة متوسطة الحجم، وأنهى إجراءات
سفرة، وجلس في ردهة المسافرين عاقداً ساعديه وهو يجاهد توتره
الواضح من عرقه المتصبب وتهده المتواصل..

مرت دقائق الانتظار طويلة كالدهور، حتى سمع نداء قيام الرحلة،
فالتقط حقيبته بسرعة وهرول إلى ممر الطائرة وجلس في مقعده،
وغاص فيه وقلبه يدق بمنتهى العنف، وعندما أقلعت الطائرة وابتعدت..
تنفس بعض الصعداء... لم يكن مرتاحاً البتة.. لم يغادر مكانه أو يحل
حزامه..

بل لم يتناول طعامه طوال الرحلة التي استغرقت اثنتي عشرة ساعة
متواصلة..

هي مدة الرحلة إلى كندا..
عندما حطت الطائرة في مطار مونتريال، ونزل منها متنفساً
الصعداء كاملة هذه المرة..
وقف أمام مكتب الجوازات، وأبرز جوازه الإسرائيلي القذر..
ومزقه ببطء وهو يردد في ارتياح بصوت مرتجف:
.. طالب .. للجوء السياسي!....!

في مدائن الرماد..
حيث يعربد الموت...
وتتصر النيران..
وترقص الشياطين الشاحبة..
هناك.. تجد الرعب والموت يلعبان لعبة التخفي باستمتاع..
في زوايا السجون.. ووسط قناني المعامل..
يفزل الشيطان حبالاً من كل شيء ليريه الجمهور المترنح، فيضحكون
أو يبكون، لا فرق.. ثم يشترتون.. ثم يشترتون..
ويقبض الشيطان الثمن كاملاً..
عن طريق بطاقة صراف!..

✽✽✽

(١٧) الفيروس المسخ..!

— تل أبيب — مبنى البحوث العلمية البيولوجية العسكرية :

في ردهة هائلة الاتساع ، داخل مبنى البيولوجيا الغامض ..

يشتعل الصمت القبيح ..

مثلما يغمر الرعب أرجاء المكان المتسع المزدحم بالكوائن البشرية

العارية المقيدة بأوضاع مثيرة للتقزز والمقت ..

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى

الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾

من كل الأجناس ..

بعضهم يعوي بصوت غير مسموع بفعل عوازل الصوت ..

وبعضهم يلفظ أنفاسه الأخيرة أو يتلوى ألماً فظيماً ..

والدماء ..

كانت العامل المشترك في كل ذلك ..

والرماد ..

كان يعلو القناني المضادة لعوامل الهشم ..

والوحوش ..

كانت هي محتويات تلك القناني..

شقق الصمت القبيح صوت وقع أقدام ثقيلة بطيئة مصحوبة
بقهقهات الموت..

وصوت يصيح في تلذذ سادي:

- هذا طريقنا للنصر يا أبانا المبارك ليفي..!

هكذا هتف البروفيسور وهو يقود الحاخام القذر إلى قناني التجارب
البشرية..

الحاخام الذي هو في تكوينه، مزيج من البشاعة والقردية والدموية والنتانة..

فالدّم يسكن معدته منذ رشح حاخاماً في مجلس الحاخامات الأعلى..

الخبث.. القذارة بأقبح وجوهها.. هي الحاخام ليفي..

وهو يبتسم في وجه إياهو الذي أشار إلى قنينة اختبار علق وسطها
رجل عربي بوضع شنيع..

مقيداً بإحكام وهو يقاوم قيوده بلا جدوى..

وقد ارتسم على وجهه أبشع علائم الذعر والجنون..

كان يصرخ في ذهول الهلع اللانهائي..

كان واضحاً أن الذعر قد أذهب عقله تماماً..

وحوله إلى مجرد حيوان ذاهل..

تتجمع على وجهه الأبله إفرازات أنفه وفمه وعينيه..

وتمتزج معاً لتتكون لوحة التاريخ البشعة كاملة ..

في وجه عربي أسير..

بيد صهيوني..

وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار..

وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء..

وإن منها لما يهبط من خشية الله..

وما الله بغافل عما يعملون..

عربي..

في طابور طويل طويل من الذل..

في انتظار مؤونة كافية من العار..

تكفي لقرن قادم وقادم..

عربي..

وسط قنينة اختبار الفيروس..

اقترب إلياهو من القنينة وهو يضغط زراً جانبياً لترتفع طبقتان من
الزجاج الثخين داخلية وخارجية، كاشفتين عن هلام عازل شديد المرونة
مضاد للقطع..

أدخل البروفسور يديه في الهلام، ومدها داخل القنينة ليفتح صندوق
حفظ بداخلها، ويخرج منه حقنة كبيرة بداخلها سائل أصفر اللون..

عندما رآها العربي، انتفض جسده بصاعقة هائلة من الرعب وهو
يصرخ بكل ما أوتي من قوة:

- لا .. لا تفعل .. لا تفعل ذلك ..!

وتعالى صراخه الهستيري المكتوم بفعل زجاج القنينة، عندما اقتربت
يد البروفيسور حاملة الحقنة، وازدادت حركات جسده عنفاً ونفاراً
وصدره يعلو يهبط بشكل واضح ..

بلا رحمة، غرس البروفيسور الإبرة عمودياً في ساقه، ودفع
بالفيروس القاتل في عروقه، والعربي يصرخ بمزيج الذهول والهلع
والياس في صدره ..

تمتم في برود متفطرس مقيت:

- سترى الآن يا أبانا، هذا الجنس من الجويم ييدي ردة فعل مختلفة ..
قال هذا وهو يتراجع معيداً لوحتي الزجاج إلى مكانهما فوق الهلام،
فيما ارتخت أعضاء العربي وهو يتهدد في ياس رهيب، وقد توقف عن
الضجيج ..

قال ليضي:

- هل مات ..؟

زاغت عينا العربي وهو يحرق في الحاخام وهو يردد بكل ما في قلبه
من الأسى والقهر والحقد:

- يا وجه الخنزير يا ليفي، يا وجه القرد ..!

تمتم ليفي في احتقار: ماذا يقول ... !؟!

أسرع إياهو يفتح مكبر الصوت الواصل ليظهر صوت العربي وهو
يصرخ في شراسة وضراوة بلهجة مخيفة:

- يا وجه الخنزير، يا وجه القرد أخبرني أي صلة لك بعالم البشر ..!

عقص ليفي حاجبيه وهو يردد في غضب:

- لقد أخطأ خطأ عظيماً يا إياهو ..!

قال البروفيسور في مجاملة وارتيابك:

- كلهم يفعلون ذلك بعد الحقنة! واستطرد مبتسماً في سادية قذرة: -

إنها مشاعر من يموت يا أبانا ..!

علا صوت العربي وهو يقاوم قيوده بشراسة رهيبة بكل ما في قلبه
من الحقد واليأس هاتفاً:

- يا أيها القرد العجوز .. يابن الزنا اليهودي .. كلكم .. كلكم ..!

انتفض الحاخام خوفاً وغضباً وإياهو يقطع الصوت قائلاً:

- سيموت الآن. دعنا نزر قنينة أخرى ..!

دب الذعر في قلب ليفي وشراسة العربي تزداد وهو يكاد يكسر
القنينة نزقاً ..

وصراخه يزداد وعيناه تبرزان من محجريهما بشكل مربع ..
وقد بدأ جسمه القمحي بالازرقاق والتسلخ ..
نظر الحاخام في قنينة أخرى يجلس فيها رجل عار أبيض بني الشعر
فهتف جذلاً:

- هذا هو الإيطالي ..
كان يستمتع بالمشهد ..
الإيطالي كان ينظر إليه في مكر بعينين ذات لون غريب وهو يتمتم
بكلام غير مفهوم ..

والدماء .. كانت تقطر من فيه ويديه بشكل بالغ البشاعة ..

كان .. كان .. يلتهم قطعة حية تقاومه في يأس ..

نعم .. كان يأكل لحماً حياً .. حياً ..

قال الحاخام:

هل يستطيع الكلام .. !!

رد إلياهو:

- نعم، وبمنتهى الكفاءة .. إنهم لا يفقدون عقولهم ..!

وسحب ليفي إلى قنينة أخرى يدور وسطها رجل أبيض أنجلو
سكسوني في عصبية وهياج شديدين، عندما رآهما اندفع ليضرب

القنينة بقوة وهو يصرخ بكلام غير مسموع، فارتجف ليفي ذعراً وإلياهو يردد في دموية:

- أفهم ما تريد أيه التكتاسي القذر، بوب أنت تريد وجبة معتبرة
أليس كذلك.. ١٩..

فهم الأمريكي ما يريد، فhez رأسه بالإيجاب في شراسة رهيبة وقد
اصطبغت عيناه بنفس لون عيني الطلياني..

دار ليفي حول نفسه وهو يقول في هلع:

- أين حراسي يا بروفيسور.. ١٩..

تجاهله البروفيسور وهو يقول في بشاعة:

- سترى الآن.. المقطع الجميل من الفيلم..

وضغط زراً خاصاً في لوحة مفاتيح أمامه ليفتح جانباً من قنينة
الأمريكي يحجز بينه وبين قنينة أخرى تحتجز فيها فتاة كورية مصابة..

اتسعت ابتسامة ليفي وهو يراقبهما يحدقان في بعضهما في دموية
مشوبة بالخوف قبل أن.. أن ينقضا على بعضهما في شراسة الكلاب
المسعورة.. ويشتبكا في عراك عنيف هائل.

الكورية بجسدها العاري الضئيل.. والأمريكي بجثته الضخمة..

قهقهة الحاخام والبروفيسور في استمتاع وهما يراقبان صراع
المسخين..

إلى أن خر كل واحد منهما صريعاً بأسنان الآخر..

تمتم ليفي في استغراب:

- من أين أتيتم بهذا الأبيض الملعون..؟

رد البروفيسور:

- مشرد أمريكي من تكساس، وعرض عمل وهمي في تل أبيب،

الأمريكيون يصغون للإعلانات جيداً. ليجد نفسه منذ شهر هنا..

والثقت للحاخام الذي اتسعت عيناه في إعجاب..

قبل أن يطلق قهقهة شاركة إياها إليها..

ليبتسم الشيطان ابتسامة رضا واسعة..!

ازدرد الدكتور حاييم ريقه وهو يعدل جلسته أمام الكاميرا

التلفزيونية، فيما تحدث مذيع القناة عبر الهواء مباشرة قائلاً:

- سيداتي سادتي، نقوم اليوم بتفجير قضية خطيرة متعلقة بالمساس

بالأمن القومي للعالم كله، قضية حساسة نستغرب أنها لم تخرج من أقبية

المخابرات ومخازن الأسلحة إلا في هذا اليوم عن طريق ضيفنا حاييم

زئيف، مرحباً بك أيها الأستاذ حاييم..

رد حاييم في ارتباك واضح:

- مرحباً بكم..

قال المذيع في حماس شديد:

- دعنا نفجر القضية بمنتهى العنف كما نحب دائماً، أنت تقول: إن لديك نسخة مهربة من مشروع تدميري عملاق يجري في شاؤول.. رد حاييم متماسكاً:

- هو كذلك .. أمتلك هذه النسخة ومستعد لبيعها للحكومة الأمريكية مقابل تعهداها بأن تقاوم هذا المشروع البشع، لا أن توطن تصنيعه كعادتها.. وتتهذ وهو يتابع في توتر شديد:

- أنا باحث في مرحلة الدكتوراة في مجال وراثة الأحياء الدقيقة، أنتمي إلى مؤسسة البحث العسكري الشاؤولية، حيث توجد بها مشاريع ضخمة لتطوير أنظمة التسليح..

انضمت قسراً إلى مشروع يهدف إلى تطوير فيروس مرض السعار الموجود في لعاب الكلاب المسعورة والحيوانات المفترسة..

مشروعهم القذر الذي شاركت فيه تضمن تطوير هذا الفيروس من كافة الجوانب المتعلقة به ككائن حي (خصائصه/ طرق انتقاله/ سرعة انتشاره/ تأثيره على أجهزة الجسم البشري) هذا التطوير استغرق وقتاً طويلاً، ومراحل طويلة لأكثر من تسع سنوات.. ما بين إضعافه من ناحية وتقويته من جانب آخر.. وكان المدى المفترض هو خمس وثلاثون مرحلة..

تضمنت المزاوجة مع عدد من الفيروسات، وإزاحة بعض المورثات.. شيء من هذا قبل أن يتوقف البحث عند المرحلة السابعة والعشرين قسراً، والتي حصلنا فيها على فيروس بالغ الخطورة..

قاطع المذيع: - لم توقف البحث.. ١٩

قال حايم وهو يتهد في ارتباك ورهبة:

- كلنا لا نعلم، ما نعلمه أن الفيروس بعد المرحلة السابعة والعشرين كان يموت فوراً، كلنا استغربنا ذلك مع أنه من المفروض أن يبقى حياً لأنه أقوى بكثير من المراحل السابقة، هذا غريب، ويثبت أن هناك قوة تثبط مشاريعهم الشريرة وتكرهها.. قوة لا نعلم مصدرها..

زم المذيع شفثيه وهو يردد:

- قوة السماء، الله يحفظ الأرض دائماً..

وتابع في شغف وحماس:

- بقي أن تحدثنا عن الفيروس.. عجل يا دكتور حايم فأنا أحترق فضولاً..

قال حايم وهو يبلل شفثيه في توتر شديد:

- معلومات سوف تصيب المشاهدين بالرعب، فيروس السعار الموجود في لعاب الكلاب المسعورة تم تعديله وراثياً بدقة شيطانية لنحصل منه على نسخة ذات تأثير قوي وقاتل على الجهاز العصبي.

تبدأ أعراض المرض بعد ساعتين من احتضان الفيروس في حالة الجسم الراكد، تبدأ العينان بالاحمرار نتيجة احتقان شبكية العين، ومن ثم نزيفها بشكل بشع..

من ثم - وهذا هو المهم - تتقلب طبيعة الجانب المسؤول عن الجهاز الهضمي من الدماغ إلى حالة صعبة ومرعبة من الاشتياق إلى أكل اللحم الحي كما هو الحال عند مدمن المخدرات.

ثم يتحول المريض إلى مسخ مربع، ذكي ومراوغ، يعرف كيف يجذب
فريسته ثم يلتهمها حية بلا رحمة..

هتف المذيع في رعب حقيقي:

- يا إلهي.. إنها لبشاعة متناهية..!

تابع حاييم في توتر شديد:

المؤسف أن طريقة انتقال الفيروس سهلة، إذ يتكاثر بصورة مهولة
داخل دم المصاب، وينتقل عن طريق أي سائل من سوائل الجسم (الدم -
الدموع - اللعاب - العرق....)

بالتالي فإن مجرد ملامسة السائل أو ابتلاعه أو دخوله الجسم عن
طريق الحقن أو العض يعني العدوى بنسبة ٩٣ %..

إضافة إلى أن المريض لا يعيش أكثر من أربعة أيام.. ستة في الحقيقة
على أكثر تقدير؛ لأن المصابين كانوا يعدمون بعد يومين في مركز البحث..

وفاة المريض السريعة، تعض جثته، تشكل تهديداً أخطر؛ لأن العض
يتكاثر بصورة هائلة ويلوث الجو.. أكبر إشكالية تواجهها المجموعة
الباحثة هي الحشرات التي تشكل جزءاً كبيراً من عالمنا، والتي تعتبر أكثر
ناقل لهذا الفيروس..

لذلك أنا أحذر الحكومة الشاؤولية بأن ما ستحضره للعالم ستقع فيه ولو
بعد حين، وستجد نفسها محاصرة بعالم من الوحوش الذكية والحشرات
المفترسة، وتخيل عندما ينتقل الفيروس وينتشر في كل العالم..

أين يمكن لحظتها أن يجد الإنسان مكاناً آمناً على هذا الكوكب
التعيس.. ١٩..

قال هذا وهو يراقب المذيع الذي تلون وجهه بشحوب رعب يوازي
شحوب الأموات...!

- هوني عليك يا صغيرتي..!
هكذا ردد عبدالقادر وهو يراقب وجه رامة التي كانت تتنفض في
غضب وحزن، بينما احتوتها عائشة بين ذراعيها في حنان...
ردد عبدالقادر في لا مبالاة:

- أنت لن تحتاجي إلى العمل بصراحة، أنت ابنتنا، وستساعدك
الجالية على الحصول على وظيفة أخرى، ثم إن لديك رصيذاً جيداً في
المصرف الإسلامي، من ميراث خالك، أنت لست مفلسة، ويمكن أن تجدي
عملاً آخر، أنا سأجد لك عملاً آخر..
هتفت في مرارة:

- لكن عملي الصحفي هو حياتي، هو عشقي، لا أصلح لأن أكون غير
صحفية...!

رد عليها في حزم وهو يشير بيده:
- اسمعيني صغيرتي.. أنت أفضل عضو في فريقهم المهترئ، ما الذي
دعاهم لأن يطردوك هكذا.. لم أسمع أن لك أعداء هناك.. ٢٩..

ردت رامة وهي تحتوي وجهها بين كفيها:

- كان المدير نفسه هذه المرة!..

تمتت عائشة في دهشة: المدير..!

رد عبدالقادر في قلق:

- لماذا... ماذا فعلت له!..

هزت منكبيها في ألم وهي تعدل غطاء رأسها قبل أن يكرر في قلق

صارم:

- هل فعل لك شيئاً!..

ردت في هدوء غاضب:

- لا شيء.. لا شيء.. بعض الاختلاف في وجهات النظر!..

حدق عبدالقادر في عينيها بغضب وغيرة، فهتفت في صرامة:

- عبدالقادر، لا تثر أعصابي!..

هتف في عصبية وغيرة متفجرة:

- من منا لا يعرف الأستاذ بين ويلي، في الضاحية، في القرية، في

الولاية كلها!..

ردت في صرامة: ماذا تقصد!..

رد في توتر: كان عليك أن تتركي المجلة من اللحظة التي صار فيها

رئيس تحرير قبل أشهر!

وتابع في صرامة: كل هذا لكي لا تتعرضي للأذى، كل هذا لكي تفهمي مقدار حرصي وخوفي اللانهائي عليك...!

تكهرب الجو وعائشة تطرق في خوف، ورامة تشيح في عناد..

تابع وهو يعدل طاقيته بعنف:

- واعلمي أنك امرأة ضعيفة مهما قلت أو فعلت.. فلن تكوني رجلاً

بشاريين..!

وقف في غضب قبل أن يقول في توتر:

- أنا ذاهب الآن، أنا فقط سمعت صوت صياحك وأتيت لأطمئن، لكن

أريد منك تذكر شيء واحد يا رامة..!

أشاحت وهو يقول في توتر وغيره:

- إنه لم يكن ليحوم حول حماك لو أنه عرف أن ثمت من يقف

خلفك..!

وصفق الباب خلفه..!

(١٨) البطولة المرتجفة..!

بعد المقابلة الساخنة التي فجرها الهارب حاييم، كان الشغل الشاغل للمجتمع الأمريكي هو ذلك الفيروس المسخ الفظيع الذي تهدد به شاؤول العالم كله هذه المرة..

فالشبكة المركزية.. والصحف.. والتلفزيون.. بدأت تحلل اللقاء كنوع من التهديد الذي يهدف لاستعراض العضلات لا أكثر..

وضاع الصوت في خضم التحليلات الإخبارية المكذبة..

كل هذا راقبته رامة بحذر وترقب وهي تتساءل ما إذا كانت تستطيع إيجاد وظيفة صحفية عن طريق متابعة هذه القضية، لكنها تلملت وهي تقول في غيظ:

- لن يترك لي هؤلاء الصحفيون المهرة فرصة، سيشفطون كل شيء،

كل خبر..!

وسجلت أمامها عنوان مؤتمر صحفي ضخم في نيويورك حول

الفيروس والتهديدات الشاؤولية المتزايدة لأمریکا، قبل أن تقول في نفسها وهي تذهب للاستحمام:

- أنا سوف أحاول..!

عندما وقفت تحت شلال المياه، داهمتها فكرة وسواسية مرعبة كالعادة:

- ماذا لو كانت هذه المياه تحمل الفيروس..؟

اغتنصبت ضحكة ساخرة وهي ترتجف ضيقاً قائلة بصوت عال:

- رامة، يجب أن تكفي عن هذه الأفكار الوسواسية السخيفة..!

وحانت منها التفاتة إلى المرأة لتشهق فزعاً لما لاح خيالها عبر بخار الماء..

انقبض قلبها بشدة رغماً وموجة الوسواس تداهمها بإصرار، فلهثت

وهي تغلق الصنبور بسرعة وتلفظ ما بضمها من الماء، قبل أن تسترخي

قليلاً وهي تقول في تحد:

- هه يا رامة! هكذا كيف ستعيشين..!؟

ملأت رئتيها بالهواء كما علّمها طبيبها ومكثت تحرق في محتويات

الحمام قبل أن تقول:

- أنت لن تبقي طوال عمرك بلا ماء، حتى لو كان ملوثاً بالفيروس،

بالسخافة الفكرة!

كانت هذه هي..

في كل حياتها البائسة..

صراع عجيب بين تخيلاتها الغريبة..

وبين شجاعتها المصطنعة وواقع حياتها الصعب كصحفية..

غالباً كانت تستطيع التغلب على مخاوفها الكبيرة لكنها للأسف تهزم

دائماً أمام المخاوف الصغيرة والسخيفة كهذه..

لذلك فقد جففت جسدها بسرعة وهي تغادر مرتجفة في عصبية واضحة وهي تردد في يأس:

- نعم أنت مخبولة وفاشلة، أنت غبية وجبانة، أنا كما يقولون تماماً ١٠٠

تمتعت جون جوت وهي تركز على وجهها البريء الشاحب:

- هل من خطب يا صغيرتي ١٩٠٠

ردت رامة في عصبية وهي تسرح شعرها بعنف:

- لا شيء البتة... ١

ردت جون جولت في ضيق شديد: -

- عندي مشكلة ١٠٠ هل أجد لديك أذنًا صاغية ١٩

التفتت إليها رامة وهي تتابع:

- هناك معجب بيتزني.. قذر. يقول: إن لديه صوراً لي.. صوراً

فاضحة ١٠٠

ردت رامة بكل استكثار:

- قذر.. وكلب.. ١

ردت جون جولت:

- يريد مني خمسين ألف دولار، لا أدري هل أستطيع مقاضاته ١٩٠٠

هزت رامة كتفها في مرارة وهي تقول:

- أففف.. أنا لا أعرف حقاً ماذا تفعلين... ١

وربطت شعرها بإهمال وهي تتابع:

- لو تركت الرقص، وانشغلت بمهنة أكثر شرفاً لوجدته يتهرب من

مواجهتك، صدقيني متى خفت الأضواء حولك فستسهل حياتك..!

ردت جون في لا مبالاة:

- غضي النظر عن الأضواء، هذه المهنة المتعبة هي مصدر رزقي الوحيد..!

ردت رامة وهي تشغل التلفاز:

- الله هو الرزاق ذو القوة المتين..!

لحظتها ظهرت مراسلة تلفزيونية تقول في حماس وارتجاف واضح:

- وصلنا سيداتي سادتي هذا الخبر..

استرخت جون وهي تقول في ضيق:

- هيه ما الجديد ؟! حادثة قتل.. أغلقه وانتبه لي..

أشارت لها رامة بالصمت والمراسلة تتحدث:

- كانت آثار الافتراس واضحة جداً على الضحية، وقد مزقت

بالتحديد أماكن تركز اللحم في الجثة، وعند أخذ عينة من دم الضحية

والدماء حولها، اتضح أن الضحية قاوم القاتل بشدة واستطاع جرحه، ما

أدى إلى ظهور نوع غريب من الفيروسات في دم القاتل..

اتسعت عينا رامة دهشة رهيبة والمراسلة تتابع:

- تحفظت أجهزة الأمن على موقع الحادث حتى إشعار آخر، ولسنا ندري بالضبط ماذا يحصل في العاصمة واشنطن دي سي، والكل يطرح هذه الأسئلة:

- هل كان القاتل مصاباً بفيروس المسخ القاتل..؟
وهل يعني ذلك أن الحكومة الشاؤولية قد أطلقت فيروسها المطور بوقاحة في قلب أمريكا..

واشنطن..؟

ميري مارتن... من الـ (.....) التلفزيونية..
شخصت عينا رامة وهي تقول مقاومة شعور الانقباض الوسواسي
الرهيب:

- يبدو أنهم ضربوا ضربتهم هذه المرة..
ومكثت دقائق تقلب في القنوات المحلية قبل أن تتوقف لترى الدكتور
حاييم في لقاء عاجل وهو يردد في خوف وقلق عظيم:

- اطلمت على نتائج الفحص المخبري الأولي.. وكانت النتيجة بكل أسف..

وهز منكبيه وهو يتابع بصوت مخنوق:

- هي خريطة جينات الفيروس المسخ نفسها..!

وانفجر الرعب في العالم كله.. بلا حدود..!

وقف الرئيس الأمريكي أمام جماهير شعبه الغاضبة وهو يردد:

- لقد قلبت لنا شأؤول ظهر المجن، وبدأت في تجريب نفاياتها علينا..!

هتف أحد الصحفيين في غضب هائل:

- غلطة مائة سنة من التعاون الغبي معهم، ماذا ستفعلون الآن

لتصحيح وضعنا المهزلي الذي وضعنا فيه الشاؤوليون..؟

رد الرئيس في صرامة:

- اسمعوا.. اسمعوني جيداً.. نحن سنطرح اقتراحات على الكونغرس،

وسيتم إبلاغكم بنتائج الاجتماعات..

وسحب نفساً طويلاً قبل أن يقول:

- مصلحتنا هذ المرة تقتضي أن لا نخسر ثقة الشعوب العربية

والإسلامية، والتي تحاصر شأؤول الآن بتجهيزات ضعيفة، ما سنفعله هو

تسهيل مهمتهم في الأخذ بثأرهم وثأرنا..

هتف أحد المتجمهرين في سخرية:

- على غرار ما فعلناه في تسهيل مهمة اليهود في ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ...

دائماً وأبداً مع من غلب!

وتعالت صيحات التأييد من بقية المتجمهرين...

رد الرئيس بصرامة: - لا شأن لنا بأخطاء سابقينا..

إستراتيجياتنا كانت تستورد سابقاً، أما الآن الأمر مختلف!

وتابع في قلق:

- وسعنا تجهيزاتنا ضد الفيروس، وتم رصد مبلغ ملياري دولار لمتابعة أمره..

هذا أمر، والأمر الأهم أن نتعظ أيها السادة، ونعرف بعد اليوم

صديقنا من عدونا...!

وصمت قليلاً قبل أن يقول في تردد:

- لا بد لنا أن نتحد مع العرب والمسلمين، هذه فكرتي..

هل توافقون..!

ضجت هتافات الجماهير: كلنا نوافق...!

حملت رامة حقيبتها وقذفتها على المقعد الخلفي لسيارتها الصغيرة،

وركضت إلى منزلها مرة أخرى قائلة:

- هيا يا جون، هل أقفلت كل شيء...؟

عدلت جون معطفها الجلدي وهي تقول:

- كل شيء، الأنوار، مفاتيح الكهرباء..

وقبلت رامة وهي تسحب مفتاحها من رتاج الباب قائلة:

- اعتني بنفسك جيداً هناك..

وقطعت الطريق بعيداً عن المنزل بينما فتحت رامة باب سيارتها وهي

تحكم غطاء شعرها، قبل أن تنتبه على صوت صارم خلفها يقول:

- حسناً رامة، ماذا لدينا هذه المرة..١٩٠٠

التفتت ببطء لتواجه عبدالقادر وهو يقف متكئاً على سور حديقته،
وقد أحاط خصره بكفيه القويتين، فرددت النظر فيه شزراً وهي تقول:
- ليس هذا من شأنك..

رد عليها في صرامة:

- شأن من إذاً..١٩٠٠ أنت تحملين حقيبة سفر كما أرى، وتركبين سيارتك
في وقت متأخر، إنها الثامنة مساءً، أين تسافرين..١٩٠٠
كررت في إصرار وعناد:

- قلت هذا ليس من شأنك، أنا امرأة مسؤولة، أرفض وصايتكم
تماماً، أنت وغيرك من المتحذلقين، أنت ومن في شاكلتك من البيض
المنفوخى الرؤوس..!

عقد كفيه خلف ظهره وهو يقول في حزم حان:

- اسمعيني يا بنتي، أنت تعرفين أن لي وجهات نظري الخاصة،
والمستمدة من الكتاب والسنة..

ردت ويدها تتقبضان في حدة:

- وأي حكم ذاك الذي يبيع لك التدخل في شؤوني هكذا..١٩٠٠

رد في حزم حان محاولاً احتواء غضبها:

- سفرك هكذا دون علم محاميك الدكتور نصر الدين، سوف يعرضك
لمشاكل كثيرة..

لوحث بكفها في اعتراض باك:

- لأنه الوصي.. تباً لكما جميعاً. أنا لست مجنونة..

رد عبدالقادر في صرامة حانية:

- رامة - تسبيني هكذا..!٩٠

هكذا سأغضب منك كثيراً..!١٠

تجاهلته وهي تصيح في غيظ:

- تصرفاتك تذبحني.. هل تريد أن أكرهك..!٩١

قاوم رغبة في الابتسام الساخر وهي تتابع في قهر وألم:

- كفوا عن فرض وصايتكم لأي سبب..

لست مجنونة ولم أعد طفلة.. اتركوني في حالي!

منذ متى بلغت سن الرشد..!٩٢ وترفضون ترك وصايتكم علي..

وتحدثون عن الإسلام وتطبيق الإسلام.. أيها الأمريكيون المتحذلقون...!٩٣

رد في صرامة حانية:

- اخفضي صوتك.. عودي إلى رشدك ولن يتدخل أحد في شؤونك،

إنهم يرفضون تصرفاتك الغربية، وأن تعرضي نفسك للخطر..!٩٤

واقترب منها وهو يخفض صوته قائلاً في اهتمام:

- ثم إنه - المحامي - من حقه أن يتصرف فيك كما يراه مناسباً يا

حبيبتي، ولو علم أنك سافرت هكذا دون علمه فسوف يتخذ بحقك أي

إجراء قانوني.. يمنعك من العمل، يسحب سيارتك.. أي شيء يا عزيزتي..

واقترب أكثر وهو يقول بصوت أخفض:

- وإذا أردت نصيحتي فعودي إلى دارك دون مشاكل!..

هتفت في عناد باكية:

- لن أعود، أنا سوف أسافر الآن!..

رد وهو يهز سبابته في حزم:

- صغيرتي.. لو علم محاميك..

قاطعته في عناد وقهر:

- ماذا سيدريه!؟! أخبرني!؟ دائماً أسافر دون أن يعلم.. ولو علم

فإنه يكتفي بتبنيهي لا أكثر.. دعني أركب سيارتي!..

رد عليها في صرامة هذه المرة:

- هذه مهمتي إذاً.. أن أخبره.. وأن أحشو رأسه بما أريد قوله عنك!..

هتفت في استكثار:

- يعني تكذب.. تكذب لكي ينفذ ما تريده!..

رد في غيرة:

- هذا واجبي يا صغيرتي.. أنت ترفضين تعاوني لأنك شرسة وعنيدة

فقط!..

ساد الصمت برهة قبل أن تقول في استعطاف:

- سأعتني بنفسى.. أرجوك دعني في حالى..!

هز كتفيه غير مبال، فرددت في استعطاف بصوت مخنوق:

- لا تحملنى على فعل أخطاء.. لا تدعنى أتوسل..!

خفض عينيه في تأثر قائلاً:

- أنت مسؤوليتى يا رامة، لن أسمح بعواطفى أن تعرضك للخطر..!

ردت في اعتراض:

- أى خطر.. أى خطر.. إنى لأشعر أحياناً بالرعب من كلامكم

فقط.. عنى أنا بالذات!

رد في هدوء حان وهو يحاول احتواء مشاعرها:

- نحن فى أمريكا يا رامة.. عليك أن تتصرفى بحذر..

ردت وهى تقحم ساقها فى السيارة فى إصرار:

- سيدي الأميركى الأبيض، هذا ما أفعله وسأفعله، معى سلاحى ولن..

انفجرت الصرامة فى وجهه وهو يقول:

- انزلى من السيارة فوراً، أنت لن تسافرى دون علم محاميك، ودون

إذنى، سوف أمنعك بالقوة لو اضطررت.. تذكرى أننى رجل أمن ومن

واجبى حمايتك، وقبل ذلك فأنا مسلم و...

هتفت فى رجاء:

- سأفعل كل ما تريد .. فقط اتركني!

تتهد وهو يقول في انزعاج:

- أخبريني على الأقل أين تذهبين .. ولماذا ..؟

قالت في صوت ضعيف:

- مؤتمر صحفي حول الفيروس المسخ ..!

حقق فيها في سخرية حانية قبل أن ينفجر بالضحك قائلاً في استخفاف:

- الفيروس الكذبة .. وجد مجالاً خصباً في .. طيب ..

خفضت رأسها في امتعاض واستسلام ..

لم تكن تدري ما ترد به عليه ..

معتوهة في نظر الجميع .. وفي نظره هو بالذات ..

ردد في حب:

- أنا آسف .. كنت أمازحك فقط ..!

ردت في مجاملة وعيناها تمتلئان بالدموع: لا لا عليك ..!

رد في لا مبالاة: أين تسافرين ..؟

ردت بعد تردد: أوهايو ..

زم شفتيه وهو يقطب جبينه قائلاً:

- أوهايو، وعلى سيارتك، لوحذك، هذا مستحيل يا صغيرتي، كوني

عاقلة واهدي .. عودي إلى دارك وفكري بالأمر جيداً، ستجدين أن

سلامتك هي أهم شيء، أنت لن تستفيدي شيئاً من سبق صحفي لو
تعرضت حياتك للخطر..!

ردت في استعطاف:

- دعني.. ولك كل ما تريد.. أعدك..!

ابتسم قائلاً في سخرية:

- دعيني أحدد حجم الرشوة هذه المرة..!

ودار على نفسه قائلاً في سخرية:

- مثلاً فطيرة عربية دسمة، لا.. أنا أتبع حمية هذه الأيام.. مثلاً..

ردت في استعطاف باك:

- لا تهزأ بي.. الليل سينتصف قريباً. دعني أذهب..!

نظر إليها هذه المرة بكل الحب الذي يتدفق في قلبه..

عينها الجميلتان الحائرتان الدامعتان..

يداها المرتجفتان وأوصالها المضطربة..

انفجرت الشفقة في قلبه هذه المرة كما لم يحس بها من قبل وهو يقول:

- يا حبيبتي الصغيرة يا رامة..!

تراجعت في خوف وهو يردد في حنان:

- أنت لن تفهميني مثل ما أفهمك.. ما دمت مصرّة..

وردد في استسلام:

- قاله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.. ولكن..

حبست أنفاسها في جذل وهو يردد:

- أنت ستعتنين بنفسك جيداً، سأكون على اتصال دائم بهاتفك.. أنت

لن تتجاهليني..

أسرعت تركب السيارة في خفة وهو يهتف في صرامة:

- اسمعيني يا هذه، اربطي حزام الأمان.. ستغيبين لمدة ثلاثة أيام فقط..

ردت في استسلام:

- يومان فقط..!

هتف في حبور:

- لا تتجاوزي سرعة الثمانين، ولا تقودي تحت تأثير الدواء، وإلا

فسوف أغير رأيي فوراً..

وابتسم في حب وهي تتجاهل جملته الأخيرة..

منطلقة إلى....!

- مستعدون لتقديم تنازلات...!

هكذا ردد الرئيس الأمريكي في اجتماع الدول الإسلامية الذي عقد

طارئاً هذه المرة..

وجاداً وعصياً أكثر مما مضى..

ليقرر قراراً واحداً طالما انتظرتة الشعوب:

- الحرب.. ولا شيء غير الحرب...!

تكلم الرئيس الأمريكي بصوت هادر في الاجتماع:

- لابد من الاعتراف بغلطة كبيرة ارتكبتها الإدارة الأمريكية على مدى

قرن كامل من التعاون مع الكيان الصهيوني..

لقد قررت أميركا أن تقدم كامل اعتذارها عما حصل في القرن الماضي،

ونحن مستعدون للتعاون الكامل معكم في حركم الشاملة ضد شاؤول.

ونعرض على حضراتكم فكرة تحالف إسلامي - أمريكي في مواجهة

الفيروس الشاؤولي..

وصمت منتظراً التصفيق الحاد الذي تواجه به كلماته دائماً، غير أنه

بهت لذلك البرود الذي اكتست به وجوه المجتمعين وكأنه لا يعنيهم ما قاله

بقليل أو كثير، قبل أن يجاملوا بعدد من التصفيقات الباردة المبعثرة..

كان الدرس قاسياً هذه المرة بحيث وعاه الكل، ولم يعد هناك مجال

للكذب والمواربة..

عندها تدخل أحد الرؤساء في صرامة قائلاً:

- أيها الأخوة.. لسنا في مجال فتح الحسابات وتسديد الفواتير في

هذه الفترة العصيبة، صحيح أننا اتفقنا من البداية على خوض المعركة

بأنفسنا دون وصاية أحد، لكن هذا لا يمنع أن نقبل الاعتذار الأمريكي

عن خطايا القرن العشرين..

ما يمكننا قبوله في مرحلة كهذه هو أن نهتئ أميركا على أنها ثابت
لرشدنا ونقبل اعتذارها الصادق عن تاريخ ملطخ بالزيف والخداع
والمداهنة لليهود الصهاينة..

احمر وجه الأمريكي، فيما بدت علائم الاستنكار الشديد على نائبه
ووزير خارجيته، لكن الوقت لم يكن وقت معرفة من الأقوى.. لم يكن وقت
تسديد فواتير وكشف حسابات..

الثواني تمضي وفي أرحامها تختبئ تداعيات الفيروس المستوحش..
حينها رفع الأمريكي صوته قائلاً في صدق وشجاعة:
- فليوفقكم الرب في مشروعاتكم القوي وحريكم العادلة، وثقوا دائماً
دائماً بأننا معكم..

في كل وقت، بدعمنا، وتشجيعنا، وتصفيقنا..

واندلعت نيران التصفيق الحارة هذه المرة...!

وقفت رامة في نهاية المؤتمر الصحفي وهي تدس مسجلها الصغير
ودفترها في حقيبتها، لقد سألت أسئلة كثيرة، وعلمت في أربع ساعات
أموراً خطيرة حول الفيروس الرهيب..

كان الذعر يملأ قلبها وهي تتذكر توصيات المجتمعين ومن بينهم
الدكتور حاييم:

- الامتناع عن كافة أشكال الرذيلة والحرام.
 - مكافحة الحشرات والتخلص من الحيوانات.
 - الامتناع عن الخروج بلا ضرورة، واستخدام السيارة دائماً دون المشي.
 - ارتداء ملابس محتشمة واقية، لتجنب العض واللسع..
 - عدم السير دون مرافق...
- تسمرت في مكانها وقد ندت من حلقها شهقة قوية، قبل أن تسرع إلى باب مقر المؤتمر وهي تحقق في الرجل عريض المنكبين الذي يوليها ظهره ويرتدي حلة بنية اللون غير أنيقة وهو يسرع إلى سيارته...
- ترددت كثيراً قبل أن تهرع راكضة إليه وهي تقول:
- من فضلك..
- التفت إليها في دهشة وهو يقول في ارتباك:
- لاحظت أنك تلاحقينني، هل يمكنني مساعدتك...؟

(١٩) عندما كان اللقاء..!

والتقت عيناها..

وارتد شريط ذاكرتهما إلى الوراء بمنتهى العنف...

إلى ثلاثة عشر عام مضت...

وتصاعد بينهما عثير رماد بالغ الكثافة...

ورن في أذنيهما معاً صوت صرخات المطحونين والمعذبين في

الأرض..

كان وجهه مألوفاً جداً جداً..

وكذلك وجهها..

واتسعت عيناها معها والذهول يجتاحهما ويهزهما بقوة الذكرى

الأليمة..

ردد بكل الذهول في قلبها:

- منصور.. منصور..!

رد هو بذات الشعور:

- رامة.. أنت رامة..!

حبست المفاجأة كلماتها في حلقتها ودموعها السخينة تتسرب إلى

خديها، بينما كز شفثيه في ارتباك شديد وهو يقول:

- أوه.. عفواً.. ليس من اللائق أن نبقى هكذا..
وأسرعت خطواته إلى سيارته قبل أن يلتفت إليها صامتاً، وهو
يجاهد دموع التأثير التي تجمعت في عينيه، وطال صمته قبل أن يقول
بصوت مرتجف:

- لقد أسلمت.. لم أعد مارونياً..

وابتسم في ارتباك وهو يقول:

- لقد فعلتها يا رامة.. كما كنت أشعر من قبل...!

وركب سيارته وهو يرمق رامة التي غرق وجهها بدموعها بنظرات
مرتبكة متأثرة..

كان ينظر إلى الجرح الغائر في أعماقها الممزقة بالعذاب والقهر
والطغيان..

عادت إلى عينيه صورتها وهي تركض وحيدة مذعورة في الشارع..

ممزقة الثياب حافية القدمين..

تذكر بسرعة صورة وجهها..

بآثار الضرب والقهر والذعر والهلع..

بأبشع صورة تتربع عليه بقوة..

بالدماء تتسلل من شفتيها الجافتين وتنتشر على وجهه..

تلك الصورة البغيضة التي جاهد لكي يمحوها من ذاكرته..

التفت إليها قائلاً في ارتباك ومجاملة:

- لقد كبرت كثيراً .. وأصبحت امرأة ناضجة ..!

هزت رأسها في مرارة وهي تحلق فيه بكل ألم قبل أن يقول في
مجاملة مرتكية:

- لكنك ما زلت بكاءة كما عهدتك .. يا لك من فتاة ..!

اندفعت شهقاتها بقوة وهي تراقب وجهه الوقور قبل أن يهتف:

- هل تعيشين هنا ..؟

ردت بالنفي برأسها، فقال في ارتباك:

- عن إذنك .. استودعك الله ..!

كفكفت دمعها وهي تتابع سيارته تسير بعيداً، لقد فعلها وأسلم ..

ولذلك فقط استطاعت أن تفسر معنى النور الجميل الذي لم تعرفه
في وجهه من قبل ..

كانت العمة والنزاهة تحلق تحلق فوق ذلك الوجه التائب ..

لقد عاد إليه تعالى...

ذلك هو المهم...

كانت جون جولد تتفقد ماكياجها بعد انتهائها من وصلتها الراقصة،

قبل أن تنتبه لصوت ساخر خلفها:

- أرجو أن يكون عرضي قد أفتع عقل راقصتنا المحبوبة (جي - تي)..!
- التفت جون خلفها لتواجه شاباً رقيقاً وهو يردد في خسه:
- جمبيبييلة.. مهما فعلت..!
- صفعته على وجهه بقوة وهي تصرخ:
- ماذا تريد مني...؟!
- رد في رقاعة ولا مبالاة:
- الخمسون ألف دولار، إنه ريع حفلة واحدة...!
- هتفت في احتقار:
- سأملأ فمك بال...!
- وبصقت في وجهه بعنف، قبل أن تنقلب سحنه فجأة وهو يقول في رقاعة:
- انتظري الانتقام إذا...!
- قهقهت جون في عصبية وهي تقول:
- ماذا ستفعل...؟!
- قال وهو يوليها ظهره في مكر:
- لعلك سمعت بمدينة الفيروس التي أقاموها في طرف واشنطن..
- والتفت إليها قائلاً في فجاجة:
- إنهم يحتجزون المصاب ولو باشتباه واحد في المليون، ثم يعدمونه بلا رحمة، بالحرق..

التقطت حقيبتها بسرعة وهي تقول لأفراد الفرقة:

- سأستقل سيارة أجرة إلى شارع ٢٨، عودوا بدوني..

حدثت نفسها وهي في الطريق عما يعنيه الفتى، لكنها طردت الأفكار

وهي تقول:

- مجرد هراء، مثل هلاوس رامة..!

ونقدت السائق أجره ونزلت وهي تتأمل ساعتها، حيث كانت الثانية

بعد منتصف الليل، وقطعت الطريق إلى منزل رامة وهي تقول:

- لا شك أنها عادت حسبما وعدت، جرائدها غير موجودة.

وضغطت على الجرس مراراً دون جدوى، وانتظرت طويلاً قبل أن

تتجه إلى أحد نوافذ البيت وهي تهتف:

- رامة ألا تسمعينني..!

انتبهت لصوت صارم خلفها يقول:

- إنه أنت إذاً يا جون..!

التفتت في فزع لتواجه عبدالقادر، الذي كان يمسك سلاحه، قائلاً

في غضب وحدة:

- لا أدري ماذا دهاكن ياهاته النسوة..!

لقد تصورت أنك من اللصوص اللبقيين الذي يسرقون دون صوت..

أخبرني.. هل هنالك امرأة في كامل قواها العقلية تخرج في مثل هذه

الساعة..! في ليل أميركا المخيف..!

ردت جون في احترام ورهبة:

- كنت أريد زيارة رامة فقط، أنا لم أنته من عملي إلا قبل ربع ساعة

فقط...!

رد في سخرية ضاحكاً:

- عملك.. تعنين الرقص...!

وأشار إليها بقوة قائلاً:

- أنت تنتمين لموقع الفضيلة أيتها العربية.. فكري بذلك جيداً...!

صمتت في رهبة وهي تبتسم في ارتباك وغبطة بينما تابع وهو يتجه لمنزله:

- رامة لم تعد بعد، لقد وعدتني ألا يطول غيابها، وها هي كعادتها

تمضي اليوم الثالث بعيداً!

ردت جون بابتسامة ودودة:

- الرحلة إلى نيويورك تستغرق وقتاً بالسيارة..

التفت إليها بغتة وهو يهتف مبهوراً:

- ماذا قلت...؟

نيويورك....!

صمتت خوف المفاجأة وهي تتطلع في عينيها المتقدتين غضباً وذهولاً،

وهو يقترب منها مردداً في ذهول غاضب:

- هل ذهبت المعتوهة إلى نيويورك...؟

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تقول:

- ربما خدعتني يا عبدالقادر لكي لا ألحق بها ..

ظل يلوح بيده وهو يردد في ذهول القلق:

- نيويورك أيتها المعتوهة رامة... ١٩

نيويورك مرة واحدة... ١٩١٩

وتكذبين علي بهذه السهولة، وبأنك وصلت بالسلامة إلى أوهايو..

وحضرت المؤتمر..

تلاحقت دقات قلب جون وهي تفكر في حماقتها، قبل أن تنتبه إلى

صوته وهو يقول في صرامة:

- عودي إلى منزلك فوراً، لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى، في مثل

هذه الساعة المتأخرة وإلا فسيكون لي معك شأن آخر..

عودي فوراً وانتبهي لنفسك..!

واتجه إلى منزله وهو يقول في قلق وغضب شديدين:

- حسنا يا رامة..

ستعلمين هذه المرة كيف أوقفك عند حدك، وبمنتهى القوة..

وزفر وهو يحدق في باب بيتها قائلاً:

- ستعلمين.....!

في أحد أزقة العاصمة القذرة، كان أحد المتشرين يرقد في أمان
وسط صندوق من الكرتون، وهو يستنشق ما بقي من مظروف هيروين،
ويردد في استمتاع أغنية:

- أيتها الحياة القذرة..

كم بقي لي...

حتى الدماء في عروقي.. انصهرت وتبخرت..

بقيت بلا دم..!٩٠

وتأوه عندما أحس ركلة قوية في ساقه المكشوف، قبل أن يجلس وهو
يقول في فجاجة:

- أهو أنت يا فليك..!٩٠

رد عليه متشرد آخر قذر الثياب بصورة فضيحة:

- أنت مدين لي بعود سيجار أيها اللعين...!

فهقه الأول وهو يقول مترنحاً:

- كل ما أملكه هو بقية هذا المظروف، خذ، شم واستمتع بالحياة مثلي

يا رجل...!

استرخى الآخر بجواره وهو يقول في ألم:

- أيها البصاقة القذرة، هذا هو ما يهملك، هناك مرض خطير معد

يتفشى في المدينة منذ يومين، ونحن لا نملك شيئاً نفعله..

الأغنياء اللعينون هم الذين يستطيعون الوقاية منه ويهربون إلى
بيوتهم المكيفة، نحن في هذا الجو البارد، لا نملك ما نغطي به أنفسنا..
رد الأول مترنحاً:

- الحياة لا تجيء إلا مرة واحدة، استمتع بها ولو كنت مريضاً..
لكزه الآخر بعنف في صدره وهو يهتف:
- إنه يصيبك لتصير وحشاً لتلهم البشر..
رد الأول في سخرية:

- ماذا في ذلك .. ؟! دعنا نقتص منهم على الأقل..
رد الثاني في عنف:

- ماذا إذا جاؤوا هم يلتهمون جسدك المنتن..
التفت الأول وقد دب الذعر في قلبه قائلاً:
- أهو خبر صحيح..
؟!

هز الثاني رأسه بالإيجاب قائلاً في ألم:

- القطط، الحشرات، والفئران والكلاب المسعورة..
تطاردنا وتنام معنا وتتبول فوقنا، عضه بعوضة أو صرصار تكفي

لنقل الفيروس..

يأمروننا بالتزام البيوت.. أي بيوت نلتزمها نحن..
رد الأول ساخراً:

- فيلتك بجوار قمامة المدخل.. التزمها الآن.. أما أنا فعندي هذا..

وسحب سكيناً حاداً من جوريه، وهو يقف ويردد في سخرية:

- لو أنه خبر صحيح، سأذهب قليلاً..!

هتف زميله في اشمئزاز ساخر:

- لا تنس أن تستخدم منديلك القذر..!

قطع المتشرد الأول الطريق إلى أحد الحمامات العامة القذرة، وهو

يهزج بأغنية عابثة، وهو يلتمس حماماً شاغراً، وعندما لم يجد وقف وهو

يدق بقبضته على أحدها قائلاً في قحة:

- اخرج بسرعة، الناس ينتظرون..!

أجابته أصوات متداخلة غاضبة وهو يمضغ عقب سيجار ضاحكاً في

تهكم، واستدار.. لينتفض رعباً عندما واجهه رجل أبيض ضخم الجثة

وهو يبتسم في وجهه ابتسامة مرعبة قائلاً:

- ثمت حمامات أكثر نظافة.. هل تريد أن نذهب هناك..؟

تراجع المتشرد قائلاً في فجاجة:

- التمس لك واحداً من هؤلاء الحثالة الذين يملؤون الصناديق، أنا

لست شاذاً لسوء حظك..!

رد الرجل وهو يخرج ورقة نقدية من فئة العشرين دولاراً، ومررها

على أنف المتشرد قائلاً في قذارة:

- هل شممت رائحة الدولارات مؤخراً..؟
- ترنح المتشرد وهو يفرك أنفه السائل قائلاً في سوقية:
- إنها مغرية بحق، لكنني لست شاذاً، وقذر كما ترى..؟
- تراجع الرجل وهو يتراجع مبتعداً في قذارة:
- إذا أبحث عن شاذ، سأفعل..!
- استوقفه المتشرد في خسة: - توقف لحظة، هات الدولارات..
- ابتسم الرجل ابتسامة قبيحة كشفت أسنانه القذرة المصطبغة بلون دموي مع ارتجافات عضلات وجهه الشديدة بينما قال المتشرد في ارتباك وخسة مبتسماً:
- الشواذ كانوا يوماً أسوياء مثلي، ثم إن الحياة تجيء مرة واحدة فقط..!
- وتبع الرجل الذي قاده إلى ركن مظلم في صمت..
- لاحظ المتشرد ارتجافه الشديد غير الطبيعي، فقدر في نفسه أنه مدمن للكاف..
- لحظتها أخرج سكينه من جيبه وهو يقول ساخراً:
- ألم تأخذ جرعتك اليوم يا عزيزي القذر..؟
- حقق الرجل مبتسماً في السكين والمتشرد يقول وهو يقبل الورقة النقدية:
- لقد عدلت عن بعض قراري، أنا لن أنفذ ما تريد، لكنني سأأخذ الدولارات..!

التمعت عينا الرجل الحمراروين بشدة وهو ينقض بجنون على المتشرد
الذي تراجع قائلاً في فجاجة:

- لا أريد أن آخذ حكم إعدام بسببك، لو حاولت ذلك فسوف أطعنك،
وسأقول لهم إنك تحرشت بي، ولن يسأل أحد وأنت ميت عن نقودك القذرة..
وأطلق صيحة هائلة عندما تشبث الرجل بكتفيه وغرس أسنانه
القذرة في الجزء الأسفل من ذقنه..

جحظت عيناه وهو يحاول الفكك مختنقاً في ألم رهيب، حتى انتزع
المسخ قطعة من اللحم بين أسنانه في سعار فظيع..

سقط المتشرد في إعياء وذهول رهيبين ودماؤه الساخنة تتدفق على صدره..
هل يمكن أن يكون ما قالوه صحيحاً..؟

رفع كفيه الممتلئين بالدماء أمام عينيه الطافحتين بذهول رهيب..
وعندما هوى المسخ بأسنانه هذه المرة على عنقه، انتفض واقفاً في
محاولة يائسة ليسدد طعنه قوية غاصت في قلبه إلى مقبض السكين..
تشنجت أسنان المسخ على عنقه الممزق، ليهويا معاً على الأرض وهما
يصارعان سكرات الموت..

حتى لفظا أنفاسهما الأخيرة..!

وحول بركة دمائهما، تجمعت الصراصير.. والفئران.. والقطط..

لتلتهم.. وتلتهم.. وتلتهم..!

ضغطت رامة آلة تصويرها لتلتقط صورة لمكان حادث الافتراس الجديد الذي وقع البارحة في واشنطن دي سي، مثيراً أكبر قدر من الفزع والذعر في قلوب سكان العاصمة، ومشعراً بأن هذه المدينة لم تعد آمنة البتة..

كانت ترتدي كمامة واقية كما أمرها حراس الموقع، وتتفحص المكان وتلتقط الصور، قبل أن يناديها صوت صارم:

- يكفي يا فتاة، لقد أتى الخبراء.. إخلاء الموقع فوراً..!

ابتعدت بخطوات سريعة وهي تقترب من أحد الخبراء قائلة وهي ترفع مسجلها:

- أيها الرفيق، كيف يمكن للضحية أن يقاوم المفترسين، كيف أعرف أن المهاجم مسخ؟!

تتحنن الخبير قائلاً في تودة:

- جاكى روب من إدارة البحث الجنائي، يمكنني القول إن السؤال حير إدارة البحث ومسؤولي وزارة الداخلية؛ لأننا لم نقبض بعد على أي مصاب بالفيروس، ما يمكنني نصحك به هو التزام تعليمات المؤتمر العلمي الذي عقد البارحة في نيويورك..!

قالت في اقتضاب: - شكراً جزيلاً..

وانتزعت كمامتها وهي تتطلع عن بعد، والحراس ينهرونها لتبتعد،
قبل أن تركب سيارتها، وتبتعد...!

كانت جون جولد تسير بسيارتها وهو تستغرق في تفكير غريب، كان
شعور بالانقباض يزعجها دون أن تعرف سره..

بعدما أدت وصلة راقصة صباحية قبل قليل..

بدأت تشعر بهذا الشعور مضاعفاً..

واحتقرت نفسها كثيراً وهي عربية، لا تعرف عن الحق والدين الحق
ما يعرفه رجل الشارع الأمريكي...!

احتقرت نفسها أكثر وهي مجرد راقصة متخصصة في هز خصرها
النحيل باسم الفن الشرقي..

قطع تفكيرها صوت هاتفها النقال فالتفتته قائلة في ضيق:

- جي تي، من المتحدث...؟

وانتفضت في رعب وهي تسمع صوتاً رقيقاً يقول على الطرف الآخر

في هدوء:

- كيف حال جي تي المسخة...؟

هتفت في انفعال:

- من هذا الخنزير..!٩

رد الصوت في هدوء بالغ:

- ألم تسمعي بآخر خبر انتشر على الإنترنت البارحة..!٩

صمتت جون وعيناها تتسعان على آخرهما وهو يتابع:

- جي تي الراقصة مطلوبة للقبض عليها لإصابتها بالفيروس

المسخ..!

صرخت جون في خوف وغضب عظيم:

- اللعنة.. ألف لعنة عليكم أيها الأوغاد..!

وقذفت هاتفها النقال وهي تشهق في فزع عظيم عندما رأت منزلها

الصغير من بعيد مطوقاً برجال أمن يرتدون الكمامات الواقية..

خفضت رأسها وهي تدير المقود بغتة منطلقة بعيداً قائلة في رعب

شديد:

- سيقبضون علي لا محالة و...

ودق هاتفها مرة أخرى، فترددت قليلاً قبل أن تلتقطه وهي تقول في

تماسك والدموع المذعورة تصيب على خديها:

- من المتحدث..!٩

جاءها هذه المرة صوت زميلها وهو يقول في رقاعة وسخرية:

- هل عرفت كيف أنتقم يا جي تي..!

صرخت جون والدموع تفرق وجهها :

- أيها الحشرة الحقيرة!..

تجاهله وهو يتابع في تشف:

- لا تنسي أن المصاب بهذا الفيروس يقتل حرقاً و..

وقطع عبارته بقهقهة متشفية وسط صراخ جون:

- أيها القزم الملعون... أيها الد... ..

وبترت عبارتها بشهقات خوف والدموع تفرق وجهها هاتفة:

- أين سأطير!؟ أين أذهب!؟

وصرخت بقوة عندما دق هاتفها مرة ثالثة:

- لا لا .. أنا لن أرد أيها الأوغاد!..

كان إصرار الهاتف ونحيبها الهلع يزداد وهي ترتمي على المقود عند إشارة حمراء، حتى مدت يداً مرتجفه وهي تقول بما بقي فيها من التماسك:

- من هناك!؟

جاءها صوت صارم يقول:

- الآنسة جون جولت، أهى أنت!؟

أنا فينسنت من إدارة الأمن الصحي، أنت مطلوبة لإجراء فحوصات طبية مكثفة للاشتباه في إصابتك بالفيروس المسخ، يجب أن نجدك فوراً يا جون و..

صرخت بقوة وألم:

- إنها إشاعة، كذب زوجها عليّ أحد المعجبين، أنا لست مريضة ولا يمكن أن تقبضوا عليّ..

وانطلقت سيارتها والصوت يقول:

- أماننا أوامر بالغة الدقة والصرامة، تقضي بإعدامك فوراً في حالة مقاومتك أو هروبك، من الأفضل أن تسلمي نفسك الآن..

قطعت الاتصال وهي تصرخ في ذعر هستيري عندما باغتتها سيارة شرطة من الخلف، وضغطت دواس الوقود بقوة لتتطلق بسرعة، جنونيه وسط الشوارع وهي تراوغها، حتى توقفت بغتة عند محل تجاري كبير، ونزلت راكضة لتندس لاهثة بين الزحام..

قفز رجال الشرطة المكممون وهم يحملون أسلحتهم راكضين خلفها بإصرار وأحدهم يهتف من خلال مكبر صوت:

- إخلاء السوق أيها الرعاع، هناك مصابة بمرض خطير داخل الزحام.. فوراً أيها الرعاع..

تعالت صيحات الناس وهم يتدافعون للخروج من البوابة الرئيسة في هلع واضطراب..

لم يستطع رجال الشرطة اختراق الزحام فأطلق أحدهم عياراً نارياً في الهواء قائلاً:

- انبطحوا جميعاً بلا استثناء، خلال ثلاث ثوان سنقتل من نراه واقفاً، تعالى الهرج والصراخ وبعض الرجال يحاولون كسر زجاج المبنى ليخرجوا في دعر وجنون، فأسقط في أيدي رجال الشرطة وهم يدورون بلا حيلة وسط الأجساد المتدافعة..

أحدهم كان يمسك رشاش وهو يدور ببطء ويحدق في بعض الأجساد المتمددة في دعر واستسلام، لقد هدأ الوضع ولم يعد أحد واقفاً.. وقف أحدهم أمام غرفة مستودع صغير مواربة الباب، فابتسم في ظفر وهو يرفع هاتفه قائلاً بصوت خافت:

- حوامة الحجز الصحي فوراً، لقد قبضنا عليها..!

وبعد دقائق مرت كالدهور، استطاع الناس أن يلمحوا بطرف عيونهم في دعر عظيم راقصتهم الحبوبة، وهي تستسلم لأيدي شرطة الأمن الصحي وهم يقتحمونها بعنف في كيس عازل، ويسحبونها بلا رحمة إلى حوامتهم التي حلقت بعيداً..

إلى مدينة الفيروس..!

٢٠) المسخ ..!

تنهدت رامة بقوة وهي تفرك عينيها بقوة، لقد تعبت كثيراً في تحرير هذا الجزء من ملفها الضخم حول الفيروس ..

ورغم إحساسها بعدم جدوى ما تفعله إزاء ما يسبقها به الصحفيون المتميزون إلا أنها كانت متحمسة بشدة لإتمام مهمتها الصحفية بنجاح ..
أغلقت قلمها وهي تسرع بالتقاط حقيبتها قائلة :
- لقد أزف الوقت، لن أبقى هنا كثيراً ..

وهرعت تغلق باب غرفتها في الفندق وتسلم المفتاح على عجل،
وأحكمت غطاء شعرها وهي تنطلق بسيارتها في الطريق إلى ميشجان ..
توقفت لحظة وهي تقول في نفسها :
- أنا جائعة ..

لم تدر لم تحسست مسدسها للمرة العاشرة هذا اليوم وهي تنزل إلى
كشك صغير لبيع الشطائر على الطريق إلى ميشجان، وتدق قائلة في وقار :
- شطيرة جبن من فضلك ..

لما لم يجيبها أحد تساءلت في استغراب :
- أين البائع ؟ لقد كان هنا في طريقي إلى واشنطن ..
انتبهت لصوت بائس مرتجف خلفها يقول :

- من فضلك يا آنسة ..

التفتت في خوف لتواجه رجلاً قصيراً بالغ النحول وهو يقول بعينين
هلعيتين:

- هناك فتاة حبلى تلد في طرف الطريق ..

وأشار إلى مجموعة مبان متهاكة قديمة حولها مظلات من الصحف
على الجانب الأيسر من الطريق، فقالت في تأثر ودهشة:

- يمكنك استخدام نقالي لتطلب ٩١١ ..

رد الرجل في صبر نافذ:

- لا مجال للانتظار، إنها متشردة وصغيرة، وقد فقدت الكثير من
الدم والطفل يرفض الخروج.

هتفت رامة في حيرة وخوف:

- طيب ماذا يمكنني فعله ..؟

واستدركت بالقول:

- طيب .. انتظر لحظة، أين هي ..؟

وهرعت إلى سيارتها لتلقط آلة تصويرها التلفزيونية الصغيرة وهي
تردد في سخريّة:

- مشهد حي لضحية من ضحايا الانحلال والفساد .. سبق صحفي هائل ..!

وركضت خلفه وهي تلتفت إلى سيارتها في مكانها، إلى تلك المباني العتيقة المخيفة، والتي تنبعث منها روائح كريهة غريبة جداً، تنتشر الفوضى والنفايات بينها..

كتمت أنفاسها وهي تصل إلى جدار من الآجر الأحمر يفصل بين مبنيين، فقالت في اهتمام:

- أين الفتاة..؟

أشار بيده إلى الأرض قائلاً:

- هذا دمها، تعالي وانظري..

تطلعت في وجهه القذر المكدّم، وجسمه الناحل الشديد الارتجاف.. كانت هناك بقع دموية متجمدة تتجمع على أركان ذراعيه بشكل مثير للتعجب.. كان لون جلده غريباً للغاية.. هل يا ترى هو مدمن مخدرات..؟

وركزت آلة التصوير على بقعة الدم الكبيرة: قبل أن تصرخ بغتة عندما هوى بيده ليمسك ذراعها بقوة، وخبطت يده الجدار وهي تصرخ في ذعر وغضب:

- كنت تكذب أيها المتشرد الملعون..!

انتبهت لحظتها إلى فحيحه المرعب، وركزت عينيها في عينيه الحمراوين بشكل غير طبيعي، فألقت آلتها أرضاً وسحبت مسدسها وهي تصرخ مرتجفة:

- سأطلق النار أيها الكلب..

وصوبته إلى صدره وهي تتراجع بخطوات بالغة الاضطراب والخوف
وهو يقترب في إصرار بخطوات بطيئة..

جمد الذعر دمها وهي تصرخ ومسدها يضطرب بين كفيها:

- لو حاولت مساس شعرة من رأسي فستدفع الثمن غالياً صدقتي..

ضحك الرجل ضحكة غريبة كشفت أنيابه الحمراء الغريبة المتسخة،
وبدا وجهه المضطرب جيداً تحت بقعة ضوء الشمس، فتراجعت رامة
وهي تهتف في تماسك:

- كن عاقلاً، أنت لن تنال مني، ابحث لك عن قذرة مثلك ممن يملأ
الشوارع..

أحست لحظتها أنها داست جسماً ليناً، فتمتم الرجل في سخرية:

- هل كنت تبحثين عن صاحب الكشك..؟

اتسعت عيناها بذعر هائل وهي تخفض عينيها إلى تحت قدمها..
وترى جثة الرجل..

ممزقة بشكل بالغ البشاعة والوحشية..

أطلقت صرخة هلع طويلة وهي ترفع عينيها إلى الوجه القبيح الذي
برقت أسنانه الحادة القذرة وهي تنقض عليها في وحشية...
أسنان مسخ...!

هتف عبدالقادر في قلق وغضب شديدين:

- إنه رابع يوم لغيابها هذه المعتوهة، سوف أعرف كيف أوقفها عند حدها..

ردت عائشة في تبرم:

- لقد اتصلت علي لتقول إنها عائدة خلال ست ساعات قادمة، لاشك أنها في الطريق الآن!

هتف في حدة:

- تجدين لها مليون عذر هذه ال....

واستدرك صائحاً وهو يلوح بذراعه غاضباً:

- ما الذي يدفع بفتاة مثل ظروفها الصحية القاسية أن تسافر بغتة إلى نيويورك دون أن تخبر أحداً على الأقل..؟

إنها لمجنونة ذات تصرفات تغلي الدماغ، لابد أن نوقفها عند حدها قبل أن نستفيق لنجدها قد هربت إلى بلوتو...!

ردت عائشة في غيظ:

- مهمتها الصحفية لم تنته بعد..!

رد في تهكم غاضب:

- هه.. مهمتها الصحفية..؟ تصدقونها هذه البلهاء..؟

إنها تتحذلق وتعرض نفسها للخطر مقابل أن تجد لها عملاً حقيراً يدر عليها بعض السنتات القليلة..؟

تريد أن تبدو قوية كرجل سوبر.. تريد أن تقول لنا إنها ليست بحاجة لأحد، تحاول أن تثبت هلاوسها حول أنها بطلة ذكية وتتخلص من الرقابة والوصاية، إنها مخبولة ولا بد أن..

هتف أمير في اعتراض:

- كف عن هذا يا رجل واثق الله فيما يصدر عن لسانك السليط..

ثم هي حرة في حياتها، يجب أن نعترف بذلك، لا يوجد ما..

قاطعة عبدالقادر في غضب هادر:

- للحرية حدود يجب أن لا تتجاوزها، ما دامت تصر على إضرار

نفسها فلا بد من أن نمنعها..

ثم هي قبل أن تكون مريضة نفسياً، امرأة ضعيفة، والمرأة لم تخلق

لتصارع وتلاحق الأخبار بهذا الشكل المحموم، ولوح بيديه صائحاً في

تهكم غاضب: - وأين؟ في أمريكا.. هاها..!

رد أمير في إصرار:

- لقد ولدت لتكون مقاتلة، هكذا عاشت في فلسطين قبل أن تجيء

إلى هنا، هي مقاتلة ولا يمكن أن تتغير حياتها أبداً، وتصرفاتك ستزيدها

نزقاً وطيشاً..

هتف عبدالقادر في فجائية:

- ها أنت قلتها.. لقد اعترفت بأنها نزقة وطائشة هل تلومني..؟

إنها تحت وصاية قانونية بموجب وصية خالها رحمه الله، وما دام أنها تعرف ذلك فلا بد أن تحترم القانون والحكم ولو لم تكن مقتنعة به..
ردد أمير في ألم:

- المسكينة، لا تريدون إعطاءها مجرد فرصة..!

وقف عبدالقادر قائلاً في تهكم:

- أمثالها لا يستحقون الفرص، أولاً هي سافرت دون علمنا، ثم هي كذبت وقالت: إنها ستبقى يومين، ثم هي كذبت وقالت: إنها متجهة لأوهايو..
رد أمير في تهكم:

- كيف سافرت دون علمنا.. ألم تقل لك إنها ذاهبة لأوهايو..؟!

زم عبدالقادر شفثيه قائلاً في سخرية غاضبة:

- لكن سأكون سعيداً عندما يوبخها محاميها بسبب تصرفها الأرعن، ويقرر حرمانها من الوظيفة فوراً.. بل ويقرر أن تبقى تحت رقابة قانونية..!
قالت عائشة في غيظ:

- محاميها لن يفعل شيئاً مما يمليه عليك شياطينك، لو لم أكن أعرفك لتصورت أنك تحمل عليها حقداً هائلاً..!

صمت طويلاً وهو يطرق مفكراً..

لا يدركون حقاً لماذا أفعل ذلك..؟!

ألا يدركون حقيقتنا أنا ورامدة..

إنها لن تستغني عني.. ؟!

عندما تحتاج شيئاً تأتي لتستجد بي فوراً.. ولا تتردد..

ماذا يعني هذا..؟

لماذا تستمتع بالثرثرة معي عندما تنسى عنادها..

لماذا تنتشي عندما أمتدح أفكارها وأشيد بأعمالها..؟

أو ليست تحبني..؟

والأهم من ذلك.. أو لست أحبها..؟

بجنون.....!

صرخت رامة صرخة طويلة مذعورة وأصبعها يضغط على الزناد

بقوة لتطلق رصاصات أربع اخترقت رأس المسخ وصدره وعنقه..

تفجرت دماؤه القذرة على الأرض وهو يمد يداً يائسة إليها.. فقفزت

صائحة بكل الهلع والذهول في عقلها:

- قذر.. ملعووووون..!

وتراجعت بسرعة وهي تحقق فيه بذهول هائل..

هل كان هذا حقيقة أم حلماً..؟!؟

وازدريت ريقها الجاف بمنتهى الصعوبة..

لقد قتلتها فعلاً..

ولكن .. أكان مسخاً..؟!؟

هل كان يزعم افتراسي...١٩

هل كان كل هذا..

كل كل هذا.

حقيقة ١٩..

حدقت في مسدسها طويلاً وهي تهمهم في ذهول..

وجثته الضئيلة المتمددة في سكون..

وقد تسلخت بعض أماكن في ذراعية الهزليتين العاريتين..

شخصت عيناها في ذهول الخوف الهائل، وهي تلتقط أغراضها

بسرعة ولا شعور.

لم تفهم أي شيء لحظتها مما يجري سوى أنها كانت تهرب.

دون توقف..

نقر منصور بأصابعه على مقعده في كرسيه، وهو يتابع التقرير

الإخباري الذي يبث على تلفازه مباشرة.. حيث كانت المذيعه ترتدي رداء

واقياً من رأسها وإلى أخمص قدميها وهي تقول في حماس شديد:

- حتى لحظتنا هذه تم القبض على اثنين وعشرين مصاباً بالفيروس

المسخ في واشنطن دي سي، وبعد تحريات مكثفة ودقيقة، اكتشف أن

سبب تفاقم الانتشار بهذا الشكل المروع في يومين، هو وجود عدد من الجثث لمسوخ تم قتلهم بالرصاص أو بآلات حادة..

الأمر الذي مكن الحشرات من نقلها عبر مياه الشرب والأطعمة وعن طريق السلع المباشر إلى الإنسان بشكل مثير للرعب..

ردد منصور وهو يدق بقبضته في غضب: عظيم:

- لقد ضربتم ضربتكم أيها القروء، وبمنتهى النجاح..

انتقلت العدسة إلى مظاهرة هائلة فوضوية يسير فيها سكان واشنطن إلى مبنى السفارة الشاؤولية، وهم يقذفون بالزجاجات الفارغة والحارقة، وهم يرددون شعارهم منذ بداية الحملة على الفيروس:

- كلنا نكرهم.. كلنا نكرهم!..

علقت المذيعة في رهبة:

- علينا أن نصمت احتراماً لهذه الثورة الشعبية الهائلة التي يفرغ فيها سكان المدينة المنكوبون جام غضبهم على الحكومة الشاؤولية التي اختارتهم كبش فداء هذه المرة..

لإرهابهم اللامحدود..

لقد أقيمت حواجز شائكة ومكهربة لمنع الدخول والخروج من المدينة، والحكومة تقوم بجهود كثيفة لمحاصرة الفيروس عن طريق قتل الحيوانات المصابة وحرقها..

لكن الحشرات، والبشر المصابون، والذين يراوغون أجهزة الأمن، هم
الخطر الأكبر الذي يزيد تفاقم الخطب..

تنهد منصور وهو يقول في قلق شديد :

- على هذا النحو سنفيق غداً لنجد أنفسنا محاصرين بوحوش تعرف
كيف تفترس بأناقة!

انتقلت العدسة إلى مدينة الفيروس التي أقيمت على أطراف
واشنطن الخارجية، والمذبة تقول:

- وأمامنا الآن أحد المصابين بالفيروس، سوبار كريستيان ، عمره ٢٨
سنة، ويعمل في مصلحة الصرف الصحي، تم ضبطه أثناء التهامه أحد
الكلاب الضالة قبل ثلاث وعشرين ساعة من الآن، وقد كشف الفحص
المبكر عن إصابته بالفيروس منذ أكثر من ثمانين ساعة.

ركزت العدسة على وجهه الخالي تماماً من الشعر، وعينية الحمراء
المتقدتين قهراً وحزناً وهو يشير بأصبعه إلى العدسة قائلاً في شراسة:

- لم يكن هذا ذنبي، أنا لم أفعل شيئاً.. ولست شريراً كما تتصورون،
اقتلوا اليهود الملاحين، اعدموا شاؤول بلا رحمة، احرقوهم بلا رحمة..!

تابعت المذبة وهي تضع يدها على الزجاج الشديد الكثافة التي
يجبس فيها المصاب:

- هل ترون؟! إنه كامل القوى العقلية بعكس ما افترضه البعض من
أنهم مختلون ويمكن مراوغتهم بسهولة، إنه أمر يزيد خطورتهم كثيراً،

فبالرغم من أن خلاياه تتدهور بشكل مريع بفعل تناوله كميات كبيرة من الهيموجلوبين الحي إلا أنه استطاع مراوغة جهاز الأمن لإخفاء أمره لمدة ثمانين ساعة حتى ضبط و...

وصرخت في هلع عندما انقض على يدها من خلف الزجاجة كوحش جائع، قبل أن تلتقط أنفاسها وتراجع وهو يعض الزجاجة في عصبية وضراوة وهو يركل الزنزانة بقوة، وتابعت وهي تقول في شجاعة مصطنعة:

- نحن في مدينة الفيروس، داخل حجر المصابين البالغة الإحكام، من المهم تذكيركم بأن عدداً يتجاوز العشرين شخصاً قد سلموا أنفسهم بأنفسهم لمدينة الفيروس الأمر الذي يدل على نزاهتهم المفرطة ورفضهم التام لأن يتحولوا إلى حيوانات بشعة رغم استسلامهم الحزين لواقعهم الأليم الذي فرضته عليهم إرهابية الحكومة الشاؤولية القذرة..

إنهم يعيشون داخل القناني العازلة المضادة للكسر، سمكها أربعة وعشرون أنشاً تقريباً، زيادة على ذلك توجد محرقة صغيرة في طرفها تنتهي فضلات المصابين، والذين كما ترون يعيشون بلا ملابس تماماً، وقد تم التخلص من كل الشعر الموجود في أجسامهم وحرق بسرعة.. كما يعيشون في حرارة لا تتجاوز الست عشرة درجة مئوية لتقليل فرص التعرق إلى أقصى حد..

كان منصور يحدق في ذهول وتأثر للمسوخ الذي انخرط في بكاء مرير بصوته المتحشرج البشع وهو يردد في ألم وقهر:

- أرجوكم عالجوني .. لا تتركوني أموت .. لم أفعل شيئاً .. صدقوني ..

قالت المذيعة في حماس:

- ومصير هؤلاء هو المحرقة بعد إعدامهم بالحقنة القاتلة، تحت درجة خمسمائة فهرنهايت لضمان موت الفيروسات في أجسادهم الميتة .
وقد أحرقت حتى الآن مائة وسبعين جثة مصابة أو ملتهمة، في واشنطن أو مدينة الفيروس ..

هتف منصور في غضب:

- عليكم اللعنة أيها القروء .. أيها الشاؤوليون القردة ..

وهي تتابع:

- وما زال معدل الإصابة يتفاقم في العاصمة بمعدل يفوق الثلاث حالات في الدقيقة، أي أن الأمر قد خرج من أيدينا تماماً، وكل ما استطعنا فعله هو إغلاق حدود واشنطن وجعلها منطقة محرمة ..

أعلن حكومتنا الحرب على شاؤول من جهة واحدة .. ١٩٠

هل تنظم إلى التحالف الإسلامي الذي أعلن الحرب رسمياً منذ يومين وبدأت جيوشه بالتحرك إلى حدود منطقة الطوق العربي .. ١٩٠
وإلى متى ستبقى مقاطعة الرحلات الجوية القادمة من أمريكا والتي بدأت قبل ثلاثة أيام وفرضتها الإرادة الدولية على الحكومة الأمريكية حتى إشعار آخر .. ١٩٠

ميري مارتن.. من الـ (....).

ردد منصور في ذهول خاشع:

- إيه يا أمريكا.. الآن فقط عرفت حجم غلطتك الهائلة.. ١٩

وعرفت جزاء البغي في الأرض بغير الحق.. ١٩

نعم.. ذلك جزاء الظالمين...!

مزق السكون صوت صرخة ذعر مجنونة طويلة جداً..

انطلقت من حلق المريضة المفجوعة التي تلهث في سيارتها وهي
تتلقت خلفها في جنون وهستيريا الذعر..

لقد عانت الكثير الكثير في حياتها..

عانت الأهوال..

هددت بالموت يوم كانت في سن الثالثة عشرة..

وطوردت منذ ذلك الحين..

وعذبت وانتهكت حرمتها مراراً..

لكنها . لكنها أبداً.. أبداً أبداً..

لم تتصور يوماً أنها ستقابل مسخاً..

مسخاً يأكل..

نعم يأكل..

عند هذا الحد مزقت حلقها صرخة هستيرية طويلة..
عندما عادت الصورة البشعة تهاجم عقلها بلا رحمة..
لم تعد تحس شيئاً..

انعدم الشعور في اللحظة التي ولتها..
وتشنجت قدمها الصغيرة بكل قوتها على دواس الوقود..
كانت تريد أن تطير..

إلى أين ١٩٠٠

إلى حيث لا مسخ..

تبيس الزيد على شفيتها ووجهها..
وعيناها الجافتان شخصتا كعيني ميت على الطريق المتهب..
هل تتصور لحظة أنها كانت تعي ١٩٠٠
وهي تهمهم بأصوات مفزعة..

كان صوتها المخنوق يثير ذعرها أكثر..
فتلقت خلفها وهي تصرخ بغتة بكل الفجائع التي تكومت في حجر قلبها..
الصورة البشعة ما زالت تقفز على وجهها كل لحظة..

تسلل إليها من عالم الشعور صوت دورية المرور، مختلطاً بنبض منبه
السرعة الخافت..

لقد كانت تقود بسرعة تتجاوز المائتين..
والموت يركض خلفها ويحاصرها..
أطلقت صرختها الأخيرة عندما اختلط الشخير البشع في لا شعورها بنبض المنبه الخافت وصوت دورية المرور من الخلف..
والمقود يتقلب يمينا ويسارا تحت رحمة عقلها المزدهم المختلط..
إن صدق عليه وصف العقل..
على الأقل.. تلك اللحظة..!

زفر عبدالقادر في قلق عظيم وهو يحرق أوراق تحقيق مبدئي لامرأة متهمة بالقتل تصرخ أمامه وهي تترنح:
- أيها الوسيم.. أنتم لا تملكون.. من الأدلة.. ما.. يكفي لإدانة كلب صغير..
التفت إليها قائلاً في صرامة:
- أدلي بهذا الهذيان أمام المحقق وليس أمامي، والآن اصمتي لتجيبني
أسئلتني المحددة..
كان قلبه ملتهباً بالقلق والغضب..
رأى لم تفعلها أبداً..
ولا تجرؤ أن تخالف أوامري إلى هذا الحد..
كيف كذبت علي هذه الفتاة..!

وكيف صدقتها أنا .. ١٩

ردد في ألم:

- كم كنت غيباً .. ١٠

صاحت المرأة وهي تميل على الجندي الذي يجاهد لضبط حركاتها
المضطربة:

- أسمع أيها الزنجي .. ١٩: أترى كيف يعاملني هذا الوسيم .. ١٩:

ألا تتقذني .. ١٠

لحظتها هاجمت صورة رامة عقل عبدالقادر المشغول ليصيح في
قسوة متفجرة:

- أيتها السكيرة اللعينة .. قلت اصمتي لتجيبني الأ ... اللأ ...

واضطرب كلامه وهو يقذف بالقلم هارباً من الغرفة صائحاً:

- يا الله .. يا الله .. ساعدني .. ساعدني .. ١٠

أهي بخير الآن ... ١٩:

هكذا كانوا يتهامسون، ورامة تئن بصوت ضعيف على سرير

المستشفى، ثم ترفع صوتها الضعيف وهي تهذي:

- أن .. أن .. أنا .. أنا ..

ثم يهبط صدرها الضعيف وجفناها المتهالكان اللذان تجاهد لفتحهما ..

لم يفهم الطبيب والممرضون ما حصل لها في الطريق من واشتطن،
حيث كانت سيارتها قد انقلبت بعد مطاردة قصيرة مع سيارة مرور..
لم يجدوا في دمها دليلاً على تعاطيها مخدرات أو خمراً أو حتى دواء..
مثلما هي لم تصب بأي أذى سوى بعض الرضوض العنيفة في
جبهتها وكتفيها.. لكن..

ذلك الصراخ الهلع الذي لم يتوقف بعد انقلاب السيارة..
الصراخ الهستيري الفظيع الذي لم يتوقف حتى حقنوها بحقنتين
مهدتتين كبيرتين..

والذي كانت معه تعيش في لا وعي كامل.. غيبوبة كاملة إلا من
الصراخ الهستيري..

حول.. حول مسخ.. ومسدس.. ورصاص..

حول شأؤول.. حول اليهود.. عن القتل..

عن الفيروس..

سيأكلونني.. يقتلونني..

سيأخذونني.. يخطفونني.. عن.. عن..

أسماء غريبة مبعثرة كانت تقفز من شفيتها المتيبستين والهلع يكسو
وجهها المصوص المفزع.

بطرس.. أنقذني يا عبدالقادر..

أنطون الملعون..

أين عبدالقادر.. عائشة..

المسخ.. المسخ..

تجاهل الطبيب المنهك كل هذا الهذيان، وقال غير مبال:

- عندما تتعرض لنوبة هستيرية مماثلة، يمكنكم أن تحقنوها بهذا

العقار..

وانتهت عند هذا الحد مهمته..!

المسوخ البلهاء..

تتراكض في كل مكان.. تمشي.. تعثر.. تلتهم كل شيء..

تستمع لكل شيء..

تحقد على البشر.. لا تفهمهم..

الفيروس الشيطان يوحى إليهم زخرف القول غروراً..

بأن البشر يغارون منهم..

تتصور للحظة أن البشر خلقوا ليكونوا وجبات شهية على موائدها..

لا تفهم.. أو هكذا طفحت عيونها الحمراء القبيحة بالدماء فلم تعد ترى..

هكذا يريد الشيطان..

وهكذا يبتسم مبهوراً بما فعلته أيدي البشر..

من شيء لم يفكر هو..

وهو الشيطان نفسه..

لحظة واحدة فيه..!

- مدام رامة.. هذا الهراء.. ليس مكانه أوراق التحقيق..!
هكذا ردد المحقق المكتنز الجسم وهو يحاصر رامة التي تشنجت
دموعها الهلعة على عينيها البائستين..

قبل أن تستجمع قواها وتقول في إصرار وهي تلوح بقبضتيها:
- أقسم لك بالله العظيم أنني قد تعرضت لمسخ حاول أن يقتلني
ويأكلني في واشنطن..!

تبادل المحقق النظرات مع طبيب الأعصاب الذي يحضر التحقيق،
قبل أن يركز المحقق شفتيه في أسف، ويردد الطبيب في حنان وحزم:
- رامة، نحن نجادلك منذ أكثر من ثلاث ساعات حول خيال مريض، بينما
الحقيقة ليست كذلك، لقد طلبنا منك أوصاف هذا الذي ادعيته مسخاً، لكنك
كنت تبكين وتصرخين وتمتعين عن الإجابة.. من الواضح أن الأمر يتعلق بقضية
عنف تحاولين كتمها، مع أننا قطعنا لك وعداً بأننا سنساعدك..!

خفضت عينيها في ضعف واستكانة وهو يتابع:
- من الخطأ أن لا تعترفي بأنك كنت تتخيلين.. أو تحاولي إسقاط
شخصية الذي مارس العنف معك على المسخ الذي تتصورينه..

ضاقت عيناها في بؤس شديد وهي تنفجر بالنحيب المكتوم مرددة:
- لا أفهم شيئاً مما تقول، أنا لست مريضة نفسياً كما تزعمون،

لكنني أقول الحقيقة..!

رد الطبيب بحزم وبقوة:

- مستعد لأبقى معك العمر كله لتفهمي ذلك، أنت تتخيلين تصورات مريضة قد تعرضك لمشاكل كبيرة في المستقبل..!

تحشرج صوتها وهي تقول من بين دموعها:

- لكنه هاجمني.. لكنه حاول اقتراسي.. هذه الحقيقة يا دكتور، لم لا تصدقني.. أنا لا أكذب.. لقد حاول وقتلته..!

رد الطبيب في صرامة وصبر نافذ:

- أنت لا تعرفين أن هذه التصورات السخيفة قد تكون مؤشراً جيداً لإصابتك بانفصام شخصية، إنك لو تعرضت لمسح ما، فإننا لم نكن لنراك هنا بكامل عافيتك..

هتفت باكية في قهر وألم:

- لماذا إذاً تعرضتُ لنوبة هستيريا في السيارة..؟

رد الطبيب وهو يتبادل ابتسامة ساخرة مع المحقق الصامت في صلف وعنجهية:

- هذا ما نحاول معرفة ملابساته منك، هل تعرضت لتخويف، طاردك أحد، أو حاول اغتصابك مثلاً.. مثلاً في واشنطن ف..

صاحت بأعلى ذعرها وألمها وهي تحيط رأسها بذراعيها:

- لا.. لا.. لا.. لا.. لا.. لا.. لم.. لم.. لم يحدث..

امتلكت الدهشة الرجلين لهذا الانفجار وهي تصيح بجنون:

- لا.. لا.. لم يفتصمني أحد.. لم أغتصب أبداً...

تبادل المحقق والطبيب مرة أخرى نظرة رأفة مدهوشة، قبل أن يميل عليها المحقق في محاولة لتهدئة أعصابها:

- اسمعي يا بنيتي الصغيرة، كفي عن هذا الصياح والبكاء، أنا لا أملك سوى تسجيل أقوالك بخصوص المسخ، ولكن، هل تعلمين ما يمكن أن يجنيه عليك مستقبلاً فيما لو ظهرت قضية الفيروس؟

غارت عيناها في ضعف وقهر وهو يقول محذراً بصوت خافت:

- ستكونين من أول المطلوبين للعدالة لو ظهر أن الفيروس مجرد شائعة، أو أنه حقيقة واقعة.

لذلك يا صغيرتي، لم لا تكتفين بالتوقيع على مخالفة القيادة تحت تأثير الخمر، وتدفعين غرامة مقابل ذلك وتذهبين إلى ميشجان دون مشاكل؟

كانت شفتاها ترتعشان وعيناها تحدقان فيه باستجداء..

هل حقاً كنت أحلم..؟

هل حقاً كان شخصاً من الخيال..؟

لوت شفيتها لتكلم قبل أن تغلبها دموعها وهي تقول:

- لكنه هاجمني .. لم لا تصدقوني..!٩

أنا لا أكذب.. ولست مختلة العقل..

صدقوني أرجوكم..!

وأسندت رأسها إلى كفها وهي تشهق بصوت محزن:

- أرجوكم..

لا تقولوا إنني مختلة..

صدقوني..

لست مختلة.. لست مختلة..!



(٢١) المشروع الأغرب..

كان عبدالقادر يقف أمام مرآة المدخل وهو يتأمل..
مرت دقائق طويلة وهو يسبر غور عينيه القلقتين الحزینتین..
أنا لست دمیماً، أنا وسیم، وجذاب..
هكذا كان یردد فی داخله بمنتهی البلاهة قبل أن تغلبه ضحكة
عصبیة طويلة..
كان یتساءل عن سر حبه لرامة بهذا الجنون، وسر رفضها له.
وعن السر الذی اختفت لأجله ستة أيام..
حاول خلالها أن یتصل بها، أن یعرف مكانها..
كان صبره قد نفذ..
كان یفكر فی استغلال وضعه كرجل أمن لیعرف مكانها..
وأقسم للمرة الملیون أنه سیوقفها عند حدها هذه المرة..
هتف فی داخله بمنتهی الصرامة:
- عندما أعاقبها على فعلتها!
اغرورقت عیناه بالدموع، وشعر للمرة الملیون برجولته الجریحة..
ألهدا القدر أحبها یارب..!
یارب ردها سالمة..
یارب..!

عند هذا الحد انتبه بعنف إلى صوت سيارة مألوف، فهتف غير مصدق:

- رامة.. أهى أنت يا رامة..!

وهرع إلى الخارج، قبل أن يتماسك لحظة ويقف أمام المرأة مرة أخرى..

مسح دموعه المتصببة، وعدل ثيابه، ورفع جبينه الأبيض وخرج..

كانت تترجل من سيارتها عندما التفتت بفزع هائل لتواجهه..

التقت عيناهما وهي تتشبث بحقيبتها بمنتهى القوة..

ضرب راحته بقبضته بمنتهى القلق وهو يردد النظر في وجهها المصوص المفزع..

تلك الكدمات الأليمة في جبينها وخدها..

ثمّت خطب ما..

واختلطت في قلبه مشاعر الغضب بالقلق بالراحة بال..

قبل أن يردد:

- رائع.. رائع جداً ما فعلته يا رامة هذه المرة..!

كانت دقات قلبها تتابع بقوة وهي تسترد وعيها شيئاً فشيئاً وهو يقول في هدوء وغيظ:

- إنني في الحقيقة لست أدري ما أفعله بك هذه المرة..!

تراجعت والذعر يستبد بها، وهو يقترب منها مردداً:

- نيويورك يا رامة الخرقاء...! نيويورك مرة واحدة..!9..

استردت أنفاسها بصعوبة وهي تحقق في بلاهة في وجهه الصارم قبل أن يهرع صائحاً في قلق غاضب:

- ماذا بك..! ماذا جرى لوجهك..! من فعل بك هذا يا رامتي البلهاء..!9..

تنمرت ملامحها وهي تصرخ في لا شعور متشبثة بحقيبتها:

- اخرس..!

بهت وهو يحدق في ارتجافها الغريب وهي تضم حقيبتها إلى صدرها في خوف، وهو يتابع في قلق وغضب هائل:

- وخمسة أيام تغيب.. وهذا ما يجري لك.. أتعلمين ما ينبغي أن أفعل

بك..!9..

تستحقين أن تضربي علة جيدة بسبب ذلك إلى أن تفيقي وتعودي

إلى رشذك..!

كزت شفيتها في شراسة وهو يشير إليها موبخاً بعنف وقلق عظيم:

- أخبريني ماذا حصل لك..؟ حتماً أنت تعرضت لستين نوعاً من

الأذى.. ولا تعتبري ذلك تدخلاً مني، بل جهزي جيداً ما ستقولينه

لمحاميك الذي سيكون جاهزاً لإصدار قرارات صارمة بحققك بسبب

أخطائك الكبيرة..!

زوت حاجيها بشدة هاتفة وهو تراه يلتقط هاتفه النقال:

- هيه.. ماذا تفعل أيها ال.. هيه عبدالقادر..

تجاهلها وهو يقول ضاغطاً أزرار هاتفه النقال:

- الآن يا رامة..!

هجمت عليه في عصبية لتتزعزع الهاتف من يده وهي تهتف باكية:

- قذر.. جبان.. وأنا أحبك.. تفعل بي كل ذلك..!؟

زعم وهو يمسك ذراعها بقسوة:

- ألم تفهميني يارامة..!؟ أعتقد أنني أبله.. ثور بلا مشاعر..

هه..!؟

انفجرت تنتحب وهو يدق الأرض هاتفاً وهو يصرخ مختنقاً بدموعه:

- أنت تكذبين كما تشائين.. تسافرين وتطيرين كما تشائين.. تعرضين

نفسك لألف خطر دون حساب كما تشائين.. وتدرين أنك لا تملكين شيئاً

مثلي.. ثم بعد ذلك كله تتغيبين ستة أيام رهيبة دون حتى أن تتكرمي

بإخباري عن مكان وجودك..!؟

ولوح بذراعه وهو يصيح منتحباً:

- وبعد ذلك كله لا تريدني أن أحس.. أن أصرخ.. أن أشتكيك

لمحاميك..!؟

رفعت صوتها هاتفه في ضراعة:

- لا تفعل.. لا تفعل..!

هتف في غضب باكياً:

- بل أخبره الآن.. أخبره لكي أرتاح.. لكي أضمن لحظة أنك لن
تقذفني نفسك في بوتقة الخطر مرات أخرى..!

هتفت وهي تتحب في توسل:

- أرجوك عبدالقادر.. اتركني في حالي.. أرجوك..!

زعم باكياً وهو يلوح في وجهها بكفه:

- أتركك لمن.. لمن..!

انتحبت وهي تغظي وجهها بكفيها في مرارة بينما كان يكتفم شهقاته
الساخنة وهو يمسح دموعه المتصبية قبل أن يقول في قوة:

- أنا لن ألتزم الصمت حيال ما فعلت..!

نظرت إليه في خوف قبل أن تقول في براءة:

- ماذا تريد بالضبط..!

رد في صرامة:

- أريد الكثير..!

ردت في توسل:

- كل ما تريد.. فقط لا تخبره!

رد وهو يقاوم الدموع في عينيه:

- مهما تكن مطالبتي..!

ردت بصوت مخنوق: - أجل .. مهما تكن..!

وخفق قلبها وهي تحديق في عينيه الصارمتين وهو يحاصرها قائلاً:

- أنت ستفدين .. فقط ستفدين..!

هزت رأسها بالموافقة وهي تترقب ما يمكن أن يمليه عليها ..

كان يتردد طويلاً قبل أن يقول وهو يغالب رغبته في البكاء:

- ماذا يمكنك أن تقدميه لي مقابل أن أسكت عما صنعت..!

أنا أتمنى أن .. أن أنتقم منك .. أن أثبت لك للمرة المليون أنني أحبك ..

بشدة..!

حدقت فيه في بلاهة وهي تمسح دموعها في حيرة قائلة:

- لماذا تنتقم مني..!

صمت قليلاً وعيناه تضيقان بشدة وألم، ألم تدركي إلى الآن ما الذي

يدعوني لفعل كل ذلك؟!

ألم تفهم بعد ما يملؤ قلبه تجاهها..!

ألن تصبح أنثى في حياتها الصاخبة أبداً..!

وتفهم ماذا يرمي إليه بالانتقام..!

ألم تسمع قط بالحب..! أو تفكر به على الأقل..!

قاطعها بصوت مخنوق بالدموع:

- تتجاهلينني .. لا تأبهين لي .. لا تنظرين لي .. لا تفهمينني .. ألا يحق

لي أن أغضب.. أن أفكر في الانتقام منك..!٩
ردت في توسل وابتسامة حلوة ترتسم على ثغرها:
- لكنك لن تفعل.. أنت تعرف يا عبدالقادر..!
خفض عينيه قائلاً في مسكنة:
- رامة أرجوك.. أرجوك..!
ردت: ماذا ترجوني..!٩
ارتعشت شفتاه وهو يقول في توسل هذه المرة:
- تزوجيني يا رامة..
تزوجيني فقط..!
ولك أن تتخيل أيها القارئ.. ما يمكن أن يحصل..!

تنحني منصور بقوة قبل أن يتكلم بمنتهى الصرامة والحماس في
مكبر الصوت على الشبكة العنكبوتية:
- اسمعوني أيها الأعزاء، يجب أن نعترف أننا الآن نواجه خطراً
واحداً ومصيراً مشتركاً فرضته علينا النفايات البشرية المسماة باليهود..
المسخ بلوى تهدد البشرية كلها باختلاف مذاهبها، الأمر الذي يحتم
علينا التعاون الحثيث ونسيان الخلافات ريثما تحل هذه المصيبة الهائلة
التي تديرها تلك النفايات..
العدو الآن واحد أيها الأصدقاء، وأقول أصدقاء لأننا حتماً سنجد

أنفسنا مجبرين على الوقوف صفاً واحداً أمام عدو واحد قذر ويجب إعدامه بلا رحمة..

أمريكا عادت إلى رشدتها، وندمت على غيها وغبائها السابق، وإلا فلو استمرت على ذلكم الغي والغباء فسوف يجد الرئيس من يهتمه دون أن يسأله عن رأيه في ذلك؛ لقد أفاقت أميركا، وآن الأوان لأن تعالج غلطتها من الأساس..

اليهود لا بد أن يحرقوا مع فيروسهم بلا رحمة، سلاح الدمار الشامل الذي استعمل بغير وجه حق في مدد من التاريخ آن له أن يستعمل كما يجب أن يكون الاستعمال ضد حشرات دخيلة تدعي انتماءها لعالم البشر، السلاح الشامل الدمار هو ما يمكن أن يطهر الأراضي المقدسة من تلك الفطريات التي تشوه طهرها.

سيادة اليهود غلطة رهيبة، ولا بد من محوها على وجه السرعة لكي تعيش البشرية في سعادة، ونتجنب المزيد من المصائب والعقوبات الإلهية التي سببها سكوتنا الغبي عن حقبة من الإرهاب البالغ البشاعة ضد الشعب الفلسطيني طيلة خمس وعشرين سنة، هي مدة قيام الحكومة الشاؤولية، زيادة على قرن كامل من الطغيان المستتر ابتداءً بوعد بلفور، وانتهى بقيام حكومة القراد السام التي رأيناها ونراها وقد قلبت لأصدقائها ظهر المجن، وابتدأت الأكل من اليد التي امتدت لها وبكل غباوة بالتأييد والنصر منذ ميلادها التعس..

لقد تم حتى الآن ومنذ عهد حكومة شاؤول إبادة وتعذيب ما يزيد عن

ثلاثة ملايين ونصف فلسطيني أعزل، فضلاً عن نصف مليون من أفراد الانتفاضات والمقاومات المتتابة والتي أبيدت بوحشية وفضاعة لا تتصور، ولكنها ما زالت تستشري وتزيد شراسة وإصراراً، مرة بعد مرة..

جرائم يخجل التاريخ أن يسطرها في أوراقه السوداء، وقد رأينا العقاب الأليم الآن.. فماذا ننتظر..؟

تدخل صوت أجش غاضب على الشبكة:

- أنا صديقكم عازر، يهودي من سكان كولورادو، أحب أن أقول إننا أول من شجب هذا العمل القذر الذي عملته حكومة شاؤول القذرة، إنهم ليسوا يهوداً ولا نعترف بهم كيهود يحبون الخير لكل سكان العالم.

وتداخلت أصوات مستنكرة ومعارضة أو مؤيدة على الموقع المزدهم، قبل أن يعلو صوت منصور وهو يقول:

- كلكم في ولايات مختلفة أيها الأصدقاء، ولا بد أن ننظم معاً مظاهرات متزنة تطالب بالحل الوحيد لهذه الأزمة الخطيرة...

وردد بقوة وصرامة:

- ضرب تل أبيب بالسلاح الشامل الدمار...!

أغلقت رامة قلمها وهي تعدل غطاء رأسها قائلة في عصبية وتوتر شديد:

- حسناً، لقد انتهينا كما أتصور، عن إذنكم جميعاً..

تابعها القاضي بعينيه في استغراب وشفقة وهي تخرج بخطوات بالغة الاضطراب، قبل أن يلتفت إلى عبدالقادر الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة بهيجة، وهو يقول في سعادة بالغة:

- أشكرك يا شيخ عمر.

رد القاضي في دهشة واستغراب:

- أخ عبدالقادر، كيف رضيت بهذه الشروط القاسية التي اشترطتها

رامة؟

ماذا استقدت من الزواج إذا؟

قال عبدالقادر في وقار وسكينة وهو يعقد ساعديه على صدره

العريض:

- لقد أصبحت زوجتي وهذا ما يهمني، أمامي العمر كله لترويضها إن

شاء الله..

رد القاضي في استنكار ودهشة:

- لكنها اشترطت أن لا تطالبها بأي حق من حقوق الزوج، ولا تتدخل

في شأن من شؤونها أبداً، وفوق ذلك أنك لو خالفت شرطاً واحداً فإن

من حقها تطليق نفسها دون سابق إنذار أو تعويض، إنها لشروط قاسية..

أنا أعتذر لتدخلني..

رغم أنك قبلت بها، فإن هذا ما أستغربه بالفعل.. ماذا استفدت إذاً..؟

تتهد عبدالقادر قائلاً في بهجة:

- قلت لك: إن هذا لا يهمني، إنني أحس أنني أعيش حلماً، ما دامت تعيش معي في بيتي كما اشترطت فهذا يكفي، ومن خلاله سأستطيع ترويضها وتلين قيادها؛ إنها مسكينة ومريضة، ويجب أن نقف معها لكي لا تحس أنها وحيدة بلا سند..

وأسرع خارجاً بسرعة ليركب سيارته منطلقاً بها إلى منزله..

هل حقاً تحقق حلمي بهذه السرعة..

بإرادتها هي..؟

كانت تتظاهر بأنها متضايقة.. لكنها سعيدة.. مسرورة.. أكاد أقسم..

لقد تزوجتني.. نعم.. تزوجتني حسب تعاليم الإسلام..

إنها تحبني.. ولو لم تصرح بذلك..

ركن سيارته وهو يرمق منزلها الصغير، وترجل متتهداً بابتسامة واسعة منشرحة وهو يردد:

- أحمدك يا الله، أحمدك كثيراً كثيراً كما أنعمت علي بهذه النعم

المتتابعة، مرة عندما أسلمت قبل خمس عشرة سنة، ومرة عندما تزوجت

هذه البائسة..

وجد نفسه يصيح بكل الفرحة العارمة في قلبه:

- دلائل اثبات

- مالذي يحصل..! رامة تأتي بنفسها لتقابلنى..!

هكذا رد طبيبها الدكتور روبرت وهو يحدق ساخراً في عينيها
المترددتين قبل أن تقول في ارتباك شديد:

- عندی قضیة کبیرة.. هل تساعدنی..؟

رد عليها ساخراً وهو يحدق في وجهها متفحصاً:

أنا آخذ نقودي مقابل ذلك يا رامة، كلنا هنا فقط لنساعدك يا رامة..!

وردد في سخرية أكبر:

- المهم أن تتقبلي المساعدة.. أليس كذلك..!

اغرورقت عيناها بالدموع بغتة وهي تقول:

- أنا فى حيرة.. حيرة كبيرة جداً..!

ردد وهو يقف مشيراً لها:

- أوه.. ما دمنا قد بدأنا بالدموع، فالأفضل أن تأتي هنا على السرير..

التهمت شفيتها وهو يحدق فيها بمنتهى الصبر قبل أن تقول في ارتباك وخوف:

- هناك شيء كبير قد حصل لي، ولا أدري إن كان قد حصل أو لا..

ابتسم في سخرية وهو يدون أمامه فالتقطت أنفاسها قبل أن تهتف
في استعطاف:

- لا تسخر مني هذه المرة.. ما أقوله حقيقة..!

هتف مستدركاً في حزم:

- لست أسخر عزيزتي.. أنا أبتسم فقط..!

هتفت في اعتراض:

- لم أرك يوماً إلا عابساً.. ماذا جرى اليوم..؟!

رد في حزم وهو يصطنع الاهتمام: تابعي رامة..!

صمتت دقيقة وهي تشرد بعيداً قبل أن تختنق بالدموع السخينة وهي

تقول:

- لا أدري ماذا أقول..؟!

رد في حزم وهو يزمر شفتيه:

- اختاري كلماتك كما تشائين. أمامك العمر كله يا عزيزتي..!

فركت جبهتها وهي تكفكف دموعها في انقباض قبل أن تنطق بصعوبة:

- لقد واجهت مسخاً..

اتسعت عينا الطبيب على آخرهما، ومرت دقيقة كاملة من الصمت

قبل أن يردد في استنكار بالغ:

- يا رامة..!

رفعت رأسها وهي تقول بصعوبة:

- هل كان هذا حقيقة..؟

لقد حاول أن يفترسني.. وأطلقت عليه النار.. وقتلته..!

صمت الطبيب وهو يزوي حاجبيه في اهتمام وهي تشهق بدموعها

قائلة بمنتهى الصعوبة:

- كان.. كان بشعاً.. كان لونه أزرق.. وعيناه حمراوان.. أنا.. أنا

متأكدة.. أنا..!

وشهقت في مرارة والذعر يملؤ صدرها المنقبض بشدة، بينما مكث

الطبيب يحدق فيها ذاهلاً وهو يقول:

- يا للسماء..!

وسحب نفساً طويلاً وهو يستمع إلى نحيبها المذعور، قبل أن يقول

في حزم وهدوء:

- رامة - أنا سمعت أنك تتابعين قضية الفيروس يا عزيزتي..؟

هتفت في اهتمام وارتباك وهي تكفكف دموعها:

- نعم أنا.. أنا كذلك..!

هز رأسه في صرامة وهو يردد في استنكار:

- رامة.. أنت.. تعلمين جيداً كم أنت إنسانة واعية ومتقفة، لكن هذا

لا يعني أنك بكامل عافيتك.. من الناحية النفسية..!

اتسعت عيناها مبهوتة وهو يقول في حزم:

- أنت تعلمين حالتك رامة، من أين ستأتي لك هذه الهلاوس دون أن
تخليها بنفسك ١٩.

صمت وعيناها تتفجران بالدموع ويدها تضطربان وهو يتابع:
- الأمر لا يطلق إذا بدأت تصدقين هلاوسك.. هذه الخيالات
المريضة لن ترحمك إذا لم تتصدي لها بنفسك وترفضها بقوة..
رفعت صوتها في اعتراض:

- أنا لست أهلوس.. لقد تعرضت لاعتداء في واشنطن، كان مسخاً.
صدقني.. لكنهم رفضوا أن يصدقوني وأجبروني على كتابة تعهد بعدم
القيادة تحت تأثير الخمر..
قال في صرامة:

- من هم ١٩..

صمتت في حيرة قبل أن تتذكر بالقول في ارتباك:

- المحقق.. والطبيب.. كلهم قالوا لي ذلك..

زم شفتيه في أسف قبل أن يقول في صرامة وهو يلوح بكفيه:

- رامة.. أنت سيدة الموقف الآن.. لا يمكن أن يحل مشكلتك غير نفسك..

صمتت مبهوتة وعيناها تشخصان في ذهول وهو ينحني عليها قائلاً
في اهتمام:

- ثم ما هذه الكدمات العنيفة في وجهك ١٩.. هل أصابك أحد ما ١٩..

ردت في ارتباك وعفوية:

- هذا هو الحادث.. أنا انقلبت سيارتي وأنا عائدة من واشنطن قبل أسبوع..

وتعرضت .. لا أدري بالضبط.. ولكني أصبت..!

أشار إلى وجهها قائلاً في ضيق:

- اسمعيني يا فتاة، هل حقاً سافرت إلى واشنطن..؟!

هزت رأسها بالموافقة بقوة وهي تقول:

- لأحضر مؤتمراً صحفياً في نيويورك..

تماسك وهو يهز يده قائلاً في ضيق وفوقية:

- نيويورك أم واشنطن..؟!

ترددت قبل أن تقول في ارتباك:

- كلاهما.. أنا أولاً حضرت المؤتمر ثم سافرت إلى واشنطن...

قاطعها بالقول في ضيق وصرامة:

- الأمر لا يطاق حقاً.. أنت بدأت تصديق هلاوسك بشكل غريب..!

صمتت في إحباط شديد وهو يوبخها قائلاً:

- أنت لا تعلمين ما قد يجره عليك تصديق هذه الهالوس.. لو

استمررت في متابعة قضية الفيروس بهذا الشكل فسوف.. تكون العواقب

وخيمة.. ولذلك..

تكسر قلبها وهي تخفض رأسها في استسلام وهو يتابع:

- ابقى بعيدة عن مثل هذه المواضيع.. نصيحتي يا .. يا رامة..!

وقفت في ارتباك وهي تقول في شبه ذهول:

- يعني هل.. هل كنت تقصد أن .. أنني ..

رد في صرامة شديدة:

- كنت تهلوسين.. أنت لم تري أي مسخ.. لقد كان حلماً..

كابوساً مزعجاً.. خيلاً في رأسك لا أكثر..!

استمعت له جيداً وهو يقول في حزم:

- انسي .. فقط انسي.. إذا اشتدت النوبة الوسواسية يمكنك تناول

الأتيفان أو البروزاك بما لا يزيد عن ملجرامين في اليوم..

حاولي كما علمتك أن تفكري..

فكري مثلاً.. في..

يعني أي شيء ممكن أن يشغلك كتاب أو برنامج تلفازي.. مثلاً مثلاً..

زوري صديقاتك في مكتب الجالية.. أنت أعلم مني كيف تتخلصين من

الهلاوس يا رامة..

بقيت واقفة تفرك كفيها في اضطراب لا تدري ما تقول للحظات قبل

أن تقول:

- طيب.. شكراً لك..!

هز رأسه في عجرفة وهو ينظر إليها نظرة غادرة وهي تمشي في

اضطراب إلى الباب قبل أن تلتفت في تردد قاتل وهي تقول في استجداء ساذج:

- طيب ماذا أقول له إذا جاء ١٩..

ابتسم في غطرسة وهو يحدق فيها في استخفاف قبل أن يقول ساخراً:

- قللي له إن الدكتور روبرت سيضربك ١٠٠

واخترقت أذنها قهقهته الساخرة ١٠٠

- رامة، أنت هنا ١٩..

جاء صوتها القاسي وهي تقول:

- ماذا تريد الآن يا عبدالقادر ١٩..

رد عليها ببساطة:

- أريد الدخول .. يا .. يا حبيبتي ..

وكنتم رغبة عارمة بالضحك عندما فتحت له الباب قائلة في صرامة:

- ادخل.

دلف وهو يحدق في أرجاء منزلها المرتب الصغير قائلاً في سعادة:

- منزلي الفوضوي ينتظر لمسات يديك الجميلتين ..

نظرت إليه شزراً وهي تتجه لغرفة نومها وتسحب باب صوان

ملابسها وتتهمك في ترتيبها بعناية وبطء متعمد، فدخل خلفها وهو يقترب منها في هدوء قائلاً:

- رامة يا حبيبتي؛ أنت نفسك تدركين أن شيئاً في حياتك غلط..

ردت في صرامة:

- ماذا تعني؟

رد في هدوء وحنان:

- خوافك المرضي من الرجال سوف يمنعك من عمل أشياء كثيرة

إيجابية في حياتك..

صمتت في تردد قبل أن تقول في عناد وتوتر:

- لست أخاف أحداً غير الله.. أنا لست رهابية أو خوافة..!

ندت منه ضحكة هادئة وهو يقول:

- حبيبتي.. الواقع يقول غير ذلك..!

تجاهلته وهي تتهمك في ترتيب ملابسها وهو يتابع في حب وحماس:

- عديني يا رامة أن تتخلصي من هذه الحالة عن طريقي أنا، أحبيني..

اعشقينني.. لأكن كل شيء في حياتك.. لا تهتمي بأحد غيري.. أنت ستكونين

طبيعية مثل كل النساء، فقط لو أردت ذلك ونفذت ما أقول..

ازدردت ريقها ودموعها تتصبب رغماً عنها على خديها وكلامه يقع

على قلبها ويذكرها بأنها غير طبيعية ألبتة.. حتى في عين نفسها..
وانتبهت على صوته :

- لقد فعلت أشياء كثيرة إيجابية لتتخلصي من الرهاب..

لقد تزوجتني، أليس كذلك..؟

أحست أن جلدها يقشعر لصوته الذكوري الأجش رغم أن شعوراً
غريباً يداعب قلبها المكدود تجاهه..

دار حولها وهو يحدق في إعجاب قائلاً:

- فساتينك في غاية الروعة يا حبي.. تمتاز بدوق رفيع..!

وداعبها في حب جارف بقوله:

- هل كنت تخفين عني كل هذه الروعة..؟

كانت متوترة جداً جداً ، وعقلها يكاد ينشطر عشرة أجزاء..

كل شيء كان يعذبها..

هل كان الدكتور روبرت محقاً..؟

لم لا يصدقونني..؟

طيب لماذا لا أصدقهم أنا لكي لا يدفعني هذا الخيال في المستشفى

مرة أخرى..؟

قد خطت خطوة جيدة في سبيل التخلص من مرضها، لسوف أستمّر

في ذلك السبيل.

هكذا حدثت نفسها قبل أن تشهق بقوة وذعر عندما ربت عبدالقادر

على كتفها برفق، وتصرخ بفضاظة:

- لا تقترب مني أيها الوقح..

تراجع وهو يبتسم محتملاً فضاظتها..

لقد عاهد ربه أنه إذا رزقه إياها زوجة فسوف يعاملها أكرم معاملة
مقدراً حالتها العقلية..

بل ويعالجها بحكمته ويحبها الجارف..

وغمرت البهجة فؤاده وهو يتذكر واقعه فهتف للمرة المائة:

- هل حقاً أنا الآن زوجان يارامة..؟

ردت عليه في قسوة:

لو لم نكن كذلك لقدفتك من النافذة يا عبدالقادر..!

رد عليها مقهقهاً:

- لن تستطيعي زحزحة رجل أمن ضخّم مثلي..!

تتهدت وهي تقول في صرامة:

- دائماً تذكرني بأنك رجل أمن.. لقد سئمتك سريعاً..!

قهقه في وله وهو يهتف:

- أنت تريدين إغاضتي كعادتك أيتها القطّة الشقية..

أنا لن أغتاظ من شريكة حياتي ورفيقة دربي..

وهتف بقوة وجنون:

- أحبك.. أحبك.. أحبك بشدة.. يا زوجتي.. يا رامتي.. يا عشقي..
يا.. ماذا بقي..؟ أخبريني يا عشقي..؟
ضمت كتفيها وهي ترتعش في خوف وتماسك وهي تتظاهر
بالانهماك في ترتيب ملابسها داخل حقيبتها، داهمتها مشاعر الوسواس
بلا رحمة وهي تراه يجول حولها قائلاً:
- اسمي يبدو موسيقى رائعة في لسانك الحلو.. قولها.. قولي
عبدالقادر..

زمت شفيتها في استنكار وهو يتابع في هدوء:
- قولها.. قولي عبدالقادر . قولي..
ازدردت ريقها وهو يقترب منها قائلاً في حماس:
- كوني قوية، فقط أريدي ذلك..
ترددت كثيراً، قبل أن تقول في ضعف:
- عبدالقادر..!
قفز في مداعبة وهو يصرخ:
- هكذا أنت.. دائماً قوية كما عرفتك..!
وردد وهو يحدق في عينها الخائفتين من اللاشيء:
- هل رأيت يا حبيبتي.. ليس هناك ما يخيف أبداً..
أخذ يساعدها وهو يردد في وله:

- أوه.. هل كنت تخفين كل هذه الروعة يا حبي..١٩..

دعيني أفكر لحظة.. كيف خلق الله تعالى هذ الشعر الأسود الرائع..١٩..

سبحان الله.. تبارك الذي صورك على هذا الجمال البارع..١..

هتفت في اعتراض:

- عبدالقادر.. يبدو أنك قد نسيت أننا كتبنا شروطنا جيداً..١..

هتف في حب:

- ماذا فعلت..١٩..

هتفت في عصبية:

- أنت تتغزل كثيراً.. أنا أكره ذلك..١..

هتف وهو يهز كتفيه في بلاهة:

- لم أكن أتغزل.. كنت أتفكر في قدرة الله تعالى..

الذي أبدع جمالاً لم أر مثله في حياتي كلها.. كلها..١..

قوست حاجبيها في تعجب وهو يتابع:

- لو كنت مكاني لفعلت ما فعلت..١..

ردت في جمود:

- دائماً أنا أتفكر في خلق الله تعالى..

وتابعت في سخرية شديدة:

- لكن ليس بالضرورة أن تكون بارع الجمال لأفعل ذلك..١..

قهقهه بقوة وهو يقول:

- يا لللسان السليط المحبوب، إنك أفضلهن وأروعهن، على الأقل في عيني أنا..

والآن دعينا نفكر، ماذا يمكن أن ننقله إلى بيتي من لوازمك..
ملابسك الجميلة.. أحذيتك الحلوة.. ماذا هنالك أيضاً..؟
ردت في شراسة:

- ليس غير، هل تتصور أنني سأتخلى عن بيتي ببساطة هكذا؟
كل ما تغير هو أنني سأنام في بيتك فقط..

وضغطت مخارج حروفها وهي تقول:

- في غرفتي الخاصة في بيتك أعني..

ابتسم في حب صادق وهو يجذب أحذيتها ويرتبها بعناية في كيس كبير..

وحانت منهما نظرة التقت فيها عيناها..

كأجمل لحظة في حياة كل واحد منهما..

(٢٢) كلنا نكرههم..

في نيويورك، اندلعت مظاهرة صاخبة اجتمع لها سكان الولاية بكافة طبقاتهم، يقودهم مسلمو الولاية الذين يتجاوزون ثلث السكان.. مشى المسلمون وهم يحملون صور الزعماء المسلمين الذين يقودون حربهم الأخيرة مع الإسرائيليين وهم يهتفون بتأييدهم التام لما يجري في البلاد العربية، من عملية تقرير المصير النهائي.. إما نحن.. أو الصهاينة.. بهذه العبارات الغاضبة وبغيرها هتف المسلمون وغيرهم من سكان الولاية وهم يرددون:

- كلنا نكرههم.. كلنا نكرههم..

أثناء المسيرة التي اندلعت منذ الثامنة صباحاً.. وقف عمدة الولاية ليقول في الجموع الهادرة بمنتهى الحماس:

- هذا الهتاف الغاضب يا صفاري لن يكون له معنى ما لم يعد كل واحد منكم نفسه ليكون في خط النار الأول في معركتنا المصيرية ضد شأؤول.. نريد فعلاً ونحن نطالب في تظاهرتنا هذه بضرب تل أبيب وإبادتها.. نريد أن نعرف من سوف يوجه الرأس النووي ويطلقه.. إنه أنتم أيها الشعب الأمريكي العظيم.. وليس فقط رئيسكم.. إنه أنتم وليس غيركم..

انبرى من بين الجموع رجل غاضب وهو يهتف:

- نحن الأمريكان لا نعرف سوى الادعاء، الفكرة التي طبعتها السينما في أذهان العالم عن المقاتل الأمريكي لا بد أن تزول.. ويحل محلها فكرة

أن الحق هو الذي ينتصر، وأن الظلم هو من يتفتت في النهاية. ليس الأمريكي من ينتصر دائماً.. يجب أن يعلم جيلنا والأجيال القادمة الحقيقة واضحة دون غشاوات الغطرسة التي هي في الحقيقة ما يميزنا.. ما يجب أن تقوله أيها العمدة هو أن من سيطلق الرأس النووي هم من احترقت أجسادهم بجمر الطغيان، سواء كانوا أمريكاناً أو غيرهم.. هتف المتظاهرون في حماس وتفاعل:

- نعم.. نعم.. هكذا فلنقل.. لا بد أن نعود للحق..

تجاوز منصور جموع المتظاهرين وهو يقترب من العمدة هاتفاً في حماس:
- أيها الأصدقاء.. نحن نطأ على جمرة واحدة. وكلنا.. نعم كلنا: المسلمون مع كل الشعب الأمريكي، العلمانيون والديموقراطيون.. حتى النصارى المتشددين..

كلنا نواجه مصيراً مشتركاً يحتم علينا توحيد الشاعر في اتجاه بغضاء الشاؤول ومقتهم..

نحن المسلمون لعنا اليهود^(١).. حذفناهم من قائمة البشرية منذ العهد الأول للرسالة..

صحيح أننا عاملناهم بكرامة في البدء.. لكن حكمة نبينا ﷺ قررت أن تبيد قوتهم بلا رحمة عندما ظهرت خيانتهم وأنهم جنس خاص من

(١) لاحظ هنا أن خطاب القرآن الكريم بالذم موجه لعامة اليهود، دون أن يغفل ذكر الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾.

المخلوقات لا يستحق المعروف.. كالذباب تماماً. وذلك حكم الله تعالى في كل خائن لا يعرف الذمة والوفاء..

أيها الأصدقاء.. غلطة أمريكا في مساعدة هذه الصراصير المستفحلة لآبد أن تصلحها بالتعاون مع المسلمين ومعرفة طريقتهم المميزة في التعامل مع هؤلاء القردة، العقاب القوي الصارم في حالة الخطأ هو ما يحتاجونه لكي يفيقوا ويتذكروا أنهم مجرد يهود أذلة أخسة وعليهم أن لا يفكروا بتجاوز حدودهم!..

اشتعلت عاصفة هائلة من التصفيق الحار والتهافتات المتناقضة وأغلب المتظاهرين يهتفون في فورة الغضب والحماس:

- المسلمون إخوتنا.. نحن نحبهم ونؤيدهم بلا انقطاع.. هم إخوتنا في الحقيقة..

اتسعت ابتسامة منصور وهو يردد في نفسه:

- ما أسرع ما تغيرون مواقفكم في سبيل مصالحكم أيها الأمريكان..

أهو الحق..! أم المصلحة..!؟

وهتف في حماس بالغ:

- رددوا معي أيها الأصدقاء..

كلنا نكرهم..

أبيدوهم بلا رحمة..

اضربوا تل أبيب بالنووي..

انسفوهم!..

ودوى هتافهم المنظم في كبد السماء!..

حدقت رامة في المرأة طويلاً، والصمت يشتعل في صدرها وعقلها
المتحجر.. فقهقت للمرة المليون وهي تردد في نفسها:

- نعم صحيح .. صحيح .. لقد تزوجته .. تزوجت عبد القادر ..!

ازدحمت الدموع في عينيها الجميلتين وهي تشهق متأوهة بقوة..

ما أبشع أن يختلط الخيال والواقع في عقل واحد..

لحدث واحد..

فكيف بعدة أحداث مزدحمة..

أخبروها عن جون جولت الأسيرة..

فصرخت بقوة وكذبت الأمر..

تلفتت، فلم تجد جون جولت، وكان عليها أن تصدق..

أخبروها أن الفيروس انتشر في واشنطن وأغلقت حدودها لأجل ذلك..

كان عليها أن تصدق، لكن كان عليها أن تتجاهل الأمر تماماً، لأنها

كانت تقود السيارة تحت تأثير الخمر كما كتبت..

لكنها لم تقابل مسخاً أو أي شيء..

هذا ما قالوه لها ..

وعليها أن تقوله، لأنها معتوهة..

شهقت بدموعها السخينة وهي تردد:

- لا أحد يصدقني.. لا أحد .. لماذا .. لماذا ..!

ورددت وهي تتمزق نحيباً:

- لست مجنونة كما يزعمون.. لست مختلفة..!

دخلت إلى بيتها وهي تتجه إلى جهاز حاسوبها، وحدقت فيه مبتسمة وهي تقول في نفسها:

- موقع الفضيلة، لقد نسيت منذ أكثر من شهر، يا للأسف، أكره أن أنجح هذا النجاح الباهر ثم تخمد عزيمتي مرة واحدة بسبب ظرف قاس..

وجلست وهي تنقر أزراره في مهارة وسرعة، وتتفقد صندوق البريد الوارد.. مكثت طويلاً تتفقد الرسائل..

كانت هناك رسالة تقليدية.. عادية..

رسالة تأييد، لتوجه الموقع، وعرض بالمساعدة..

الصورة المرافقة كانت..

تراجعت قليلاً وهي تهز رأسها بقوة هذه المرة..

هل هذا ممكن..؟!

منصور.. منصور عبدالله رجوب..

إنه هو، بوجهه المنير.. وملامحه الصارمة ولحيته السوداء الخفيفة..

لم يكن الأمر حلاً هذه المرة.. ولا خيلاً..

هو.. هو..

تذكرت أنها قد أعطته عنوانها في ذلك اللقاء الخيالي..

اغتصبت ابتسامة تحد وهي تضغط على نفسها ..

وطلبت البريد الإلكتروني .. وفتحت الرابط المرفق ..

كان موقعاً صغيراً .. لكنه جاد .. مزدحم ..

وداهمتها الذكريات البائسة في لبنان، لكن صورته الودودة البسيطة

هي الومضة الجميلة التي تزين لها تذكر تلك الذكريات المرعبة ..

تابعت بحماس وحب محتويات موقعه، حتى عثرت على دعوته

لتظاهرات المبدأ الواحد في كل الولايات، كان مبدؤه هذه المرة هو:

- اضربوا تل أبيب بالرؤوس النووية ..

زوت حاجبها في حماس وهي تردد في نفسها :

- النووي ١٩٠٠ كيف لم يفكر بذلك أحد من قبل ١٩٠٠

واستغرقت في تفكير عميق ..

إنهم حفنة من القاذورات التي أضرت العالم كله ..

لقد .. لقد أحرقوا والذي لأنه كان يهرب الأسلحة إلى أبطال المقاومة

الإسلامية بمعاونة خالي معن ..

ثم هم أعدموا أمي أمام عيني بالرصاص ..

وحكموا علي بالموت جوعاً ولماً أبلغ الرابعة عشرة ..

كانوا يحرقون المتهمين بالسرقه والقتل داخل الأحياء وأمام أعين

الناس دونما محاكمة ..

وكانو يشنقون من يتردد في تقديم الضرائب..
نسفوا قرية (ولاد أحمد) أمام أعيننا بما فيها ومن فيها..
بسبب أن أهلها انتفضوا بالحجارة وقتلوا عشرين قرداً..
وأحرقوا من قريتنا رجلين للتهديد المحض..
مروان زميلي في المدرسة، كنا في الصف السابع، استوقفه أحد الجنود الشواذ جنسياً ليقوده إلى أحد سيارات المراقبة، عندما سحب الصبي يده مذعوراً..
ركضت بعيداً وأنا أسمع دهسه له بحدائنه الثقيل.. واستدرت لأرى الجندي يبتعد عن جسده الذي تمزق وقد زهقت أنفاسه..
أخطاء رهيبة ارتكبتها تلك الشُرذمة الخنزيرية..
نعم.. ماذا يصير لو احترقت رأس الحربة برأس نووي؟
إنهم مجرد يهود.. ليسوا أكثر من يهود..
انتبهت بعنف على صوت حنون حازم:
- لقد عدت يا رامة..
التفتت لتهتف في شراسة:
- تتحنن على الأقل..
اقترب عبدالقادر منها قائلاً في قلق وحنان:
- لقد طرقت الباب في الحقيقة ولم يجبني أحد.. ثم ماذا هنالك يا رامة..؟ لماذا تبكين بهذا الشكل الفظيع..؟

انتبهت لوجهها الذي امتلأ بدموعها الساخنة التي تسببت منها
دونما شعور..

كم مر من الوقت وأنا هنا؟!

انتبهت لصوته وهو يكرر في قلق:

- هل حصل شيء في غيابي؟! هل آذاك أحد؟!

هزت رأسها بالنفي بقوة وهي تتابع الموقع في اهتمام، فمكث طويلاً
يتطلع في وجهها قبل أن يجثو على ركبتيه أمامها وهو يقول في تودد وحب:

- هل تدرين كم أنت رائعة؟! هل تعلمين كم أحبك؟!

ردت في برود وهي تتابع تصفحها:

- أشكرك.

كتم شعوره بالغیظ الشديد وهو ينظر إلى شاشة الحاسب التي
ارتسمت عليها صورة منصور وهو يتابع محاضراته على موقعه، واهتز
بقوة وهو يراها تحرق في اهتمام وحماس وتتابع ما يقوله، لم يشأ أن
يخبرها بضيقه الشديد من تصرفاتها، فلم يمر على عرسهما سوى
أسابيع قليلة..

ولم يشأ أن يخبرها بأنه شديد الغيرة، وأنه يريد لها وحده.. وحده فقط..

لذلك هو يتمنى ألا توفق في العودة لوظيفتها..

ولذلك هو يتمنى أن تتوقف عن كل عمل، وتبقى أمامه دائماً..

يتمنى أن يكون هو فقط شغلها الشاغل، فلا يشغلها أمر آخر عنه..

ولكن هيهات...!

لقد أحب قبل أن يسلم كثيراً..

وكانت له عشيقة..

عندما أسلم وانقلبت حياته من سالب السالب إلى الموجب..

لم يفكر قط أنه سيعشق..

ولم يتخيل أنه سيعشق بهذا الحجم الهائل..

ولم يتخيل أنه سيصدم بفتاة غريبة الأطوار..

تنفر منه رغم أنها تألفه في جانب آخر من عقلها..

قلبه الذي يرقص طرباً بالإيمان..

يرقص فرحة مهزوزة بواقعه مع هذه الفتاة الغريبة..

وهو يحرق في عينيها الحزینتين الجميلتين، ارتد شريط ذكرياته

عندما قابلها لأول مرة، قبل عشر سنوات..

كان قد تخرج لتوه من الأكاديمية الأمنية ضابطاً متفوقاً برتبة ملازم

وكان قد أشهر إسلامه قبل ذلك بشهور، وترك منزل والده مع عائشة

التي أسلمت بسببه..

كانت البائسة قد خرجت من مركز التأهيل والتحقّت بالمدرسة الثانوية..

لا يدري كم مرة راوده طيفها في منامه ويقظته وهي تلوذ بجسدها

الضئيل خلف خالها في خوف رهيب وكأن ثمت من ينتظرها ليقتلها..

كانت صورتها التي تمزق أفئدة الصخور وهي لا تزال مراهقة صغيرة
في السابعة عشرة، تهاجمه في كل لحظة..

فلم يدر بالضبط كم مرة بكى والشفقة تعتمر قلبه تجاهها حتى
يكاد يتمزق صدره نحيباً..

لما كانت تبكي في مرارة بلا سبب يعرفه..
ولما سمع نبأ عودتها لمركز التأهيل مرة أخرى عندما فشلت في
التوافق مع المجتمع الأمريكي بنجاح..

لما هتفت مذعورة وهي تخفي وجهها في كفيها لما ابتسم في وجهها متودداً:
- خالي .. خالي..!

لما عرف تفاصيل روايتها المأساوية من طبيبها..
إنها لمأساة..

وردد في نفسه وهو يبتسم في أمل محدقاً في عينيها:
- ولقد حان الوقت لتنتهي هذه المأساة..!

قال هذا وهو يتبعها إلى منزله، حيث أغلق الباب وهو يقول في حب:
- أنا جائع يا حبيبتي، ماذا ستطعميني؟!

زفرت وهي تقول في فضاظة تلقائية:
- كالعادة.. فاصوليا بالصلصة.

قال في عتاب ودود وهو يلحقها إلى المطبخ:

- أنت طباحة ماهرة، أعدي لي بعض الطبخ العربي..

التفتت إليه في استنكار، فاستدرك بالقول مرتبكاً:

- كنت أريد تجربته لا أكثر، خدمة تسدينها إلي فقط إذا أردت ذلك، وعلى

كل الفاصوليا تكفيني ما دامت من صنع يديك الحلوتين.. أليس كذلك..

تجاهلته وهي تنهمك في إعداد الطعام وهو يجلس على مائدة المطبخ

متأملاً قوامها القصير الشديد النحول، وملامحها الهادئة الحزينة

البريئة، أهدابها الكثيفة السوداء الطويلة، شعرها الأسود المموج..

كل هذا كان يبهره ويلهب حبه المجنون لها منذ أن جاورها منذ خمس

سنوات..

رغم أن نفارها كان يثير جنونه، وتجاهلها له كاد يقتله، إلا أنه كان

يعذرها وهو يسترجع صورتها البائسة في ذهنه..

هي مريضة وخائفة، وتعيش دوامة من الرعب والصراع مع هلاوسها

وظموحاتها..

لذلك لا تجد من يستمع إليها أو يمنحها كلمة تشجيع في هذا

المجتمع القاسي..

حتى المسلمون ينظرون إليها كمختلة لا تحسن التصرف، ويتجاهلون

كلامها وأفكارها..

- هذا يقتلها ولن يشفيها.. أنا من سوف يتسبب بشفائها بإذن الله..

هكذا ردد:

- لن أتركك لوحديك؛ أبداً يا حبيبتي، لن أكون أناانياً، وسوف أعالجك وأحميك بكل ما لدي إلى آخر رفق في حياتي.

انتبه لها وهي تضع طبق الفاصوليا أمامه وسلّة الخبز وكأس الحليب، وتتجه لغرفتها، فقال في تودد عاتب مرتبك: -

- ما هذا يا رامة؟! ألن تتناولي العشاء معي؟!

التفتت إليه قائلة في برود:

- أكلت شطيرة دجاج عندما كنت في الخارج.

وقف وهو يقول في إصرار وتودد:

- تعالي معي يا حبيبتي، كلي معي، اجلسي على الأقل فقط، مازلنا

عروسين..

ردت في ضيق: أنا لست جائعة..

قال لها في تودد وتدلل:

- أنا لن أكل إلا معك يا رامة..!

تجاهلته وهي تدلف إلى غرفتها، فهتف في غيظ مباغت:

- قلت لك لن أكل لوحدي..!

ردت في برود:

- لا تأكل؛ إنه شأنك..

وصفقت الباب وهو يضم قبضتيه في غيظ شديد...!

(٢٣) الطفولة القاتلة..

في إحدى ضواحي ميشيجان المزدحمة، وبالتحديد أحد منازلها الصغيرة، كان ولد مراهق صغير يقطع الطريق إلى باب المنزل وهو يحمل صندوقاً خشبياً كبيراً هاتفاً:

- آلان.. انزل فوراً..

برز إليه ولد في مثل سنه هاتفاً:

- أهو أنت يا بيلي، لقد أحضرت الطيور..

قال بيلي وهو يفتح الصندوق في سخرية بريئة:

- أنت تعلم أننا هربنا ووالدي من واشنطن إلى هنا قبل أن يفرضوا عليها الحصار بيومين، لقد وبخني كثيراً وأراد معاقبتي لأنني أحضرت الطيور، لكنه سامحني عندما علم أنها أربع أزواج فقط ولن أحتفظ بها في منزل الجدة أوليف.

جلس الآن وهو يتفحص الحمام في اهتمام قائلاً:

- أخبرني، بكم ستبيعي هذا الزوج.. ١٩.

رد بيلي: عشرون دولاراً.

هتف آلان في امتعاض:

- عشرون دولاراً مقابل حمام مريض.. ما بها هذه.. ١٩١٩.

تناول بيلى الحمامة وهو يقول فى قلق متفحصاً عينها الحمراءين:

- إنها إيمى، ما بها تترنح وترتجف بشدة هكذا.. ١٩..

زعق الآن فى قلق بالغ:

- هيه بيلى.. منذ متى لم تفتح الصندوق.. ٢٠..

تأوه بيلى عندما نقرته الحمامة بعنف وهو يقول:

- منذ رحلنا من واشنطن، كنت أضع الطعام عبر الفتحات..

وقف آلان وهو يهتف فى ذعر مبتعداً:

- ألق نظرة فقط.. ٢١..

تابعت الحمامة نقرها بشدة على يد الولد الذى أفلتها صارخاً فى ألم:

- اللعنة.. ٢٢..

وانكب على الصندوق مرتجفاً فى قلق وذعر، ليجد حمامتين وقد

فقدت أعينهما بعنف واستنزفت دماؤهما تماماً، وانتثر الدود منهما

ليهاجم بقية الحمامات وينهشها بلا رحمة.. ٢٣..

صرخ آلان فى رعب شديد والحمامة تهاجمه فى شراسة:

- تبدو مسعورة أيها الغبي.. ٢٤..

وتعالص صيحاتهما المذعورة، والحمامات الحية تضر من الصندوق.

والديدان تتسلل منه إلى الأرض..

وإلى كل مكان.. ٢٥..

دقت رامة بقبضتها باب غرفة عبدالقادر في عصبية شديدة، ففتح الباب وهو يستند إلى مصراعه قائلاً في برود:

- هل تريد شيئا يا حبيبتي ١٩٠

زعقت في عصبية شديدة:

- لقد تعهدت لي ألا تتدخل في شؤوني يا عبدالقادر، وها أنت للمرة

الثالثة رغم تحذيري تقفل باب المنزل وتحفظ بالمفتاح عندك ١٠٠

تمتم في برود وهو يحاول احتواء ثورتها:

- تعهدت لك ألا أتدخل، لا أن أغير قوانين بيتي، أنا أقفل الباب

وأحتفظ بالمفتاح دائماً، ثم إنه لا أحد يخرج من بيتي بعد الثامنة مساء،

وهذا نظامي أنا..

زعقت في ثورة عارمة:

- لا ينطبق علي..

هز كتفيه في برود وهو يتجاهلها قائلاً:

- أريد كأساً من العصير يا حبيبتي، هل يمكنك إعداد ١٩١

لحقته وهو يتجه للمطبخ وهي ترتجف بشدة وانفعال صارخة بأعلى صوتها:

- أعطني المفتاح، يجب أن أخرج الآن ١٠١

التفت إليها قائلاً في حزم حان:

- إلى أين في مثل هذا الوقت يا حبيبتي ١٩٢

زعقت في عصبية هائلة والدموع تفرق وجهها:

- ليس هذا من شأنك..!

سحب نفساً طويلاً وهو يقول في انضباط وحنان:

- هدئي أعصابك يا رامة، الأمر لا يستحق كل هذا الانفعال، دعينا نتفاهم..

زعقت بشدة: تعرف التفاهم الآن فقط..!

اقترب منها قائلاً في حنان حذر:

- حبيبتي ليس من حاجة للخروج في هذه الساعة، إذا كنت تحتاجين

شيئاً فأنا أحضره لك، أو أوصلك على الأقل، الخروج الآن بالغ

الخطورة.. نحن في أميركا..

ربت في شراسة وهي تلوح بقبضتها في وجهه:

- لا حاجة لي في الخروج، ولكنني لا أريدك أن تتدخل في شؤوني

أبداً، لا أريد أن تفرض علي أي شكل من أشكال الوصاية أبداً، أنا

سأخرج فقط لكي أصفعك على رأسك المنفوخ بالغرور وأذكرك بأنك لا

تعني لي شيئاً سوى زوج على الورق..!

ضغط أعصابه وهو يدرك أن حالة الهستيريا ستبدأ معها، إنها قد

بدأت لا تحسن انتقاء ألفاظها، وخيل إليه أن الشيطان قد قفز من وجهها

وهي تصرخ في جنون:

- هات المفتاح.. هات المفتاح..!

اقترب منها قائلاً في حنان وقلق:

- أنت تحتاجين الراحة، دعينا نذهب إلى غرفتك ونقرأ معاً لعلك تهديئين..

وشهق مذعوراً عندما قفزت لتلكمه في وجهه بعنف وهي تصرخ بأعلى صوتها في جنون:

- هات المفتاح.. هات المفتاح قلت..!

أمسك بذراعيها بقوة وهو يقول متألماً:

- سيطري على نفسك يا حبيبتي، هذا خطأ كبير ولا ...

وتأوه بقوة عندما دفعته بعنف في جوفه، وهي تتشبث بشعره بقوة صارخة في جنون:

- هاته يا قذر.. هات المفتاح.. أنت لن تحكمني.. لا أحد سيحكمني..

قلت لا أحد أيها الأوغاد..!

وفقدت عقلها وهي تركض لتلتقط مقلاة كبيرة من على الحائط وهو يركض خلفها ليسيطر عليها هاتفاً:

- سيطري على نفسك يا رامة، سأعطيك ما تريدين!

وصرخ متألماً عندما انهالت عليه ضرباً عنيفاً بالمقلاة، قبل أن ينقض عليه ليقيدها ويلقيها على الأرض وهي تصرخ، وتغيب عن الوعي تماماً..!

(٢٤) حلم داود..

لهت الرئيس الشاؤولي في انفعال شديد وهو يقول:

- يجب أن نعترف هذه المرة أننا قد أخطأنا بشكل رهيب.

ارتجف أعضاء الحزب المجتمعون في رهبة، وكلهم يتململ في مقعده دون أن يجد ما يقوله.

تابع مزراح في انفعال شديد:

- لن نستطيع احتمال تكاليف حرب هائلة بهذا الشكل، نحن نواجه العالم كله تقريباً، أنتم تدركون ذلك، تكلموا..

ماذا لديكم من الحلول .. ؟ لماذا تصمتون ؟

تبادل أعضاء الحزب نظراتهم الغاضبة في صمت وخوف، فكرر في عصبية وتوتر هائل:

- لقد أعلنوا الحرب.. جيوشهم اللعينة تتحرك منذ أربعة أيام باتجاه دول الطوق.. وخلال خمس عشرة ساعة سيتم الإنزال على الحدود..

رفع أحد المجتمعين يده قائلاً في رهبة:

- أدون مزراح.. نحن مضطرون لتقديم تنازلات، ما لم نفعل فسوف نذوب في محرقة هذه الجيوش..

اتسعت عينا القرد مزراح وهو يقف قائلاً في غضب:

- غبي أنت يا يائيل، أنت دائماً غبي وخائف، وهذا لا يصلح في عملنا الذي يطلب الشجاعة.

وعقد كفيه خلف ظهره وهو يدور في الغرفة قائلاً:

- أبعدما أنجزنا في خمس وعشرين سنة ما لم تتجزه إسرائيل في قرن تريدنا أن نتنازل.١٩

ازدرد العضو يائيل ريقه وهو يسمعه يتابع في صرامة بصوت متهدج:
- كل شيء حصلنا عليه، كل شيء..

الأرض من حدود لبنان، وإلى نهاية النقب، ومن الضفة الغربية وإلى البحر المتوسط.. الشعب، حططنا قوتهم وعنادهم في ثلاث سنوات من الحرق والنسف، إلى أن نجحنا في ترويضهم..

حتى أورشليم خيمت عليها سيطرتنا منذ ست سنوات ونجحنا في بداية بناء الهيكل رغم المقاومات والانتفاضات الدموية..

كل هذه الأمجاد التي بنتها حكومة شاؤول من دماء أبنائها وكفاحهم..
عن ماذا تريدنا أن نتنازل.١٩..

كل شيء حصلنا عليه بصعوبة؛ ولذلك فلن نتنازل عن أي شيء مما حصلنا عليه..

هذا ليس قراراً.. بل هو مسلمة لا يمكن نقاشها..

قاطعه أحد المجتمعين في غضب:

- أنت تتكلم بمثالية يا أدون.. ماذا سيفعل الكلام.. ١٩..

الحرب تفرغ طبولها.. ونحن قد استنزفنا ثلث الجيش لإخماد الانتفاضات التي تشتعل في المواسم.. ماذا سنفعل تحديداً.. ١٩.. الإمكانيات جيدة ولكنها لا تكفي، كما أن عامة الشعب لا يريد حرباً يعرف بالضبط من هو المنتصر فيها ومن الخاسر، وإذا كان لابد من التنازل فعلينا أن نتنازل عن البعض حتى لا نخسر الكل..

رد مزارح في عنجهية دموية:

- نحن لن نحارب يا أبنائي الأغبياء.. نحن سوف نفعل أمراً آخر تستسلم له الجيوش العربية رغماً عنها دون أن نضطر لأن نقول كلمة توصل واحدة..

استمعوا إليه في اهتمام وهو يقول في دموية:

- هم أتوا لينقذوا العرب هنا، والعرب هنا تحت أيدينا، ما لم تعد الجيوش إلى بلدانها دون شروط فسوف يتم إبادة ما بقي من هذه الشرذمة العربية، وبذلك نلعب ورقتنا الأخيرة التي تكسب دائماً..

تململ المجتمعون في ضيق وهو يتابع في قسوة:

- العرب يجيدون الثرثرة دائماً، ريثما يتخذون قراراً سنكون قد أصلحنا أخطاءنا ونجحنا في إقامة حلف مع دول قوية..

هتف أحد المجتمعين في غضب:

- كان لدينا حليف أقوى.. أميركا صارت في صف العرب وأعلنت عداوتها لنا.. كل هذا كان بسبب تهور الحكومة واتخاذها القرارات غير الحكيمة والمتسريعة، مع عدم استشارة الشعب الشاؤولي الذي يذهب ضحية هذا التهور دائماً..

إما في انتفاضة أو حرب..!

زعق الرئيس في عصبية:

- لقد فعلت ذلك أيها الأوغاد من أجلكم..

لقد لعنت أميركا من أجل أن لا نبقى عائلة على غيرنا، من أجل أن يكف العالم عن نظرتة لنا كأطفال تحت وصاية أميركا.. فعلت ذلك من أجل الإجابة عن تساؤلات أجيالنا القادمة:

- من أين ولدنا ومن جاء بنا إلى أورشليم؟!

أبناؤنا يجب أن ينتفضوا استعداداً لداود، ويسيطروا على العالم ويعلموا شخصيتهم المستقلة والقوية في كل مكان.. وإلا فلماذا أطحنا بحكومة إسرائيل السابقة؟!

تململ أحد المجتمعين قائلاً في ضيق وخوف:

- سيدي.. حلم داود لن يتحقق بهذه الصورة، أنت تعلم كما يعلم الجميع أن إسرائيل دون حليف أقوى لن تعيش في البحيرة العربية بأمان..

لذلك فإن أفضل ما نفعله هو محاولة رآب الصدع بيننا وبين أميركا..

قهقهه الرئيس في جنون وهو يصرخ:

- فكرت بهذا يا بني، أميركا لن تضع يدها في أيدينا بعدما أعدمنا
واشنطن بأكملها!..

تداخلت أصوات المجتمعين وهم يهتفون في غضب:

- من المسؤول الأول؟! الرئيس هو من أوقع حكومتنا في حرج كبير جداً!..

علت سحائب القلق وجه الرئيس وهو يقول في نفسه:

- بوادر تمرد..

وارتفع صوته وهو يقول في صرامة:

- اسمعوني.. أنا المسؤول الأول.. أنا الذي أوقع الحكومة في هذا المأزق..

وانتظر قليلاً وهو يرى علائم الارتياح على وجوههم قبل أن يقول:

- لي فرصة أخيرة لأكون أنا الذي ينقذكم في النهاية، فقط مناورة واحدة..

وسيرتجف العالم ذعراً من شاؤول.

سنضرب نابلس في البداية تهديداً!..

تبادلوا النظرات اليائسة وهم يدمدمون في خوف واعتراض، قبل أن

يصرخ في جنون هستيري:

- إنه قرار ولا يمكن تجاوزه.. إنه أمر!..

كان هذا يعني أن القرار دخل حيز التنفيذ الفوري!..

(٢٥) الثأر..

أطلت رامة من غرفتها على الصالة، حيث كان عبدالقادر يجلس على طاولة الطعام وهو يرتشف كوب قهوته في هدوء.

ترددت كثيراً قبل أن تقترب منه بخطوات ثقيلة مرتبكة وهي تشبك أصابعها في توتر، قبل أن تئن بصوت ضعيف.

- عبدالقادر..!

التفت إليها في هدوء وهو يقول:

- نعم يا حبيبتي..

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تردد النظر في كدمة خده الأليمة، وضمادة جبهته ولصقة فكه، فقالت بكل ما جمعت من شتات جرأتها والدموع تغرق عينيها:

- آسفة يا عبدالقادر.. آسفة جداً لمشاجرتنا البارحة..!

رد عليها في حنان ورقة:

- لا عليك يا حبيبتي.. كلنا نخطئ.

شهقت والدموع تنحدر على وجنتيها، وهي تقول بصوت واهن:

- وجهك مصاب بقوة؛ هل أنا من فعل كل ذلك..؟!

ومدت يديها بلا شعور لتتحسس كدمته وجرح جبهته الذي أحدثه ضرب

المقلاة الفولاذية وهي ترتجف باكية؛ فردد وهو يستسلم لنعومة كفيها:

- حبيبتي؛ كفكفي دموعك؛ ليس ثمت ما يستحق الانفعال..

قالت وهي تغالب حشرجات صدرها الباكية:

- سامحني يا عبدالقادر؛ لقد أفقدتني أعصابي.. سامحني..!

أغمض عينيه وهو يتناول كفيها بين كفيه في رومانسية قائلًا في حب:

- إنها لمن أجمل لحظات حياتي، اضربيني كل يوم إذا كنت ستقتربين

مني وتغمرينني بحبك هكذا..!

ردت وهي تفلت كفيها من كفيه لتمسح دموعها قائلة:

- أنا جادة وأطلب العفو.. أنا آسفة..!

وقف ليواجهها ويداعبها بقوله:

- هل رأيت أنني حنون ولطيف..؟! لست مخيفاً..!

قاومت رغبة في الابتسام الخجل وهو يقهقه في حب قبل أن تطلق

ضحكة رفيقة خجلى..

ارتدى قبعته وهو يعدل ثياب العمل قائلًا في تودد:

- سأذهب للعمل الآن، عندما أعود فأنا أتوقع وجبة لذيذة..

صمتت وهي تطرق في خجل بينما قال وهو يغلق باب المنزل:

- سأكون مشتاقاً إليك جداً..

بقيت وحيدة في المنزل وهي تتحسس ذراعيها النحيلتين، كانت آثار أصابعه

القوية واضحة عليها عندما أمسك بها ليسيطر على انفعالها البارحة..

لقد كنت شرسة وخرقاء وعديمة الأدب..

هذا ما قالت له لنفسها وهي تتجه لحاسوبها، وتجلس مترددة قبل أن تطلب عنواناً..

جلست تحقق في الكم الهائل من الصور والمقالات التي يحتويها الموقع حول قضية فلسطين..

تهددت بقوة قبل أن تستجمع جرأتها وتبدأ في طلب الاتصال الشخصي بمنصور..

شيء ما في داخلها يقول لها افعلي ذلك.. وبإصرار..

ابتسمت في جمود والهلاوس تصرخ في مخيلتها:

- أنت لن تفعلي ذلك أيتها الخرقاء.. منصور رجوب أصبح ذكرى لا داعي لها..

وشهقت بقوة عندما ظهرت صورته على شاشة حاسوبها وهو يقول في وقار:

- من يطلب منصور..؟

تتابعت دقات قلبها بقوة وهي تحقق في صورته وهو يقول:

- ما زال هناك اتصال.. من المتحدث..؟

امتدت يدها لتعبث بالحاسب بغرض إيقافه، ومنصور يردد:

- أكره العبث.. من هناك..؟

تسمرت يدها وشيء في داخلها يقول في إصرار:

- تكلمي يا رامة.. الآن يا رامة..

سحبت نفساً عميقاً وهي تقول بصوت مبحوح بالعربية:

- رامة.. إنها رامة..

ابتسم منصور وهو يقول في احترام:

- رامة.. رامة من ١٩..

ازدردت ريقها وهي تقول بصعوبة:

- آنسة الفضيلة..!

امتقعت تقاطيع وجهه بوضوح وهو يردد: أهلاً بك..!

ومرت دقيقة من الصمت قبل أن يقول بابتسامة مرتبك:

- لا تظهر على شاشتي صورتك.. أنت لا تحبذين الكاميرا

الألكترونية.. لو رأيت صورتك لعرفتك فوراً يا ابنتي..!

ودوت كلمته الأخير في عقلها بقوة..

ابنتي..

أحست بقدر كبير من الارتعاش مصاحب لنشوة ولذة..

تحسست عنقها وهي تقول بارتباك بالغ:

- سعدت بالتعرف على موقعك منذ أكثر من أسبوع، أنا اتصلت

للاشيء.. ليس لدي ما أقوله..

ابتسم منصور وعلائم الارتباك تتلاشى من وجهه شيئاً فشيئاً قبل أن يقول:

- أما أنا فعندي الكثير لأقوله. يجب أن نتكلم كثيراً..

تنهدت بعمق وهي تسمعه يقول في هدوء مصطنع:

- هل حصلت على الجنسية يا رامة..؟!

ردت في صوت خافت: طبعاً..

ساد الهدوء برهة قبل أن تقول في صوت خافت:

- لقد وَخَطَ الشيب شعرك..

رد مبتسماً:

- أبلغ الحادية والأربعين يا رامة، مرَّ وقت طويل منذ جئنا لأمريكا معاً.

ساد السكون برهة قبل أن يتابع في ألم:

- جعت كثيراً قبل أن أعمل في محل خضار.. أغوتني إحدى

الأمريكيات الحسنات لمدة سنة وأوهمتني أنها ترغب في الزواج.. ظلت

علاقتنا الآثمة حتى اكتشفت أنها من أكبر مهريات المخدرات، وتريد

استغلالني لذلك، عندما رفضت.. دبّرت كمية من الهيروين تبلغ عشرين

كيلو في سيارتي، وشهد على تلك الخدعة الحقيرة سبعة مدمني

مخدرات، وسجنت لمدة ست سنوات..

حيث أسلمت هناك.. في السجن..!

وتابع بعد تنهيدة طويلة:

- بعد أن ودعنا في لبنان الذكريات الحلوة، والمرّة، وشيئاً من الحب والعرفان..

نجيء هنا لنذوق عذاب السجن والظلم. صحيح أنني انتقمتم لكن مرارة الظلم ما زالت في قلبي يا رامة..

ألم أقل لك أننا في أميركا.. ١٩١٩

ساد السكون قبل أن يكسره منصور بقوله في صوت مخنوق وشجاع متوتر:

- لقد .. لقد نفذت وعيدي يا رامة.. و... وانتقمتم لك..

رفعت رأسها لتراه يهتز على الشاشة والدموع الغاضبة تملأ عينيه قائلاً بصوته المخنوق:

- لقد شنق بطرس.. ودمر قصر الدعارة بلا هوادة.. لقد شنق بطرس يا رامة.. ولم يجد من يتقبل أن يدفنه أو يضعه في قبره.. لقد شنقوه بعدما تأكدت لهم جرائمه المتكررة. سرقة ورشاوي، ومخدرات .. وختمها أخيراً بالقوادة...

كل الناس لعنوه.. رجموا قبره.. وبصقوا على ذكراه..!

ردت في جمود:

- لقد ارتاح من عذاب الدنيا.. وما في الآخرة يعلمه الله..

رد في غضب وشroud:

- ذلك جزاء الظالمين..!

وشهق بقوة والدموع تغلبه قائلاً:

- بطرس تمادى في الظلم حتى شنق..

ولوزلي المهربة أمهلها الله حتى كشفت بعد عامين من توريطها لي
وألقيت في السجن..

ثم ماتت هناك بأبشع سرطان التهم جسدها تماماً..

أميركا تمادت في الطغيان حتى أصيبت بالفيروس وجثت أخيراً أمام
الأمم تستجدي الرحمة..

وشاؤول يسير في الطريق نفسه..

الناموس لا يتغير يا رامة ولكن النماذج هي التي تختلف!

تسللت إلى أذنه شهقاتها المتأثرة. فتمتم في رضى:

- مازلت بريئة طاهرة لم تلوثك حضارة الظلام والضلال..!

ساد الصمت برهة قبل أن يقول في حماس وتأثر:-

- اسمعيني يا رامة.. لنا ثأر قديم بعمر الاحتلال اليهودي لفلسطين؛

ألم تفكري يوماً بكيف تتأرين كما يدفع الثوار أرواحهم في القدس للثأر؟!

تصاعدت تنهداتها الحارة الممزوجة بدموعها والمشاهد الوحشية
تتمثل لناظريها حية.

لم تمت كما لم يمّت الطغيان ولم تمت القروء الحقيرة في بلادها بعد..

سمعها تزفر في مرارة ممزوجة بسخين دموعها وتردد:

- قرأت التاريخ يا منصور.. الثأر أكبر من أن نأخذ به، والموقف أبشع من أن نبكي أمامه..

ارتعش تأثراً وهي تتابع بزفرتها الملتهية:

- لم يكونوا ليجرؤوا أولاً قبل هيرتزل، ثم هم تسربوا إلى فلسطين كالحشرات والبكتيريا..

ثم احتلوا الديار، وصمدنا بينادق الصيد أمام بريطانيا وأمريكا ببسالة وإيمان؛ واحتشدت الجيوش العربية لتدكهم رغم الفقر والجوع..

ثم هم أعلنوا دولة المسيح الملعونة عام ٤٨ ..

وشردوا من الشعب من لم يذبحو أو يعذبوا أو يعتقلوا..

استمر الكفاح يولد ليقتل ويقتل ليولد من جديد..

عندما طعننا إخوتنا من الخلف، واعترفوا بإسرائيل على حسابنا خوفاً أو طمعاً أو لغيره من الأسباب، ماذا كنت تريدنا أن نفعل..؟ ومن نلوم..؟

كنا نندد بأمريكا ونلعنها وإذ بإخوة لنا يفعلون ما لم تفعله..؟

اشتعلت المشاكل في البلاد العربية لتشغلهم عن قضيتنا^(١)..

بل تتسيهم أن ثمت فلسطين محتلة..

لم يزل الدم العربي يسيل للآشياء حتى استفاقوا على شاؤول الصراصير وهي تهددهم في بلادهم بأن تبيدهم وتتريع على عرش العالم؛ ولحظتها قام كل يعض أصابع الندم..

(١) في فترة الستينيات إلى التسعينيات الميلادية، عندما تابعت الانقلابات العسكرية في سوريا والعراق، واندلعت الحرب الطائفية في لبنان، والحرب بين مصر واليمن في عهد عبدالناصر، وأخيراً حرب العراق وإيران.. وأزمة الخليج الثانية والثالثة.

على كل شيء.. على الفرقة..

على البعد عن العدل والإسلام.. على تصديق العدو والثقة به..

على دعاوى حمائم السلام المترفة..

يا منصور.. كل ما قرأته في تاريخ بلادي وما لم أقرأه يؤكد لي الثأر
أمر أكثر هولاً..

أمر لا أطيعه..!

سمعت نشيجه الملتهب، فتصاعدت زفراتها الحرى وهي تتابع:

- مائة عام يا منصور ونحن نذوق العذاب صباحنا ومساءنا.. تعودنا
أن نصحو لنضرب ونعذب.. وأن نلد لنموت.. وأن نجوع لئلا نشبع.. كل
عذاب يمكنك تخيله قاسيناه ببطء وصمت.. نلوكه مع خبزنا الجاف
الأسود.. ونبلعه مع دموعنا المريرة الحارة..

حتى لم نجد من يربت على ظهورنا مواسياً ويمسح دموعنا ولو من..
من بني جلدتنا وأحبتنا..

كلُّ تنكر لنا وأدار ظهره لكفاحنا ودمنا وعرقنا ودموعنا..

الشعوب الإسلامية والعربية وحكوماتها تتمرد وتصرخ لضمير
الإنسانية في قلوب قدت من الصخر ولحم الخنزير...

كيف نتوقع من هؤلاء القمل أن يفهموا أنهم دخلاء ولا حق لهم في
الحياة على الأرض فضلاً عن أرض المقدس الطاهرة..!

المشكلة أننا نعرف .. ونصر على أن لا نفهم ولا نسمع ولا نرى..

والنتيجة شاؤول المسخ..!

هتف منصور من بين نسيجه اللهب:

- الثأر يا رامة .. الثأر واجب..!

انتحبت رامة وهي تهتف في انفعال:

- قل لي كيف يا منصور..؟

رد في حماس كاد أن يخلق شهقاته المنفعلة:

- أقول لك كيف..!

واتسعت عيناها اهتماماً وهي تستمع له..

لقد طاب الكفاح من جديد..

وحان الوقت لنلق الجراح ونبتسم..

لقد حانت ساعة الجهاد..

أجل لقد حانت.. وبكل إصرار...!

هتف عبدالقادر في حدة:

- أين تذهبين؟ إنها ثاني مرة تخرجين فيها اليوم..؟

ردت رامة في صرامة وهي تحمل حقيبتها:

- قلت ألف مرة أن هذا ليس من شأنك .. إن لم يعجبك الوضع ف..

قاطعها هاتفاً وهو يلوح بكفه في وجهها :

- لا شأن لي؟!

يبدو أنك تنسين أنك زوجتي ومن الواجب علي أن أحميك.

ردت في سخرية:

- أنا أشكرك لذلك.. عن إذنك..

أمسك بذراعها بقوة وهو يقول في صرامة:

- رامة.. أنا رجل، ولا أرضى أن تتجاهليني هكذا..

جذبت ذراعها بعنف وهي تهتف:

- وأنت تنسى شرطي الأساسي في عقد الزواج..

أطلق ضحكة هازئة وهو يقول في سخرية مغتظة:

- لقد علمت قبل بموضوع الوصاية عليك، لا يضير أن أخبرك إذاً أن

محاميك الوصي يذكرني بين كل فترة وأخرى بضرورة حمايتك من

حماقاتك بوصفي زوجك ولو كنت مسلوب الحقوق..

ردت رامة في سخرية وبرود:

- هذا مبهج حقاً.. عن إذنك..

جن جنونه وهو يلحقها صارخاً:

- تعالي هنا.. أنت لن تخرجي..!

هربت من الباب بخطوات سريعة وهو يركض خلفها ليواجه أخته

عائشة التي نزعته لثامها عن وجهها وهي تقول في عتاب صارم:

- خمسة عشر أسبوعاً من زواجكما وأنتما مثل القط والفأر..

ألا يمكنكما أن تكونا أعقل قليلاً؟

ابتسمت رامة في وجه عبدالقادر من خلفها وهي تتابع:

- تزوجتما لرتاحا، لا لتصارعا..

رد عبدالقادر وهو يتميز غيظاً:

- تريد أن تخرج إلى مكان مجهول.. إنها حتى لا تريد أن تخبرني أين

ستذهب.. لا شك أنها ستذهب لتعمل مصيبة تودي بحياتها كعادتها..

انسلت رامة بخفة إلى سيارتها فيما كان زوجها وشقيقته يتجادلان

بصوت عال، وعندما شغلت السيارة ضربت بوقها وهي تشير بيدها إلى

زوجها إشارة لإغاضته، وانطلقت بعيداً وهو يصرخ في هياج:

- هذه المعتوهة بلا عقل.. ستقتلني حتماً، أقتلها أم ماذا؟

ضمته أخته إلى صدرها وهي تقول في عتاب:

- وإذا كانت معتوهة كما تزعم.. هل تكون معتوهاً مثلها؟

هل تريد أن تفقدها بهذه السهولة وقد تزوجتك بالكاد؟

كن رجلاً يا أخي، رجلاً عاقلاً لا يهتز بسهولة.

هتف في حرقه:

- تصرفاتها تكفي لتثير جنون أعتى الرجال، أنا أتحمل ما لا تعلمينه

ولا تسمعينه..

ردت في سخرية ودودة:

- مثل اعتدائها بالضرب عليك مثلاً؟ ألم تقل لي أن هذا لم ولن يؤثر على محبتك واحترامك لها؟ أم أنك غيرت رأيك لسبب ما. ١٩١٩.

زفر بشدة ودخان الغيظ يتصاعد من رأسه وهي تعاتبه برفق:

- رامة المسكينة مشغولة بقضية وطنها المجروح الذي حول كبش فداء في معركة مصيرية، كما هي تستغل قضية الفيروس لتعود إلى عملها، ولكي تفعل شيئاً في مواجهة قضية وطنها الكبير.. اتركها في حالها لتتشغل ريثما تنتهي هذه المعمة الهائلة المكهربة، وبعدها سيكون من اليسير أن تروضها.. صدقني..!

هتف في صرامة ساخرة:

- يا لهذا الفيروس الأكنوبة الذي وجد مجالاً خصباً في رأسها المعتوه الملوث بالهلاوس، لتجده حجة تنهرب بها من الوصاية والرقابة، عندما تنتهي كذبة الفيروس ستجد كذبة أخرى بمهارتها المعهودة وهلم جراً...!

سحبته أخته إلى المنزل وصبت له كأساً من العصير قائلة في هدوء:

- اتركها في حالها الآن.. هي مسكينة مجروحة، لو أن وطننا يتعرض لما يتعرض له وطنها لفعلاً أكثر..!

هتف في غيظ شديد:

- وماذا ستفعل هذه البلهاء..؟ تحارب؟ تجاهد الشاؤول؟

إنها تضر نفسها فقط وهذا ما أعارضه بشدة وأسعى لمنعها منه..
إنها تريد الحرية دون ضوابط إطلاقاً.. تتصرف كمراهق طائش يتمرّد
على كل القيود.. من يلومني إذا إذا حاولت كبح جماح تمردّها حتى لا
تضر نفسها.. ١٩١٩

أنا أحبها وأخاف عليها بشدة يا أختي!

تهدت عائشة وهي تقول في هدوء:

- حسناً يا أخي، خذ مفتاح سيارتها وأخفه، عندما تسأل قل لها لا
أعرف..

رد عليها في صرامة:

- أنا لن أكذب، إنها لن تقود سيارة بعد اليوم، سأجبرها على ذلك..
هذا قراري!

قالت عائشة في سخرية وخوف:

- لكنها رامة يا عبدالقادر.. رامة وليست أحداً آخر..

عندما قالت ذلك نظر إليها في توتر وقلق..

إنه يعترف في قرارة نفسه..

بأنها رامة.....!

(٢٦) الحرب..

هتف أحد قواد الحرب العرب في اجتماعهم اليومي:

- ماذا تبقى من الجريمة يا مسلمون ١٩١٩..

رد أحد المجتمعين في استنكار وتوتر:

- تدمير حيفا كان تهديداً أيها الإخوة.. مساومة على ما تبقى من

الشعب الفلسطيني مقابل إيقاف الحرب.

رد آخر في غضب هائل:

- وهذا الملعون مزراح، هل يتصور بجنونه أن ما فعله سيزيدنا إلا

غضباً وإصراراً على الانتقام والثأر.. ١٩١٩

قال آخر في غضب واثق:

- عموماً غرف العمليات العسكرية لم تتأثر لهذا النبأ، والتخطيط

للعمليات جار بمنتهى الدقة والانضباط، ومعلوماتنا تؤكد أن الشارع

الفلسطيني راض تماماً عن كل ما يجري له مقابل النصر..

ردد أحد المجتمعين مبتسماً في ألم وأمل:

- ذلك أنهم شعب ولد ليستشهد، الشعب الفلسطيني يردد بصوت

واحد، ما دمنا سنموت حتماً فليكن لموتنا قيمة..

رد أحد القادة في ابتهاج:

- معك حق.. عمليات الأحزمة المتفجرة ستبدأ بعد ساعات قلائل..
 إنه نذر الفلسطيني المسلم العربي لدينه وتراب أرضه المقدس.. لقد
 ردودوا جميعاً بصوت واحد سعيد ملتذ:
 - الشهادة ألد وأشهى..
 والموت أرحم من حياة القهر والعذاب...
 وخفض الجميع العيون خشوعاً...!

وقفت رامة بين الجموع المتظاهرة في ميشجان وهي تمسك بمكبر
 صوت هاتفة في حماس وسعادة:
 - أيتها الجموع الشجاعة، أنا أبارك لك تأييدك دعوة موقع الفضيلة
 ومواقع أخرى بالضغط على الرئيس لتأييد ضرب تل أبيب..
 تذكروا أيها الشجعان، مسلمين وغير مسلمين، أنكم تدافعون عن
 العدل والإنصاف، وتطلبون إعدام الظلم والإرهاب المتمركز في تل أبيب
 العفونة والنذالة، لا نريد الدم.. وإنما العدل والتأثر لشعب عانى ويلات
 الاحتلال والعذاب كما لم يقاس شعب آخر في التاريخ.
 ضجت الجموع بالهتافات المؤيدة، وهي تنتظم في مشهد رائع مؤثر
 متأثر بموقع الفضيلة الذي يرفع هذه المظاهرة الصاخبة..

حتى الشواذ والمنحرفون شاركوا في المظاهرة بحماس رهيب، وقد تبين لهم أن آنسة العفة كما كانوا يسمونها ليست شريرة رجعية كما تصوروها.. وإنما صاحبة قضية عدالة عظيمة.

نزلت رامة من منصة التحدث لتنضم إلى جناح النسوة؛ حيث منهم المسلمات المثلثات؛ وغير المسلمات وقد احتشمن تضامناً مع موقع الفضيلة. حملو صوراً من العذاب الذي جرى منذ ١٩١٧ وإلى نهاية القرن العشرين..

صوراً من الكفاح والدم والعرق والدموع المعجون بخبز المقهورين المعذبين.. وارتسمت على وجوه الجميع علائم الجدية والاستكثار؛ وهم يهتفون معاً بدموع منهمرة ونفوس غاضبة هائجة:

- كلنا نكرههم.. كلنا نكرههم!..

استمرت المظاهرة اليوم كله من الثامنة صباحاً، وحتى صلاة المغرب، حيث تتضمن قافلة متظاهرين جدد بعد كل رحلة من الأحياء والشوارع.. تتوقف لأداء الصلاة ثم تتابع مسيرتها.

حتى المتشردون ساروا في هذه المسيرة الضخمة جنباً إلى جنب مع أغنياء الولاية، حيث الخطب علمهم أنهم وحدة واحدة في مواجهة عدو واحد.

حتى رجال الأمن الذي يحمون المتظاهرين انضموا بحماس إليهم وهم يرددون بكل الغضب الدفين في قلوبهم:-

- اعدموهم بلا رحمة.. الله أكبر.. كلنا نحب المسلمين والعرب.. كلنا نكره شاؤول..

كلنا نكرههم..!

كانت مظاهرة مجيدة سجلت ونقلت عبر القنوات التلفازية الأمريكية كلها.. وانفض الجمع بعد صلاة العشاء..

عادت رامة إلى بيت زوجها وقد صحل صوتها وأعيت تماماً.. كانت تحس بنشوة ولذة بلا حدود..

لذة الكفاح والجهد الإسلامي الذي رفع العالم كله رايته هذه المرة.. كل العالم..

راية الإنقاذ..

الإنقاذ للبشرية كلها.. كلها بلا استثناء..!

كانت ابتسامة متسعة تملأ شفيتها الجافتين وهي تقول بصوت مخنوق:

- كيف حالك يا عبدالقادر..؟

لم يرد عليها وهو يسند خده إلى كفه وينهمك في نقر أزرار حاسوبه، فتجاهلته وهي تصب لها كأساً من العصير وتجلس قبالة وهي ترتشف كوبها وابتسامتها الشاردة تعمر وجهها.

احترق قلقاً وهو يرمقها بتسم وترتعش بوجهها الأصفر الشاحب..

ما بها..؟

كان يرمقها بنظرات جانبية محترقة..

يتمنى لو اعتذرت لينفجر في وجهها.. يوبخها.. أو يفعل أي شيء..
المهم أن يفرغ بعض غضبه.. لكنها لم تتكلم.. بل ظلت مبتسمة في
نشوة ولذة..

خلعت معطفها واتجهت لغرفتها وأخذت ثيابها لتستحم، ثم رقدت
بعد ذلك في إعياء لذيق، وقد نسيت أن تقفل باب غرفتها..
ظلت تحلم وتحلم.. بأن القروود الذين طالما أذلوا شعبها وأذاقوه العذاب..
نصبت لهم محارقهم التي نصبوها للمسلمين هناك..
ودقت المسامير في أجسادهم وأيديهم وأرجلهم كما فعلوا..
وطليت أجسادهم بالقيح والزيت الفائر كما فعلوا...
ثم أشعلوا ليصبحوا مشاعل ليلية ريثما يتحولون إلى رماد..
تماماً كما فعلوا...

ظلت تحلم بالرأس النووي الذي ينفجر بسحابة الفطر الهائلة المخيفة..
رغم أنها تكره الدمار.. تكره الدماء.. تكره القتل بأشكاله..
تخيلته وهو يقصف رأس مزراح الدموي الملعون الذي طالما كانت
أخطاؤه الإملائية سبباً في عذاب ودمار المئات والمئات..
ظلت تحلم وتحلم.. وصراخ المتظاهرين يصوت في أذنيها ممزوجاً
بأصوات المعذبين المصلوبين على المحارق والمعلقين على المشانق في
أرضها المغتصبة..

لكنها لم تبك.. بل ابتسمت وهي تسمع هذه الأصوات.. وهي تردد
في نشوة:

- أنتم في جنة الله تعالى في السماء.. ونحن في جنة الجهاد والثأر
على الأرض..

لقد آن الانتقام يا أيها الشعب الصابر على مر السنوات والشهور..
والثواني..

والنصر صبر ساعة..!

كان عبدالقادر يقف فوق رأسها متأملاً ملامحها البريئة الجميلة،
وقد نشرت شعرها المبلل بإهمال حولها..

فسحب اللحاف ليغطي جسدها بعناية لئلاً تستيقظ وهو يردد في نفسه:

- غداً لناظره قريب.. وستعلمين كيف أروضك يا رامة!

وأغلق باب الغرفة في هدوء...!

تقدم أحد القردة المدججين بالسلاح إلى باب أحد المنازل في دورية
التفتيش اليومي، وركل الباب بقوة صائحاً: تفتيش..

حدقت فيه فتاة بارعة الجمال بمنتهى البرود وهي تتقرفص في
مكانها دون أن تتحرك..

اقترب منها وهو يزعق في صلف:

- قلنا تفتيش، ألم تسمعي.. ١٩٠

لم تتحرك من مكانها وهي تسرح شعرها الأسود بمنتهى البرود والتحدي..
قبل أن تشهق بقوة عندما هوى على خدها كف الشاؤولي بصفعة
أودعها حقه وكبره وهو يجذبها من شعرها هاتفاً:
- المنزل يدمر فوراً، خذوها إلى النقطة..

ودفعها بقسوة إلى رجاله الأربعة الذين تلقفوها بصفعاتهم وركلاتهم،
وأحدهم يردد ساخراً:

- ألا نعدمها يا يوشي.. ١٩٠

ردد المفتش في سخرية صارمة وهو يتبعهم إلى سيارتهم العسكرية:
- أيها اللعين لاوي.. أنت ترى أنها صيد شهى لا يعدم بسهولة... بعد
يوم أو يومين نصلبها على المحرقة.. أو أسبوع على الأكثر..!
وانطلقت سيارتهم، فيما ردد أحدهم في رهبة:

- بدأت أحس أن نهايتنا اقتربت.. لو انتصر التحالف علينا فهل
تتصور أننا سنجد مكاناً آمناً على الأرض؟ ١٩
ردد الآخر في سخط:

- المفروض أن نهرب إلى سويسرا.. ونأخذ الجنسية ونعيش بسلام
بدلاً من هذه الحياة بين هؤلاء القتلة العرب..

انتبهوا للفتاة وهي تعد في ذهول بابتسامة عريضة:

- أربعة .. وذاك الخامس:

دب الذعر في قلوبهم وأحدهم يمد يده ليضعها قائلاً - ماذا هناك ..؟

ولم تمهله المفاجأة إلا ثوان..

سحبت فيها الفتاة طرف حزامها وهي تردد:

- لا إله إلا الله .. محمد رسول الله ..

واستحال كل شيء إلى جحيم هائل ...

أطفأ النور في عينيه ...!

استرخت عائشة بجوار رامة وهي تقول في قلق:

- سمعت أن الفيروس انتقل لميشجان يا رامة ..

التفتت إليها رامة وهي تنقر على أزرار حاسبها قائلة في سخرية:

- إشاعة .. غير معقول على الإطلاق، كما ورطت جون جولت

المسكينة، أصبحت موضة لدى هؤلاء الفارغين على الشبكة أن يستمتعوا

ببلبلة الأمن الصحي وبقذف بعضهم بعضاً بالإصابة بالفيروس، في كل

الولايات وليس في ميشجان فقط .. ولقد تلقت الشرطة مئات البلاغات

الكاذبة من شعب حقير العقل كهذا ١.

صمتت عائشة قليلاً وهي تحاول بداية النقاش معها قبل أن تقول

بحذر وخوف وهي تركز على ملامح وجهها:

- ألم يعد عبدالقادر..؟

هزت رامة رأسها بهدوء وهي تقول:

- لقد تذكرت أن علي إعداد غدائه قبل أن أخرج..

زوت عائشة حاجبها وهي تلتقط كفيها من على لوحة المفاتيح

وتجذبها برفق إليها قائلة في حزم وجدية:

- استمعي لي جيداً يا رامة عندما أقول لك إن إعداد الطعام ليس

هو كل ما يحتاجه عبدالقادر..

ارتعشت رامة في توتر وعائشة تقول في عتاب وغضب:

- زوجك هو حياتك يا رامة.. ما لم تهتمي به كما يجب فسوف تخسرينه.

انسي القتال لحظة وتذكري أنك امرأة بحاجة للرجل كما هو بحاجة

إليك...!

ردت رامة في برود ساخر:

- لم أفكر يوماً أن حياتي ستختزل إلى رجل..!

ردت عائشة في غيظ:

- لا تتطرفي يا رامة.. لقد اعترف المسكين لي أنه يعيش انفصلاً

تاماً معك، حتى إنك..

إنك ترفضين أن يجلس بجوارك.. هذا ما لا يحتمله عقل يا رامة..!

ردت رامة في شجاعة:

- لقد اشترطت ذلك ووافق.. هو المسيء لنفسه لا أنا..!

ردت عائشة في قلق:

- لكنك تزوجته بإرادتك، أنت من عرض عليه الزواج هذه المرة..!

انتبهتا لصوت الباب، فوقفت عائشة وهي تقول:

- لقد مضى الوقت بسرعة عندك أيتها الشقية، وانتهى وقت العمل

وسيعود أمير حالاً..

وهرولت وهي تهتف مربطة على كتف شقيقها في عجلة:

- سأذهب يا عبدالقادر، لم أعد غداً..!

وأغلقت الباب خلفها وعبدالقادر يقول بصوت عال:

- كم أحسد أمير، عنده زوجة صالحة..!

تجاهلته رامة وهي تنهمك في إعداد الغداء، بينما مكث يردد النظر

في برودها ولا مبالاتها في غيظ وحرقة قبل أن يتجه لغرفته ويغير ثيابه،

ويعود لمتابعها وهي تنهمك في عملها، قبل أن يقول بصوت صارم:

- أنت لم تتحدثي منذ البارحة، ألم تلاحظي ذلك؟..!

ردت في قوة وسخرية:

- أنت من بدأ فرض المقاطعة، وأنا وافقت..!

صمت مضحماً وهي تضع طبق الطعام أمامه وتهرع إلى غرفتها،

فهتف في غضب:

- تعالي هنا.. اجلسي لنتناول الغداء..
- ولحقها ليجدها قد جلست أمام الحاسب وهي تقول:
- أهو أنت يا منصور.. إني أسمعك.
- اتسعت عيناه دهشة وغضباً وهو يسمعها تقول في بهجة وحماس متدفق:
- هل شاهدتها إذاً؟ على كل القنوات..؟
- ردد عبدالقادر في غضب:
- من هذا يا رامة..؟
- واتسعت عيناه مرة أخرى وهي تشير له بيدها ليصمت، وقال في نفسه في غيرة متفجرة:
- من يكون هذا الوغد..؟
- صرخ فيها بمنتهى الصرامة:
- رامة.. من هذا الوغد..؟
- وانتبه لصوتها وهي تقف قائلة في عجلة:
- أخشى أنني لا أستطيع تناول الغداء معك يا عزيزي..
- هتف في صرامة وغضب:
- أخبريني أولاً من هذا الرجل..
- كزت شفيتها وهي ترتدي معطفها وغطاء شعرها قائلة في لا مبالاة:
- منصور رجوب، من مسلمي ولاية نيويورك من أصل عربي، وأحد أعضاء مجلس الجالية الإسلامية هناك..

التهبت غيرته وهو يقول في حرقه:

- أيتها الغربية الأطوار..

ردت في صرامة وضيق:

- سنتناقش فيما بعد في هذا الأمر..

جن جنونه وهو يصرخ:

- رامة، أنا لن أتحمل تجاهلك لي أكثر من ذلك..!

ردت في برود وهي تفتش محفظتها:

- أنا مفلسة..

والتفتت لتقول في عذوبة:

- أريد نقوداً.. أعطني.

اهتز بنشوة غريبة انفجرت في قلبه، لذلك زفر رغم غضبه وهو

يخرج محفظته ويفتش فيها قائلاً:

- كل ما معي مائة دولار، خذي..

وضعها في كفها الصغيرة وهو يتابعها بعينيه في سخرية وهي تفتش في

غرفتها، ثم في الصالة وهو يستد إلى مصراع غرفتها في برود قبل أن يقول:

- هل تبحثين عن هذا يا رامة..!

التفتت إليه لتجده يهز مفتاح سيارتها بهدوء أصابعه، فاقتربت منه

بخطوات سريعة قائلة:

- أشكرك.

ضم كفه الكبيرة وخبأها خلف ظهره وهو يقول في صرامة:

- لا سيارة بعد اليوم أيتها المتهورة، هذا قراري..!

زفرت بقوة وغيظ مكبوت وهي تراه يدس مفتاحها في محفظته وهو

يقول موبخاً:

- أخبرتك أنت ستندمين على تهورك..

قالت له بصوت واهن: هات المفتاح.

انفجر في وجهها وهو يهز أصبعه هاتفاً:

- عندما تحتاجين شيئاً أو تريدين الذهاب لأي مكان، فلن تكوني أمام

المقود بل جواري كأني امرأة معتوهة، ولن تنزلي أبداً لوحديك، بل أنا معك

دائماً أحملك من تهورك بنفسي، ثم أعيدك للبيت بنفسي.

واهتز قليلاً وهو يراها تغالب دموعها في قهر، قبل أن يستعيد جأشه

قائلاً في غيظ:

- اسمعيني جيداً أيتها الصبية المتمردة، لقد أتعبت قلبي كثيراً كثيراً،

يجب أن تعرفي حدودك وتلتزميها جيداً.

تحدرت دموعها وهي تردد في ضعف:

- هاتها يا عبدالقادر..!

تجاهلها وهو يجلس على طاولة الغداء، وهو يستمع في قسوة إلى

نשיجها المتقطع وقد جلست على الأرض وهي تردد:

- لا تكن نذلاً يا عبدالقادر، أعطني المفتاح!

ظل صامتاً وهو يبتلع طعامه بصعوبة، وهي تردد في استعطاف باك:

- إنه مصدر رزقي، يجب أن أعود للعمل، يجب أن أثبت تفوقي..!

وبترت عبارتها بشهقات متقطعة عالية، وهي تتابع:

- لا تكن سبباً في عذابي، إنه عملي، وهو وطني، وهم عدوي، وهو ثأري..

استجب لي يا عبدالقادر..

ظل صامتاً وهو يلتهم آخر قطعة من طعامه قبل أن يهمس:

- حمداً لله على النعمة..

وتجاهل عباراتها المستعطفة الممزوجة بشهقاتها:

- أرجوك يا عبدالقادر؛ إن كنت قوياً قاله أقوى منك، أعطني مفتاح سيارتي ..!

عند هذا الحد من التجاهل ضربت الأرض بقدميها وهي تهتف باكية:

- أنت قاسي القلب، هدفك أن تعذبني..

تجاهلها مرة أخرى وهو يغسل أطباقه، فعادت تنن قائلة:

- على الأقل رد علي..

رد في صرامة: ستغضبين..!

صمتت قليلاً قبل أن تضم قبضتيها وتقول:

- أحس بأعراض التشنج، خذني للمستشفى..!

رد غير مبال:

- تناولى دواءك.. سأحضره لك..!

صرخت في عصبية باكية:

- أنت تقسو علي كثيراً ولا تهتم بي أنا أكرهك، أكرهك!

تماسك وهو يراها تركض إلى غرفتها باكية بصوت عال كطفل

صغير، قبل أن يقول وهو يزفر في ارتياح:

- شكراً للدكتور روبرت..!

زعق الرئيس الشاؤولي في ذهول هائل:

- كيف!؟ فقط أريد أن أعرف كيف..!؟

رد وزير حربيته في قلق بالغ:

- نوع جديد من المتفجرات الانتحارية، إلى الآن خمسة وعشرين من الجويم

فجروا أنفسهم في أماكن اعتقال أو نقطة تفتيش أو مراقبة، والضحايا إلى الآن

مائة وخمسون جندياً تمزقوا بشكل لا يمكن معه تبين ملامحهم..

ردد الرئيس في ذهول عظيم:

- غير معقول بتاتاً.. من أين لهم هذه الأحزمة!؟

رد الوزير في غضب:

- ليس المهم أن نعرف من أين، المهم أن كل عربي صار الآن مادة

متفجرة خطيرة يرتعب منها جنودك الجبناء، وبعضهم أعلن انسحابه من

موقعه دون إذن.. إضافة إلى التمرد الذي أعلنه سكان بعض الأحياء الجويمم والتي أحدثت بلبلة ورفض الجنود قمعه..

ردد مزراح في ذهول عظيم:

- لهي انتفاضة جديدة.. لكن ليس بالحجارة هذه المرة، بل بالأحزمة الشديدة التفجر..

واعتدل قائلاً في صرامة ودموية:

- دعنا من الكلام الآن يا عازر.. أصدر أمراً يقضي بتربيع كل جندي يتراجع عن موقعه أو يرفض تنفيذ السحل والحرق..

أما الجويمم فدع أمرهم لي..!

اتسعت عينا الوزير خوفاً وهو يتخيل العقوبة الرهيبة التي يواجهها جيشه لو تخاذل..

التربيع عقوبة رهيبة يعاقب بها الخونة في العصور الوسطى، يتم فيها تقطيع أجزاء الضحية إلى أربعة أجزاء بالتساوي بواسطة منشار..

ترى من سينجو من هذه العقوبة ما دام أن الأحزمة المتفجرة قد أحدثت رعباً هائلاً في قلوب الجنود.. ١٩١٩

إلى أي مصير يقودهم مزراح المجنون.. ١٩٠٠

إنه يدمر الجيش في اللحظة الذي بدأت فيها جيوش التحالف الإسلامي بتدمير البنية الأساسية للكيان اليهودي..

وانتبه لصوته الرنان وهو يهتف في صرامة:

- إنه أمر.. واجب التنفيذ..

فوقف وهو يقول في وهن:

- أمرك يا أدون مزراح!...

❦

(٢٧) إنه مسح..!

ركنت عائشة سيارتها الصغيرة وترجلت منها بهدوء وهي تقول
بصوت عال:

- هذا يسعدني كثيراً أيها الصديق..

وفتحت حقيبة سيارتها والتقطت حقيبة دعوية صغيرة تحتوي على
مجموعة من الأقراص المدمجة الدعوية قائلة:

- إنه دين الحق، لاشك أنك ستكون سعيداً بالتعرف عليه..

ارتكن الرجل الذي استوقفها على حقيبة سيارتها قريباً منها وهو
يلهث قائلاً بلهجة غريبة:

- لم ترتدين اللثام أيتها المسلمات..!

ردت عليه في ودية وهي تناوله الحقيبة:

- ابتعاداً عن الفتنة وتمسكاً بالفضيلة وسنة الرسول محمد ﷺ.

قال لها في قحة وهو يقلب الحقيبة الدعوية بلا مبالاة:

- هذا يعني أنك لن تأتي معي.

اتسعت عيناها في رعب وهي تفتح باب سيارتها بهدوء وهو يتابع
مقرباً منها وهو يرتجف بشدة:

- اكشفي هذا الشيء من وجهك، أنا غني وأعزب..

تراجعت وهي تلتفت في الشارع الخالي في رعب هائل، قبل أن تصرخ بأعلى صوتها عندما انقض عليها بأسنانه القذرة، وتدفعه بكل قوتها في صدره ليترنح ويسقط بينما لاذت بسيارتها وأغلقتها بإحكام. هجم على سيارتها بجنون وإصرار ليعض الزجاج وعيناه تتقدان كجمرتين ملتهبتين، وهي تصرخ في ذعر عظيم، وتتطلق بسيارتها بعيداً.. تلتفت وهي تتساءل في ذعر عظيم:

- هل كان ينوي اغتصابي..؟ لم حاول عضي إذاً؟

وشخصت في مخيلتها صورة أسنانه الحمراء المرعبة، وعينيه الزائفتين، هل كان سكراناً؟

عند هذا الحد ركنت سيارتها عند منزلها، ونزلت راكضة وهي تهتف باكية:

- أمير.. أمير..

استقبلها زوجها وهو يهتف في قلق:

- ما الخطب..؟

هتفت وهي ترتمي عليه في ذعر:

- مخلوق بشع هاجمني عندما كنت أزور منزل حبيبة.

رد في قلق بالغ:

- هل آذاك؟

هزت رأسها بالنفي وهي تقول وسط نحيبها المذعور:

- فقط هاجمني، كان رهيباً وذا وجه قبيح وعينين حمراوين، وحاول عضني..

رد عليها وهو يدفعها برفق في قلق وذ هول:

- ماذا قلت؟ حاول أن يعضك؟؟

قالت في رعب:

- لقد فعل.. هل من خطب؟

هتف في قلق بالغ:

- هل عضك؟ لمسك؟

ردت في رعب متزايد:

- لمسني وحاول عضني فصددته وهربت..

هتف في قلق وخوف عظيمين:

- اخلي كل ملابسك فوراً، سأحرقها في الحال؛ هذا الرجل كان

مصاباً بالفيروس..

شخصت عيناها في رعب هائل وهو يتابع هاتفاً:

- إنه مسخ...!

وانفجرت كلمته كالقنبلة.....!

هتف جندي شاؤولي وهو يهز ورقة في يده:

- اسمعوا آخر خبر أيها الأوغاد، لقد فشل مخططنا للهروب، والفرقة

٥٦ ستعود لموقعها في المدينة خلال ساعتين، اقرؤوا هذا البيان..

تلقف زملاؤه الورقة وهو يهتف في قلق وتوتر:

- هؤلاء الكلاب، سيعدمون أي جندي يتراجع عن موقعه، ترى أي شيء بقي لنا في هذه المدينة اللعينة، في غضون يومين فقط.. يومان فقط.. أصبحنا وكأنا الرعايا الذين يطلبون الحماية بدلاً من كوننا حماة، هل يدرك هذا الشكنازيم المتطرس ذلك..؟

هتف الآخر في غضب هائل وهو يمزق الورقة:

- اللعنة.. اللعنة.. ألف لعنة.. هذا لأنك لست أنت الذي يواجه الحزام المتفجر أيها الخنزير..!

قال آخر في رعب شديد:

- وبالتربيع، يا لفكرته الجهنمية التي ستمنع كل جندي من مجرد التفكير في النكوص..

قال آخر في حقد:

- إنه شكنازيم مغرور يحصل على ما يريد عندما يقرر ذلك بذكائه حيناً وبتهوره أحياناً..

هتف آخر في عصبية هائلة:

- نحن الضحية دائماً، اسمعوني ودعكم من أوامر هذا الكلب.. الوضع غاية في التأزم، وفي غمرة الانشغال لن يجد من يسمعه.. تكوين تنظيم لتنفيذ قرار التربيع ومحاسبة الجنود سيتكلف كثيراً.. إنه مجرد تهديد..

تبادل الجنود نظرات متوترة خائفة مرتابة، قبل أن يحمل أحدهم مدفعه وهو يقول:

- أفضل تنفيذ الأوامر بدقة، هيا بنا يا رفاق..

تبعه أربعة من الجنود وهم يرمقون بقية أفراد الفرقة الذين انشغلوا بالنقاش الحاد بنظرات مضطربة..

ازدرد الجندي ريقه وهو يقول في خوف:

- عندما نشاهد أي عربي، نعدمه فوراً من بعد عشرين متراً،

برصاصة مباشرة في الرأس، ماذا يحتاج هذا العمل؟!

إنه أسهل مما كنا نفعل بهم قبل اندلاع الحرب!

هه.. ألا توافقونني؟! هيا بنا..

وركبوا سياراتهم المصفحة وأنطلقوا لمواقعهم، حيث أبرز أحدهم

ذراعه الحاملة المدفع وهو يقول في سخرية:

- هدوء؛ فقط هدوء.. لأنني أمر هذا الصغير المتفجر...!

وصوب البندقية إلى صبي صغير لا يتجاوز السادسة يتجه إلى

المنطقة السكنية على طرف المخطط.. قبل أن ينتبه إلى صوت أنثوي

رقيق يقول:

- رويدك أيها الجندي؛ هل من الممكن أن أجري مقابلة؟!

- التفت في عصبية متوترة وهو يصرخ:
- أفي كل وقت صحفيون ١٩٠٠ اغربي عن وجهي فوراً..
- أطلقت فتاة فاتنة ضحكة رقيقة وهي تقول في دلال:
- ليس وقد تعلمت العبرية خصباً لكي أقابلكم ١٠٠
- زعق الجندي في عصبية:
- قلت: اغربي .. أيتها اللعينة.. من أين أنت ١٩٠٠
- ردت في نعومة وهي تداعب كاميرتها التلفزيونية:
- ألمانية.. من مجلة الشبيغل..
- دفعه جندي آخر وهو يهتف في جدل:
- اسمي مردوخ.. دعها تقابلنا أيها الغبي..
- زعق الأول وهو يسدد لكمة إلى وجهه:
- أيها اللعين. لقد غاب الطفل عن ناظري عندما رأى السيارة..
- اغربي يا لعينة.. الوضع خطر..
- ردت الفتاة وهي تقترب من السيارة في دلال:
- سأقابل مردوخ.. تعال أيها الوسيم..
- قفز الجنود الأربعة ليحيطوا بها وهي تتظاهر بتعديل آلة تصويرها،
- وهم يداعبونها بكلمات غزلية وقحة بينما ردد الأول في قلة حيلة وهو
- يشيح مبتعداً:
- مراهقون أغبياء.. ما هي إلا امرأة عادية كأي مومس..

اتسعت ابتسامة الفتاة وهي تردد في ظفر:
 - أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله..
 التفت الجندي صارخاً في هلع عظيم:
 - أأ.. ماذا تقولين..؟ آآآآآ..
 وتضجر الجحيم..
 وانطفأ النور....!

طرق عبدالقادر باب غرفة رامة برفق، قبل أن يفتحه بهدوء، ويدخل
 بخطوات رصينة ثقيلة ويحرق فيها وهي ترتمي على سريرها تبكي بشدة..
 اقترب منها وهو يقول في حنان:
 - أما زلت تبكين يا حبيبتي..؟
 ازدادت شهقاتها المكتومة وهو يتابع:
 - سيضرك البكاء بهذا الشكل يا حبيبتي، هيا توقفي عن البكاء،
 فأنت منذ العصر ترتمين هنا دون طعام أو ماء..
 خيل إليه أن أنفاسها تتقطع ونحيبها يعلو، فتردد كثيراً قبل أن يمد يداً
 خائفة إلى شعرها المبعثر، يتحسسها في حنان ويعقسه فوق رأسها في تودد،
 فسحبت نفسها بعنف وعناد، بينما استغرق في ضحكة حب وهو يردد:
 - أحب عنادك وشقاوتك، أستعذبهما بشدة..!

ووقف ليجلس بجوارها قائلاً في حزم وحنان:

- اسمعيني يا حبيبتي، أنا أعدك بأنني سأساعدك في العودة لوظيفتك، سواء عن طريق ملف الفيروس الكذبة، أم بأي طريق، سأفرغ نفسي لأكون سائقك الخاص، وحارسك الشخصي، بل وخدامك في آن واحد.

أخبريني أين محطتك الجديدة؟ أين كنت تتوين الذهاب في العصر،؟ سوف نذهب معاً يا حبيبتي..!

ردت صارخة في قهر باك:

- ما دمت تحتقرني وتستخف قضيتي فلن تساعدني، ثم إنني لست بحاجة لسائق.

رد في حنان وهو يسحبها برفق لتجلس بجواره:

- هناك الكثيرات يحلمن بأن يكون لهن سائقون!

ردت في عصبية ونزق وهي تدفعه بقوة:

- لم أعود الاعتماد على غيري في قيادة سيارة!

رد في سخرية حانية:

- ألا تتذكرين يا حبي أنك قبل أن تبغني سن الرشد، وفّر حماميك

لك سائقة خاصة؟!

تيريزا؟! أم أنك نسيت؟!

أشاحت في شراسة وهو يتابع في حنان:

- كانت تحبك بشدة، وتخدمك بإخلاص، وتساعدك في واجباتك المدرسية كما تقول، حتى إذا بلغت سن الرشد وطالبت المحامي بسيارة الفيراري الشقية مثلك..

لقد كدت تطيرين من الفرحة وأنت تتسلمين رخصة القيادة، وتتسكعين في الشوارع بحرية.

كل هذا أتذكره جيداً، ألا تتذكرينه يا صغيرتي..؟
ردت في نزع:

- اترك هذه الذكريات القبيحة وأعطني مفتاحي..
أعطني حريتي فقط وأعد مفتاحي أيها اللص الضخم.
قهقه مرة أخرى وهو يقول:

- حتى سلاطة لسانك أستعذبها، إنها لذيذة مثل لذة حديثك الخيالي عن الفيروس؛ أنا فقط أريدك أن تتكلمي بلا انقطاع، أن تغرد، أريدك أن لا تصمتي يا حلوتي..!

ردت عليه ودموعها تغرق وجهها في ألم:

- الفيروس حقيقة أيها الغبي، لماذا حوصرت واشنطن إذاً منذ أسبوع وأكثر؟
رد في إصرار:

- يوجد مرض، نعم، ولكنه لا يؤدي إلى أن يتحول البشري إلى مسخ ووحش كما يدعي الصحفيون، هذا الهراء المضحك يذكرني بفيلم دراكولا..!

ردت في عناد وألم:

- بل هم يفعلون ذلك يا عبدالقادر، هي حقيقة ..!

رد في سخرية:

- وأنا لا أصدق هذه الحقيقة، وجهة نظر ..!

ردت في غيظ:

- ماذا لو هاجمك أحدهم؟!

هل سينتظر أن توضح له وجهة نظرك ..!

قهقه قائلاً في تهكم:

- هذا لو .. مجرد لو ..

استشاطت غضباً وهي تهتف:

- ماذا لو قلت لك أنني قد ..

وبترت عبارتها لتلوذ بالصمت، فالتفت قائلاً في قلق:

- أنك قد ماذا ..!

سحبت نفساً عميقاً وهي تقول بجدية بصوت مرتجف:

- لقد هاجمني أحد المسوخ ..!

مد يده مبتسماً في حنان ليتحسس شعرها قائلاً:

- رامة، لا تقولي هذا يا حبيبتي ..!

هتفت في غيظ وهي تزيع يده في نفور:

- أنا لا أكذب، لقد هاجمني وأطلقت عليه النار، قتلته.!

رد عليها في سخرية حانية وهو يضحك:

- وأين كان هذا؟! في عطار د وأنت نائمة..!

ردت في فجائية:

- بل في واشنطن عندما كنت هناك..!

التفت إليها في دهشة وهو يقول:

- واشنطن..!

قالت في شجاعة:

- لقد كذبت عليك فعلاً، أنا سافرت لنيويورك وحضرت المؤتمر وغادرت إلى

العاصمة فوراً لمعينة موقع التهام جديد، وهناك، وفي اليوم الأخير لإقامتي، وقبل

إغلاق الحدود بيوم واحد فقط، هاجمني أحد المسوخ..

رد في صرامة:

- دعي عنك هذا الهراء، أنت لم تسافري لغير نيويورك..

ضاقَت عيناها وهما تمتلآن بالدموع وهي تقول في غيظ:

- كم أكرهك..!

هل تلومني عندما أقول إنك تحتقرني؟!

زفر وهو يربت على كتفها قائلاً في حزم حان:

- كفي عن هذه التخيلات يا رامة، وكوني عاقلة..!

زعقت في غيظ وضعف:

- كيف تصدق أنني قد ذهبت لنيويورك ولا تصدق أن الفيروس قد
هاجمني في واشنطن؟

قهقهه عبدالقادر قائلاً في حنان:

- وهل تعنين أنك ذهبت لواشنطن لكي يفترسك المسخ..؟ أهذا ما
يقتضيه سيناريو الفيلم في عقلك..؟

وربت على كتفها قائلاً في سخرية:

- ما هي المحطة الجديدة في..

صفعت يده بقوة وهي تصرخ باكية:

- لا تسخر مني..

أمسك ذراعيها وهو يقهقه في حب هاتفاً:

- لا أسخر، ولكني أخبرك أن خيالاتك الفظيعة لا تصلح حتى لأفلام
الدرجة الثالثة..

ردت في إصرار باك: لا أكذب.

رد في حزم وهو يشيح واقفاً:

- لا تكذابين، لكن تتخيلين، هذا هو الواقع..!

هتفت في قهر:

- أنت تحتقرني، لذلك لا تصدقني، ما دمت تضع في عين اعتبارك
أنني مختلفة..

رد عليها وهو يواجهها في حنان بالغ:

- يا صغيرتي، هذه هالوس وتخيلات، عندما يتطور الأمر إلى أن

تصدقني هذه الهالوس، فهو أمر خطير..!

صمتت في قهر ودموع الخيبة تتسرب إلى خديها وهو يتابع مقترباً منها:

- أنت مريضة بالوسواس يا حبيبتي، هذا ليس عاراً، ويجب أن

تعترفي به في طريقك للعلاج منه، يجب أن تقاومي هذه الهالوس، أن

تقاومي هذا المرض..

ردت في إحساس عميق بالظلم:

- أتعني أنك لا تصدقني..!؟

قال مبتسماً في أبوية:

- أبداً لا أصدق هذا، أنت في أتم صحة وعافية كما أرى!

هتفت بصوت مخنوق بالدموع:

- لكنه هاجمني وحاول اقتراسي..!

قال مداعباً:

- ولم لم يفعل لأرتاح من شقاوتك..!؟

ردت في جدية وهي ترتجف انفعالاً:

- قاومته ورميته بالرصاص.. ما المستحيل..!؟

رد مداعباً:

- مستحيل لأنك ناعمة وتكرهين القتل..

عند هذا الحد، أمسكت برأسها بين ذراعيها..

هل يكون عبدالقادر صادقاً؟..

وكذلك الدكتور روبرت..

هل يمكن أن يكون كل ما رأيت حلمًا مزعجاً.. أو خيالاً؟

هل يعقل أنني التقيت بمسوخ.. نعم.. هذا غير معقول..!

الأمر الأهم: هل يعقل أنني.. أنني قتلته..؟

هذا فوق المستحيل بدرجات قليلة..

ربت على شعرها الكثيف في حنان وهو يردد:

- هكذا ستعيشين في أمان، أنا أحس ببعض هذه الهالوس يا حبيبتي

في بعض الأحيان، ولكنني أتجاهلها، افعلي كما أفعل..

ردت في إصرار: لكني لا أكذب يا رجل..!

اقترب منها كثيراً وهو يقول:

- كفي عن الهالوس يا رامة؛ أنت كبيرة وعاقلة ولا تفكرين بهذه

الهالوس المضحكة الشبيهة بحدوثات الأطفال..!

هتفت في قهر وغيظ:

- لكني فعلت..!

رد في حزم: رامة..!

هتفت:

- أنا فعلت..

رد في صرامة هذه المرة:

- رامة، كفي عن العبث والتفكير فوراً، خذي دواءك قبل أن تبدأ نوبة

هستيريا جديدة..

واتجه للمطبخ وهي تلحقه بصوت مخنوق بالدموع:

- أعطني مفتاح سيارتي أيها السمج..!

التفت ليوواجهها وهي ترتجف عصبية وانفعالاً وهو يقول في حنان وحب:

- أحبك.. أحبك..!

هتفت في ثورة وهي تهوي بقبضتيها الصغيرتين على صدره العريض:

- كم مرة في الساعة الواحدة تصرف لي هذه الكلمة الوقحة التي

سئمتها كوجهك الأبيض القبيح..!

قهقهه في حب وهو يقول:

- كل يوم سأفتعل مشكلة، ما دمت تقتربين مني نصف متر زيادة كل مرة..!

أمسكت بتلابيبه وهي تحاول هزه هاتفة في عصبية:

- عبدالقادر، أعد مفتاحي وإلا..!

قال مداعباً وهو يتظاهر بالاستسلام لhezها:

- ماذا لو لم أفعل..!

اتقدت عيناها وهي تصرخ: سأنتقم..

ضم قبضتيه وهو يقول مداعباً:

- هيا، فلنتلاكم، ما رأيك. ١٩١٩

زعقت في عصبية هائلة:

- أنا لا أمزح أيها الثقيل.. أنا سأنتقم منك..!

وركضت لتلقط ملعقة خشبية وهي تصرخ في هياج:

- أعطني مفتاحي..!

تراجع مبهوراً وهو يهتف:

- رامة.. هذا تصرف خاطئ، كنت أمزح فقط..!

ولاذ بالفرار وهي تلوح بالملعقة صارخة في جنون:

- سأحطمها على رأسك المنفوخ..!

هتف وهو يراوغها في قلق:

- يا رامة، هذا ليس تصرف امرأة مسلمة تحب زوجها ويحبها بجنون..!

صرخت في هستيريا وهي تقذف بالملعقة على رأسه:

- إذا كان يستحق الضرب..

صرخ في ألم وهو يتحسس رأسه:

- أيتها الخرقاء، توقفي عن هذا الجنون..

وانقض عليها ليمسكها بقوة صارخاً في غيظ:

- إنها تؤلم أيتها الغبية، وأنت لا تضربين إلا على الرأس!

قامت ترفس في الهواء وهي تصرخ في جنون باكية:

- قلت أعطني المفتاح..!

صرخ في انزعاج شديد وهو يقيد حركتها:

- سأفعل، سأعطيك إياه شريطة أن لا تخرجي الآن..!

هدأت حركتها واستقرت قدمها على الأرض وهي تقول:

- نعم، سأفعل، لكن أعطنيه..!

نظر إليها في غضب شديد وهو يتحسس مكان الضرب على رأسه

في ألم، قبل أن يتجه لغرفته وهي تلحقه قائلة في إصرار:

- الآن يا عبدالقادر..!

أغلق الباب في وجهها وهو يقول في صرامة وغيظ:

- انتظري هنا قليلاً..!

وقام يفتش في غرفته طويلاً، قبل أن يلتقط مفتاح سيارته الكبيرة

وهو يقول في نفسه:

- سأضطر للكذب هذه المرة، مفتاحي سيشغل عقلها المعتوه قليلاً،

المهم أن تهدأ الآن وتنام، وفي الغد أصادره مرة أخرى..!

وانتزعه ليضيفه إلى مدلاتها منتزعاً مفتاح سيارتها وهو يقول:

- عقول معتوهة تصدق الكذب بسرعة..

وخرج ليجدها تدور بعصبية في الصلاة، فقال في صرامة:

- أقسمي لي الآن..!

اندفعت إليه متشبثة بذراعه القوية وهو يتابع:

- لن تقوديهما الآن، ولن تغادري المنزل بعد الثامنة مساءً أبداً، ولا بد أن

تخطريني عند خروجك دائماً..

ردت في صدق:

- أنا أقسم بالله، سأفعل كل ذلك..!

وضع المفتاح في كفه الصغيرة وهو يقول في غيظ:

- فكري بأخطائك جيداً قبل أن تنامي، إياك أن تعودي لضرب زوجك

مرة أخرى، لو فعلتها فسوف أضربك!

وارتجف قلبه حباً وهي تبتسم في حبور كطفلة وجدت لعبتها، قبل أن

يتمتم في غيظ:

- انظري لوجهك في المرأة بعد هذه التظاهرة لأجل مفتاح..

شعرك مهوش، ووجهك أحمر غارق في الدموع!

أطلقت ضحكة رقيقة انخلع لها قلبه، قبل أن يقول في استجداء:

- قللي أحبك، قوليه يا رامة..!

أطلقت ضحكة أخرى وهي تهرع لغرفتها راكضة، فتمتم داخله في

شوق ودهشة:

- فرحت بشدة، يبدو أنها قد جنت حقاً هذه المرة..!
وأطلق بدوره قهقهة طويلة..!

٥-٧-٥

(٢٨) ديمونا يدخل اللعبة..

سحب الرئيس الشاؤولي نفساً عميقاً وهو يتأمل وجوه أعضاء حزبه الذين اكتست وجوههم بأقصى علائم التوتر والغضب، قبل أن يقول في صرامة:

- صحيح أن الضفة الغربية سقطت، هذا لا يعني النهاية، ما زال لدينا العديد من الأوراق الراحبة، ويكفي أن الجيش الشاؤولي انتصر في عدد من المعارك من خمس عشرة، واستطاع أسر عشرين عربياً، إضافة إلى أوراق كثيرة في أيدينا، أهمها أورشليم..

وفوق كل ذلك...

وارتفع صوته وهو يتابع:

- ديمونا، مفاعلتنا الحبيب، من الممكن أن نوجه الرأس النووي للمدن الاستراتيجية العربية انظروا معي..

وتابع وهو يشير على خارطة جدارية:

- مكة، المدينة، الرياض، القاهرة، بغداد، دمشق، وفوق كل هذا ، نيويورك..

ارتفعت أصوات الأعضاء بالاعتراض وهم يصرون على انتهاء الخيار السلمي لإنهاء الأزمة، وتكلم أحدهم في عصبية:

- لن نسمح بأكثر مما جرى يا سيدي الرئيس، الشارع الشاؤولي يشتعل بالمظاهرات المناوئة للحزب، فضلاً عن عمليات الهروب الجماعي التي يقوم بها المدنيون عبر البحر إلى جزر الأدریاتيك وإيطاليا .

الوضع مأساوي في الحقيقة ولا يمكن السيطرة عليه..

نحن نحارب العرب ببسالة منذ ثلاثة أيام فقط، وتسرب من الجيش ما يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل، وسقطت الضفة الغربية، وسيطرت الجيوش على نهر الأردن، والجيوش تتابع تقدمها من جانبي النقب والجولان، وهذا كله يهون عند مصيبة العمليات الفدائية التي يقوم بها هؤلاء المميز، وإذا كان هؤلاء العرب المميز قد استطاعوا اقتحام نقاط المراقبة وتدميرها بأحزمتهم المتفجرة، فإن الوضع أكثر قسوة ونن نستطيع السيطرة على خطورته..

رد الرئيس الشاؤولي في صرامة:

- وماذا تقترح..؟

وقف العضو في شجاعة هاتفاً:

- الانسحاب الكامل من فلسطين وإنهاء الاحتلال..!

والحق أنه لم يكمل كلمته الأخيرة..

حيث انطفأ النور في عينيه بغتة وبسرعة فائقة..

وذلك جزاء الخونة...!

هتفت مريم في رعب:

- تقولين مسخ..؟

ردت عائشة بصوت مرتجف ودموعها المضطربة تتسرب إلى خديها رغم تماسكها:

- هذا ما قاله أمير، أمير مثل رامة، يؤمن بخطورة الفيروس ويركز اهتمامه عليه، وعندما رويت القصة لعبدالقادر في الهاتف رفض مجرد تخيلها، وأكد على أن لا أذكر القصة لرامة حتى لا تزداد هلوسة كما يزعم، ووبخني بشدة لأنني وقفت لوحدي مع رجل أمريكي غير مسلم، إنه حتى لم ينتظر ليستمع إلى أمير وقطع الاتصال غاضباً.

قالت مريم في خوف:

- تقولين قبل ساعتين من الآن فقط.. ١٩٠٠

هزت عائشة رأسها وهي تقول في رهبة:

- عبدالقادر أقنعني نصف اقتناع بأن انتقال الفيروس لميشجان شبه مستحيل..

ولكن كيف يفسر تصرف المسخ بأنه كان ينوي اغتصابي.. ١٩٠٠

هل سيفتصبني في شارع عام ١٩٠٠

ولم حاول عضي.. ١٩٠٠ لم لم يهددني بسلاح ١٩٠٠

كل هذا يؤيد أنه لم يكن ينوي اغتصابي، بل كان ينوي أمراً آخر..

بل كان ينوي أمراً أعظم كثيراً..

وكررت في رعب شديد:

- افتراسي، هذا ما كان ينويه حقاً..!

وانفجر الرعب في قلب مريم..!

تكلم الرئيس الشاؤولي في ديكتاتورية أمام جموع المتظاهرين اليهود في تل أبيب:

- ها أنتم ترون يا شعب الله المختار كيف نفعل بالخونة، هؤلاء المميز العرب قبضنا عليهم وهم في طريقهم للهرب من الحدود، ومثلما سيعدمون بقسوة سيعدم الخونة من أفراد الجيش الذين تمردوا على الأوامر وحاولوا تسليم أنفسهم لقوات العدو العربي، وأنا أحضر بنفسني عقوبتهم رغم انشغالي بحكومة حربي، لأثبت لكم أنني أنطلق منكم وإليكم، وما يهمكم يهمني، وما يسرني يسركم..

ارتعدت جموع المتظاهرين الهائلة والرئيس يهتف:

- نفذوا..!

ارتفعت صيحات المتظاهرين المحتجة وأحدهم يقفز فوق منصة الإعدام ويدفع الجلاد بعيداً لتطلق زخة من الرصاص الحي اخترقت أجزاء جسمه لترديه قتيلاً..

ولحظتها فقط..

علم مزراح أن الصلف أضعف سلاح في الحقيقة..

عندما تفجر المتظاهرون وهم ينقضون على قوات الأمن بالضرب
والرشق، فتراجع مزراح في خوف هائل وهو يستقل سيارته المصفحة
هاتفاً في جهاز اتصاله:

- حوامتي، فوراً عند مدخل العاصمة..

واستل مسدسه وقوات حرسه الخاص تحيط به في إصرار وقوة وهم
يهتفون بمكبرات الصوت:

الهدوء وإلا سيتم إطلاق النار على المشاغبين..

استولى الذعر على مزراح وهو يرى جموع المتظاهرين تتحدى النيران
المفتوحة في الهواء للإرهاب، وتتقدم بصيحاتها المحتجة في وجهه:

- نحن لا نريدك، أعلن استقالتك فوراً..

تراجع لحظتها وهو يتفادى الحجارة التي يرشقونه بها بعنف وتحد،
وهو يهتف بما في قلبه من الكبر:

- أيها الحقراء، أنتم ناكرو جميل من الدرجة الأولى..

لحظتها فقط هبطت حوامة رئاسية فوق رؤوس المتظاهرين الذين
تدافعوا للفرار وهم يرشقونها بالحجارة والزجاجات الفارغة، لتستقل
الرئيس وحرسه الخاص، وتتطلق بعيداً..

وسط لعنات الشعب..

شعب الشيطان المختار.. وبكل عناية..!

- كلها مؤشرات تنذر بسوء الوضع في الصف الشاؤولي، بشكل بالغ..
هكذا تكلم القائد الأعلى لقوات التحالف الإسلامي في اجتماعه
اليومي مع قادته وضباطه:

- بالرغم من أن الترسانة الحربية الشاؤولية كانت متفوقة بدرجة
هائلة تمكّنها من مواجهة العالم كله، إلا أن هذه الترسانة بقيت بلا جدوى
خلال مائة وخمسين ساعة من المواجهات الدامية على الحدود ووسط
المدن الفلسطينية، وهو أمر محير جداً، فهو إما دليل على انشقاق كبير
في صفهم على غرار العصيان المدني الذي شاهدناه قبل ساعات من
الآن، أو هو دليل وجود خطة لاستعمال أسلحة أكثر خطورة وشمولاً..

رد أحد الضباط في حزم:

- هذا ما يعني التعجيل بتنفيذ المرحلة السادسة عشرة من العملية
وبمنتهى السرعة..

ابتسم القائد الأعلى قائلاً في ابتسامة مرتبكة خجلة:-

- قل إنها نفذت يا أيها العقيد..

اتسعت عيون الضباط انبهاراً وهو يتابع ببساطة وثقة:-

- الآن، وفي هذه اللحظات يتم تدمير الترسانة النووية الشاؤولية،
بصورة سرية حسب تعليمات السادة رؤساء الحرب؛ وبشكل نهائي وسريع
بالاستعانة بمعلومات المخابرات الأمريكية حول تلك الترسانة.. من
ديمونا.. وإلى منصات الإطلاق الموجهة..!

وانطلقت عاصفة من التهليل والتكبير..!

(٢٩) مفتاح الفيراري.. يعمل..!

هب عبدالقادر من نومه في قلق وهو ينظر في ساعته قائلاً:

- أوف، لقد فاتتني صلاة الفجر مع الجماعة..!

وتنهذ بقوة وهو يسرع لدورة المياه قائلاً في غضب:

- ماذا دهى هذه الصغيرة كي لا توقظني اليوم..!؟

قضى صلاته وهو يغالب قلقاً غريباً يلح عليه، وانقباضاً لا يدرك سببه، وجاهد ليجلس على سجادته بعد الصلاة، لكن شيئاً ما كان يدفعه لأن يقوم..

وقف متجهاً بسرعة إلى غرفة رامة، حيث كان بابها موارباً، وانتابه تردد المعهود خوفاً أن توبخه لو دخل دون استئذان..

طرق الباب برفق، ومكث ثوان قبل أن يدفعه برفق وهو يتطلع في الظلام، قبل أن يفتح النور، لتتسع عيناه دهشة عندما رأى سريرها مرتباً وعليه ورقة كبيرة خطت عليها بخطها الرديء:

- عزيزي، أنا ذهبت إلى عمدة المدينة لإجراء لقاء، لقد استخدمت سيارتك لأنك أعطيتني مفتاحها وخرجت من النافذة لأن باب غرفتك كان موصداً، ولم أشأ إزعاجك بشأن مفتاح المنزل، أقسم أن أعود قبل الظهر سالمة... رامة..

قفزت شرارات الغضب من عينيه وهو يصرخ بأعلى صوته:

- أيتها الخرقاء، أيتها البقرة المجنونة، سأذبحك!..

وركض إلى الخارج ليجد سيارتها الصغيرة، في مكانها، ويجد مكان
سيارته الجيب خالياً..

لهث في غيظ وذهول وهو يهتف:

- كيف، كيف فعلتها؟! كيف فكرت بالهروب من النافذة؟! وكيف

استطاعت قيادة سيارة جيب كبيرة!..

وردد في داخله ودماؤه تقور وتغلي:

- أقسم أن لا أتركك دون عقاب هذه المرة يا ذات العقل الزيل.. أقسم

بالله على ذلك!..

تكلم الرئيس الشاؤولي في وقار مصطنع بصوت مرتجف:

- أنت أملنا الوحيد بعد ذلك كله!..

عدل البروفيسور إياهو نظارته على أنفه القبيح وهو يقول:

- دون تخطيط عسكري دقيق سوف لن تحصل على نتيجة إيجابية،

إلا بقدر ما تحصل عليه من عمليات القوات الكوماندوز من أسرى عرب،

دون إحراز تقدم في هذه الحرب الشاملة..

رد مزراح في صلف:

- ما عليك سوى أن تبدأ العمل يا رجل، لقد دمرت ترسانتنا النووية التي كانت تبعع الشرق الأوسط، لم يعد لدينا ما نقاتل به سوى مدرعاتنا ومدافعنا الغبية..

وتابع بابتسامة مشرقة:

- والفيروس المسخ ١٠٠.

تهدد إياهو وهو يقول في رهبة:

- وماذا أحصل في النهاية ١٩٠٠! لقب مجرم حرب ملاحق دولياً..

ومهدد بالقتل ١٩٠٠!

رد مزراح في ثقة:

- يا رجل.. لقد حصلت من بريطانيا على وعد باللجوء السياسي في

حالة الهزيمة، ستحصل على وعد مماثل يا إياهو، وستجد ملاذاً آمناً،

على الأقل حتى تموت...!

رفع إياهو رأسه ومزراح يتابع:

- ومبلغ عشرين مليون يورو ليس هيناً..

افتتحت شفتا إياهو عن ابتسامة ذئبية حقيرة وهو يقول:

- إذن اتفقنا يا سيدي الرئيس..

اتسعت ابتسامة الرئيس وهو يسمعه يتابع:

- وسنضرب العواصم العربية برؤوس الفيروس ١٠٠.

اتسعت ابتسامة منصور وهو يتابع موقعاً إخبارياً على الشبكة العنكبوتية:

- تفاقم الوضع السيئ الأمني على الأراضي الفلسطينية، حيث يعثر يومياً على ما لا يقل عن عشرين جثة لعسكريين شاؤوليين، تم نسفهم بعملية فدائية ينفذها عرب فلسطينيون بشكل مخطط ومنظم بالغ الذكاء، يتفوق على الاحترازاات الأمنية التي أوصت بها لجنة التحقيق في العمليات الفدائية، والتي عقدت بعد تفاقم الأوضاع، وانتشار الاستخدام الأحزمة، الأمر الذي أثار زعر الجنود الذين لم يعودوا يأمنون أن يكون بينهم عربي متفجر يتنكر في ملابس جندي، وهو ما حصل كثيراً. كما أصبح من المعتاد أن يقتحم الفدائيون معسكرات الجيش في هجوم جماعي عشوائي دون تنكر، مما يمنح الجنود فرصة لقتلهم قبل نزع فتيل الحزام..

تتهد منصور وهو يقول في ألم وأمل:

- سألت دماؤكم، لكنها ضريبة النصر يا أشجع شعب وأروعه كفاحاً وصبراً ونضالاً..

على مر التاريخ..

من مثلكم، يا من محوتم العار من جبين أمة الإسلام إلى الأبد..!

واستمع للخبر الذي نقل صوراً من الدمار في القدس الشريف، ونابلس، ورام الله، والمرج، والخليل، وغزة، وهي المناطق التي تسيطر عليها القوات الإسلامية، تسمح للصحفيين بحرية نقل الصور، بخلاف

بقية المناطق التي تقع تحت السيطرة الشاؤولية، والتي يقتل فيها المصورون والصحفيون للاشتباه بوجود الأحزمة المتفجرة..

تكلم المذيع بحماس شديد:

- كل الشعب الفلسطيني، والشعوب العربية والإسلامية، شكلت لحمة واحدة بالغة الروعة والإبهار، فعمليات التطوع في الجيوش التحالفية متاحة لمن هم فوق الثامنة عشرة من العمر، والعمليات العسكرية تتم بنجاح مبهر ومفاجئ بنسبة ٨٠٪..

خصوصاً وأن الشعار الذي يستخدم في هذه الحرب هو شعار (الجهاد) الإسلامي، والذي استطاع تحريك مشاعر الشباب المسلمين في العالم كله، وإلهاب عواطفهم الدينية نحو عقيدتهم، الأمر الذي أدى إلى ازدحام المتطوعين من كافة الفئات من كافة البلدان الإسلامية وغير الإسلامية..

القوات الشاؤولية تبدي استبسالاً عنيفاً بمشاركة قطعان المستوطنين وتنفيذ عمليات عنيفة بالرغم من إصرار الشعب على الاستسلام وتنفيذ الرغبات العربية، تفادياً لقصف شامل يجري ضد المدنيين في تل أبيب، وبقية المستوطنات، على غرار تدمير البنى التحتية للحكومة الشاؤولية بشكل تام، وبخسائر تتجاوز سبعين مليار دولار، فيما لا يتجاوز الأسبوع..

ردد منصور، والدموع تغرق عينيه:

- أهديك يا مسرى الرسول هدية..

يا شرف البقاع وطهارتها..

يا أيتها القدس..

وضم قبضتيه في حماس وهو يتابع:

- لتقصن تل أبيب..

وهذه هديتي..

وهدية من عادوا إلى رشدهم..!



(٣٠) العمدة المسخ..

اغتصبت رامة ابتسامة مجاملة مرتبكة بشدة وحارس قصر العمدة يمرر كاشف المعادن على جسدها الضئيل قبل أن يقول في صرامة:

- أنت لا تحملين أسلحة، العمدة ينتظرك في مسبحه.

دخلت خلفه بخطوات مضطربة وهي تعدل آلة تصويرها، حيث قادها إلى مسبح كبير مغلق، يعوم فيه العمدة (جيسي ويليامز) بكرشه المنفوخ وجسمه القصير المكتنز.

هتف العمدة وهو يلوح لها بكفه:

- أحب الصحفيين، كيف حالك يا جميلتي!؟

ابتسمت في مجاملة وهي تقترب منه وتلتقط له صورة قائلة:

- أنا جئت لأطلب منك طلباً هاماً..

غطس في لا مبالاة وهو يقول مترنحاً:

- اطلبي ما تشائين.

رددت داخلها في ضيق:

- أرجو أن لا يكون ثملاً، حتى لا يقطع لي وعداً ثم يخلفه..!

ووضعت حقيبة أغراض عملها على الأرض وهي تراقبه يغطس ويقهقه في استمتاع هاتفاً:

- ألا تريدين أن تنزلي وتسبحي معي؟ إنه مثير للغاية، ودافئ، وكبير جداً..

تجاهلته وهي تقول في حزم:

- لقد عرفت تفاصيل المظاهرة التي اندلعت قبل يومين في الولاية وتعرف
حتماً مطالبها، نحن نطالب بضرب تل أبيب لإبادة فيرونها المسخ..

التفت إليها قائلاً: هل تريدون التصفيق؟

استغربت للهجة اللامبالية المقرونة بلهوه المتواصل بالماء، هل كل هذا
لأنه يوم عطلة الأسبوعي؟

تابعت في حزم وهي تجلس على حافة المسبح:

- كل سكان الولاية يجمعون تواقيعهم لتأييد هذا الطلب العادل، ننتظر
توقيعك وتزكيتك لتسلم وتواقيعنا للرئيس، والكونغرس ومجلس الشيوخ.

انطلقت قهقهات العمدة وهو يرشقها من آخر المسبح هاتفاً:

- سأفعل ما تريدين، فقط لو نزلت لتسبحي معي..!

عند هذا الحد انتبهت فقط لأنهما وحيدان في المسبح وقد غادر الحارس،
حيث لا منفذ سوى الباب الموصد وفتحته التهوية، ونافذة كبيرة مرتفعة.

دب الذعر في قلبها عندما سبح متجهاً إليها وهو يهتف في استعطاف:

- أرجوك، اخلي هذا المعطف وهذا الغطاء وانزلي.

ارتجفت شفتاها ذعراً وهي تركز في عينيه الذاهلتين الحمراوين، إنه
ثمل جداً، حركاته المضطربة توحى بذلك، ولامت نفسها بشدة أنها
لوحدها معه.

تتحننت وهي تقول في حزم مشيخة:

- أنا عربية يا سيدي، العرب يتعرضون لحرب بقاء أو فناء هذه اللحظات ويجب مساندتهم ضد من أعلنوا عداوتهم لأميركا بوجه سافر. ورفعت عينيها لتجده يحدق فيها باهتمام بالغ وقد اختفت هزليته قبل أن تشرد عيناه بعيداً.

قامت تجول المكان، وهي تحمل آلة تصويرها وتحقق في عدستها قائلة:
- أنت أهم شخصية في الولاية، عندما نحظى بتأييدك سيعرف الرئيس كم نحن متحدون.

هتف في لامبالاة وهو يمد كفه إليها:

- تعالي واسبحي معي، دعي عنك هذه الترهات..!
تلاشت ابتسامتها وهي تلمح الجدية في طلبه، ودب الذعر في فؤادها وهي تتخيل ما يمكن أن يفعله بها، وهي لا تحمل سلاحاً..
حقاً كم أنا غبية، هكذا رددت وهي تعدل آلة تصويرها وتقترب من الباب ببطء وهي تقول في ارتباك:

- لقد اشتغلت، بدأت بالتصوير..!

فرد العمدة ذراعيه وهو يقول متودداً:

- صوريني إذاً..

ابتسمت في ارتباك وذعر وهي تحقق في العدسة باتجاهه، قبل أن
تبعد عينيها عنها، وتزدرد ريقها بصعوبة، عادت تحقق في العينين
الحمراوين بشدة..

والبشرة المترهلة المزرققة..

الابتسامة المفترقة عن أسنان حمراء قذرة..

انفجر الرعب في قلبها وهو يقترب منها كتمساح ضخم..
ظلت الآلة التلفزيونية تصور وهي تنتفض ذهولاً طاغياً..
أحست أنها تحلم..

بل كادت تقسم على ذلك وهي تتراجع والدماء تهرب من وجهها هلعاً..

أين سأهرب الآن..؟

أين...؟

افهمونا ..

أيها السادة مرة..

افهموا أنا شعوب لا تهون ..

افهموا أنا رضعنا بغضهم منذ قرون..

افهموا أن اليهود..

عفواً الخنازير القروء ..

كائنات صنعت من مقتنا لو تعلمون..

أيها السادة في كل المحافل ..

في القصور.. في المزارع.. في عمايات السياسة..

تقبعون..

أنتم نسجتم عارنا بالأمس هل تتذكرون..

لما الشعوب تحولت كتلاً من الفحم الرديء وأسلمت..

حضراتكم مفتاح عزتها المصون..

أما وقد هبت على تاريخنا ريح المخازي..

أما وقد نشرت أمانينا على جبل المنون..

أما وقد هتك الستار وصورت عوراتنا..

ولم تعد إلا وريقات الشجر..

أما ولم تبق الأعاصير العجاف..

غير عار الاعتراف..
غير خزي اسمه التطبيع مع شبه البشر..
أو خنازير البشر..
أو غوريالات البشر..
أي وصف تستسيغ لسقط تكوين البشر..
يا سادتي الساهين..
في أفراحكم وحياتكم وسط الحفر..
لا تحسبوا أن الشعوب تكونت في عهدكم..
من بعض فحم سيء كالأولين..
إن الشعوب تلمت يا سادتي..
وتكلمت لغة الحجر..
وتجمعت.. في فرصة ذهبية..
لتذيع صيحتها الهزيم..
لا اعتراف..
لا انحناء ولا سلام..
افهمونا مرة..
لا.. لا سلام!..

(٣١) لبيك يا قدس..!

عمّ السكون التام أرجاء القدس الشريف، ولم يكن صوت سوى زقزقة بعض الطيور في بعض الأحياء..

لقد تم إخلاؤها من سكانها اليهود بجهود أبطال المقاومة المسلحة الفدائيين، وطوقت بدائرة كبيرة وصارمة، من أبطال الجهاد المسلح.

كانت القوات الإسلامية تعد تنازلياً للعملية الكبرى التي تتسلم بموجبها القدس الشريف وتفرض سيطرتها عليه لأول مرة منذ مائة عام..

وكان أبطال المقاومة يعدون العدة لهذه العملية، بتطهيرهم القدس من القاذورات التي ملأتها لمدد من الزمن..

هجة سمع صوت حركة خفية بدا واضحاً جداً في منطقة خلاء تماماً، حركة خفية تنبعث من إحدى البيوت الشعبية الصغيرة، قبل أن يدفع باب المنزل، ويظهر منه رجل في الأربعين من عمره، يرتدي قميصاً قذراً وبنطالاً أقذر؛ وقد بدا عليه الإنهاك الشديد وهو يجيل عينيه الهلعتين في الشارع الخالي، قبل أن يطلق ساقية للريح في اتجاه مستقيم وهو يلهث بشدة، والهواء البارد يمزق شفثيه ورثتيه..

كان واضحاً أنه لم يذق طعاماً منذ فترة طويلة، ولذلك كان يرتجف بشدة، وهو يتابع ركضه..

توقف بغتة، ثم هرع ليندس بين المباني عندما لمح شبح سيارة تسير في الشارع..

انخلع قلبه هلعاً وهو يردد:

- لن تمسكوا بي أبداً..!

وتلفت حوله ليجد مكاناً آمناً يختبئ فيه، ولكن أنى، وجنود المقاومة يملؤون القدس ويرابطون فيها تحسباً لهجوم شاولي انتقامي.

أسرع الرجل إلى مكشف تصريف مياه مكشوف الغطاء، ووضع رجله وهو ينظر إليه في هلع قبل أن يقرر النزول، ولحظتها تجمد الدم في عروقه عندما سمع صوتاً ساخراً يقول ببطء:

- يبدو أنه يريد زيارة أولاد عمه الصراصير..!

استدار الرجل وهو يصرخ ذعراً رافعاً يديه:

- ارحمني، ارحماني، أرجوكم، إني ألتجأ إليكم، اعتبروني لاجئاً.

اتسعت عينا شاب المقاومة وهو يردد:

- شلومو.. الرقيب شلومو.. إنه أنت يا قرد حينا.. ها قد التقينا بعد

خمس سنوات من الانتفاضة القدسية إذاً.. ١٩١٩

ردد زميله ساخراً:

- لا يبدو لي قرداً، ألا يبدو كصرصار مقصوص الشاربين..! لذلك

سينزل إلى مكشف التصريف..!

هتف الشاؤولي في ضراعة وهو يجثو على ركبتيه:

- الرحمة.. الرحمة أيها الشابان..

رد الأول في صرامة ساخرة:

- الرحمة تصرف لأناسها الخاصين، وأنت للأسف لست منهم يا شلومو.

ارتفع صوت اليهودي بالضراعة وهو يقول:

- خذاني أسير حرب إذاً؛ الرحمة؛ لا أريد أن أموت..!

ردد الأول في صرامة ساخرة وبرود:

- هل تذكر أيها الملعون شلومو..؟ ثاني يوم عيد البوريم؟!

اتسعت عينا اليهودي ذعراً والشاب يتابع بحقد بحجم الفجيعة التي عاشها صغيراً:

- فطائركم التي أعددتموها من دم المجاهد أبو فايد، بعدما طبقتكم

من فنون التعذيب عليه ما لن يجازيه إلا الجحيم؟!

وسحب نفساً عميقاً قبل أن يتابع:

- أنت الذي ألقيت القبض عليه بحيلة دنيئة كوجهك القردى، ومن ثم

احتفلت ، وشربت نخب النصر على بطل دوخكم سنوات عشر، وعشت

سعيداً بعدما هدمت منزل عائلته وأعدمته والديه وتركت صفارهما بلا

عائل.. هل تتذكر هذه الخطايا جيداً..؟!

رد اليهود في إشفاق وضراعة وهو ينحني أمامهما:

- أتوسل إليكما بالرحمة.. قد تبت إلى الله ، لقد تظاهرت لأجلكم مرتين..

ركله الآخر بعنف في وجهه وهو يقول بصوت متهدج:

- أرحمتم نساءنا وأطفالنا عندما نصبتموهم مشاعل في يوم الفصح

الكبير السابق..١٩٠

أخبرني أي شيء جيد يمكنني أن أراه فيكم حتى أفكر في بشريتكم،

فضلاً عن أن أرحمكم أيها البؤر الصديد..١٩١٩

هتف الرجل في يأس:

- أرجوك.. أرجوك..

ابتسم الآخر وهو يقول:

- رحمتنا لكم ستكون موتكم أيها القروء، وليس حرقكم كما فعلتم..

ومع نهاية حروفه، ضغط زناد مسدسه..١

تنهد عبدالقادر في قلق شديد وهو يجاهد انفعاله وارتبأكه قائلاً:

- نعم هي زوجتي، وملامحها واضحة كما ترى، يجب أن تجدوها

خلال يوم على الأكثر؛ لأنها ذكية رغم اختلالها العصبي وتستطيع إثارة

متاعب بالغة، زيادة على أنها تحمل مسدسي الصغير.

رد رئيس قسم الشرطة:

- ولكن صورتها بهذا الغطاء غير واضحة، شعرها كيف يبدو، طولها، وزنها؟

أشار عبدالقادر بيده قائلاً:

- أسود كثيف، وناعم، وإلى منتصف ظهرها تقريباً أو أقصر قليلاً،
إنها من أصل عربي على العموم.

أطلق الضباط صفارة إعجاب قصيرة قائلاً وهو يركز في الصورة:
- لم تم تقل ذلك من البداية؟ كنت أتساءل لم تبد فاتنة بهذا القدر
المبهر وهي مختلفة كما تقول؟

زفر عبدالقادر قائلاً في غيرة وقلق:
- أيها النقيب من فضلك، الوقت لا يحتمل التغزل، إنها مسكينة ومن
المحتمل أن تؤذي نفسها.

رد الضابط غير مبال:
- طولها ووزنها أيها الملازم عبدالقادر؟
رد عبدالقادر:

- طولها مائة وخمسة وخمسون سنتيماً، ووزنها لا يتجاوز الأربعين
كيلو غراماً.. إنها نحيلة وبالغة الضالة.

ابتسم الضابط وهو يحدق في جسم عبدالقادر القوي في شبه
مقارنة ساخرة لم ينتبه لها وهو يتابع في قلق شديد:

- لكنها مختلة العقل ولا تحسن التصرف، لقد سرقت سيارتي
والمسدس بداخلها، إنها تحب اللهو بالمسدسات كثيراً وقد منعته كثيراً من
ذلك، لكنها أفلتت من رقابتي اليوم للأسف ولا أدري ماذا أصنع.

لوح الرئيس بأصبعه في وجهه قائلاً في صرامة:

- سوف نجدها حتماً ما دامت في ميشجان، وخلال ثمان ساعات
على الأكثر، لكنك سوف تتعرض حتماً للمساءلة القانونية لو تعرضت
للخطر بسببك؛ لأنها أولاً تحت وصايتك المباشرة كما تدعي، ولأن من
أبسط أبجديات التعامل مع المختلين هو عدم السماح لهم إطلاقاً بالبقاء
لوحدهم، وأنت تتركها لتتألم في غرفة مستقلة. كما تقول رغم كونها
زوجتك.. هل تفهم؟!

رد عبدالقادر في حزم وهو يعدل قبعته:

- أنا رجل أمن وأعرف ذلك جيداً..

وخرج من القسم ليحشر جسده القوي في سيارة رامة الصغيرة
وينطلق بها إلى موقع عمله وهو يحدث نفسه في غضب هائل:

- لقد وضعتني أيتها المعتوهة في موقف بالغ الحرج، هل سأضطرب
لتقييدك لكي أمنعك من نزقك الذي لا يطاق؟!

هل أحبسك في صندوق من الحديد لتفكري بأخطائك بمنتهى
الهدوء والجدية؟!

واحتدم القلق الرهيب في قلبه وهو يصرخ بلا شعور:

- رامة.....!-

ضغطت رامة أعصابها بكل ما أوتيت من تماسك وهي تفكر في خطة
للنجاة، والعمدة يحاصرها بهتافه الشره:

- انزلي لتسبحي معي يا هذه الفاتنة..!

ودوي الشخير البشع في عقلها وهو يبصق في المسيح صائحاً:

- ألا تسمعين؟!

شخر بصوت بشع وهو يبصق في المسيح قبل أن يزعل:

- لن أتحمل أكثر من هذا يا فاتنة..!

اختلق الشك في عقلها وهي تراقب المادة الحمراء التي بصقها
وانتشرت في المسيح..

كانت دماً..

وكان هذا دليلاً قاطعاً على أنه..

انفجر الهلع في صدرها وهي تفكر سريعاً بما يمكن أن تفعله..

إنها لو صاحت واستغااثت بالحراس لما صدقوها..

والأهم من ذلك أنهم قد يقبضون عليها..

والأهم من هذا وذاك أنه لن يتركها حية حتى تستغيث بهم..

بل سوف.. سوف..

ازدحمت الأفكار الشيطانية في عقلها الملوث، وافترضت مرة أخرى
أنها قد تكون في حلم مفزع..

فركت عينيها والتمساح الضخم يعوم بكرشه المنفوخ قريباً منها، وهي تردد في ذعر هائل:

- لا.. لا.. ليس حلاً.. لا..

وحانت منها التفاتة إلى صندوق كوابل التعقيم على جدار المسبح، فالتفتت في ذهنها المريض فكرة غريبة..

ردت في تماسك شديد غريب:

- سأفعل، لكن عندي شرط..

رد في شراهة وعيناه الحمران تزددان احمراراً وقبحاً:

- اطلبني يا جميلتي..

ابتعدت بخطوات مذعورة عن المسبح وهي تقول:

- هل توجد توصيلات كهرباء لكي أشحن آلة تصويري؟

رد وهو يشير إلى صندوق داخل الجدار:

- هنا توجد توصيلات التعقيم؛ ولكن هل تتفعل؟..

ردت في تدلل مصطنع وهي تفتح الصندوق:

- أنا مهندسة كهرباء يا سيدي..

علا شخير البشع وهو يتأوه صائحاً:

- ظهري يؤلني، هذا المسبح يثيرني ويؤلني..

ردت في تدلل مصطنع والخوف يخنق نبراتهما:

- المرأة العربية تحب الرجل الشجاع، ولذلك وريثما أشحن آلتني، عليك أن تغطس لمدة دقيقة كاملة.

رد متكهماً وهو يفرك عينيه المتورمتين في ألم:

- لأجل عينيك الجميلتين سأغطس لمدة ثلاث دقائق!..

ردت والهلع يمزق أحشاءها وهي تسحب كبل التعقيم الضخم:

- سأبدأ العد الآن.

وأسرعت تضع آلتها على الأرض باتجاه الحوض، وتشبك الكبل في نقطة كهرياء مغلقة، وانتبهت لصوته المترنج وهو يهتف:

- هل يمكن أن تستفيدي من هذه الكوابل في شحن كاميرا صغيرة؟!

ردت في تدلل والرعب يستعر في جسدها مرة أخرى:

- قلت إنني مهندسة كهرياء، ولو غطست فستال ما تريد..

رد والشراسة المجنونة تطفح في عينيه: سأفعل.

وغطس مرة أخرى لتخطو بمنتهى الحذر، وتدلي الكبل الضخم في الماء، وراقبته وهو يهبط إلى القاع، واتجهت لنقطة الكهرياء في اللحظة التي برز فيها وهو يسترد أنفاسه هاتفاً:

- لقد فعلتها، وستنزلين لتسبحي معي الآن..

ردت في صرامة وخوف هائلين:

- نهاية سعيدة أيها المسخ القذر!..

وفتحت الدائرة الكهربائية ليلتمع المسبح بوميض قوي حاصر العمدة
 بصاعق كهربى هائل وهو يصرخ في يأس وألم رهيبين..
 نفضت رأسها بكل قوتها وهي تصرخ في مرارة مفزوعة..
 قبل أن يتسلخ جلده، ويطفو على الماء و...
 وتختفي رامة...!

هتف القائد الأعلى لقوات التحالف الإسلامى فى قلق وغضب بالغين:
 - الأمر غريب جداً، هذا اللعين مزراح يدرك أن أيام رئاسته معدودة
 مع تمرد قطعانه وتدمير خمسين بالمائة من مقدرات حكومته ووزارة حربه
 فى خلال عشرة أيام من المواجهة المسلحة.
 رد أحد ضباطه فى حزم:
 - إنه يقاتل إلى آخر رمق، ولذلك فكر بهذه الخطة اللعينة من منطلق
 على وعلى أعدائي.
 رد القائد فى خوف وقلق شديدين:
 - ماذا كانت نتيجة تقارير اللجنة العلمية للأسلحة البيولوجية. ١٩.
 رد الضابط فى قلق مماثل:
 - خذ بعين اعتبارك أنه أخطر سلاح بيولوجى وجد على ظهر الأرض
 إلى الآن، وأسهل تصنيعاً ولكن..

تقلصت عضلات وجه القائد الأعلى في اهتمام والضابط يتابع في
توتر بالغ:

اللجنة العلمية تؤكد استحالة تصنيع رأس بيولوجي من هذا النوع في
وقت يقل عن ثلاثين ساعة من تاريخ معرفة الخبر، الأمر الذي يجعل في
أيدينا أقل من عشرين ساعة لمعرفة القرار الناجع..

زوى القائد حاجبيه بشدة وهو يتمتم مشيحاً في ألم:

- لا تقل ذلك..

رد الضابط في توتر أشد:

- محونا ديمونا من الخارطة، ودمرنا ما يقارب أربعين بالمائة من
حجم ترسانتهم العسكرية، وعمليات الأحزمة أبادت ما يقارب خمسة
عشر بالمائة من الوجود العسكري، وأدت إلى ردة البقية إلا في مواقع
حول تل أبيب، كل هذا حصيلة أيام عشرة، إلا أنه يجب أن لا نغفل أن
مزارح قد ألقى بورقته الرابعة جداً مقابل الهدنة..

وكرر في توتر شديد:

- الفيروس..

لهت رامة في توتر شديد وهي تركن سيارة زوجها عند نقطة تفتيش
المنطقة، ومررت عدة دقائق وهي تهمهم في نفسها في هستيريا:

- بل هي حقيقة، هذه المرة كان المسخ حقيقياً..!

وغلبها ضحكها الهستيري المعهود وهي تهتف في نفسها وتضغط
خديها في اضطراب:

- كان مسخاً.. مسخاً.. العمدة نعم ... أو..

استغرقت في ضحك هستيري غريب قبل أن يغلبها طوفان أسود من
الاكتئاب..

وتنفجر بالضحك الممزوج ببيكاء هستيري أشبه بصياح طفل هلع!

توقفت عن الصياح وهي تشهق فزعاً محدقة حولها..

كان عقلها قد انهار تماماً هذه المرة..

لقد واجهت الموت مرتين في أقل من شهر..

واجهت مسخين في حياتها المضطربة..

واضطرت أن تكذب على نفسها لكي تعيش عالم المعقول..

أن تنفي ما حصل لها..

ماذا تفعل هذه المرة...! وقد أضحت قاتلة من الدرجة الأولى..!

هل تصدق أنه كان مسخاً.. وتكون قد تجاوزت المعقول مرتين..

وتصدق الحلم!؟

أم تعترف بأنها كانت تحلم.. لتكون قاتلة من الدرجة الأولى، مختلة العقل..!
كان جندي تفتيش النقطة الحدودية يراقب تصرفاتها المضطربة وهو
يهز رأسه قائلاً:

- يا للمصادفة السعيدة، المختلة بين أيدينا الآن..

وهز رأسه في شفقهِ عظيمه وهو يراقب تصرفاتها غير المنضبطة..
كانت تمسح دموعها المتصببة في هلع كئيب بشأن العمدة، لقد.. لقد
كان مسخاً وقتلته.. أنا لا أعرف الكذب، أنا لا أتخيل هذه المرة..
وشهقت بقوة وهي تهز رأسها في حيرة واكتئاب، قبل أن تتن قاتلة
بعذاب المجهول:

- يارب ساعدني.. هل كان حقيقة أنني قتلت.. هل كان مسخاً حقاً.. يارباه!
تحفزت حواسها عندما نقر الجندي زجاج سيارتها هاتفاً:
- أوراقك..

ولدهشته، فقد عادت إلى اترانها في جزء من الثانية لتمد أوراقها
الثبوتية عبر زجاج نافذتها وهي تقول لنفسها في ذعر هستيري:
- لا مجال للبقاء هنا أبداً، سيغلقون المدينة لو استشرى الفيروس.
كانت الحسرة تتفجر في أعماقها بقدر الاضطراب الذي كانت تعاني منه..
كانت المسكينة تعاني، الكل لن يصدقها، وهي الآن ارتكبت جريمة قتل
من الدرجة الأولى..

حتى هي.. لم تعد تصدق نفسها..
لم تعد تدري..
أهي تنتمي للعالم الذي تعيش فيه..
أم إلى عالم الخيالات الذي يحذرهما منه طيبها وزوجها..
كانت مختلطة العقل.. نعم.. لم تعد تدرك خطوط حياتها الكبرى..
لكن في هذه اللحظة صرحت لنفسها بكل إصرار:
- سأهرب سواء كان مسخاً أم لا..
لأنني قتلتها في الحقيقة وهذا يكفي..
حدقت في ساعتها، كان قد مضى قريب من نصف ساعة من قصر
العمدة إلى نقطة التفتيش الحدودية..
رددت في نفسها بقوة هستيرية:
- يارب، أسألك ألا أقع في أيديهم..
وانتبهت لصوت الجندي وهو يخاطبها:
- السيارة ليست ملكك كما هو واضح..
ردت عليه وهي تتشبث بالمقود في توتر:
- إنها لزوجي، عبدالقادر باتريكسون، وفي بطاقتي ما يفيد أنه
زوجي..
حدق فيها الجندي ساخراً وهو يقول:

- لا يعني ذلك أن من حقك قيادة سيارة لا تملكينها، ابقى هنا قليلاً
يا آنسة..

واتجه لنقطته وهو يلتقط جهاز الهاتف قائلاً:

- السيارة ذات الرقم (...) لقد عثرنا عليها وبداخلها المختلة..

وأغلق الهاتف وهو يقول لزميله في حذر:

- سنضطر لأن نلهيها قليلاً حتى تصل سيارة المستشفى.

حدق فيه زميله في وجوم حزين، وقد غارت عيناه واكتسى وجهه
بشعور غريب وهو يراقب زميله يهرع إلى خارج النقطة وهو يقول في
تودد حذر:

- انزلي من فضلك، هناك بعض الإجراءات.

تقلصت عضلاتها بقوة وهي تجبر نفسها على فتح الباب، وتتجه خلفه
لنقطة حيث جلس خلف مكتبة وهو يقول في تودد وحنان مبالغ فيه:

- اجلسي يا آنستي، هل ترغبين في كوب قهوة؟

هزت رأسها بالنفي وجسدها يرتعد بقوة عندما بدأ الجندي الآخر
يلتهمها بنظراته الجائعة بشكل غريب، عندما مد الأول إليها ورقة كبيرة
وهو يقول محدقاً في وجهها بابتسامة حانية:

- إذاً املئي هذه..!

التقطت الورقة بخوف كبير وهو يكرر في حنان:

- اجلسي، اجلسي يا آنستي، ليس هناك ما يخيف.

عبثاً حاولت طرد مخاوفها الوسواسية والجندي الآخر يسند رأسه إلى المكتب وهو لا يكف عن التحديق الشره فيها، فكررت في لهجة متهدجة باكية:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله..

هتف الجندي الأول في امتعاض:

- غارود.. ماذا دهاك..؟

انتبه الثاني وهو يهز رأسه بقوة وهو يتهدد في ضيق بالغ، كان متضايقاً، بل حزيناً بشدة..

هتف الأول في تودد مبالغ فيه:

- أنت مسلمة يا آنسة باتريكسون، أنت تقولين هذه الكلمة المعروفة..!

زفرت رامة وهي تردد في ضيق:

- إلى متى سأبقى هنا..؟ دعني أعد لمنزل زوجي إذاً..

لحظتها تنأى إلى سمعها صوت صياح سيارة المستشفى..

فقال الجندي الأول في سخرية:

- تستطيعين المغادرة.

حدقت فيه في شك قبل أن تقول:

- أوراقي.. أين هي..؟

بادر الجندي يمدّها إليها قائلاً:

- خذي خذي، بكل سرور.

تأكدت منها ودستها في محفظتها وهي تستدير للباب الذي ظهر
على مصراعية ممرضتان هجمتا عليها، فصرخت ذعراً: ماذا هنالك؟

قيدت إحداهما حركتها بمهارة فيما قامت الأخرى تتحسس جسدها
وملابسها بدقة وسرعة قبل أن تقول:

- هيا بنا، إنها لا تحمل شيئاً خطراً.

زعقت رامة في غضب وذعر:

- أيتها الكلبتان، أين تأخذانني؟

تجاهلتاهما وهما تحملانها بمهارة رغم مقاومتها الشرسة إلى
السيارة، فيما تمتم الجندي الأول وهو يراقب خارج النقطة ساخراً:

- المسكينة، لقد صدقتنا ببساطة؛ إنني لأشعر بالذنب!

ونظر إلى زميله الذي اقترب منه قائلاً:

- ألا تشعر معي بذلك يا غارود؟

اقترب زميله من وجهه فهتف في عصبية وهو يقف مبتعداً:

- غارود، أنت لا تبدو طبيعياً اليوم، هل سكرت كثيراً؟

ظل الزميل يقترب منه وعيناه الحمران تضحان بأسى عميق وهو
يتراجع مبهوراً وهو يهتف:

- غارود، اذهب لمكانك فهي نوبتك، وإلا سأخبر..

وبتر عبارته في دعر عندما انقض زميله بغتة على عنقه بأسنانه
البشعة، وغاصت أسنانه الحادة في حنجرته بلا رحمة..
ليمتلئ فوه البشع بالدماء..

وتختنق صرخة يائسة في حنجرة زميله وهو ينتزعها بين أسنانه..
مرت دقائق طويلة وهو يحدق في جثة زميله دامع العينين قبل أن
يستل مسدسه ويبصق ما في فيه..
ويضع المسدس بين شفثيه و...
ويضغط الزناد...!

وضعت مريم منشفتها على علاق الحمام وهي تقول في اشمئزاز:

- أيتها الصراصير، كم أكرهك!

وداست على ذلك الشيء المثير للقيء وهي تزم شفتيها في تقزز

وتغلق الباب..

وهي تحت الماء، كان قلبها يتقبض بشعور غريب جداً..

تمتعت في نفسها:

- لعله أحمد الصغير، ربما كان جائعاً..

وابتسمت في نشوة الأمومة وهي تقول:

- يا حبيبي الصغير!..

وحانت منها التفاتة لترى مجموعة كبيرة من الصراصير تتجمع على

شيء ما وتتحرك بجنون وسرعة، فهتفت في تقزز وخوف:

- يالاشمئزاز!..

وانقبض قلبها بقوة وهي تلف ثوب الاستحمام على جسدها بسرعة

وتهرع للخارج قائلة:

- أمر لا يطاق، سأطلب شركة مكافحة الآفات، ثم ما به أحمد ييكي

هكذا!..

كان الوليد يصرخ بقوة وألم، فهرولت وهي تهتف في خوف:

- ولدي.. ما به .. أنا ..

وتجمدت صرخة فزع رهيبة في حلقها..

لقد كان سريره طافحاً بالدماء، وقد تغطى وجهه البريء وجسده بغطاء كبير من الصراصير وهي تنهش جسده البريء بلا رحمة وهو يتلوى في ألم بلا حيلة..!

أطلقت صرخة هائلة وهي تنقض لتبعد الحشرات القذرة المتوحشة بيديها، وتحمله وهي تنفضه بقوة وهستيرياً صارخة:
- ولدي.. ولدي..!

وتمزق حلقها صراخاً عندما انزلق الطفل منها ليقع على خشب الأرضية الصلب وهو يتلوى في ألم رهيب مصارعاً سكرات الموت، والحشرات القذرة المسعورة تخرج من طيات ثيابه وتثايا شعره الذهبي الكثيف..

جن جنونها وصراخها الملتاع وهي ترى طفلها يموت بين يديها، فجثت في استماتة وهي تبعد عنه الحشرات القذرة المتوحشة بيديها..

صرخت هذه المرة في ألم رهيب وهلع عندما أوجست نهشات الصراصير التي تجمعت فوق ذراعيها وصدرها وهتفت بكل زعر ودموعها الهلعة تتصبب على خديها:

- لا.. لا.. لا.. ليس أنا...!

وخلعت معطف الاستحمام ورمته بعيداً وهي تنتزع الحشرات المتشبثة بجسدها، حيث تمص بوحشية وشراهة، وركضت للحمام لتقف تحت المروش وهي تنفض وتصرخ في ألم رهيب وذهول هائل..

اختتقت شهقاتها المذعورة في صدرها وهي تتشبث بالجدار في هول
الموقف وهي تردد:

- الفيروس.. الفيروس..!

ودوت صرختها البائسة الأخيرة في دوامة اليأس السوداء..

عندما زحفت من فتحات المنزل أعداد هائلة من الحشرات المتوحشة
تتجه لهدف واحد..

قبل أن تنطق بكلمة التوحيد الأخيرة في حياتها..!



(٣٢) الثأرياً رامة..

تمتم منصور في اهتمام بالغ وهو ينقر أزرار حاسوبه:

- أمر غريب.. كل تواقع سكان الولايات المشاركة وعمدها وصلت ما عدا متشجان، لقد تكفلت رامة بإقناع عمدة المقاطعة بالتوقيع، لماذا تأخرت..؟

وانهمك في رصف وترتيب بعض العرائض التي تقدم بها الأمريكيون بخصوص معاقبة تل أبيب.

كان اجتهداً فردياً ناجحاً استهلك منه عشرين يوماً من المظاهرات المتواصلة مع ضغوط مجالس الجاليات الإسلامية في الولايات المشاركة، كل ذلك دفع عجلة هذا الاقتراح، ولقي تأييد الشعب، بحيث شكلت لجنة غير رسمية لمتابعة تداعيات هذا الاقتراح، وتطوع عشرات الأمريكيين مسلميهم وغير مسلميهم للمتابعة الدؤوب والدعوة لدعم هذا الاقتراح.

في خلال عشرين يوماً وقعت الحكومة الأمريكية في مأزق كبير بالغ الحرج، فالفيروس يستشري في واشنطن ويشير فزع السكان في باقي الولايات من انتقال العدوى، والرحلات الجوية والبحرية والبرية من وإلى الولايات المتحدة محظورة منذ ما يقرب من شهر، وضغوط بعض شرائح الشعب الأمريكي لطرد وإبعاد أرباب المال من اليهود الأمريكيان تتزايد؛ مع

سيطرة هؤلاء على القطاعات الحيوية الكبرى في البلاد، والجالية الإسلامية تضغط لحسم الحرب التي تشنها دول التحالف الإسلامي ضد شاؤول لصالح تحرير فلسطين نهائياً، وعموم الشعب يضغط للانتقام من تل أبيب..

لقد وقعت الحكومة الأمريكية في مأزق حساس، لقد وقعت فعلاً في شر أعمالها وسوء تصرفها وانحيازها لمصالحها ضد الحق طوال قرن مضى..

كل هذا دار في ذهن منصور وهو ينقر أزرار حاسوبه متمتماً:

- لتقصن تل أبيب، لتمحون من الوجود..

وتنهذ بقوة وهو يتابع في مرارة:

- إنه ثأرنا..

ثأر الإسلام.. وثأر العروبة الجريحة..

فلسطين.. ولبنان..

ثأر كل شبر.. وكل قطرة دم.. وكل دمة.. وكل إنسان..

وكل رامة...!

وهمس في مرارة متسائلاً:

- الثأر يا رامة..؟؟؟

- أما زلت متوترة يا عائشة...؟

هكذا تمتم أمير للمرة المائة وهو يلمح دموعها الهلعة وهي تحاول

ضبط أعصابها قائلة:

- أنا لست مثل رامة يا أمير، أنا إنسانة طبيعية، كوني تعرضت لمسح يعني شيئاً غير عادي في حياتي، وسأبقى متوترة حتى أنسى على الأقل..!١
- تنهد بدوره وهو يحدق في وجهها المستدير الأبيض قائلاً:
- انسي الموضوع، كونه مسخاً ليس أكيداً، ربما كان مختلاً أو ثملاً، أنت ترتجفين ولم تنامي الليل كله، ولم تتناولي طعاماً منذ حادث الأمس الغريب..
- هتفت في انفعال باك:
- ضع نفسك مكاني، لقد كنت مهددة بالموت..!١
- رد مبتسماً: كلنا سيموت يا عائشة، ما الغريب..!١
- وقفت وهي تقول في هلع:
- سأقيم ليومين عند أخي، ما رأيك؟!١
- اتسعت عيناه قائلاً:
- وبيتنا؟! ماذا تريد مني؟! لم تريد ذلك؟!١
- قالت في عصبية وهي تلتقط هاتفها:
- سأرتاح قليلاً عندهم لا أكثر، عبدالقادر، السلام عليكم ورحمة الله..
- حدق أمير فيها في استغراب وهي تقول:
- كيف حال رامة...!١
- وتمتم في نفسه:
- سأعرضها على طبيب نفسي لكي لا تصاب بالهستيريا كرامة..

وكنتم ضحكة ساخرة وهو يتخيلها تنهال عليه ضرباً بأدوات المطبخ
مثلما تفضل رامة، وتمتم:

- مسكينة، اللهم اشفها..

دائماً هي مضرب أمثالنا ومدار أحاديثنا وسخریتنا..

وانتبه لها وهي تهتف في قلق:

- هريت، كيف تقول ذلك.. ١٩..

حدق فيها باهتمام وتوتر قائلاً: رامة هريت ١٩١٩

أشارت له ليسكت وهي تنصت، فوقف وهو يتمتم غاضباً:

- يا لها من معتوهة بالفعل، كان على هذا الغبي أن يجبرها على

المكث في المستشفى حتى تشفى، لا أن يدلها بهذا الشكل حتى هريت..

والتفت هاتفاً:

- كيف ومتى وأين، سنبحث عنها جميعاً الآن..

وانتبه لعائشة وهي تقول:

- الحمد لله، قبل ساعتين من الآن، وهي في المستشفى الآن أم.. ١٩..

آه.. حمداً لله على سلامتها.. ١..

هتف أمير غاضباً:

- أخبريه أن عليه أن يصفعها بقوة هذه المرة، عليه أن يوقف جنونها

عند حده هذه الوقحة.. ١..

أنهت الاتصال وهي تقول في غضب:

- معك حق، إنها تستحق العقاب، لقد تجاوزت حدودها هذه المرة بشكل لا يطاق، وسرقت سيارته واتجهت خارج الولاية لولا أن ضبطت..

لولا الله لأوقعت نفسها في الخطر كعادتها..

قال أمير في غيظ:

- لو كانت زوجتي لعرفت كيف أؤدبها، لقد أخطأ بأن ترك لها الحبل على الغارب، هو الذي أعطاها فرصة للتمرد، مثل هؤلاء المرضى يجب أن لا تترك لهم فرصة أبداً، ويجب أن تراقب تصرفاتهم بدقة، بل أن يقمعوا لو اقتضى الأمر..

ردت عائشة:

- لكنه استنفد كل الوسائل، وهي غير طبيعية أبداً، غير طبيعية على الإطلاق، فضلاً عن أنه صادر مفتاح سيارتها.

رد في غيظ:

- الأمر لا يستدعي أكثر من تجاهلها وصفعها بقوة إذا لزم الأمر، تتصرف كطفلة غير مسؤولة إذاً تعامل كطفلة غير مسؤولة، إنها وقحة، وقحة، وأخوك غبي ضعيف.

نظرت إليه عائشة في حدة وهو يتابع:

- الرجل هو الرجل، لا داعي لأن يكون جنتلمان في كل الأحوال خصوصاً مع هذه النوعيات من النساء، إنها مراهرة في السابعة

والعشرين من عمرها في الحقيقة، أخوك مخطئ وهو المسؤول عنها لو أنها حصل لها شيء.

هتفت في اعتراض: ماذا كنت تريده أن يفعل، يضربها.. يقيدها..
قهقهه ساخراً وهو يقول:

- لقد ركبت كتفيه مثل البغل للأسف، ألم تريه مرة وهو يرافقها للسوق أو لتري كيف تعامله وتحذثه لو حدثته؟ وكيف هو يحدثها؟ كيف تصرخ في وجهه بمناسبة وبدون، وأمام كل أحد، كيف تأمره وتنهاه كخادم، كل هذا كان يحصل أمامي وكان يجب أن يتوقف لئلا يحصل ما حصل..!

وقفت وهي تقول:

- سأذهب إليه، سأبقى عنده يومين..

رد في حزم:

- لن تفعل ذلك.

صمتت وهو يتابع في صرامة:

- لأنني أنا الذي يريد أن تبقي.

ردت في غضب:

- لم تكن كذلك قط..!

رد عليها في صرامة:

- أحتاجك.. لا أريد أن تذهبي..!

ازدردت ريقها وهي تردد النظر في ملامحه الوسيمة وشعره الأشقر وهو يداعب قطته الصغيرة، وصمتت في استسلام وهي تتجه لغرفتهما، ونظراته تتابعها وهو يبتسم في نشوة قبل أن يتأوه بقوة قائلاً:

- لين أيتها الشقية، لم تعطينيني..!

زعقت القطعة بقوة في وجهه وهي تغرس مخالبها في صدره، فهتف في ألم وهو يقذفها بعنف:

- أيتها القذرة ابتعدي..!

تقرفصت القطيطة وهو يتجه لصيدلية البيت وينهمك في تضميد عضتها، كانت قوية جداً بشكل غريب، لين لا تعض، ولو فعلت فلن يكون بهذا الشكل..!

هكذا حدث نفسه وهو يسمعها تموء بجوار رجله فقال موبخاً:

- هل أتيت لتعتذري أيتها الوقحة..!

ابتعدي فأنا أكرهك..

استمعت إليه عائشة وهو يقول بصوت عال:

- بعض النساء كالقطط، عندما يجدن الإحسان يسئن السلوك ويهرين من البيوت.

ردت في نفسها:

- وعندما يجدن التجاهل يتفجرن كالقطط انتقاماً.

انتبهت لصرخته المذعورة:

- ماذا دهاك أيتها القذرة؟! اتبعدي .. آآه..

ركضت لتجد القطعة تغرس أسنانها في وجهه في شراسة رهيبة وهو يقاومها بعنف، حتى أمسك بذيلها ولوح بها بقوة وخبطها بمنتهى العنف على الجدار مراراً، حتى سالت دماؤها وهي تفقد وعيها..

رددت عائشة في زعر هائل:

- ما كل هذا يا أمير..؟

شحب لونه بشدة وهو ينحني ليفحص القطعة..

كل ما هناك كان..

عينين حمراوين..

وأسناناً قذرة حمراء..

وعضتين شرستين في ذراعه وخده الأيسر..

وتبادلا نظرة الفجيعة..!

- أكرر بأن هناك أوامر مشددة من جهة الوصاية عليها بمعاملتها بأقصى قدر من الاحترام والرفق، القسوة والفظاظة معها أمر خطير يمكنني محاكمتكم لأجله..

هكذا قال عبدالقادر وهو يطرق باب غرفة زوجته برفق بينما كانت المريضة تحاول احتواء غضبه قائلة:

- نتجاوز الأنظمة لأجل إرضائها، ومع ذلك تتهمنا دوماً بأننا نسيء معاملتها، إنها ترقد بكامل ملابسها بعدما رفضت ملابس المستشفى أو أن تخلع معطفها على الأقل، ورفضت المكث مع أحد في الغرفة وطردت الأطباء والممرضات..

قاطعها عبدالقادر:

- أعرف ذلك، أنا سوف أسألها وأتأكد..!

ودلف إلى الغرفة والمريضة تحقق فيه بحسد قبل أن تبتسم قائلة:

- إنه يحبها بجنون.. معتوه مثلها هذا الشيخ..!

حقق عبدالقادر في الستار المسدل على السرير، وتقدم قائلاً:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته! أمن الممكن أن أزيح الستار

لأراك! أم أن هذا داخل في حيز ممنوعاتك!

ومد يده ليزيح الستار ليراها جالسة في صمت غاضب، فخفق قلبه

شوقاً رغم غضبه الهادر، ومكث برهة يحقق فيها قبل أن يندفع ليضمها

بقوة وهو يردد في غضب حان:

- لقد كدت أموت قلقاً بسبب تصرفك الأرعن..!

دفعته بكل قوتها صارخة في هياج:

- وقع.. اغرب عن وجهي..!

تراجع واقفاً وهو يقول في غضب مكتوم:

- لقد قلقت عليك، ألا يعنيك ذلك..؟

أطلقت ضحكة هازئة وهي تقول في صرامة بصوت مرتجف:

- أنت الآن فقط أسخف وجه رأيت في حياتي..

جلس على حافة السرير قائلاً في حزم:

- قللي ما شئت، المهم أنني قبضت عليك ووضعتك في مكان آمن

ريثما تعودين لرشدك..

ردت في تحد وهي تضم ركبتيها إلى صدرها:

- من يضحك أخيراً يضحك كثيراً..

ردد بضحكة عصبية مصطنعة في تودد:

- هه... هل نحن نتعارك حتى نتحدث بهذا الأسلوب يا حبيبة قلبي..؟

أشاحت في عناد ودموعها تتصبب على خديها وهو يقول في حب صادق:

- أنا أحبك، أنا أعشقتك، أنت بالنسبة لي كالهواء والماء، أنا لا

أستطيع العيش دونك، كيف تتصورين أنني أشن حرباً عليك وأنت عشقي،

وحياتي، كل ما أملك في دنياي القصيرة..؟

ردت عليه في صرامة وعصبية باكية وهي تلوح بكفها في وجهه:

- اخرج من هنا، أنت وكلامك المثير للقيء، أنت تردد هذا الكلام الرخيص فيما ترتكب بحقي الجرائم وتحد من حريتي وتحاصرني، أغرب عن وجهي..!

قاطعها لاهناً وهو يتشبث بيدها الصغيرة:

- سميه ما شئت، أنا أسميه حباً وخوفاً عليك..

التفتت إليه وحدقت في وجهه الوسيم وعيناه تمتلئان بدمعة كبيرة وهو يقول:

- افهمي يا رامة ما أقول لك: إنني أحبك بجنون، أنا أعني ما أقول. ولذلك فقط أفعل ما ترين، ماذا تفعلين لو كنت مكاني..؟
قالت في سخرية:

- تبكي يا رجل الأمن الأمريكي المتغطرس..؟

رد وهو يكفكف دمعته:

- أنا مسلم، إنسان، لم أضعف في حياتي لدرجة البكاء أمام مخلوق إلا أمامك يا...
يا رامة...!

واختنق صوته وهو يشيح محاولاً التماسك بينما رددت في لا مبالة وقسوة مصطنعين:

- لا تحاول استمالة قلبي بهذا التمثيل المتقن. أنا قلت لن أغفر لك أنك وقفت حجراً هائلاً ثقیل الظل..

هتف في اعتراض ودموعه تتحدر على وجنتيه:

- أنا؟ أنا فعلت؟ ألم أعرض عليك خدماتي؟ ألم أقل لك إنني سأكون مجرد خادم لك لو أردت؟ ها قد أحضرت حقيبتك الصحفية دليلاً على أنني سأساعدك إلى آخر لحظة في حياتي..

التفتت في اهتمام قائلة: أين هي؟

رد عليها في ألم:

- حبيبتي تصدني.. تتهمني بأني أعذبها.. أي عذاب أكثر من هذا يا عشقي..؟

صاحت بصوت مخنوق بالدموع محاولة كتم مشاعرها:

- أين حقيبتني.. هاتها..؟

مد يده بالحقيبة الكبيرة قائلاً في عصبية:

- تتهميني بالكذب، الله وحده يعلم ما في قلبي من حب متوهج لك، وأنا...

قاطعته بصرخة شرسة وهي تتشبث بحقيبتها:

- أنا لم أطلب حباً، لقد أشبعنتي حباً ورقياً، أنا أريد حرية تمكيني من إتمام مهمتي الصحفية، هو أمر لم تفعله تحدياً وأنا أقبل التحدي..

وتابعت وهي تتشبث بحقيبتها صارخة:

- ولسوف أتم المهمة رغماً عن أنفك الأحمر القبيح..

تصببت دموعه الأبية على وجهه..

ليتني أفهمك أيتها الإنسانية الغريبة..

ليتني أعرف كيف أخرج ما بداخلك..

تحبني.. أم لا..؟

كانت الممرضة قد دخلت عندما سمعت صراخها، ووقفت في تأهب
للتدخل وهي ترمقهما في قلق، فوقف عبدالقادر وهو يعدل طاقيته
البيضاء على شعره الحريري قائلاً:

- أنت بحاجة للراحة، اعتني بنفسك، سأزورك غداً..

رددت في برود شرس:

- أحضر معك ملعقة الخشب، لا تنس ذلك..!

مكث ملياً يتأمل عينيها المتقدتين وهو يبتسم في حب صادق قبل أن
يقول وهو يشير لثوبه:

- لقد كويت قميصي وأحرقته، لم أجد من يعتني بي، ولذلك لبست

هذا دون كي..

نظرت إليه في عناد ومشاعر غريبة تهزها بمنتهى العنف وهو يتابع:

- لقد افتقدتك كثيراً، فلم أتناول طعاماً منذ البارحة وكان المطبخ

فوضوياً، لم أجد من يعتني بي، ولذلك تناولت طعامي في المطبخ الصيني

وأصبت بالغثيان..

مكتاً برهة صامته يتبادلان نظرة طويلة..
هو ينتظر كلمة ترد بها على استجدائه..
وهي تقاوم شعوراً لا تعرفه في قلبها المتشقق..
واتجه للباب عندما علا صوتها وهي تقول:
- عبدالقادر..

فالتفت إليها قائلاً:

- ماذا هنالك أيضاً..؟

قالت له في عفوية:

- لقد هاجمني أحد المسوخ مرة أخرى..؟

اجتاحت قلبه موجة من الانقباض وهو يزفر بعنف، قبل أن يقول في شبه يأس:

- وماذا تريد أن أفعل..؟

تمددت ملامح وجهها، في خجل، وحرَج، وقهر، لكنها ابتسمت وهي تقول في استجداء بصوت هادئ:

- أريد أن تخرج من ميشجان، أنت وكل من تعرفه، لقد أصبحت منطقة موبوءة، صدقتي هذه المرة يا عبدالقادر، فقط هذه المرة أرجوك..
لوى شفتيه في استخفاف مكتوم قبل أن تتدخل المريضة قائلة له في تودد:

- سيدي، هذه الهالوس طبيعية، كل ما عليك هو أن تغادر، وعندما أعطيتها العـ..

هز رأسه في صرامة هاتفاً:

- لا نريد مهدئات دون داع أبداً.. هي كبيرة وعاقلة وتعرف الصح من الغلط..

تهددت رامة في استسلام وهي تقول في قهر:

- تعني أنك لن تصدقني.. حتى عندما رجوتك..!؟ هذا وأنت تحبني..!؟

ابتسم صامتاً بكل ما في قلبه من عشقها المتهلب، قبل أن يتجه للباب خارجاً..

استوقفه صوتها هذه المرة وهي تقول في عفوية وحرص:

- أريد نقوداً إذاً..

اتسعت ابتسامته وهو يخرج محفظته قائلاً في حنان:

- فقط..!؟

ردت في سخرية وعبث وهو يدس ورقتين ماليتين في يدها الصغيرة:

- وماذا أريد غير المال..!؟

زفر في مرج قائلاً:

- فقط المال!؟ أيتها القطعة الشقية..!؟

حدقت فيه بنظرة غريبة بريئة، وفكرت طويلاً قبل أن تقول بعناد:

- فقط المال..!

وتبادلا ابتسامة..!

هتف الرئيس الشاؤولي في حماس شديد:

- والآن أيها السادة، أستطيع أن أقول إن شاؤول انتصرت من جديد.

تعملل أعضاء حزبه وهم يبتسمون في مجاملة وهو يتابع في سعادة وغرور:

- خلال خمس عشرة ساعة من الآن سيكون بإمكاننا تهديد العالم

العربي برأس فيروس مميث .. لا تنسوا!

كان أعضاء الحزب قد ضجوا بسبب ديكتاتوريته الغريبة .. ليسوا هم فقط..

الكل .. من أصغر أفراد شعب شاؤول .. إلى رؤوسه الكبار..

الكل يعاني، الجوع، الطبقيّة، الذعر..

لم يعد لكم مكان هنا في فلسطين..

ولذلك لم يملكو سوى التصفيق بحرارة وهم يرددون:-

لتحيا شاؤول المجيدة..!

انتشى مزراح وهو يتابع:

- إلياهو جندينا المخلص، لقد كان خلاصنا في هذا المأزق الحرج،

وتذكروا أن (ديمونا) الفقيد العزيز لم يكن سر قوتنا المتزايدة، نحن نفقد

ولكننا لا نخسر تماماً لأننا الأذكى دائماً..

هز الجميع رؤوسهم بالموافقة دون تعليق وهو يتابع:

- هكذا لن يضحي رئيس دولة عربية مهما يكن على التضحية بشعبه
من أجل حفنة العرب المميز هنا، خصوصاً وأنه لم يتبق منهم بسبب
علميات الأحزمة سوى رعايا الأرياف والقرى..

وصفق بيديه وهو يعلق في صرامة:

- لم لا أرى أية ردة فعل؟! ماذا هناك؟!

تبادل أعضاء الحزب النظرات وهم يرددون:

- كلامك سليم، نحن نؤيد..

وقف في نشوة النصر وهو يهتف:

- دعونا إذا نشرب نخب النصر المضمون..

وتكسرت ابتسامته على شفتيه وهو يلحظ نظرة الهزيمة الغائرة في

عيون أعضاء الحزب..

نظرة اليهودي القذر..

عندما ينقطع الحبل..!

هتفت عائشة في رعب هائل:

- الفيروس، هل كانت مصابة؟!

هز أمير رأسه بقوة وهو يقول في مرارة:

- لا إله إلا الله، كل شيء بأمره..

تراجعت عائشة وهي تكرر:

- أكانت مصابة؟ أنت مصاب الآن..؟

رد أمير وهو يتجه لغرفتهما بخطوات متثاقلة مريرة:

- اذهبي لأخيك يا عائشة، أسرع بالهروب..

ألجمت الفاجعة لسانها وعيناها تتسعان عن آخرهما..

هل حقاً أنك الآن مسخ..؟

هل يمكن هذا يا أمير قلبي..؟

التفت إليها قائلاً في ألم مرير:

- أسرع بالهروب، قلت: اذهبي لأخيك..

صمتت وشهقاتها اليائسة تهز جسدها بعنف وعيناها تشخصان في

ذهول، فهتف في توتر ومرارة:

- أسرع بالهروب، اخرجي من ميشجان فوراً، قبل أن يعلموا بوجود

الفيروس، إنهم سيغلقون الحدود كما في واشنطن، ثم نجد أنفسنا

محاصرين بالمسوخ، قلت: اهربي فوراً..

صرخت بأعلى صوتها في مرارة هائلة:

- لا يمكن أبداً يا أمير، أبداً لن أتركك هنا لوحداً!

هتف في غضب يائس:

- أيتها الغبية، اهربي لوحداً، اهربي قبل أن يكشفوا وجود الفيروس

ويحتجزوك أو...

وصمت والدموع تتفجر من عينيه قبل أن يتابع:
 - أو قبل أن يبدأ الفيروس بالتكاثر في جسدي..
 واتسعت عيناها هلعاً وصوته المخنوق يتابع:
 وأفترسك!..

هتف الرئيس الأمريكي في غضب هائل:
 - هذا ما تبقى من فصول المؤامرة القذرة...!
 رد رئيس استخبارته في قلق عظيم:
 - ما لم تتخذ قراراً حازماً يوقفه عند حده، فسنجد أنفسنا
 محاصرين بفيروسة الملعون..
 قوات التحالف الإسلامي لا نعول عليها كثيراً في التصدي لهذا
 الخطر الهائل، ويجب أن يكون لنا جهد ملموس في هذه الحرب
 الحاسمة..

وتابع في غطرسة:
 - يجب أن لا ننسى أننا أميركا!..
 نظر إليه الرئيس في صرامة وهو يقول:
 - تل أبيب لم تعجز أن تذلل أميركا، يجب أن نتناسى هذه الغطرسة
 قليلاً لنفكر بهدوء وعقل، قوات التحالف ولأول مرة بعد عقود من

الصمت تفعل ما لم تستطع أميركا فعله، وتنتقم لنا من عدونا ونحن نتفرج في دعر..

الفاجعة أن دول الاتحاد الأوربي تصر على أن تقف في حياد مخز خوفاً من الفيروس، إنها ترفض التدخل ولو بمجرد التتديد بما حصل في واشنطن، لقد كسبت شاؤول بجريمتها ارتجاف أوربا كلها، وانشغالنا..

شغلونا بمدينة واشنطن المنكوبة والتي تهدد كل العالم بالعدوى، مجلس الشيوخ والكونغرس يبحثان تطهير واشنطن بالسلاح النتروجيني في غضون أسبوع مقبل، وضغوط الشعب تتزايد للثأر من تل أبيب، كل هذا، مع مخططهم الجديد لصناعة رؤوس فيروسية في وقت قياسي، يعطيني دفعة قوية لاتخاذ قرار سريع وحاسم اتخذناه من قبل ضد اليابان في الحرب الكونية، مثل هذه القرارات يجب اتخاذها بقوة وشجاعة ودون هواده، ودون استشارة مجلس الشيوخ أو الكونغرس..

وتابع في صرامة وغضب:

- سأصدر أمراً فورياً لغرف العمليات العسكرية بالحل الوحيد لهذا المأزق..

اتسعت عينا رئيس الاستخبارات وهو يسمعه:

- انتزعوا ذلك الثؤلول من الخارطة.. تماماً..!

طرقت إحدى الممرضات باب غرفة رامة وهي تردد:

- رامة.. ألم تستيقظي بعد أيتها الكسولة..؟

ومدت يدها بمفتاح الغرفة من الخارج، وأدارته لتفتحه وهي تغني بصوت عال..

كان الهدوء مريباً في الغرفة، فاقتربت من دورة المياه وأنصت قليلاً قبل أن تدفع الباب الموارب برفق وخوف..
لم يكن هناك أحد..

وبالمقابل، لم يكن في الغرفة أحد.. بمنتهى الغرابة..!

تمتت بمنتهى الاستغراب والامتعاض:

- اللعنة.. لقد أقفلت الباب عليها بنفسي...!

وازدردت ريقها وهي تهرع للخارج هاتفة:

- بيلي، دكتور روبرت، رامة ليست في الغرفة..

هرع الرجال خلفها والطبيب يقول:

- اطلبي حرس المستشفى فوراً..

هرولت الممرضة عبر السلم وهي تنظر في فزع إلى الأعلى، شهقت

في ذعر عندما واجهها عبدالقادر قائلاً في قلق:

- ماذا هناك يا ممرضة جونسون..؟

تجمدت شفتاها المرتعشتان وهو يحاصرها بأسئلته:

- هل هناك مشكلة؟ سمعتكم تتحدثون عن رجال الأمن.. أنا أحمل

سلاحاً.. تكلمي..

أشارت بيدها إلى الأعلى في ارتباك شديد، فاتسعت عيناه في قلق هائل وهو يقذف بباقة الزهور ويمسك بذراعها في قسوة هاتفاً في قلق نائر:

- رامة، زوجتي، ماذا فعلتم بزوجتي ١٩..

ارتج عليها تماماً وهو يهزها في غضب وهياج هاتفاً:

- إنها زوجتي أيها الأوغاد، ماذا فعلتم بها..

ودفعها بعيداً وهو يركض إلى غرفة رامة، حيث وقف على بابها الدكتور وهو يدق الأرض بقدمه في غيظ شديد..

تراجع عبدالقادر والغضب المسعور يستبد، والمرضون يهرعون لمعاينة الغرفة..

كل ما يتذكره عبدالقادر في لحظتها هتاف الطبيب الغاضب:

- اقتلها هذه المرة، اقتلها..

قادته قدماه للشارع حيث لم يحس بالبشر حوله كما لا يحس بالذباب، وهو يركض، ويركض ١٠..

تململ الرئيس الشاؤولي في فراشه الوثير وهو يزوي جاجبيه في غضب، إنه لم يذق طعم النوم لليال عشر متوالية إلا قليلاً، ومع ذلك فقد رفض النوم أن يجد لعينيه سبيلاً هذه الليلة بالذات..

قاوم وساوسه وهو يضغط عينيه قائلاً:

- القصر آمن، وتل أبيب محصنة، لم تخاف يا مزراح؟

وسخر من نفسه وهو يعود للاستلقاء وهو يقول:

- الفيروس.. كم أحبك يا ألياهو..!

وانقبض قلبه بشدة هذه المرة وهو يستوي على فراشه ويتجه للنافذة،

كل شيء كان هادئاً في تل أبيب، ما الذي يحصل..؟

قلبه كان متعباً بشدة..

لقد كبتت عمليات الأحزمة المنظمة قواته سبعة آلاف جندي دفعة واحدة، وتسببت في ردة خمسة آلاف، واستسلام ألفين لقوات التحالف التي تزحف سريعاً نحو القدس..

ماذا بقي...؟

ردد في خاطره:

- ثلاثون ألف فأر خائف من يهود السفارديم يرابطون حول تل أبيب وحيفاً، ودروع لا تجد من يقودها، ومخازن ذخائر ومنصات صواريخ موجهة محاصرة، هذا كل ما بقي؛ ولولا القوات البحرية التي تكبدهم بعض الخسائر لرفعوا الأذان في تل أبيب قبل أسبوع..

وكرر للمرة المليون نادماً:

- كانت حماقة كبرى، ولن تغفر..

وتتهد مرة أخرى بقوة وألم، لقد تم ترحيل قطعان المستوطنين بسيارات قوات التحالف إلى ملاجئ خارج المستوطنات التي دمرت وسويت بالأرض، وردد في سخرية ممزوجة بالمرارة:

- إنهم حتى لا يريدون أن يستفيدوا منها، أغبياء!

انتبه هذه المرة لصوت ارتطام هائل، فاندفع فوراً إلى معبر خفي في غرفته وهو يلهث قائلاً:

- لقد علمت أن ثمت أمر على غير ما يرام..

وركض عبر المعبر إلى مهبط حوامته المصفحة في اللحظة التي دوت فيها صفارات الإنذار في المدينة..

لهث وهو يدير محركات الحوامة بمهارة وسرعة وهو يردد:

- لقد اجتاحت الجيوش تل أبيب، هذا واضح..

وارتفعت حوامته لينطلق بها على ارتفاع منخفض، حيث ارتطمت بها رصاصات حية، فردد في فزع:

- رصاص ١٥ من الذي يطلق رصاصاً ١٥..

وحانت منه التفاتة ليرى سيارات الشرطة الشاؤلية تطوق منزله، فزقق في ألم مرير:

- يا أوغاد، لقد انقلبوا علي بالفعل..!

وارتفعت حوامته لتصل إلى ارتفاع هائل وقلبه يدق بعنف..

لو خرجت من الأراضي إلى حيفا..
قوات التحالف في بقية فلسطين..
وأنا مطلوب في الشرطة الدولية كمجرم حرب..
أين سأذهب..؟؟
أين..!!

✽

(٣٣) الذين يتبعون الشهوات..

تنهدت رامة بقوة وارتياح وهي تداعب حقيبتها الكبيرة عندما رأت لوحة كبيرة على الطريق مكتوباً عليها :

- إلى نيويورك - روتشستر..

كانت تجلس في مقعدها في حافلة النقل البري بكل ارتياح بعدما هربت بنجاح وهدوء من المستشفى..

كان ذلك بعدما انفجر خبر مقتل العمدة في مسبحه بطريقة وحشية، وخبر إصابته بالفيروس في ميشجان كلها..

وبعدما تأكدت أن كل ذلك كان حقيقة لا حلاً ولا هلاوس..

كان عليها أن تنفذ بجلدها بعدما تأكدت أنها ستكون أول مشتبه به باعتبار أنها آخر شخص قابله..

وباعتبار أنها مكثت معه لأكثر من ساعة وكان مصاباً..

ميشجان لغمت هي الأخرى، ولم يعد سوى الهروب..

لقد تجاوزت حدود ميشجان، ولم يعد بإمكان أحد أن يعيدها لها، قالت ذلك بكل ارتياح، وبكل انقباض..

لقد فعلت كل ما بوسعها لكي لا يعرفها أحد، معطفها الأسود قلبته ليظهر أبيض، وغطاء رأسها خبأته في حقيبتها، واتخذت اسماً مستعاراً

مكسيكياً، لم يبد أنها مسلمة، هكذا ظنت ولكن شعرها الأسود الفاحم وملامحها العربية الجميلة الفاتنة لم تكن لتخفى.

لذلك وارت وجهها الجميل بشعرها وهي تتظاهر بالتحديق في الطريق، كان الرجل الأشقر الثقيل بجوارها يتلفت إليها كل دقيقة متفحصاً بابتسامة قبيحة ثقيلة لا توصف..

كان عقلها مشغولاً بزوجها، بإخوانها وأخواتها في متشجان، كيف أهرب لأتركهم يواجهون الفيروس دون أن..

قالت ذلك في عصبية وهي تلتقط هاتفها النقال، وتضغط أزراره في سرعة..

قبل أن تنكص وتقفله من جديد..

كانت خائفة.. هاربة.. أدرك شعور الهارب..!

لقد تأكدت أنها قتلت العمدة..

وتأكدت من أنه كان مسخاً..

كان هذا حديث الركاب حولها..

حانت منها التفاته خائفة مضطربة للرجل بجوارها، حيث ابتسم هذه

المرة وهو يهز رأسه في قحة متجاوزة للحدود، وأشاحت قبل أن تتمتم:

- لا إله إلا الله..!

عندما انحنى الرجل بجوارها عليها هامساً:

- كم عمرك يا حلوتي..! أنت فينوس حقيقية.. في حياتي لم أر مثل هذا الجمال..

تلفتت في ذعر وهي تحاول الوقوف بحثاً عن مكان آخر، لكنه أمسك ذراعها وأجلسها قسراً وهو يقول في تودد:

- جسمك النحيل مثالي، وملامحك الحلوة، أنا أملك مجلة وأحتاج لمثل هذه الأشكال.

شهقت في استنكار وهي تحاول تخليص يدها من كفه الضخم في حرج، وبقية الركاب ينشغلون بالمطالعة والنوم والثرثرة، فيما ردد في سخرية وقحة:

- لا تقولي لي إنك لا تريدين ذلك، الشهرة، والمال من ترفض ذلك..! الكثيرات يأتين إلي ويتوسلن، لكن المجتمع بصق الشقراوات ويريد تجربة أنواع أخرى، أنت عربية بارعة الجمال، ألسنت كذلك!

زوت حاجبها بشدة ووجهها يشحب في ذعر هائل قبل أن تقول:

- ابتعد أيها اللعين وإلا صفعتك..!

اتسعت ابتسامته وهو يقول في تدلل:

- عشرون ألف دولار مقدمة، ومقابل كل صورة أو فيلم نسبة ثلاثة بالمائة من الأرباح و..

ضغطت أسنانها في شراسة وهي تقول:

- ملعون، أنت ملعون..
- وانتبهها معاً إلى صوت حاد يقول في استغراب:
- مس رامة، أهو أنت..؟
- التفتت لتواجه شاباً أشقر يحدق فيها باستنكار قائلاً:
- إنني لم أعرفك بدون ذلك الغطاء.
- ردد الرجل بجوارها وهو يمد يده ليتحسس شعرها:
- رامة؟ اسم جميل جداً..
- أزاحت يده بعنف وهي تضغط أسنانها قائلة:
- سأطلب البوليس..
- أشار الشاب إليها في جرأة قائلاً:
- ارفع يدك عنها، إنها مسلمة..
- وقفت في حرج شديد والركاب يطالعونها وقد انتبهوا للجلبة التي أحدثها الشاب وهو يقول ساخراً:
- آنسة الفضيلة تتخلي عن حجابها أخيراً..
- استدارت إليه وهي ترفع كفها صائحة:
- اصمت أيها البرميل الفارغ من غير الثثرة..
- هز الشاب كتفيه في سخرية وهو يدس سيجاراً بين شفتيه، بينما
- صق الرجل بجوارها وهو يستدير إليها مدمماً:

- آنسة الفضيلة والعفة! رامة بوشعيب..!

اهتزت في خوف ورهبة وهي تحقق في عينيه اللتين امتلأتا بغرابة
مفعمة الاشتفاء وهو يردد:

- إنه أنت إذاً.. يا للصدفة..!

استدرات في حرج بالغ ويدها ترتجفان بقوة وهي تحتضن حقيبتها
الصحفية والشاب يتابع:

- كنت أجمل في المظاهرة بكثير وأنت ترتدين الغطاء، أنت تأمرينا بالحشمة
دائماً، لقد أحببت صياحك على الشبكة كثيراً وتأثرت بأفكارك الإسلامية!

وكز شفتيه وهو يعود لمكانه بينما بحثت هي عن مقعد خال، فلما لم
تجد تشبث بمعلاق الركاب، وحانت منها التفاته للرجل الذي حاصرها
بنظرة هائلة الحقد..

اشتمت منها رائحة الموت..!

- لا يمكنني مجرد تخيل ذلك...!

هكذا ردد البروفيسور إلياهو وهو يدور في مبنى الفيروس بتل أيبب،
وسط نظرات العاملين والباحثين المرتابة الخائفة..

لقد أعلن قبل دقائق فقط سقوط حكومة مزراح، وتشكيل إدارة
مؤقتة ريثما تنجلي أزمة الحرب الخائفة.

كان يقرأ ورقة أمر من وزارة الحرب بإيقاف صارم لعمل فريق تصنيع رؤوس الفيروس..

دلف في خطوات ثقيلة إلى الحاضنة الهائلة الحجم، التي يتم داخلها تكاثر الفيروس بصورة منظمة.

وتساءل في مرارة:

- كم أنفقت من عمري لكي أصل إلى هذا السلاح القوي؟

ألم يكن من الحكمة أن تكون شاؤول هي الأقوى..؟

وانقبض قلبه في مرارة شديدة وهو يتذكر الحالة الحيوية لشاؤول منذ أن أسست، بل منذ عهد دولة إسرائيل الغابرة..

لم يكن الوضع هناك مقبولاً على الإطلاق..

أمنياً، كانت اليهود تعيش في وسط عربي حاقط متفجر متوثب للثأر من تاريخ دموي أسود..

اقتصادياً، كانت شاؤول في أقصى حالات الانهيار بسبب اضطراب الأحوال السياسية وانتهاك حقوق الإنسان، وتذبذب علائق الدول معها..

اجتماعياً، كان الشارع الشاؤولي يغص بالمشاكل الكبيرة الصعبة الحل، الناتجة من الطبقية والتفرقة العنصرية..

شيء وحيد تفوّق فيه اليهود منذ أن وضعت أميركا يدها في أيديهم:

- القوة العسكرية.. ولا غير..!

لم يرتح أحد في فلسطين منذ أن وطئناها، هكذا حدث نفسه وهو يراقب الحاضنة الضخمة التي تعمل منذ خمس عشرة ساعة لإنتاج الرأس الفيروسي الأول..

انتبه لصوت أحد العمال وهو يقول في رهبة:

- لقد قرأت الأمر السامي يا بروفيسور..

التفت إليه وهو يقول في صرامة:

- ماذا يعني هذا ؟؟

ازدرد العامل ريقه قائلاً:

- سيجمد العمل ويتم إعدام الحصيلة السابقة مع الاحتفاظ بعينة الإنتاج الأولي..

قهقه البروفيسور وهو يربت على كتفه قائلاً:

- إنه إجراء تمويه لا أكثر يا صغييري، نحن في حرب ولا بد أن

نكسبها؛ الأمر تمويه أمام دول التحالف فقط..!

نظر إليه العامل في شك ورهبة وهو يتابع:

- أمامنا تسع ساعات فقط لإنهاء الرأس الأول، وعندها ستضرب

شاوول ضربتها وتهدد العالم كله..

تراجع العامل عندما دفعه البروفيسور في ظهره قائلاً في صرامة:

- هيا بنا يا صغييري لنتابع عملنا..

وانقبض قلبه وهو يسمعه يتابع:

- من أجل شاؤول..!

نقر عبدالقادر أزرار حاسوب رامة وهو يقول في قهر:

- إنه السبب الوحيد..

وانتظر قليلاً قبل أن يقول بصوت متهدج:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أهو أنت يا أخ منصور

رجوب..!9.

ارتسمت صورة منصور على الشاشة وهو يقول مرحباً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، من المتصل..

سحب عبدالقادر نفساً طويلاً وهو يحاول ضبط أعصابه المتعبة

قائلاً:

- أنا زوج رامة، أنا عبدالقادر باتريكسون، عبدالقادر.

رفع منصور صوته مرحباً:

- ياالله، مرحباً بك ألف مرة، أنا سعيد جداً ب....

قاطعه عبدالقادر بقوله في قلق غاضب:

- اسمعني جيداً أيها الرجل، دعني أعترف بأنني كنت أحس بالغيرة

المجنونة عندما تجري اتصالاتك برامة، كنت أكرهك وأتمنى أن أعثر

عليك لأقتلك ، كنت تجري مائة اتصال بها في اليوم الواحد من أجل أكذوبة الفيروس المضحكة، كل هذا الشعور كنت أخفيه حتى عن نفسي.. تراجع منصور وعلامات التوتر الشديد ترسم على وجهه لهذا الهجوم المباغت، وهو يسمعه يتابع في ذات اللهجة المتهذبة المخنوقة:

- لعلك لم تعلم يوماً أن رامة مصابة بمرض نفسي خطير، إنها تعاني من ذلك منذ أن جاءت من لبنان ولذلك فهي معرضة لأي خطر من نفسها قبل أي أحد، أقول ذلك لأخبرك أنك كنت سبب ما فعلته من حماقة رهيبة لا ندري كيف تخرج منها..

هتف منصور في قلق عظيم:

- ماذا حصل لها .. ؟! أخبرني..

رد عبدالقادر في غضب عظيم باكياً:

- أنت من جعلها تهرب من البيت إلى حيث لا نعلم، لقد كانت تطلب

بكل براءة وسذاجة أن أخرج من متشجان لوجود الفيروس المزعوم..

اتسعت عينا منصور قلقاً وغضباً وهو يتابع بصوت مخنوق بالدموع:

- إنها مسكينة ضعيفة العقل، إنها مختلة، وأنت استغللت اختلالها

وبراعتها المفرطة لأغراض سياسية ومظاهرات حتى هربت أخيراً بسبب

تصديقها أكاذيبك، ماذا أقول الآن أيها الرجل؟!

هل أقول إنك مجرم لأنك فعلت ذلك بزوجتي المسكينة..؟!

زوى منصور حاجبيه بشدة وهو يسمعه يشهق باكياً:

- إنها لم تكن أكثر من طفلة صغيرة في الحقيقة، إنها بائسة غير مسؤولة عن تصرفاتها، وأنت كنت السبب في ما يحدث لها، لقد كانت طيبة محبوبة، وتحب الخير، إنها لم تكن تفكر بنفسها أبداً، لقد استغللت ضعف عقلها وسذاجتها: ماذا أفعل الآن..؟

وكرر باكياً في مرارة شديدة:

- أيها المجرم، لقد كانت زوجتي.. زوجتي أنا.. لوحدى أنا..

رد منصور في غضب:

- كف عن هذا يا أيها الرجل وأخبرني، ألا تعلم أين هي الآن..؟

رد عبدالقادر في توتر وشك مرير:

- ماذا ستفعل هذه المرة..؟ بماذا تنوي أن تحشو رأسها المريض من

أكاذيب..؟

رد منصور في غضب شديد:

- اسمع يا هذا، أنت تكيل لي الاتهامات دون حساب، رامة مسؤوليتنا

جميعاً، وأنا كنت في يوم ما كالأب لها، أنا أكبر منك بكثير، وقد اعتنيت بها كثيراً قبل أن تعرفها أو حتى تعرفك.

قال عبدالقادر في استخفاف مرير:

- كيف كان ذلك..؟ لم تظهر في حياتها إلا قبل شهر!

رد منصور في غضب:

- أنت لا تعلم شيئاً.. وكفى..

قال هذا وهو يقطع الاتصال فيما بقي عبدالقادر يدق الأرض بقدمه في عصبية وتوتر وعيناه تفيضان بالدمع..

التقط هاتفه النقال وطلب رقم هاتفها..

ظل الهاتف يدق دون أن ترد كعادتها، فقذف بالهاتف وهو يصرخ باكياً:

- أرجوك يا رامة..!

دق هاتفه لحظتها فاستدار ليلتقطه في لهفة ويقول:

- من المتحدث؟!

أتاه صوت أجش يقول:

- عبدالقادر، أهو أنت؟ إنها غادرت ميشجان منذ ساعات في حافلة النقل البري..

رد عبدالقادر في قلق ولهفة:

- تقول غادرت، كيف عرفت ذلك يا كابتن ماركو..؟!

رد في برود:

- وجدنا اسمها في قائمة المسافرين إلى نيويورك، لقد رحلت، حاول

أن تجدها هناك..

هتف عبدالقادر:

- كيف فعلت ذلك..؟

رد الضابط في برود:

- لقد رحلت بصورة نظامية، حصلت على تذكرة ركوب وتأكدوا من

هويتها، إنها مسافرة وليست هاربة.

رد عبدالقادر في توتر وتماسك:

- حسناً، أن أطلب منكم أن تقبضوا عليها..

رد الضابط: بتهمة ماذا.. بهذه السهولة أيها الملازم؟

صمت عبدالقادر والضابط يتابع:

- ثم هي ليست مختلفة إطلاقاً كما تقول، إنها تتصرف بحذافة وخبرة

رجل في الأربعين من عمره، لا نستطيع إعادتها لبيت الزوجية يا

عبدالقادر، لن نفعل شيئاً بشأنها وهي لم ترتكب أي مخالفة.

رد أبو مسلم في تماسك:

- حسناً فعلتم، اتركوا الأمر لي..

وقطع الاتصال فوراً ونظر إلى الحاسب في مرارة، قبل أن يجلس

عليه وينقر أزراره مرة أخرى..

على عنوان منصور..

هبطت رامة بخطوات مضطربة من الحافلة، وتشبثت بحقيبتها في رهبة وهي تتطلع في المدينة المزدهمة، وتتطلع خلفها في رهبة قبل أن تجلس على أحد الكراسي وتخرج هاتفها النقال وتطلب رقماً.

انتظرت قليلاً قبل أن تقول في ارتباك:

- منصور، أهو أنت..١٩..

جاءها صوته على الطرف الآخر وهو يقول:

- كيف حالك يا رامة..١٩..

ردت في ارتباك شديد:

- بخير، أنا في روتشستر، في نيويورك.

رد عليها في تماسك:

- آه، مرحباً بك جداً يا صغيرتي.

تابعت في ذات اللهجة المرتجفة:

- أريد عنوانك يا منصور، لا أدري لم أشعر بالخوف الشديد من

وجودي لوحدي هنا.

رد عليها في حزم:

- أين أنت الآن..١٩..

ردت:

- في محطة النقل البري رقم ستة.

قال في هدوء وأبوية:

- سأتي لأخذك، انتظريني هناك.

لم تجب وهي تنهي الاتصال وتعدّد ساعديها على صدرها مطرقة في رهبة، لم تعرف من قبل هذا الشعور بهذا القدر، تحس وكأن شيئاً سينقض عليها بغتة..

داهمتها مخاوفها الوسواسية بشدة وهي تلمس شعرها الحريري بيدها في عصبية، وتلفت كثيراً بشكل ملفت للنظر..

لم تجد ما تفعله، وقدرت أن منصور سيستغرق وقتاً ليصل إلى هنا، لذلك فتحت حقيبتها الصحفية، والتقطت آلتها وقامت تتفحصها قائلة:
- لو أن عندي شاشة لأفحص محتويات الفيلم.

ودستها مرة أخرى في الحقيبة، وهي تتشبّث بها في توتر شديد غريب، كان قلبها يدق بعنف، مع أن أحداً لم يكن يراقبها أو يلتفت إليها، دون غطاء الرأس لم تكن تحس الأمان الذي اعتادته.

تلفتت، ووقفت وهي تقول في تماسك:

- أحتاج دورة المياه..

ولدهشتها فقد كانت المحطة خالية إلا من امرأتين صامتتين، ومشرّد قذر نائم، وكان بعض المارة المشاة يجوزون الطريق دون مبالاة بالسيارات المارة.

كانت الساعة الثامنة مساءً، والليل قد أسدل ستاره على المدينة، وعلى المحطة التي يجول فيها حارس بدين صامت.

الجو مخيف، هكذا رددت وهي تتجه للحارس لتسأله عن دورات المياه، لكنها أحجمت وهو يحاصرها بنظرات غريبة ويبادرها بالسؤال:

- أي خدمة يا آنسة.. ١٩..

هزت رأسها بالنفي وهي تتجاوزها إلى ما ظنته دورات مياه، والتفتت مراراً لتراه مشيحاً وهو يهزج بأغنية عابثة، وزفرت بقوة وهي تدفع باباً موارباً لتطل على مكتب مظلم، فزوت حاجبها في عصبية وهي تردد:

- تباً، إنه مكتب وليس دورة مياه.. ١٠..

وشهقت بفزع عندما جاءها صوت ذكوري خشن ساخر:

- هل تبحثين عن دورة مياه يا آنسة العفة.. ١٩..

التفتت بسرعة لتواجه الرجل الذي قابلته في الحافلة وهو يردد في حقد هائل:

- لعلك لم تعلمي كم خسرت مجلتي المبتدئة بسببك..!١٠

تراجعت في ذعر وهي تتطلع في الشارع الخالي إلا من بعض السيارات القليلة وهو يقترب منها متابعاً:

- سابقاً لم يكن عدد النسخ الرجيع يتجاوز الثلاثة بالمائة، والآن تجاوز

السبعين بالمائة رغم محاولات المستميتة لتطوير مجلتي، بسبب من كان ذلك.. ١٩..

هتفت في زعر غاضب:

- يا عدو الفضيلة، أيها القواد القذر.. كل العالم التفت إلى مصلحته وعقله قبل أن أولد بسنوات!

وشهقت في فزع عندما هوى بكفه الضخم على وجهها وهو يهجم عليها ممسكاً بكتفيها قائلاً:

- أنا أعرف كيف أنتقم، ولسوء حظك فإنني أنتقم بشدة، أنا سوف أستخرج ما خسرت من روحك..

راقبت عينيه في زعر هائل ودموعها المذعورة تتصبب على وجهها وهو يلصقها بجدار المحطة قائلاً في مرارة:

- كم وردتني من رسالة تدعوني لتغيير منهج مجلتي، وكلها تحيلني لموقع الفضيلة الذي هاجمته مرتين لأدمره بلا جدوى، ولحظتها قررت أن المشرف على هذا الموقع لا بد أن يموت ليموت الموقع معه، ولحظتها قررت أن أقابل رامة بوشعيب، وكانت الصدفة جيدة، وقابلتك..

وكرر وهو يضغط على عنقها في حقد رهيب:

- لأقتلك..

صرخت بصوت مخنوق:

- اتركني، أرجوك، سأدفع لك تعويضاً..!

هتف في حقد وسخرية:

- ستدفعينه من روحك أيتها الملونة^(١) القذرة..

خلصت عنقها من يديه وهي تقول في ذعر:

- لو فعلت فسوف تحاكم أمام محكمة حسب القانون، وربما تعدم بلا رحمة..

قهقهه في سخرية وهو يضغطها على الجدار قائلاً:

- إنني لا أبالي لو أعدمتم في سبيل القضاء على عدوتي اللدود الناعمة.

هتفت وهي تقاومه باكية:

- سأطلب الشرطة..!

جذبها إلى خلف المحطة وهو يردد في جنون:

- أنا سوف أدمر الفضيلة، عنوان موقعك اللعين، أنا سوف أسير عارياً وخلفي جيش من المومسات والشواذ المؤيدزين، أنا أكرهكم أيها الملونون ، أكرهكم بشدة..

أكرهكم، أنتم وكل من يحارب الفوضى، أنا أحب الفوضى..

أحب الرذيلة.. أحب الحرية.. نحن لم نخلق إلا لكي نتمتع بحيواتنا، نحن لا نعيش إلا مرة واحدة..

(١) الملون - الملونون: تعبیر عنصري يطلقه البيض على ذوي البشرة الحنطية كالعرب والهنود الحمر أو الصفراء كالجنس المغولي.

وخطبها على جدار المحطة الخلفي بعنف وهو يردد:

يجب أن تعلمن أيتها الحيوانات الملعونة أنكن مجرد لعب ودمى تحت يدي، يجب أن لا تكن أكثر من راقصات أو مومسات، لستن أكثر من ذلك البتة أيتها الحقيرات..!

ردت في غضب وذعر:

- أهذه نظرتك للمرأة أيها القواد الحقيرون..!

صفعها بقوة وهو يهمس في سخرية:

- الآن فقط ستعلمين من هو الأقوى، يا آنسة العفة أنت تقعين ضحية

سوء عملك، أنا أولاً سأمزق إباءك، ثم أتخلص منك..!

هتفت بأعلى صوتها في ذعر باكية:

- اتركني أرجوك، اتركني..!

دفعها بقوة على الجدار وهو يصرخ في جنون وهستيريا:

- سأغتصبك، سأجعل منك عبرة لكل من تسول لها نفسها التمرد.

أنا سأغتصبك..!

صرخت بأعلى صوتها في ذعر باك:

- ساعدني يارب، ساعدني يا الله..!

هتف في وقاحة وهو يتشبث بتلابيبها :

- أنا لا أؤمن بالرب لسوء حظك، لا تحاولي تخويني بالرب...!

انقضت على كفه تعضها بكل قوتها وهي تصرخ بأعلى صوتها
وتتشبث بحقيبتها، فأفلت معطفها وهو يصرخ في هياج: ملعونة، اترکيني
سأنتقم منك..!

هربت من أمامه لتقف على الرصيف وتحاول الفرار وهو يركض
خلفها صارخاً بجنون هائل:

- موتي يا رامة، موتي يارامة..!

واندفع خلفها ليدفعها بكل قوته إلى عرض الطريق أمام سيارة تسير
بسرعة هائلة..

وصرخت رامة بأعلى صوتها وهي ترفع ذراعيها أمام وجهها:

- توقف.... توقف...!

صرخت عجلات السيارة المندفعة بشدة وهي تتوقف في آخر لحظة
وتصدم رامة بقوة دفعها لتتدحرج على الشارع وهي تصرخ في ألم، فهرع
صاحب السيارة يهتف في غضب وقلق:

- أيتها الصبية.. هل أوديت..؟!

وقفت رامة مترنحة وهي تركض في فزع إلى الجهة الأخرى من الشارع وصوت صراخ الرجل المجرم يعلو:

- موتي رامة.. يجب أن تموتي!..

صرخت بأعلى صوتها في فزع وصاحب السيارة يحدق فيها وفي الرجل خلفها في دهشة وهو يصرخ:

- توقف يارجل، سأستدعي الشرطة حالاً..

استدار المجرم خلفه ليسدد لكمة قوية إلى وجه صاحب السيارة وسط أصوات أبواق السيارات المارة.

اندفع صاحب السيارة وهو يصرخ في حمية:

- أنت لن تنال منها أيها اللعين!

وتشبث بسترة الرجل وهو يدفعه على الأسفلت بعنف في اللحظة التي صرخت فيها عجلات سيارة كبيرة وهي تحاول الانحراف عنه بلا جدوى وهو يصرخ في يأس:

- لا .. لا أريد الموت.. لا..

وخفت صوته وعجلات السيارة تستقر فوق جسده..

راقبت رامة كل ذلك وهي تنتفض بشدة وتبكي بصوت عال في هستيريا هاربة بعيداً، قبل أن تصرخ أعلى صوتها عندما أحست يداً قوية تتشبث بذراعها وصوتاً يقول:

- اهدئي يا رامة، إنه منصور..

التفت خلفها لتواجه منصور وهو يعبس في وجهها قائلاً:

- أفي كل مكان تذهبين له تسبيين المشاكل..؟

هتفت بصوت مخنوق بالدموع:

- حاول الاعتداء علي ودفعني إلى الشارع..

رد عليها وهو يأخذ حقيبتها من يدها في ضيق:

- رأيته يفعل ذلك، اللعين حاول قتلك، لقد كنت أركن سيارتي عندما

رأيت ما كاد قلبي أن يتوقف من هولته، دعينا الآن نبتعد قبل أن

تأتي الشرطة.

هرولت خلفه وهي تتلفت في فزع ودموعها المذعورة تتصيب على

خديها، وحاولت التماسك وهي تجلس بجواره في فزع رهيب، نظر إليها

في شفقة قبل أن يردد في أبوية وهدوء وهو يضغط بدال الوقود:

- ابكي يا رامة، لا تحاولي كتم انفعالك، ابكي لترتاحي قليلاً، لقد

واجهت الموت بعينه.

انفجرت تنتحب بشدة وهي تصرخ في جنون:

- أين أنت يا عبدالقادر..؟ أنا أحتاجك بشدة... أحبك بشدة يا

عبدالقادر..!

التفت إليها منصور في استغراب شديد، قبل أن يبتسم وهو يراقب

الطريق قائلاً في سخرية:

- كل امرأة تحس بالحاجة لرجلها في مثل هذه الحالة.
تشبثت بحقيبتها وهي ترتجف بشدة قائلة وهي تنتحب:
- إنه يحبني ويخاف علي، كان محقاً في أنني سأعرض للخطر،
أريده الآن لأعتذر له..

رد منصور في صرامة:

- أنت شقية نزقة كعادتك، لماذا هربت من ميشجان؟

ردت في انفعال وهي تنتحب:

- الفيروس ظهر في ميشجان، أقسم بالله على ذلك..!

نظر إليها منصور مرة أخرى في استخفاف، قبل أن يهمس:

- ها قد عدنا للهلاوس من جديد..!

زعقت في قهر بأعلى صوتها وهي تتشبث بشعرها:

- لا يا منصور.. أقسم أنني لا أكذب ولا أهلوس.. أقسم بالله يا منصور!

حرق في وجهها البائس قبل أن يزفر قائلاً في ضيق:

- ما دليلك على ذلك..؟!

ردت وهي ترتجف في خوف عظيم:

- إن لذلك قصة لا بد من روايتها..!

واتسعت عيناه وهو يسمع تفاصيل الرواية..!

(٣٤) الخيار الأخير..

تدوالت قنوات العالم خطاب الرئيس الأمريكي المثير للتساؤل، والذي ألقاه أمام الكونغرس متضمنا الاقتراحات التالية:

١ - حدد يوم الإثنين المقبل موعداً لتطهير واشنطن من الفيروس بضررها برأسين نرويجيين داخل الطوق الأمني المفروض..

٢ - يقام يوم الثلاثاء حداد عام على أرواح الشهداء في واشنطن، وينكس العلم الأمريكي لمدة أسبوع..

٣ - نطلب من حضراتكم تزكية مشروع تدخلنا العسكري في الشرق الأوسط فيما لا يتجاوز أسبوعين..

تبادل المجتمعون النظرات القلقة لهذه القرارات القوية الصارمة..
كان الكل مقتنعاً بضرورة مثل هذه القرارات القوية، ولكن التنفيذ كان صعباً للغاية..

دارت النقاشات الطويلة للغاية على مدى أيام عشرة سابقة باشتراك عدد من المؤسسات العسكرية والعلمية التي طرحت تلك الاقتراحات بمنتهى القوة..

تكلم أحد أعضاء الكونغرس بشجاعة نادرة:

- أمريكا عانت منذ بداية الأزمة السياسية مع شاؤول، خصوصاً وقد اندفعت بعض الشركات ذات التوجه الصهيوني الأصولي لتعطيل المصالح

العامّة في البلاد بدافع سياسي بحت، ولولا الضمانات القانونية التي حدثت من اندفاع تلك الشركات بشكل انتقامي، لوجدت في البلاد من مات جوعاً..

تحملنا نكسة اقتصادية كبرى في تاريخنا المجيد، فماذا يضير أن نخسر إن كان ثمت خسارة؟
حقاً أميركا..

ماذا يضير أن تخسري..

إن كان ثمت ما كسبته في تاريخك الأسود المتعفن....!!

- وقد ضبطت حالات إصابة متقدمة في ميشجان لم يبلغ عنها، أدت إلى تفاقم الفيروس في الولاية بشكل غير مسبوق، خلال يومين فقط من تاريخ أقدم إصابة تم اكتشافها..

تمتم منصور في توتر بالغ:

- لقد وصل الأمر للسلطات.

نظرت إليه رامة في قلق ودموعها تتصبب بغزارة والمذيع يتابع:

- هذا وقد تم تحرك قوات الأمن الصحي بمجرد التأكد من الخبر لحصار الولاية المصابة، وسوف تنشط قوات الإنقاذ لالتقاط البشر الأحياء.

التفت منصور إلى رامة قائلاً في اطمئنان:

- أ رأيت ١٩ سينقذون زوجك وبقية من لم يصب..

هزت رأسها في قلق والمذيع يتابع:

- ما يمكن التساؤل عنه في مثل هذه المرحلة هو مصير الولاية

المنكوبة، هل سيتم تطهيرها كما هو الحال في العاصمة، وهل انتقال

الفيروس بالصورة الغامضة إلى متشجان تحديداً، يعني إمكانية ظهوره

في ولايات أخرى، روجر ستيف من ال (....) نيويورك.

ازداد نحيب رامة وهي تقول:

- مصير ثلاثة ملايين مسلم، وأكثر من غيرهم يسكنون الولاية، ليس

أولهم زوجي وأخته.

رد منصور في حزم أبوي:

- تفاءلي بالخير يا رامة..

ووقف عندما سمع طرقات الباب العنيفة قائلاً في حنان ساخر:

- ألم تستطيعي النجاة من واشنطن، ومن متشجان، ومن أمام

مسخين.. ١٩..

حدجته بنظرة صارمة وهو يقهقه ساخراً قائلاً:

- ادخلي إلى المطبخ ريثما أفتح الباب.

ونفض إلى الباب هاتفاً في ضيق:

- من هذا الذي يقرع الباب بهذا العنف.. ١٩..

وفتح الباب ليظهر على مصراعيه عبدالقادر بطوله الفارع وجسمه القوي وهو يقول في صرامة:

- هاقد أتيت يا منصور، في مواعيدي!

رد منصور بابتسامة متوترة:

- عبدالقادر، سعدت لرؤيتك، تفضل بالدخول..

نظر إلى منصور بحدة وهو يقول في جفاء:

- أين زوجتي؟

ازدرد منصور ريقه وهو يشير للمطبخ قائلاً:

- في أمان، إنها في المطبخ.

دلف عبدالقادر بخطوات واسعة وهو يهتف في غضب:

- رامة، رامة.

لم يلمه منصور وقد دلف بهذه الجرأة، القلق والخوف يفعلان أكثر من هذا.

راقبه وهو يقف على باب المطبخ في غضب هائل، بينما وقفت رامة

أمامه في استسلام وذ هول وقد أطرقت في خوف كطفل ينتظر العقاب.

تمتم عبدالقادر في انفعال:

- ماذا كان الداعي لكل هذا؟

نظرت إليه في صمت وحدجت منصور بنظرة عتاب طويلة، عندما

مد عبدالقادر يده ليمسك ذراعها النحيل موبخاً بشدة:

- ألم يحن الوقت لتعودي إلى رشدك.. أم أنه لا أمل في أن يكون لك عقل تفكرين به؟

ازدرد منصور ريقه في توتر وهو يقول له:

- كيف خرجت من ميشجان..؟

التفت إليه عبدالقادر قائلاً في استغراب:

- ماذا تقصد..؟

رد منصور في قلق:

- ألم تعلم..؟ لقد أغلقت حدودها كواشنطن..!

نظر إليه في حدة وشك قبل أن يقول في كراهية:

- كف عن هذه الأكاذيب التي لوثت بها عقل هذه المسكينة البرثية.

هتفت رامة في اعتراض:

- لقد عرض برنامج تلفازي مباشر للتو وقد..

قاطعها عبدالقادر وهو يهزها بعنف صارخاً:

- أنت آخر من أتمنى سماع صوته في هذه اللحظة يا رامة،

أتفهمين؟

يجب أن تصمتي أيتها المعتوهة..!

أيتها المريضة المجنونة.. يا ذات الهلاوس الشيطانية.. يا..

وتماسك أخيراً في عاصفة الكلام الجارح الذي يقوله في وجهها لأول مرة منذ عرفها، وهي ترفع وجهها الجميل وقد ارتسمت عليه أقصى علامات الألم والمرارة، وهي تلوذ بالصمت في استسلام، فاستدرك بالقول غاضباً وهو يهزها بعنف:

- إن من تعرض نفسها للخطر هكذا وتهرب هنا وهناك لهي حقاً مجنونة ومعتوهة، بل أكثر جنوناً من الذين يقبعون في المستشفيات.

تحفزت عضلات منصور وهو يتمتم:

- لا تكن قاسياً بهذا الشكل يا عبدالقادر.. إنها تظل امرأة..

زعق عبدالقادر وهو يستدير نحوه في تحفز:

- إنها زوجتي يا منصور.. زوجتي أنا.. ومن حقي أن أفعل بها ما أريد..

قاطعه منصور في حمية وهو يلوح بيده:

- نعم زوجتك، وليست بقرتك..!

هتف عبدالقادر في غضب:

- هل تعلمني ما أفعله أم ماذا؟..!

رد منصور في قوة:

- إذا لم تكن تعرف أيها الكاوبوي.. أعلمك..!

زاغت عينا عبد القادر في هياج شديد وهو يهجم على منصور الذي

صرخ في وجهه في تحد:

- تريد أن تقاتلني أيها الشرطي، دعنا لا نفعل ذلك أمام هذه المرأة

الضعيفة..!

صرخت رامة في توسل وهي تدفع عبدالقادر في صدره:

- توقفا.. توقفا أيها الأحمقان..

أغلق منصور فمه وهو يتماسك قائلاً

- ليس لأجلي، بل لأجل الله، أيها الرجل، لا تفعل هذا بامرأتك..

لا تفعل هذا بصغيرتي رامة..!

صاح عبدالقادر وهو يبعتها:

- ألا تسمعين ما..

صرخت في وجهه باكية في اعتراض وهي تدق صدره بقبضتها

الصغيرة:

- إنه أبي.. إنه منصور.. لو حاولت أن تضربه فسوف أخلعك فوراً..

كتم منصور ضحكة ساخرة وهو يشيح متجهاً للمطبخ، فيما مكث

عبدالقادر يحدق فيها قائلاً بغضب وذهول:

- تفعلين كل هذا.. لأجل عربي مثل هذا...!؟

انفجرت في وجهه باعتراض هائل:

- العربي أشرف من وجهك أيها الأمريكي المتعجرف..

صعق عبدالقادر وهو يحدق فيها في ذهول قبل أن يدمدم:

- وتجريين أيضاً أن تنطقي بهذه الكلمة الفظيعة..!

قاطعها منصور هذه المرة ساخراً:

- واوواوواو... وأنت التي كنت تتحدثين عن الأخوة الإسلامية وعن

الأمّة التي لا فضل فيها لعربي على أعجمي.. هل يحلو لكما التشدق

بالمبادئ دون تطبيق.. يا رامة وعبدالقادر؟!

ضم عبدالقادر قبضته أمام وجهها في عصبية هائلة وهو يصرخ:

- من أشرف من من أيتها الرعناء..؟! تكلمي..

هتف منصور ساخراً في مرارة:

- تقاتلا.. تقاتلا.. تعاركا، لا تتوقفا.. وإن شئتما أحضرت لكما مقلاة

الفضولاذ..

دمدم عبدالقادر في صرامة وعيناه تزوغان هياجاً:

- يبدو أنك كنت تسربين له أسرارنا أيضاً أيتها البلهاء..

ردت في تحد وهي تكفكف دموعها:

- نعم.. هل لديك أدنى اعتراض..؟!

زم منصور شفثيه في احتقار وهو يدلف للمطبخ قائلاً:

- الأمّة الإسلامية في حالة مخاض، وهما يتحدثان عن أمريكي

وعربي.. همف!

نظرا إليه وقد هدأ كل منهما، وتبادلا نظرة ساخنة قبل أن يقول
عبدالقادر في صرامة:

- سنحل مشاكلنا العائلية في بيتنا، هيا بنا يا فتاة..

ردت في إباء:

- اسمي رامة..

جذبها إلى الباب بقسوة وهو يقول: سنغادر فوراً.

قالت في غضب: حقيبتني..

صرخ في وجهها وهو يجذب الحقيبة بيساره:

- اصمتي، هذه الحقيبة سأحطمها بما فيها، هيا بنا.

أشارت لمنصور وهي تتبع خطواته القوية الواسعة، فزقق فيها:

- رامة.. كفي هذا العبث...!

وركبت بجواره في سيارة الأجرة التي يستقلها، ومرت برهة من

الصمت تبخر فيها غضبهما، قبل أن تقول:

- حقاً كيف خرجت من متشجان..!؟

التفت إليها قائلاً في صرامة:

- لا تحاولي أن تلفتي انتباهي لأمر غير ما سناقشه عندما نصل

للفندق، هناك الكثير الكثير مما سيسرك سماعه.

ردت في هياج وهي تتشبث برتاج السيارة:

- لو لم تتوقف عن هذا فسوف لن ترى وجهي بعد اليوم..!
- طوقها بذراعه في قلق صارخاً:
- حمقاء.. ماذا تريدان بالضبط.. ما المشكلة بالضبط في عقلك الخردة..!
- دفعته صارخة:
- قدم اعتذارك عما قلته للتو..
- هتف في استخفاف:
- أنا.. أقدم اعتذاري..!
- تشبثت بالرتاج وهي تهتف:
- الوداع يا عبدالقادر.. توقف من فضلك أيها السائق..
- زعق عبدالقادر في قلق وحيرة عظيمين والسائق يتوقف في ارتباك:
- ماذا تفعلين بحق الله.. رامة..!
- حاولت التخلص من ذراعه في عناد فظيع وهي تتمتم:
- ما كان ينبغي فعله منذ زمن.. دعني أذهب..!
- هتف في ضراعة وعصبية وهو يتشبث بها بكل قوته:
- بالله عليك فكري.. أين ستذهبين.. من لك بعد الله غيري..!
- تجاهلته وهي تقاوم ذراعه والسائق يردد في ارتباك:
- من فضلكما.. ليست سيارتي مكاناً للعراك..!

ردد عبدالقادر في ضعف واستجداء:

- أرجوك يا رامة.. أنا أعتذر. أعدك أن لا أعود لما فعلت..!

هدأت وهي تلهث نزقاً، قبل أن تقول:

- تابع طريقك من فضلك..

تنفس عبدالقادر الصعداء وهو يجذبها بعيداً عن الباب قائلاً:

- لأجل اعتذار.. تفعلين كل هذا..؟

وكرر في حيرة وعصبية:

- إنني لست أدري إلى الآن.. أأنا زوجك.. أم شيء آخر..؟

نظرت إليه مترددة قبل أن تقول بصوت ضعيف:

- لولا أن تتهمني بتغيير الموضوع لقلت لك إنني قلقك عليك كثيراً و..

ودمعت عيناها وتحشرج صوتها وهي تتابع:

- وافتقدتك كثيراً، لقد احتجت كثيراً لحمايتك..

نظر إليها في سخرية وهي تشيح مقاومة دموعها وهي تقول في عناد:

- حسناً لا تصدقني، كنت أخبرك فقط، كنت أثرثر..!

مد يده ليربت على كتفها في حنان عندما التفتت إليه ودموعها تملأ

وجهها، ومد يده الأخرى ليمسح دموعها وهو يقول في حزم وحب:

- كفي عن البكاء، هيا، ألا يمكن أن تستغني عن ذلك؟!

ولدهشته فقد اقتربت لتلتصق به بقوة وهي تقول في خوف بصوت
باك متقطع بشهقاتها:

- لكنني أفتقدك كثيراً، أحسست بالخوف من دونك لوحدني في
نيويورك، لولا أن بعث الله لي منصوراً..!

نظر إليها في حدة وهو يحتويها بذراعه القوي والغيرة تنهش قلبه.
قبل أن يقول في صرامة:

- أرجو أن تتعلمي من خطئك هذه المرة..

توقفت السيارة أمام الفندق ليترجل وهو يمسك بيدها بقوة في حزم
قائلاً:

- لقد وجدتك هذه المرة، لن أسمح لك بالهروب ولو اضطررت للتفرغ
لمراقبتك..!

أدهشه أن ابتسمت في دلال وهي تقول مغالبة دموعها:

- أنت زوجي، أنا أحبك بشدة..!

ترنح وهو يسمع هذه الكلمة لأول مرة، وفكر كثيراً وهو يجذب يدها
الصغيرة خلفه.. أهي محقة؟!

ماذا حصل لها بالضبط؟!

أم أنها حركة مجنونة جديدة؟!

عاوده الغيظ الشديد وهو يدخل غرفته في النزل، وراقبها وهي تخلع
معطفها وغطاء رأسها قبل أن يقول وهو يعقد كفيه خلفه في صرامة:

- أنا لم أنس بعد ما فعلته من سخافة، أنا قررت معاقبتك بصرامة هذه المرة.

جلست وهي تراقب عينيهِ المتقدتين وهو يتابع:

- لقد قررت حرمانك من القيادة بصورة رسمية، لقد حصلت على إفادة من الدكتور روبرت لإدارة المرور بسحب ترخيص القيادة منك، هذا شيء.
كتمت غيظها وهي تعبت بشعرها في استسلام مصطنع وهو يدور في الغرفة متابعاً:

- والأمر الأكثر أهمية أنك لن تعملِي، لقد قررت أن أبلغ محاميك الوصي عن كل تصرفاتك التي كنت أتفاوضي عنها، ولحظتها سأملِي عليه ما يجب أن يفعله.

والثفت إليها قائلاً في صرامة:

- أنت لن تتعلمي إلا بهذا الأسلوب للأسف.

واتجه لباب الغرفة وأوصده بالمفتاح قائلاً:

- سأستحم.

وسحب المفتاح وهو يلوح به أمامها لإغاضتها، لكنها ابتسمت في استسلام وهي تلوذ بالصمت وتتابعه وهو يتجه للحمام، يبدو أنه قد أخذ مني موقفاً هذه المرة، هكذا رددت وهي تتقرفص على أريكة الغرفة في إحساس لذيق بالدفع والأمان..

رغم أن داخلها كان يفور بشيء أخير لا بد أن تفعله..!

نظرت عائشة في ساعة يدها والذعر يستبد بها بشدة..

إنها تمكث في منزل أخيها منذ أكثر من أربع ساعات..

لقد افتقدته كثيراً، أين يمكن أن يكون قد ذهب؟

وانزوت في حجرة المعيشة وهي تفكر في مصير زوجها البائس،

وانهمرت دموعها الحارة وهي تردد في صبر مريم:

- إنا لله وإنا إليه لراجعون!..

كانت تنتظر شقيقها لتهرب وإياه من ميشجان، لم تكن لتفكر مجرد

تفكير في أن تترك أخاها في ذلك الأتون المرعب لوحده.

ولكن الدقائق كانت تهرب بسرعة كبيرة، والساعات مثلها، أين

عبدالقادر!..

هكذا تساءلت وهي تضغط مفتاح التحكم لجهاز التلفاز، إنها فترة

الأخبار، ومسحت دموعها المتصبية وهي تقاوم شعور الكآبة القاتل الذي

يخنق صدرها وهي تتذكر حبيب روحها أمير، الذي عاشت معه خمس

سنين، لتفقدته مسخاً مرعباً كما زعم..

هتفت وشهقاتها تتقطع:

- نعم يزعم، إنه معتوه كرامة، لا يوجد فيروس هكذا، لكنه يتخيل

فقط، إنه يريد أن... أن...

وعلا نحيبها وهي تردد في يأس مريم:

- بلى بلى، بلى يا عائشة، إنه كذلك، إنه مسخ..

وانتبهت لصوت المذيعة وهي تقول في توتر:

- وصلنا للتو هذا الخبر من إدارة الأمن الصحي حول الفيروس

المسخ..

أسرعت تزيد حجم الصوت وهي تتابع:

- نظراً لتحقق انتشار الفيروس في ولاية ميشجان، ونظراً لغموض

سبب الإصابة، فقد قررت الإدارة تخصيص مكافأة مالية لكل من يبلغ

عن وجود شخص طليق من سكان ميشجان في ولايات أخرى من تاريخ

الإصابة، قبل أسبوع من الآن، هذا والإدارة تهيب بمواطني ميشجان

بالمكث في بيوتهم، مع تجنب التعرض للساعات البعوض والحشرات

الأخرى، والابتعاد عن شرب الماء الذي تبين تلوث كميات كبيرة منه بعد

ضبط حيوانات مصابة ميتة قرب مصادر مياه الشرب، كل هذا ريثما

تصل قوات الإنقاذ لانتشال من بقي حياً من سكان الولاية.

بكل ما في قلبها من الفزع واليأس صرخت:

- يا الله، يارب، ساعدني يارب..!

ردد منصور في ذهول واغتباط:

- أحقاً ما أسمعه..!

كان يستمع إلى وقائع الجلسة الختامية للكونفرس، والتي أعلنت فيها المتحدثة الرسمية باسم الكونغرس ما جعله يرفع مستوى الصوت وهو يقول:

- إذا فقد كان لصوتنا صدى هذه المرة.

واستمع إليها وهي تقول:

- وببالغ الأسف تقرر تحديد موعد تطهير العاصمة المنكوبة من الفيروس يوم الإثنين المقبل، وذلك بسبب ضغوط شعبية وعالمية للقضاء على أكثر الفيروسات نشاطاً في تاريخ البشرية.

ردد منصور في صبر نافذ:

- دعينا من هذا، ماذا عما قاله المذيع في الموجز؟!

واستمع إليها وهي تتابع:

- بسبب ضغوط شعبية، ونظراً لإحساس أمريكا بمسؤوليتها عن السلام العالمي والأمن الدولي، فقد قرر الكونغرس رسمياً التدخل من طرف واحد في الحرب الدائرة في الشرق الأوسط، وتم إبلاغ الجهات المسؤولة باتخاذ كافة الإجراءات التي تتعلق بهذا الشأن.

هتف منصور في غضب عارم:

- إجراءات مثل ماذا أيها الجبناء..؟!

وقذف جهاز التحكم بعنف وهو يهتف في انفعال وحسرة:

- ماذا بعد واشنطن وميشيجان أيها الرئيس الأبله الجبان الذي لم

يمر على أمريكا رئيس مثلك.. ١٩٠٠

وقضم ظفره في عصبية وهو يردد في نفسه:

- هل يعني ذلك أن حملتنا وجهودنا الهائلة في كل الولايات قد باءت

بالفشل.. ١٩٠٠ ماذا يعني تدخل سريع. ١٩٠٠

جنود مدججون بالسلاح يركضون ويلعبون ويدخنون في الجبهة ١٩٠٠

ألا يدرك هذا الرئيس الغبي أن تل أبيب تمتلك الفيروس الخطر،

ولابد من إعدامهما معاً.. ١٩٠٠

وردد في عصبية هائلة وهو يرمق أكوام الأوراق التي جمعت فيها

تواقيع سكان الولايات:

- هل يعني هذا أن أمريكا لم تستوعب الدرس جيداً؟

وتابع في شك عميق:

- أو أن أميركا هي أميركا.. ١٠٠

ركضت عائشة في فزع هائل إلى باب منزل شقيقها وهي تردد باكية:

- أخي، هل التهموه يا ترى.. ١٩٠٠ إنني سأهرب حتماً.. ١٩٠٠

وهرعت إلى سيارتها الصغيرة وهي تتلفت في دعر إلى حالة

الفوضى العارمة التي تجتاح الشوارع، حيث مسيرة سلمية يقوم بها

المواطنون السليمون لمناهضة قرار التطهير الظالم، ويطالبون بقوة أمن تتخذ أسلوباً لقتل المصابين بعيداً عن التسبب في تفاقم الفيروس بسبب انتشار الدم الملوث وتحلل الخلايا الميتة المفترسة.

كانت تنظر باحترام لهذه المسيرة التي هتف فيها المتظاهرون:

- نحن الضحايا، نحن الضحايا..!

هتفت عائشة بأعلى صوتها في قهر ودموعها الملتاعة تملأ وجهها:

- اصرخوا أو لا تفعلوا، إنهم أوغاد، إنهم أراذل البشر، كلهم قتلونا،

كلهم يشاركون في الجريمة...!

ضاع صوتها الحاد في ضجيج التظاهرات الضخمة، وهي تركض بقوة متجاوزة الزحام الشديد، كانت تتوقف بين لحظة وأخرى لتتلفت في دعر هائل حولها قبل أن تعاود الركض بكل سرعتها.

مر وقت طويل قبل أن تصل إلى هدفها وقلبها يدق بعنف وأنفاسها تكاد تختنق في صدرها، ارتكنت على الباب وهي تقول لاهثة:

- مريم، أين أنت يا أختي الحبيبة من هذه الفاجعة التي أصابت أميركا؟!

وطرقت الباب بعنف وهي تقول لاهثة:

- مرّ يومان منذ آخر زيارة لها لبيتي، ليت شعري ما بها ؟!

وهتفت في عصبية وهي تدق بعنف:

- هيه، أين أنت يا امرأة؟! صلاح الدين، افتحوا الباب!

مكثت طويلاً تردد النظر في الباب الموصل، وازدردت ريقها وهي تتخيل ما يمكن أن يمنع أختها من الإجابة.

نفضت رأسها بقوة وهي تستدير للجهة المقابلة للمنزل، وتقرب من باب المطبخ الذي كان موارباً، اتسعت عيناها فزعاً وهي تطل برأسها إلى داخل الدار، كل شيء كان ساكناً، هل يمكن أن يكونا قد هربا مع طفلهما؟ هكذا دون أن يخبرا أحداً؟ ودون أن يغلقا باب منزلهما ١٩٩٠!

كزت شفتيها في عصبية، ودفعت الباب بقوة، لتظهر لها بقعة قدرة من الصراصير الميتة في المطبخ.

تسمرت مكانها فزعاً وهي تدير عينيها الواسعتين في المكان، قبل أن ترفع ثوبها في اشمئزاز وتتجاوز تلك المناظر، وتسير في توتر إلى داخل المنزل.

رفعت عينيها إلى السلم، كان المنزل ممتلئاً بالصراصير الميتة، وبشكل مربع غير عادي؛ سدت أنفها في اشمئزاز بسبب رائحة كريهة نفاذة وغريبة تملؤ المنزل.

استجمعت جرأتها وقفزت إلى الدور العلوي، ولهت قبل أن تدفع باب غرفة نومهما الموارب.

ارتعشت شفاتها في رعب هائل وهي تشاهد صلاح الدين راقداً في سكون فوق سجادة الغرفة، هزت رأسها بقوة وهي تصيح في فزع رهيب:
- مات .. مات .. لا ..

تراجعت في خوف رهيب وركضت إلى الدور الأسفل صائحة في
ذعر:

- مريم... مريم... أين أنت...!؟

وصرخت في اشمئزاز عندما قفزت إليها حشرة قذرة، ورفعت ياقة
معطفها لتسد أنفها وهي تهتف:

- يا للرائحة الكريهة! ما كل هذا!؟

وركضت في هلع وهي تكرر:

- مريم، مريم، أين أنت...!؟

دب الشك في قلبها وهي تدور في المنزل، أين ستكون...!؟

وحدثت نفسها في غضب ويأس جنوني:-

- لو أنها فعلتها وهربت فسوف لن أسامحها!؟

كان الرعب قد شلّ تفكيرها تماماً.. كانت الأفكار الشيطانية تتدفق
إلى عقلها كالمياه الآسنة..

وامتلأت عينها بالدموع السخينة مرة أخرى والدماء الغاضبة تفور
في رأسها، وهتفت في غضب ذاهل:-

- لن أغفر لك يا مريم.. أبداً.. لن أغفر أنك لم تخبريني!.

وبترت عبارتها بشهقة فزع عندما انزلقت في المياه المتسربة من
دورة مياه الدور، كانت تنتشر في بقعة كبيرة جداً حول دورة المياه؛ فوقفت

وهي تنفض معطفها في غضب جنوني، وتتنظر لدورة المياه في استغراب، المياه تتدفق بسخاء، وتخرج من تحت الباب..

مدت أخيراً يداً مرتجفه إلى المقبض وأدارته بعنف، ودفعت الباب لتتسمر في هول المنظر، حيث بقعة كبيرة من الدم الممزوج بالمياه، ورفعت عينها إلى حوض الاستحمام الذي رقد وسطه جسد مريم وهي تحتضن طفلها، ساكنين بلا حراك..

دوت صيحة عائشة في أرجاء دوامة زهول مظلمة...!

إلى متى سيستمر عمل الحاضنة يا بروفيسور..؟

هكذا حدث إليها نفس المتورمة وهو متسمر في صمت يراقب معدلات التكاثر في الحاضنة على شاشة حاسبه.

مر وقت طويل قبل أن تتحرك شفتا البروفيسور بالقول في تبجح هستيري:

- أنا سوف أثبت لهم كيف أصنع أقوى وأكبر رأس فيروسي في التاريخ...

كان يحدث نفسه.. أو يحدث شيطانه..

إن كان له شيطان..

لم يكن يحتاج قرينا..

لأنه هو الشيطان بعينه..

كان يهذي..

- وصلت الحاضنة لستين بالمائة من التكاثر المطلوب.. وباقي من الزمن خمس ساعات فقط لتصبح تل أبيب أقوى جبهة قتال..
 فرفع صوته النجس بضحكة رنانة بترها بسعال محموم..
 ألقى ذراعيه خلف مقعده وهو يراقب معدلات التكاثر الهائلة قبل أن يهتف معترضا على نفسه المريضة السوداء:
 - أنا رئيس هذا المركز للفترة السابقة، أمتلك كل مفاتيح الأبواب وأعرف كل شيء.. كل شيء، والوصول إلى الرأس المميت لا يتطلب مني سوى نقرة بظرف الظفر..
 قال هذا وهو يرمي بصره نحو الرأس الهائل الذي تفصله عنه زجاجة عازلة ثخينة..

قبل أن يردد في وله شيطاني:
 - فيروسي العزيز..
 سنبقى معا هنا..
 أنا وأنت فقط يا فيروسي..
 نسيطر على العالم هنا.. هنا معا..
 لا بد أن نتحد في ذات المصير..
 أعني أن نتصر في معركتنا هذه معا..
 وزفر بشدة وهو يتابع في هستيريا:
 - أو نموت هنا.....
 معا....!!!!

أطل عبدالقادر برأسه على صالة الجناح الذي ينزله، كانت رامة
تجلس في سكون بريء وهي تسبل أهدابها الكثيفة، وقد تبعثرت خصلات
شعرها غير المرتبة على كتفيها ووجهها الفاتن..
اهتز شوقاً وهو يجنف شعره الكثيف هامساً:

- لقد نامت، تبدو متعبة..

واستدار مولياً ليدق هاتفه النقال بغتة، فالتفت ليلتقطه قائلاً:

- السلام عليك.....

وبتر عبارته عندما فاجأه صوت شقيقته وهي تهتف على الطرف
الآخر باكية:

- عبدالقادر، أنقذني..

أرجوك.. أرجوك.. لا تتركني.. لوحدي..

ههتف في عصبية وقلق:

- ماذا هناك يا عائشة.. تماسكي قليلاً..!

كانت تهتف في هلع:

- لقد أصيبت ميشجان بالمرض، لقد أغلقوا الحدود، لقد ماتوا

جميعاً..

قفز قلبه قلقاً وهو يهتف:

- من؟ من؟ يا عائشة..!

صرخت في لوعة:

- مريم، صلاح وأمير، والبقية تأتي، لقد ماتوا...!

اتسعت عيناه في ذهول هائل، وهو يهتف بصوت مبجوح:

- كيف ذاك؟ ماتوا؟ هل جننت يا امرأة.. يبدو أنك تهلوسين؟

ردت في حرقة:

- وأغلقوا الحدود، وسوف يطهرونها حتماً بالنيتروجين، أي أننا

سنموت حرقاً يا عبدالقادر، سنموت..

تماسك وضغط أعصابه ليقول:

- هدئي من روعك، اهدئي، سأتي لأعاین الوضع فوراً..!

صرخت في لوعة هائلة:

- لن تفعل، لقد أغلقت الحدود منذ ساعتين،، لن تفعل لن تفعل..

قال في ثقة متوترة:

- قلت اهدئي، وابقى في منزلي ريثما آتي..

وأغلق الخط وهو يتجاهل صرخاتها الملتاعة:

- لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت..!

وقذف بمنشفته وهو يردد النظر في رامة التي جلست شاحبة الوجه

وهي تبادله النظر..

كان يفكر كيف يتركها وهو قد وجدها بالكاد..

كان يصارع نفسه، فأخته الوحيدة تحتاجه..

وزوجته الرعناء ستقر لو غاب عنها منتهزة أي فرصة للهرب..

فكر ماذا يفعل...!

انتبه على صوتها وهي تقول في قلق:

- عائشة في ميشجان، لقد تركتها هناك ويجب أن تنقذها من الفيرو...!

قاطعها في صرامة:

- أي فيروس وأي هراء...! إنها تريدني في أمر ما، لا تبدئي

بها لوسك من جديد...!

هتفت رامة في تبرم وهي تراقب باب الغرفة:

- أووه، يا رجل... أنا سمعت كل شيء، ما كنت نائمة، إنها تقول شيئاً

سمعته في الأخبار وأنت تصر على تكذيبه، وما لم تبادر بإنقاذها الآن

فسوف تلتهمها المسوخ...!

رد في غضب وهو يعدل ملابسه:

- مشكلتي أنت، أنا لن أتركك لوحداً مهما يكن الثمن، أنا لو تركتك

لوحداً فسوف ترتكبين حماقة...!

ردت في قلق وهي تراقب الباب:

- سأعتني بنفسي، سأبقى هنا ولن أخرج حتى تعود، أو إذا لزم الأمر

فسوف أبقى عند منصور...!

زعق في وجهها بشدة:

- اخرسي، لو نطقت هذا الاسم مرة أخرى فسأقتلع لسانك من جذوره.

اتسعت عيناها في استغراب، لم يفعل ذلك..١٩.

ردت في اعتراض:

- لم تكره منصور يا عبدالقادر...١٩.

زعق بأعلى صوته هذه المرة:

- قلت اخرسي.. اخرسي.. لا تنطقي باسمه وإلا ذبحتك..

زمت شفثيها في استخفاف وهي تراقبه يدور في الغرفة في عصبية شديدة، وراقبت الباب وهو يهتف في عصبية:

- لقد فقدت ثقتي بك، أنت بالنسبة لي طفلة تثير المتاعب ولا بد من رعايتها، والآن ماذا أفعل؟١٩

أتركك في مستشفى ١٩. في قسم شرطة ١٩.. أم في دار رعاية أطفال مع احترامي الشديد..١٩.

كان يحاول إثارة غيظها، لكنها لدهشته كررت في قلق:

- اذهب، اذهب الآن، سأعتني بنفسني، أقسم..١.

ردد في سخرية:

- تريدني الخلاص مني، ستهريين بمجرد أن أخرج..١.

ردت في ضعف وهي تراقب الباب في توتر:

- إنها أختك، الخطر يحدق بها، هيا اذهب..!

رد في شك:

- لم تحديقين في الباب كالبلهاء هكذا؟! هل هناك ما يشير؟

فتحت فاهها لتقول شيئاً قبل أن تشهق عندما طرق الباب بصرامة،

فالتفت إليها في شك وهو يقول:

- ادخلي غرفتنا بسرعة..

وقفت في توتر وعيناها تتسعان في بلاهة، فزقق في صرامة:

- أقول بسرعة..

هرولت إلى الغرفة في ذعر.. لقد ثارت أعصابه بشكل غير معهود..

هكذا رددت وهي تطل في قلق شديد عليه وهو يفتح الباب لثلاثة

رجال مكتمين يحملون أسلحة، حيث هتف أحدهم:

- عبد القادر باتريسكون، من ميشجان..؟

حدق فيهم عبد القادر في قلق واستغراب وهو يقول:

- أنا هو.

ولذهوله فقد انقضوا عليه ليقيدوا حركته ويسيطروا عليه بمنتهى

العنف، فيما قال أحدهم:

- سكان ميشجان لا بد أن يدخلوا مدينة الفيروس للتحقيق من عدم

إصابتهم به، لقد أبلغ أحدهم عن وجودك هنا في نيويورك..!

زعم عبد القادر في غضب هائل وهم يجذبونه للخارج:

- أوغاد، أي فيروس هذا الذي أصبتم بهوسه جميعاً ١٩٠٠

من الذي أبلغكم بذلك ١٩٠٠! أي حقوق قدز ١٩٠٠

وقاومهم في استماتة قبل أن تحين منه التفاتة إلى زوجته وهي تقف

في حيرة وندم..

وخوف عظيم..

ها قد قبضوا على سندي بعد الله تعالى..

ها قد عدت شمعة في مهب الريح مرة أخرى..

رددت في سرها ودموعها تتفجر في عينيها:

- حبيبي.. عبد القادر حبيبي..

إنه لم يعلم أنها فعلت ذلك لتتخلص من سيطرته وتكمل مهمتها

الصحفية..

إنه لم يعلم أنها أبلغتهم بأنه من سكان ميشجان حتى يقبض عليه..

لم يعلم بكل ذلك وهو ينظر إليها بكل الخوف عليها في قلبه صارخاً:

- رامة....!



(٣٥) الورقة الأخيرة..

دوت قهقهة الطاغوت في المبنى الصامت إلا من العمال المصيخين
لأوامره..

كانوا يعملون في صمت مذعور عندما تطاردهم صيحاته الشيطانية
المنتشية:

- كل شيء صار قانونيا يا صفاري.. كل شيء..

كان العمال ينهمكون في أعمالهم..

يتجاهلون صيحاته المربعة:

- رئيس الحرب الجديد يطلب مني أن أتابع العمل..

تل أبيب هي الأقوى.. رددوا معي.. هي الأقوى..

كان الصمت يعيش في أركان المبنى الكئيب الذي يهرب منه العمال
تباعا..

جذب إحدى الباحثات إليه في جنون وهو يصيح فيها:

- راشيل.. ألم تبتهجي للخبر..؟

اغتنصبت ابتسامة تدل متقنة وهي تردد:

- لحياة شاؤول المجيدة..

زقق فيها وهو يهزها بجنون:

- هكذا فلتهتفي.. هيا اهتفي.. اهتفوا جميعا...

ارقصوا جميعاً..

بدووا يتململون..

يرقصون..

لم يعودوا يستسيغون لحن الشيطان..

كانوا مهزومين..

كانوا فقط يرقصون..

يهتفون بالأغنية الباهتة التي تعلموها صغارا..

وخجلوا منها كبارا:

لحياة شاؤول المجيدة..

لحياة النبي داوود..

نعمل معا.. نحيا معا..

نبني النجمة حجرا حجرا..

ونردد في كل حين..

لحياة شاؤول المجيدة..

لحياة النبي داوود..

هكذا حفظوها ورقصوا عليها..

على أنغام المايسترو العتيد..

إبليس...!!!

أطرق منصور متهدداً في ضيق وهو يقول:

- إذا فأنت من فعل ذلك يا رامة..!٩

ردت باكية بصوت متحشرج:

- لقد كنت حمقاء، أنا لا أعلم حقاً كيف فعلت ذلك..

أنا حمقاء، أنا لا يمكن أن أكون أفضل من ذلك..!

رد منصور بهدوء متوتر وهو يغطي وجهه بكفيه:

- رامة أنت غريبة الأطوار، ترتكبين الأخطاء وتقدمين سريعاً، لم لم

تفكري كثيراً قبل أن تفعلي ذلك..!٩

ردت في ندم وهي تمسح دموعها وتغالب شهقاتها:

- صدقني.. كنت أحس بشيء يدفعني لأن أرفع سماعة الهاتف..

أقسم بأنني لم أكن أشعر بشيء وأنا أقول أنه من متشجان.. صدقوني

هذه المرة.. أرجوكم..!

رمى إليها بنظرة شفقة أبوية وهو يردد في داخله:

- يا للمسكينة - ياللبائسة .. يارب كن لطيفاً بضعفها.. بعقلها

الضعيف!

كانت تشهق وهي تردد في هستيريا ملوحة بذراعيها:

- كان يحبني، كان يعشقني، إنه رجل طيب، لم أر في حيات من هو مثله رغم أنه يضايقني..
كان يحبني..

يحبني ويذوب هياماً بي، وكنت أنا نذلة قذرة..
رد وهو يتهدد في توتر:

- لا عليك الآن، ما دام لا يحمل الفيروس فسيخرج.
زفرت باكية وهي ترمق وجهه الشاحب، قبل أن تكفكف دموعها
وتعقد ساعديها على صدرها وتقول:

- أحس أنني لا أستحق هذا لرجل الشهم؛ لذلك سأطلب الطلاق منه فوراً..
لقد سببت له الكثير من المتاعب.. لم أعد أستحقه..
نظر إليها منصور مشدوهاً قبل أن يفرق صوته ضاحكاً وهو يقول
في سخرية:

- ذلك سيكون بمثابة حكم بالإعدام عليه يا رامة..
ووقف وهو يضحك قائلاً في حنان:

- الرجل طبيعي ومثالي، لكنه ظهر لي بصورته الحقيقية، إنه ليس عاشقاً فقط، إنه ليس زوجاً مخلصاً فقط، إنه شيء لا يكاد يوصف، إنه حب خطير للغاية، ولو فكرت مجرد تفكير بهذه الحماسة فسوف تدخلينه القبر ببساطة..
القبر ببساطة..!

اتسعت عيناها دهشة وهو يتابع:

- إذا كان يغار عليك بهذا القدر الجنوني، ويتصور أنني أحبك وأنافسه عليك رغم أنني أكبرك بثمانية عشر عاماً. إنه ليس فقط عاشقاً، إنه مجنون بالحب..!

رددت رامة في انتشاء وحياء:

- كان يصرخ: أحبك.. خمسمائة مرة في اليوم... هل تصدق..؟
قهقهه بشدة وهو يقول:

- يا له من حب رهيب! يا للزوج الرائع!
وانحنى عليها قائلاً في خبث:

- هل تحبينه يا رامة...؟

أشاحت وهي تقف مسرعة قائلة:

- لا بد أن أراه ، لا بد أن أقف معه في هذه المحنة، إنه زوجي مهما فعل بي، إنه قدرتي في هذه الدنيا..!
قهقهه منصور قائلاً:

- الله، يا سلام ، رامة تردد هذا الكلام؟ لقد بدأت تصبحين أنثى حقيقية..!

رددت في فظاظه:

- أنا أنثى مهما فعلت، كلكم تتهمونني بالاسترجال، مع أنني فتاة طبيعية للغاية..!

هز كتفيه في سخرية قائلاً:

- وماذا ستفعلين أيتها الزوجة المثالية؟

ردت في تبرم:

- وماذا ستفعل لو كنت مكاني. ١٩. طبعاً سأزوره.

قال في دهشة: أين. ١٩.

ردت: في المدينة، مدينة الفيروس.

صمت قليلاً قبل أن يقول:

- كيف ذاك. ١٩. هل يسمح بالزيارة. ١٩.

هزت رأسها بالإيجاب في ثقة، فتساءل:

- ومن سيأخذك هناك دون أن تكون عندك سيارتك. ١٩.

ردت في تلقائية: أنت يا منصور.

نظر إليها في أبوية وحنان وهو يقول:

- يا صغیرتي الغالية، يا طفلي الحبيبة.. تتحدثين كما لو كنت واثقة من أنني سأفعل.

ابتسمت وهي تقول:

- الحقيقة أجدني أثق بك أكثر مما أثق بنفسي، وأحس بأنك وجدت هنا عناية من الله بي.

أطرق ومشاعر أبوية غريبة تهوم في صدره الواسع، قبل أن يقول:

- سنذهب يا رامة، أنا هكذا كما عرفتني دائماً، لا أستطيع أن أقول

لا لرامة، أليس كذلك يا بنتي.. رامة .. أين...!

وانتبه لها وهي تصفق الباب خلفها قائلة في عفوية:

- أنا أنتظرك في السيارة...!

هتف عبدالقادر في غضب هادر:

- أنا أريد مجرد توضيح لوجهة نظركم، أنا رجل أمن كما ترون من

بطاقتي وهويتي وملابسي التي أرتدي.

رد أحد المكممين في صرامة:

- لكنك من ميشجان وكان عليك تسليم نفسك..

وأقحمه بعنف في الصندوق العازل المخصص للمصابين، وأغلق بابه

بإحكام.

وهناك لهث عبدالقادر وهو يفكر في توتر وقلق بالغين، أختي

المسكينة، أختي..

تفجرت الثورة في قلبه وهو يقف بصعوبة بالغة ويدفع الصندوق

للأعلى، حيث تحرك قليلاً ليرده رتاج حديدي قديم.

جلس على الأرض يفكر، وأحس بالسيارة وهي تمشي بسرعة، إنه لو

حاول الهرب بعنف فسيطلقون النار عليه فوراً..

ولو تركهم يأخذونه للمدينة فسوف لن تجد عائشة من ينقذها بعد الله..

يا الله، يا الله..

هكذا ردد في خشوع وهو يرفع يديه للسماء، وتحسس قلبه المنهك،
آه، كم لقي من المتاعب!

كان كل شيء يبدو في عينيه رماداً ثائراً.. لم يعد لديه الآن ما
يخسره.. واشتغل عقله الصارم بسرعة فيما يمكن أن يفعله.. فجأة أحس
بجسم صلب تحت ذراعه، وافتر ثفره عن ابتسامة عريضة، إنه
مسدسي..!

فكر قليلاً: ماذا يحتاجه قفل قديم لكي يفتح..؟

وردد في انتصار: إنه مسدسي..!

إنه مسدسي.. وكفى..!

اتسعت عينا رامة دهشة وهي تقول:

- لم تسجل هذه الحالة..؟

رد عليها مسؤول الاستقبال في المدينة في شك:

- إذا كنت تعرفين هذا الرجل فأرجو أن تؤكدى لنا إصابته ولو بنسبة

خمسة في المليون.. الفيروس الملعون كما تعلمين..

ردت بقوة:

- لا أبداً أبداً، هو ليس مصاباً، ولكن أحداً وشى به!

نظر إليها الموظف في شك قبل أن تقول:

- طيب، أتاذن لي بجولة في أروقة المحتجزين..؟

هز كتفيه في لا مبالاة قائلاً:

- يمكنك طبعاً، لست أول واحدة تدخل هذه المدينة كما تدخل حديقة

حيوانات وللأسف..!

وهي تتجول في أروقة المحتجزين، قامت تفكر في حيرة، أين يمكن

أن يكون زوجها..؟

إنها قد مكثت بعد أن اعتقلوه ساعة كاملة، قبل أن تقرر أن تلجأ إلى

منصور وتمكث عنده ما يقارب الساعات الأربع، كل هذا زيادة على الوقت

الذي استغرقته رحلتها إلى حدود نيويورك حيث المدينة، وتساءلت في

قلق جدي: أين سيكون..؟

تلفتت كثيراً في الحجر التي ينزوي فيها رجال ونساء عراة، وقد

ارتسمت على وجوههم علائم الحيرة والقهر والبلاهة.

وارتسمت على وجوه بعضهم علائم اليأس والحقد..

من المصاب؟ ومن غير المصاب؟

كل هذا كان سؤالاً يدوي في أروقة المحتجزين، حيث الإجابة عليه

تعتبر حكماً بالبراءة..

أو حكماً بالإعدام..!

- يا الله..!

هكذا رددت رامة وهي تتوقف بغتة وتشهق دهشة، قبل أن تتقدم إلى إحدى الغرف وتقف على جدارها الزجاجي العازل..

مكثت لحظات قبل أن تردد في ذهول:

- جون جولت..!٩٠

لم يكن للمرأة العارية التي تنزوي في ألم في ركن الزجاجاة أن تسمعها بفعل الزجاج العازل، فدقت بقبضتها بقوة وهي تهتف في ذهول:

- ماذا أتى بك هنا يا جون جولت..!٩٠

اقترب منها أحد الحراس وهو يقول في شك:

- هل تربطك بها علاقة ما...!٩٠

التفتت إليه بسرعة وهي تهتف:

- لا بد أن أكلمها، أخرجوها من هنا..!٠

أمسك الحارس بذقنها وقرب وجهها من وجهه، وحدث في عينيها في شك وهي تصرخ:

- هه.. ماذا تفعل يا رجل..!٩٠

قال في لا مبالاة وهو يفلت ذقنها:

- يمكنك أن تستخدمني هذا لو أردت.

وأشار إلى مكبر صوت على جانب الزجاجاة، حيث أسرع رامة

تفتحه بسرعة وهي تهتف في قلق:

- جون جولت، ماذا أتى بك إلى هنا..!٩٠

التفتت المسكينة بسرعة، وافتر ثغرها عن ابتسامه عريضة وهي تركض لتلتصق بالزجاجة، قبل أن تنتبه لنفسها، ويحمر وجهها خجلاً وهي تنثني مدارية بعض أجزاء جسمها وهي تضحك قائلة في حرج شديد بأسلوب هستيري:

- كلنا نساء يا رامة..!٩١

ردت رامة في توتر:

- هل أصبت بالفيروس..!٩٢

هتفت جون بغثة وهي تهب واقفة والدموع تتفجر في عينيها:

- أبداً، هذا ما لن يكون، أخبرني الطبيب اللعين أنني لا أحمل الفيروس بعدما قضى شهراً كاملاً يهددني بالموت حرقاً وهو يتلذذ بتعذيب أعصابي..!٩٣

تهتت رامة وهي تقول: الحمد لله رب العالمين..!٩٤

ساد الهدوء برهة وهما تتبادلان النظر، جون بعينيها المغتبطتين الدامعتين، ورامة بعينيها الحزينتين الغائرتين.

قطعت جون الصمت بهمسها الهستيري:

- لقد افتقدتك كثيراً، لقد عذبوني بشدة، أنا ما رأيت أحداً منذ شهر كامل.

ابتسمت رامة وهي تقول في سخرية:

- لكنك سلمت، حمداً لله..!

ردت جون وهي تتحسس رأسها الحليق في ابتسامة حزن محرجة:

- حولوا شعري الذهبي إلى رماد، وأصبح رأسي صلعة لامعة،

انظري، لقد بدأ ينبت من جديد..

ردت رامة في سخرية:

- وجردوك من ملابسك لتبقي هكذا عارية بصورة مضحكة، أوووووه..

وقهقهت وهي تشير إليها في سخرية حانية، حيث شاركتها ضحكتها

بصورة هستيرية، قبل أن تبتر ضحكتها بالقول في جدية:

- رامة، لقد كانت المحرقة أمام عيني في الليل والنهار..!

وسالت دموعها وهي تقول في خوف:

- سألت نفسي:

ماذا لو كنت مت؟ وأنا بدون دين كالحيوان؟ هل سأدخل الفردوس

أم الجحيم..؟

وتحشرج صوتها وعيناها تضيقان وتتفجران بالدموع قبل أن تتابع

بصوت مخنوق خائف مرتجف:

- لقد خفت كثيراً، أنا أحب الرب كثيراً، أنا لا أريد الجحيم..!

ابتسمت رامة وهي تقول في حنان ورهبة:

- ومن ذا يريد الجحيم يا رفيقتي..١٩

هتفت جون في هستيريا:

- ولكن الجحيم حقيقة، عندما أموت سأدخله حتماً لأنني مذنبه..

لست قديسة ولا طاهرة ولا عذراء!

ردت رامة في ثقة بصوت مرتجف:

- إنك لم تكوني لتقولي هذا الكلام لو كنت مؤمنة.

صمتت جون في تأثر ودموعها تتحدر على وجنتيها ورامة تقول في هدوء:

- لقد حدثتك كثيراً يا جون..

وتنهدت قبل أن تقول في خشوع:

- جون جولت.. ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما

نزل من الحق..١٩١٩

واشتبكت دمعتهما وهي تردد في خشوع:

- ألم يأن..١٩٠

ألم يأن..١٩١٩١٩

أطلق البرفيسور إلياهو قهقهة عالية وهو يدقق النظر في المعلومات

المرتسمة على جهاز الحاسب أمامه..

كان يجلس منذ ساعات ثلاث متواصلة أمام الحاسب الرئيس

لمؤسسة الصناعات الحربية الشاؤولية..

كان معدل تكاثر الفيروس المسخ داخل الرأس الفيروسي المعد للضغط قد وصل حده الأقصى قبل دقائق فقط، وأصبح العالم بالفعل مهدداً بكارثة هائلة في يدي مجنون خطر..!

هتف البروفيسور في جنون:

- لقد تحقق حلمي، حلمي يا أيها العالم القذر، حلمي يا شاؤول الغبية، العالم كله الآن تحت رحمتي، تحت رحمتي فقط، كلكم سوف تخضعون لسيطرتي، وسوف تلبون مطالبتي دون تردد..

وضغط على زر جهاز اتصال أمامه، وانتظر قليلاً قبل أن يقول بصوت مصطنع الوقار:

- حياتنا لشاؤول المجيدة، هل تسمعونني يا لجنة العسكريين..١٩

رد عليه صوت صارم:

- أهو أنت يا إيلياهو؟ ما الجديد في ساعة..١٩

رفع البروفيسور صوته في نشوة النصر قائلاً:

- أخبرتك قبل ساعة من الآن أن معدل التكاثر غير منضبط، بمعنى

أنه يتسارع إلى القدر الذي يجعلني أقول الآن وبمنتهى الثقة:

أنني قد انتصرت..

هتف الصوت في لهفة وحذر:

- اتعني أن الرأس جاهز..١٩

رد البروفيسور في نشوة عظيمة ونرجسية فضيحة:

- هو ما كنت أعني بالضبط..

بعد عمل متواصل لمدة تسعة أيام متواصلة، بجهود فريق عمل لا يزيد عن عشرين رجلاً وامرأة.. وبروفيسور عظيم..!

ساد الهدوء برهة إلا من أنفاس إياهو المتقطعة نشوة وحماساً، عندما رد الصوت في سعادة بلا حدود:

- كل الشعب الشاؤولي سيشارك يا بروفيسور..

فرقع صوت إياهو بضحكة عالية ساخرة وهو يقول:

- تقول سيشاركني، ماذا يعني أن يشكروني أو لا يفعلوا؟!

أنا الآن الوحيد في هذا العالم، من سيسيطر ويحكم، ومفاتيح هذا الرأس الفيروسي في يدي فقط..

ردد الصوت على الطرف الآخر في حذر:

- طبعاً طبعاً، من يشك في أنك تقود شاؤول إلى مجد لم تحققه من قبل، شاؤول ستحكم العالم وتجبره على الخضوع للتلمود، وسنحكمهم كما أمر حاخاماتنا وسطرته قداستهم.. ولن ينسى أحد ما فعلته يا ...

قاطعته البروفيسور في صرامة هستيرية:

- قلت إنني وحدي من يملك الرأس؛ ولذلك، أنا وحدي من سيحكم، وأنا وحدي من سيضع قدمه فوق رقاب الناس أجمع، أنا لم أفن عشر سنين من عمري لأتلقى كلمة شكر غبية في النهاية..

رد الصوت في حذر شديد :

- أين ذهب تفكيرك يا إيلياهو؟ ماذا تريد بالضبط.؟

رد إيلياهو في سخرية صارمة:

- هذا ما كنت أريدك أن تسأل عنه..

دُون طلباتي لو أمكنك ذلك لأنني لن أملهكم أكثر من ساعتين

لتنفيذها فوراً، أو.....

وتفجرت الأزمة الجديدة....!



(٣٦) التمرد..

هتف الرئيس الأميركي في حدة وغضب:

- ماذا تعني بقولك أن فرق الإنقاذ تمردت..؟

رد وزير الأمن الصحي في توتر:

- أعني ببساطة أنهم رفضوا دخول ميشجان وإنقاذ من فيها من

الأبرياء، بسبب وفاة ستين شخصاً منهم في عمليات واشنطن، إنهم
يرفضون الانتحار في الحقيقة.

رد الرئيس في صرامة:

- أتعني أنك تؤيد ما ذهبوا إليه من حماقة..؟

رد الوزير في صوت خافت:

- لو كنت مكانهم لما فكرت بغير ما فعلوه، الحياة هي أغلى ما يملك

الإنسان في الحقيقة، وهي لا تجيء مرتين.

أطرق الرئيس في غضب مفكراً قبل أن يقول في ضيق:

- ماذا عن الأبرياء..؟ من لهم..؟

وبكل بساطة هز الوزير كتفيه قائلاً:

- لا شأن لنا ، إنه قدرهم هم..

وغطت الأنانية وجهها خجلاً..!

لهث عبدالقادر بشدة وهو يراقب نقطة تفتيش عند مدخل ولاية
ميشجان.

كانت الرقابة شديدة للغاية، وكانت وجوه الجنود المكتمين موليه
صوب داخل المدينة.

ازدرد ريقه وهو يسترخي في إعياء شديد تحت أحد الأشجار
البعيدة.

دقق النظر في الجنود الأربعة الذين يدورون بحذر حول النقطة،
وحدث نفسه في توتر ولهائه يهدأ بالتدريج:

- لاشك أن في داخل النقطة عدداً من الجنود لن يمكن تخطيهم.

وامتلأت نفسه قلقاً وغيظاً وهو يستدرك:

- بلى، يمكن تخطيهم..

وزفر وصورة شقيقته تمثل أمام عينيه الجافتين المرتعشتين، وكرر في
إصرار:

- وبمنتهى السهولة أيضاً..

حدق في مسدسه قائلاً في نفسه:

- لم يبق سوى أربع رصاصات في مسدسي، سأقدم..

كان الجنود الأربعة يدورون في رتابة ثم يلتقون كتجمع النمل ليثرثروا
دقيقة ثم يعودون، ولحظتها انتبهوا إلى صوت خشن يقول:

- أيها الرفاق..

التفتوا جميعاً أمام النقطة ليواجهوا الرجل القوي الذي يرتدي ثياب رجال الأمن واقفاً في ثقة وثبات، فتبادلوا النظرات الحائرة قبل أن يقول أحدهم في ارتباك:

- أيها الرجل، لعلك لم تسمع أخبار قبل البارحة..

رد عبدالقادر في ثبات وهدوء:

- بلى سمعتها، وعلمت أن الدخول والخروج من وإلى ميشجان محرم بتاتاً..

هز الجندي كتفيه في تساؤل ساخر، فرد عبدالقادر:

- ولكنني رغم ذلك كله سأدخل الآن..

تبادل الجنود النظرات الساخرة القلقة وهم يهمهمون:

- لا تستطيع ذلك، أنت مجنون..

وانطلق أحدهم يسأل في صرامة:

- أأنت من ميشجان؟

رد عبدالقادر: نعم..

هز جندي آخر كتفيه وهو يقول ساخراً:

- لا تبدو مصاباً، ولذلك فقط سوف نضطر لتقييدك في مبنى

الإنقاذ حتى تصل طائرة الإخلاء التي تقلك إلى المدينة فوراً..!

رد عبدالقادر في هدوء صارم:

- إن شيئاً من ذلك لن يحصل..

رد أحد الجنود في سخرية وهو يقترب منه بعنف:

- دع عنك الترهات يا رجل، تعال معنا إلى المبنى ثم إلى المدينة.. إنك لن..

وتسمرت قدماه في الأرض عندما استل عبدالقادر مسدسه وضغطه

على أذنه قائلاً بهدوء:

- من أبسط قوانين الولايات المتحدة حق الإنسان في تحديد مصيره، وأنا

أتمسك بهذا الحق بقوة؛ وما لم أدخل فسوف أضغط الزناد ببساطة؛ وأنتحر..

تراجع الجندي مبهوراً فيما ردد الآخرون في دهشة:

- مجنون، مجنون..

رد عبدالقادر وهو يضغط فوهة المسدس على رأسه في ألم وصرامة:

- لي شقيقة وحيدة تعيش هنا، إنها بمنأى عن الفيروس، لكنها

محاطة بالوحوش، ولا بد لي أن أنقذ أختي الوحيدة، لا بد لي..

هز أحد الجنود رأسه قائلاً في سخرية مرتبكة:

- لكنك لو دخلت يا عزيزي فلن تستطيع الخروج، إن جنود الإنقاذ

الملاعين قد تمردوا ورفضوا دخول ميشجان تحت أي ظرف، ولذلك ستجد

نفسك لو تركناك تدخل محاطاً بألف وحش ينتظرون امتصاص دمك..

رد آخر:

- هذا لو تركناك تدخل، نحن سننفذ التعليمات ونحميك من اغتيال نفسك، أنت لن تدخل أبداً..

تراجع عبدالقادر وهو يقول مهدداً:

- لحظتها سيروق لي أن أموت بهذا المسدس.

تبادل الجنود نظرات حائرة وهو يتابع في ألم بصوت متهدج:

- لم يكن لي أن أتركها لوحدها فريسة، إنها أختي، إنها بضعة روحي التي تقاسمت معي كل لحظة من حياتي، أنا سأدخل وليكن بعد ذلك ما يكون..

بدت علائم التأثر على الجنود وهم يرون دموعه التي تحدرت من عينيه الصارمتين رغماً، وساد الصمت برهة قبل أن يقطعه أحد الجنود قائلاً:

- لكنك لا تعي ما يعني دخولك، دخولك يعني الموت.

رد عبدالقادر في إصرار:

- أعرف ذلك، أنا أَرْضَى بذلك، افتحوا لي النقطة من فضلكم..

رد آخر في سخرية عصبية:

- يا سيدي، إذا كنت مجنوناً فنحن نعرف عملنا، فكر كثيراً في الموت البشع الذي ينتظرك..

هتف عبدالقادر في ألم ودموعه تخنق كلماته:

- افتحوا النقطة لأنقذ أختي،...

وشهق بقوة قبل أن يقول بلهجة رهيبة:

- أو أموت معها..

تبادل الجنود النظرات المتأثرة، قبل أن يتراجعوا، ويعودوا إلى

الدوران، وكأنهم لا يرون أمامهم أحداً!..

- إنها كارثة جديدة حلت بشاؤول..

هكذا هتف رئيس لجنة الحرب الشاؤولية في غضب وقلق وهو يتابع:

- ما لم نتدارك الأمر فسوف نفيق على الجحيم!..

رد أحد المجتمعين في توتر:

- لا خيار مطلقاً سوى تدمير مبنى المشروع بما فيه الرأس ومنصته

الملوثة المتأكلة..

رد الرئيس في توتر:

- ومن أين لنا برأس نووي هائل كفيّل بحرق الفيروس واستئصاله!..

هل نسيت أن ترسانتنا النووية قد دمرت!..

رد أحد المجتمعين هاتفاً في زعر:

- أنتم تثرثرون، ولم يبق من الزمن المحدد لتنفيذ طلبات هذا الملعون

سوى ساعة ونصف فقط..

رد أحد المجتمعين في قلق:

- لو وعدناه بما يطلب، سنكسب بعض الوقت..

رد الرئيس في صرامة بالغة:

- أيها الغبي، إنه لم يمهلنا ساعتين لنعده، إنه أمهلنا لننفذ خلال

ساعتين فقط..!

رد آخر في قلق:

- أعطوه ما يريد..

رد الرئيس صارخاً في هستيريا:

- من أين لنا ١٩..!

ثلاثة مليارات دولار من خزانة الدولة التي لم تعد كافية لسد جوع

أطفالنا ١٩..!

وجزيرة من مال الدولة التي تخطف من كل الجهات ١٩..!

وحماية مكثفة ووو.. وسخافات بلا حدود، نحن لم نجتمع لنحدد

ماذا نفعل به ١٩! بل لنحدد كيف ندمره ١٩!

رد أحد المجتمعين في لهفة:

- وماذا تقترح أنت ١٩..!

تتهد الرئيس في توتر وهو يقول:

- اسمعوني جيداً، اللعين حدد تل أبيب مكان تجربته فيما لو تمهلنا

في تنفيذ مطالبه، الفيروس ينتشر بشراسة هائلة لو وقعت الكارثة وأطلق

الرأس، هذا اللعين يعرف جيداً من أين يمسك العصا، ويراقب اتصالات المؤسسة العسكرية بدقة باعتبار أنه كان مديرها وأمين سرها يوماً ما، ولذلك كله أيها السادة..

والتفت إليهم متابعاً:

- لأننا مهددون مع العالم بالموت، ولأنه لا مناص من ذلك سوى بإعدام الفيروس مع صانعه فجأة ودون أن يتوقع ذلك، وبطريقة تكفل صهر الفيروس تحت درجة حرارة لا تقل عن خمسمائة فهرنهايت، وبأسلوب يضمن عدم تسرب فيروس واحد إلى العالم الخارجي، من أجل ذلك كله استمعوا إلى آخر خيار نملكه الآن..
واتسعت عيون المجتمعين ذهولاً!..

- أين سيكون بالفعل ما لم يكن هناك!؟

هكذا ردد منصور وهو يضغط دواس الوقود مبتعداً عن مدينة الفيروس، فيما استغرقت رامة في تفكير عميق والتجهم يغزو وجهها ببطء، ومررت لحظات قبل أن يلتفت إليها قائلاً في قلق:

- أرجو أن لا يكون قد أصيب بمكروه، هكذا لن نستطيع معرفة أين هو..

وصمت وهو يركز على وجهها الذي يزداد شحوبه بشكل واضح، قبل أن يقول في قلق:

- ما بك يا ابنتي!؟ وجهك شبيه بوجوه الأموات!

قالت رامة وكأنها تحدث نفسها بمنتهى الحزن والحسرة:

- إنه زوجي وأعرف تهوره، لاشك أنه قاومهم فقتلوه.

رد منصور في حزم:

- لا لا تقولي هذا، إنه بحفظ الله حتماً، ولاشك أنه..

وبتر عبارته عندما اخترقت أذنه صيحة رامة المتفجعة بأعلى صوتها:

- قتلته أنا، أنا وليس غيري، أنا!!!!!!..

اضطرب المقود بين كفيه وهو يردد في قلق وفزع:

- لا يا رامة، لا تقولي ذلك، توقفي عن الصراخ!!..

لم تكن تعي ما يقول وهي تتشبث بشعرها صارخة بأعلى صوتها في

هستيريا والزيد يتكوم على شفيتها:

- من سيفضر لي..؟ من سيفضر لي..؟

أنا الحقيرة اللئيمة، أنا التي قتلته وليس غيري من فعل..!!

هتف منصور في فزع وانزعاج:

- توقفي عن الصراخ يا رامة، هكذا لن أستطيع القيادة وربما خرجت

السيارة عن تحكمي..

كان صراخها الهلع يعلو ويعلو بشكل خطير، في اللحظة التي أدرك فيها

منصور أنها لم تكن تنتمي لعالم الأحياء، على الأقل في تلك اللحظة!!..

(٣٧) الدمار..

ميشجان / الحي رقم ٢٨ / الساعة الرابعة صباحاً :

كانت الروائح الكريهة تنتشر في المدينة بشكل لا يطاق ولا يمكن تصوره، وتخيل أنك تعيش في مكان تعقنت فيه آلاف الجثث، وسالت فيه جداول منته بالدماء الملوثة بالفيروسات، وتتطاير فيه ملايين الحشرات المفترسة..

لقد أصبحت ميشجان قبراً قذراً، حفرة متعفنة، بؤرة للنفايات، وكل ما يمكن أن يدل على منتهى مكان لا يمكن أن يصلح لعيش آدميين.. على الإطلاق..

في أحد بيوت الحي الثامن والعشرين، كان ثمت بيت معروف مميز كثيراً، ببابه الحديدي الصغير المحكم الإغلاق، وحديقته الصغيرة المتاخمة لحديقة البيت المجاور الكبيرة، والتي تحولت إلى كتل صفراء حطيم.

كان البيت شبيهاً بقلعة صغيرة، ولذلك لن تجد منفذاً يمكنك من أن تطلع على ما في داخله، إذ لو دخلت بخطوات متفحصة عبر الممر الصغير المؤدي إلى غرفة النوم الصغيرة، وأدرت رتاج الباب الموصل، لسمعت بالكاد صوت الهمس المخنوق الخائف:

- من هناك...!

وإذ لو تسنى لك أن تدخل الغرفة الموصدة، لتعرفت على شبح امرأة طويلة القامة، تتكوم في الركن في إعياء بالغ، ولعلمت على الفور أنها لم تذق قوتاً مأكولاً أو مشروباً منذ فترة طويلة..

ولتعرفت في وجهها البالغ الشحوب ملا الهلع والرعب الذي يرتسم على وجه من ينتظر الموت بأبشع صورته.. كانت تلك عائشة..

عائشة، بعد أربعة أيام من إغلاق حدود المدينة، ولجئها لمنزل أخيها، ثم إلى منزل رامة الأكثر حصانة بعد أن أصبح الوضع في المنازل الأمريكية العادية بالغ الخطورة، وأصبح كل شخص في المدينة أحد اثنين: إما مصاب مستوحش، أو منتحر..

وإما سليم ينتظر الافتراس..!

- من هناك..!

هكذا ارتفع صوت عائشة المخنوق عندما تنهت إلى سمعها صوت طرقات قوية مذعورة على باب المنزل الصغير..

تمت في نفسها المذعورة في فزع:

- أياكون شخصاً يريد اقتحام المنزل وافتراسي؟ رياه..!

في تلك اللحظة دوى في أذنها صوت ارتطامات قوية متتابعة، فأطلقت صيحة بكل ما بقي من قواها الواهنة وهي تزحف إلى باب الغرفة وتحكم قفله.

ارتفع صوت الارتطام مرة أخرى، فصرخت بقوة والدموع المذعورة تتفجر في عينيها، وهي تسحب كرسيّاً خشبياً بصعوبة وتطرّحه أمام باب الغرفة، وجلست هناك تتفضّض ذعراً هائلاً وقلبها يتفجر هلعاً بين أضلاعها..

هذه المرة اقترب صوت وقع أقدام قوية من الغرفة، فهتفت بكل الذعر في قلبها والدموع تخنق صدرها:

- رياه، رياه، احمني يارب، احمني يارب.

وصرخت في هستيريا رهيبة عندما ارتفع صوت دقات قوية على الباب، وقفزت تروم الهرب بما بقي من قواها الخائرة وهي تصرخ:

- رياه، يا رياه..

تبينت صوتاً ذكورياً خشناً يهتف بكلام غير مفهوم، فاقتربت من النافذة في يأس رهيب وهي تشهق بشدة والدموع تحاصر أنفاسها، ورددت عينيها الجافتين في النافذة وهي تسأل نفسها:

- هل تقفز لتواجه جحافل الوحوش والجثث المنتنة؟

أم تبقى ليفترسها الوحش الذي جاء بنفسه إلى ملجئها؟

في تلك اللحظة فقط طار الكرسي الخشبي من أمام الباب الذي انفتح بركة قوية ضاع صوتها في صرخة عائشة المتواصلة المدوية.

واقترح الشخص الغرفة هاتفاً في جذل:

- عائشة .. شقيقتي..!

والتحم الذهول بالدموع..!

- سامحني يا منصور..!

هكذا رددت رامة في استعطاف والدموع تغرق وجنتيها وهي تتابع:

- إنها ستكون آخر مرة...!

تهده منصور قائلاً في ضيق:

- يارامة، أنا لا أعاقبك عندما أعرض عليك الذهاب للمستشفى، أنا

أريد مصلحتك، وما حصل لك في السيارة يمكن أن يحصل لك مراراً
ويودي بحياتك..

هزت رأسها بقوة وهي تقول في استعطاف:

- لست مريضة، كل ما هنالك أنني أصاب بحالات عصاب شديدة..

قاطعها منصور في حزم:

- مع تشنجات غريبة قد تؤدي بحياتك؛ ولذلك فقط، سوف آخذك

للمستشفى وأعرضك على طبيب.

ردت في استعطاف وهي تضم كفيها في خوف:

- أنا أراجع المستشفى في الحقيقة، ولقد عالجت تلك الحالة، وأنا

أحسن كثيراً بحمد الله، لا حاجة لي بطبيب.

تنهد منصور قائلاً في صرامة:

- هل أتركك هكذا في خطر؟ هذا ليس منطقاً..

ووقف وهو يقول في صرامة:

- هيا بنا إلى المستشفى يا رامة، يجب أن يراك طبيب الأعصاب

حتى أطمئن..

قفزت من كرسيها وهي تهتف في استعطاف:

- لا يامنصور، إنهم سيحتجزونني حتماً كما فعلوا بي مراراً، أرجوك

لا تفعل..

رد عليها في صرامة:

- وماذا في ذلك؟ إذا كنت تحتاجين أن تبقي في المستشفى فيجب أن

تبقي كما يطلبون.

أدهشه أن هتفت في اعتراض غاضب خائف:

- يا منصور لا تكن سخيماً هكذا، أنا قلت لن أذهب..!

رد عليها في صرامة شديدة:

- وأنا قلت ستذهبين وإلا فسوف أخبر بأنك من ميشجان..

ساد الصمت برهة قبل أن تقول رامة في استعطاف:

- منصور لم تفعل ذلك؟ هل تضايقت مني؟

تململ وهو يقول معترضاً في دهشة:

- طبعاً لا ولكن..

قاطعته بقولها في رقة غاضبة:

- أخبرتك أنني أتناول دواء، وأنني في طريقي للشفاء إن شاء الله،

لماذا تصر على أن أرى طبيباً مع أن حالتي قديمة وعادية جداً لي..؟

لاشك أنك تريد التخلص مني بأي وسيلة ولذلك فقط سوف أرحل..!

اهتز وهو يراقب يديها الصغيرتين تلوحان في وجهه في غضب ولا

شعور، قبل أن يقول في اعتراض:

- لا تفهمي تصرفي هكذا، أنا بمثابة أبيك، وأخاف عليك بشدة،

ويجب أن أقوم بواجبي في حمايتك والحرص عليك ريثما يعود زوجك.

هتفت في اعتراض وهي تجهش بالبكاء:

- إذا كنت تحبني فعلاً فلا تجبرني على الذهاب للمستشفى، أرجوك

أرجوك..!

وانفجرت تبكي وهي تبتعد عنه وتدق الأرض بقدميها بعصبية غريبة..

لحظتها تنهد والإشفاق يأخذه بها قائلاً في ضيق وتبرم: -

- حسناً يارامة، نحن لن نذهب.. كفي عن البكاء وامسحي هذه

الدموع البغيضة..

تلوت في مقعدها وهي تفرك عينيها بشدة بينما ظل يدور في الغرفة

في قلق قائلاً:

- والآن يجب أن فكر في أمرين مهمين:

- زوجك كيف نجده، وجهودنا التي ضاعت سدى لإقناع الحكومة
البغيضة بضرب تل أبيب.

لو كنت أعلم أننا سنجد كل هذا التجاهل لما أفنيت أسبوعين من
عمري في عمل متواصل لتهيج الجماهير، لا جدوى في النهاية، ولا أي
ردة فعل صغيرة أو كبيرة.

ولوح بكفه في توتر قائلاً:

- على أية حال، دعينا نهتم بكيف نجد زوجك المسكين، دعيني أسأل:

- هل كان عبدالقادر يحمل معه جهاز اتصال، هاتفه المحمول مثلاً؟
ردت رامة في حيرة:

- كل ما بقيت معه هو أقل من ساعة، لم أتمكن من ملاحظة شيء.

رد منصور في حماس:

- حسناً يارامة، دعينا نجرب الاتصال، ربما عثرنا عليه.

هزت كتفها في حيرة وهي تقول:

- ماذا لو لم يستجب؟

أنا أكره المفاجآت البغيضة.. وأكره الانتظار.. وأكره القلق..!

رد منصور في حزم:

- كوني متفائلة..

تجاهلته وهي تتابع في حسرة وألم:

- ماذا لو كان قد قتل أو..

وبترت عبارتها عندما دق هاتفها المحمول، فالتقطته وهي تسترد

أنفاسها وتتنظر في لوحة الأرقام، لتتجمد حروفها على شفيتها..

وترفع عينيها الطافحتين بالذهول إلى منصور وهي تهتف بصوتها

المخنوق:

- إنه هو...!

وكررت في ذات اللهجة:

- إنه عبدالقادر..!

- سيبدأ العد التنازلي لإطلاق الرأسين النوويين بعد ثلاث وسبعين

ساعة من الآن..!

هكذا قال وزير الدفاع الأمريكي وهو يهز رأسه في أسف مصطنع،

بينما كان الرئيس يهز ساقه في عصبية وهو يستمع في ضيق وملل إلى

التقرير الذي يتلوه عليه وزير دفاعه كل يوم بخصوص تطهير ولايتي

واشنطن وميشيجان..

وشرد بذهنه بعيداً بعيداً، عما كان يقوله الوزير..

إلى سنوات مضت من عمره الطويل..

كان يكره اليهود بشدة كما علمته أمه الراهبة الكاثوليكية، وكما كانت تتلو عليه من نصوص إنجيلها ما يحرضه على بغضهم وحب التخلص من نفوذهم..

رغم أنه كان بروتستانتياً أصولياً شجاعاً..
كانوا يخيفونه بنفوذهم الاقتصادي الهائل، وقوتهم السياسية المخيفة..

حتى الإنجيل، غيروه ليحض الناس على محبتهم.
لقد أجبروه بذلك الخوف على الخنوع لهم كثيراً..
وعلى أن يخلف ما وعد به نفسه من كراهيتهم..
كيف لا؟ وهم الذين رفعوا نسبة الأصوات لصالحه في الحملة الانتخابية الصاخبة التي كسبها ضد غريمه المسلم..؟
إنه ليشعر بعار هائل، ويخزي مضاعف لما حصل في فترة رئاسته من النكسات المتتابعة لعلم بلاده..

فالدولار سقط سقطة مروعة، والشعب يعيش حالة تمرد وغضب شديد، والوضع الاقتصادي تدهور بشكل مخيف، وأصبحت البلاد مهددة بالجوع إضافة لما يهددها به فيروس المسخ من الدمار..
وحدث نفسه في انتخاء:

- كل هذا فعله اليهود، فماذا فعلت..؟

وتنهده وهو يتابع في نفسه:

- آن الأوان لأرفع الظلم عن شعبي المظلوم، آن الأوان لأنتزع الشوكة المغروزة في خاصرة العم سام منذ الحرب العالمية وإلى الآن، آن الأوان لإعدام كيان صهيون بالكامل..

وكرر في رغبة عارمة في الانتقام:

- إلى الأبد...!

انتبه لصوت وزيره يقول:

- هل كنت تحدثني يا سيدي..؟

رد الرئيس في غضب وصرامة:

- نعم، كنت أقول أن على العالم الأمريكي أن ينتقم من اليهود انتقاماً صارماً، يجب أن يعلموا أن أميركا تعرف كيف تلعب لعبتها، وتحمي شعبها، وتقاتل أعداءها جيداً..!

رد وزير الدفاع:

- بعملية عسكرية في شاؤول مثلاً..؟

رد الرئيس:

- بل برأس نووي يقضي على البقية الباقية منهم في فلسطين..

رد الوزير في حذر:

- سيدي، كونك تنطق فلسطين، يعني اعترافاً غير مباشر بدولة غير موجودة...!

رد الرئيس في انتخاء:

- بل هي لم تختف من الوجود منذ ذاك العهد، ومن الآن سوف أصدر أمراً رئاسياً سامياً بأن تكون أميركا أول من يعترف بدولة فلسطين في هيئة الأمم..

وتتهد قبل أن يقول في غضب:

- وأمراً رئاسياً آخر بأن تضرب تل أبيب كما طالب الشعب المجروح..!

رد الوزير في سرعة:

- هذا يحتاج إلى وقت وجهد كبيرين، إنه خيال يا ..

قاطعة الرئيس وهو يغادر مكتبه بسرعة:

- سوف أستخدم كافة حقوقي الرئاسية في اتخاذ هذا القرار، مهما

كلفني ذلك.. ولو تفجرت فضيحة باسمي في أرجاء الكون كله..

- آن للولايات المتحدة أن تصلح أخطاءها الكبيرة..!

وتابع في غضب:

وبمنتهى السرعة..!

(٣٨) البروفيسور المجنون..

انطلقت قهقهة مجنونة طويلة في مبنى الدراسات العسكرية، دوى صداها في المبنى الفارغ بشكل واضح..

كانت هذه الضحكة ترن أمام منصة رأس الفيروس المتأكلة، والتي انتصب فوقها الرأس الفيروسي الضخم، وقد آذن بإبادة الجنس الآدمي بصمت، والفيروسات النشطة تعمل داخله، وتلهو فوق غلافه المتآكل دون كلل..

أمام هذا الرأس وقف البروفيسور إياهو وهو يبني أحلامه الغريبة..
إياهو كان طاغوتا رهيباً، يحلم بأكثر مما يحلم به الشيطان، ويتمنى أن يملك رقاب العباد كلهم.. كلهم .. بلا استثناء..!

دون أن يفتر، كان يعمل في المؤسسة منذ عشر سنوات، وإذا قد لقي الدعم اللازم من وزارة الحرب المنهارة، فقد نجح..
أيما نجاح..

نجاح يحسده عليه الشيطان..

كان يجلس أمام حاسوب المؤسسة الرئيس، والساعة تحسب أمامه:

بقي خمس وأربعون دقيقة ليتحقق ما أريد وإلا..

وانطلقت قهقته المجنونة مرة أخرى وهو يتأمل زر الإطلاق الذي
يتربص بكل قسوة..
وكل صمت..

أطرق رئيس الحكومة الانتقالية الشؤلية في خجل ومسكنة وهو يتابع:
- مستعدون لتقديم تنازلات مالية وسياسية..
كان رئيس الحكومة الانتقالية قد وفد إلى مقر رئاسة القوات الإسلامية
عارضاً على القائد الأعلى للقوات الإسلامية ما جعله يصيح مبتهجاً:
- عرض شهى ومغري..
هكذا صاح القائد الأعلى للقوات الإسلامية في ابتهاج شديد وهو
يدق بقبضته على طاولة الاجتماع، فيما بقي المجتمعون يتبادلون نظرات
ساخرة وهم يهمهمون:
- ما أعجلك أيها القائد....!
وقف وهو يهتف في حماس غاضب:
- أية عجلة أيها الحمقى مع احترامي..
منذ متى كانت قوات العدو تطلب منا التعاون..
إنها سابقة تاريخية، شأؤول اللعينة تطلب منا العون في مواجهة
بروفيسورها وتسمون ابتهاجي عجلة..
.....

احتقن وجه رئيس الحكومة الانتقالية، فيما رد أحد المجتمعين في حذر:

- قد تكون مؤامرة يا أيها القائد..!

رد القائد في تحد:

- فلتكن مؤامرة، ما الذي سيضيرنا نحن...!

أعطوني أي احتمال يجعلها مؤامرة..

ألا تتذكرون أن عرض ضرب تل أبيب كان سارياً ومطروحاً من قبل

أن يعرضه علينا اليهود...!

اتسعت عينا اليهودي في رهبة مدهوشة، بينما التفت إليه القائد

هاتفاً في سخرية صارمة:

- الأمر الوحيد الذي سيتغير هو أننا سنجد حلاً لمشكلة أصدقائنا

في شاؤول، حلاً ناجعاً في خلال ساعة وسبع دقائق من الآن فقط، وذلك

بمقابل مغر..

رفع اليهودي رأسه في امتنان قائلاً:

- نشكركم جميعاً..!

فهقه القائد هاتفاً في سخرية:

- لا شكر على واجب يا عزيزي، والآن سيتوجب عليك أن تجري

اتصالاً بوزارة حربك المؤقتة، وتعلن فيه ما سنمليه عليك بعد اجتماعنا

الروتيني القصير..

وكرر في نشوة الانتصار:

- إعلان نهاية الكيان الصهيوني في الأرض المقدسة..!

ودوت تكبيرات النصر..!

كان عبدالقادر يدور في عصبية وفزع في أرجاء المنزل الصغير، كان قد وقع في مصيدة الفيروس المسخ وأيقن بعدها أن لا أمل في الخروج من ذلك الفخ..

لم يدر لم يشعر بالنشوة رغم أنه ينتظر الموت الحتم؟! كان ذلك الشعور ينفجر في صدره كلما ألقى نظرة على أخته التي تتلوى جوعاً وعطشاً، دون أن يكون في المقدور أن تتناول ما يسد رمقها بعد أن تلوثت مصادر الأكل والشرب تماماً. كان يدرك كل ذلك وهو يدور في المنزل عبثاً بعدما تحطمت كل آماله..

إنه لو خرج بها ما وجد وسيلة مواصلات تنقله.. ولو مشياً معاً لقابلهما جيش من المستوحشين الذين يتراكمون جنوناً ويتلوون ألماً على الطرق، ولربما أصيبا بعضة حشرة أو كلب مسعور أو قطة، فكانت النهاية..

لذلك كله كان عليه أن ينتظر أحد أمرين:

الفرج الرباني..

أو الموت..

انتبه لصرخة أخته الطويلة المذعورة، فهرع يركض وهو يهتف:

- ماذا يجري..؟!

وتسمر مكانه وهو يرى ذلك الوجه القبيح الذي يطل من النافذة

المسدودة بالحديد وهو يلوح بكفه في جنون هاتفاً:

- سوف يروق لي التهامكما..

وبتر عبارته بصرخة ألم هائلة وهو يمسك رأسه بكلتا يديه ويقع على

الأرض متلويماً..

أسرع عبدالقادر يغلق النافذة بسرعة وهو يلوح بمسدسه هاتفاً:

- من الأفضل لك أن تبعد قبل أن أرديك قتيلاً..!

صرخ المسخ في ألم رهيب والدماء تتزف من فيه:

- اقتلني، اقتلني لعلني أرتاح من هذه الآلام الفظيعة.. اقتلني

أرجوك..!

زعق عبدالقادر في فزع وصرامة:

- قلت ابتعد أيها اللعين..!

هتف المسخ في استعطاف وألم رهيب:

- أرجوك، ارحمني، اقتلني يا عبدالقادر، الآلام تعصف بجسدي بلا
رحمة منذ يومين..

وبتر عبارته بصيحة ألم رهيبة فيما بقي عبدالقادر يردد في ذهول
وخوف:

- كيف عرف اسمي يا عائشة..!

رددت في صوت مبحوح مريز مزقته الدموع المذعورة:

- إنه.. إنه أمير..!

عقدت الفاجعة لسانه وهو يحرق في الوجه الذي استحال إلى اللون
الأخضر، والعينين المحتقنتين بالدماء، والجسم الناحل المرتجف بشدة..

بالكاد تعرف ملامح رفيق عمره وزوج أخته من بين تلك الدموع
الأليمة التي تتحدر على وجنته القذرة بالدم..

واهتز بقوة المصيبة وهو يسمع توسلاته له بأن يرديه قتيلاً..

تحدرت الدموع على عارضيه الأشقرين وهو يردد في ألم وحسرة:

- صبراً يا أمير..

صبر جميل والله المستعان..!

وأغلق الستارة..!

هتفت رامة في ألم وإصرار:

- أنا التي فعلت كل ذلك، ولا بد لي من تكفير عن خطيئتي أياً يكن..
رد عليها منصور في غضب:
- دخول ميشجان يعني الموت يا رامة..
هتفت والدموع تغرق وجنتيها:
- قوات الإنقاذ تمردت، أنا لم أتمرد، وسأنقذه بنفسى..
قهقهه منصور في عصبية:
- هذا لو وجدت من يسمع كلامك أيتها الصبية الرعناء، أو لو وجدت
من يساعدك في فكرتك الأرعن..
- متى تفيقين من غباوتك..! من تهورك العظيم...
ردت في تحد وإصرار:
- عندما أرى شريك عمري أمامي، عندما أنقذه من مأزقه..
وصرخت في هستيريا:
- أو أموت معه يا منصور، إنه ليس من المنطق إطلاقاً أن أبقى هكذا
بأنانية وحيوانية...!
- زعم منصور في وجهها وهو يلوح بكفه:
- اصمتي يا هذه الصبية الرعناء، أنا أول من سيمنعك من هذه
الغباوة..
- كزت فكيتها في ألم وهو يقف قائلاً في صرامة:

- أخبريني يا بنت! ماذا ستفعلن لو ذهبت هناك..!

كل ما هنالك أنهم سيعلمون بأنك من ميشجان وسيقبض عليك
وتذهبن للمدينة وتبقين هناك شهراً مخلوقة الرأس عارية الجسد..!

أنت امرأة ضعيفة، كفي عن تخيلاتك وهلاوسك..!

صرخت في ألم:

- وزوجي..! زوجي الذي أعدمته بنفسه..!

ردد في حزم:

- ذهب إلى هناك بقدميه.. قدره أن يموت هناك يا رامة..!

صرخت باكية وهي تغطي وجهها بكفيها:

- لا.. لا.. لن يكون..!

هتف في صرامة:

- بل سيكون.. الرجل ميت ميت.. وعليك أن تعتبره ميتاً من الآن..

وخفض صوته بلهجة ذات مغزى:

- وتلتفتي لمستقبلك.. لحياتك.. بعيداً عن هذا الزحام والفوضى..!

صرخت:

- لا يا منصور.. لا تقل ذلك..!

كرر في صرامة:

- أنا أتكلم من واقع.. أنا أرفض أن تضحي بحياتك من أجل رجل ميت..

هتفت في ضراعة:

- لم يمت بعد...!

فهقه في عصبية قائلاً:

- وريثما تذهبين هناك وتجدين نفسك محاصرة بالفيروس، ستجدينه

قد مات..!

زعقت وهي تهجم عليه بأظفارها:

- لماذا تريده أن يموت... لماذا!!!!!! ١٩..

هتف في هياج وهو يزيح يدها بعنف:

- لأنه لا يستحقك.. هذا الأحمر لا يستحقك.. أنا لن أنسى لحظة

أنه قد هزئ بعروبتنا معاً!

هتفت منتحبة وهي تدق الأرض بقدمها:

- لكنه زوجي.. أولاً وأخيراً زوجي..!

ردد منصور وعيناه تجحطان هياجاً:

- هزئ بعروبتنا.. أنا وأنت.. أنا وأنت يارامة.. عروبتنا.. أصلنا..

وكان يهينك.. وكان يسيء لك..

وقد منعك من العمل والقيادة.. وقد فعل كل هذا وتريدين إنقاذه..!

هتفت رامة بكل ما تبقى من صوتها:

- ليتني أفهمك يا هذا.. ليتني أفهمك...!

رد عليها وهو يقف أمام باب غرفتها في منزله الصغير:

- ادخلي إلى غرفتك واخدي للنوم فوراً، لو حاولت أيه حماقة فسوف أخبر الشرطة ليمنعوك!..

نظرت إلى ساعتها في غيظ مكتوم، ووقفت متجهة لغرفتها وصفقت بابها متجاهلة صوته الصارم:

- هل كلامي مفهوم يا بنت!؟..

وتناهى إلى سمعها صوته الموبخ الهائج وهي تكرر في نفسها:

- لقد كبر في السن، لم يعد يحسن التفكير!..

واستلقت على فراشها وهي تفكر قبل أن تنتبه بعنف على صوت قفل الباب بالمفتاح من الخارج.

لقد فعلها كما توقعت، واستطاع حبسها ليمنعها من تنفيذ ما تريد ريثما يتم تطهير الولايتين بعد ست وستين ساعة من الآن، وكما أعلن في الأخبار المحلية.

وقفت وهي تكظم غيظها ما استطاعت، ونظرت إلى نافذة الغرفة وهي تبتسم قائلة في سخرية غاضبة:

- سوف ترى يامنصور ما ستفعله الصبية الرعناء!..

واكتب بعد ذلك ما سيحصل أيها القارئ!..

(٣٩) الانتقام الزعاف..

— بال - سويسرا / الخامسة فجراً:

في أحد المنازل الصغيرة الجميلة في المدينة، حيث السكون الجميل، وزقزقات العصافير تبدأ تشقق الصمت..

داخل المنزل، كان السكون يسود بشكل مخيف، فالظلام المهيّب كان يفرق المنزل، والنوافذ الموصدة لا تكاد تتحرك ستائرهما، والأبواب المغلقة توحى بخلو البيت من أي مخلوق لولا صوت وقع أقدام ثقيلة حذرة في إحدى الغرف..

كان الرجل الذي يخرج من دورة مياه الغرفة يتلفت في زعر حقيقي وهو يتنفس بعمق وبيبء.. ويحذر!

مشى بخطوات هادئة ثقيلة إلى سريره قبل أن يستلقي عليه في ارتياح متوتر، وكأنه ينتظر أمراً مفاجئاً سيهجم عليه.

في الساعات القلائل التي أمضاها في هذا البيت الصغير، كان عليه أن يحدد مكان إقامته بعد ساعتين فقط، إذ لا بد أن يغير مكانه على فترات عشوائية حتى لا يقع في أيدي من يخافهم

لجوؤه السياسي إلى سويسرا لم يكن ممكناً باعتبار أنه مطلوب من قبل الشرطة الدولية بوصفه مجرم حرب..

كان ذلك الوجه القردي المذعور هو ريتشارد مزراح، الرئيس
الشاؤولي المطاح به..

في خلال أربعة أيام فقط، غير مكان إقامته سبع مرات، خوفاً
وذعراً، ومن يضل الله فما له من هاد..

كان يوقن أنه واقع لا محالة، ولذلك كانت كل دقيقة تتسلخ من عمره
تقبض صدره بالفزع والرعب أكثر..

تمنى لحظة لو أنه عاد إلى الورا قليلاً ليصلح بعض أخطائه، لعل
من سامهم سوء العذاب يوماً يرحمون خوفه ورعبه الهائل اللحظة..
وخاطب لحظتها نفسه بكل حسرة:

- هل رأيت ماذا فعل بك الخوف يا مزراح..؟

الخوف الذي كنت تستمتع برؤيته في أعين من أذقتهم النكال في
سجونك الرهيبة وأقبيتك الملعونة؟

تحدرت دمعتان قبيحتان على وجنتيه المتغضنتين وقلبه يدق بعنف
وحسرة..

ترى هل تعرف القروود تأنيب الضمير..؟

بغته..

مزق سكون الفجر صوت عواء كلاب..

قفز مزراح من سريريه وسحب مسدسه والدموع المذعورة تتفجر في عينية المسهدتين، وارتجاف عظيم ينفذ كل خلية من خلاياه..

عاد السكون يلف المكان بالغموض..

لكنه ظل متسماً في زاوية الغرفة لا يتحرك منه سوى عيناه المتسعتان ذهولاً وذعراً..

مرت دقائق الصمت الثلاث وقلبه يقفز إلى حنجرتة؛ قبل أن يحدث نفسه:

- هل تكون كلاب عسس..؟ لم جاءتني بالذات..؟

تردد كثيراً ماذا يفعل..؟ هل يبقى..؟ يخرج ويقاوم..؟

يستسلم..؟

حدث نفسه في شجاعة مرتبكة:

- إنه لمن العار أن يبقى العسكري الناجح هكذا مكتوف الأيدي..!

وقبل أن يحرك قدمه للخطو، دوى في أذنه صوت انفجار قوي في ركن المنزل الشرقي، فأطلق صيحة رعب هائلة:

- يا قتلة..!

وانهارت شجاعته وهو يسد أذنيه ويلوذ بالفرار كجرذ قذر، ومرت ثوان قليلة قبل أن ينفجر ركن المنزل الغربي والشمالي معاً، في انفجارين

سحقاً جانبیه ودفعاه ليرتطم بالجدار الجنوبي الذي انفجرت عنده
القنبلة الأخيرة أمام وجهه..

حيث انطفأ النور الضئيل في عينيه أخيراً..
ودوت تكبيرات الانتقام..!

دق منصور باب غرفة رامة وهو يقول ساخراً:
- إفطار شهى لصبيتنا السويرمان..
ومكث قليلاً ينتظر قبل أن يدق قائلاً في حنان:
- رامة يا صغيرتي، اخرجي بسرعة لتتناولي الإفطار، لا تدعي
مشاجرتنا البارحة تفسد رائحة الخبز الفرنسي الطازج..
ومد يده ليدخل المفتاح في الباب ويفتحه قائلاً:
- أنا سأنتظرك يا عزيزتي، لا تطيلي العناد، وإلا التهمت الإفطار
وحدي..
وحدي..!

واستدار متجهاً للمطبخ قبل أن يقف متسماً عندما انقبض قلبه
بشعور غريب، فاستدار إلى باب غرفتها وتأمله قائلاً في سخرية متوترة:
- أوه، لقد كان مقفلاً طوال البارحة، كيف ستهرب..
واقترب بخطوات حذرة ليدير مقبض الباب برفق، ويدفع الباب
ببطء، ليجد الفراش الصغير مرتباً، ويرى النافذة الصغيرة وقد انتزعت
زجاجاتها..

وقد اتسعت لجسد صغير نحيل كجسم رامة..
بقي منصور متمسراً في مفاجأة وهو يردد في إعجاب:
- عمل يدل على إصرار لن يمكنني كبح جماحه أبداً..
وتابع وهو يخرج من الغرفة في حماس غاضب:
- وإن أمكنني حراسته فقط..

لهث عبدالقادر في إعياء شديد وهو يسقط بجوار أخته المتمددة
وهي تتلوى ألماً وجوعاً وعطشاً نظر إليها بعينين فارغتين، قبل أن يكف
ارتجاجها بغتة، فقفز وهو يصرخ:

- عائشة.. أختي.. عائشة.. ماذا دهاك..؟

وهز كتفها بقوة قبل أن يلصق أذنه بصدرها الذي كانت أنفاسه
تتقطع وتختنق بالتدريج..

فهتف في مرارة:

- لا يا عائشة..!

وركع بجوارها وهو يحاول إسعافها في يأس، قائلاً:

- لا عليك، سوف تستعيدين تنفسك بحول الله تعالى...!

وبدأ في إجراء عملية تنفس صناعي لها، قبل أن يلهث في إعياء
شديد ويسود كل شيء في عينيه بغتة..

كان آخر ما يتذكره لحظتها، يده التي اشتبكت بيد شقيقته وهو يهوي على الأرض مردداً في حسرة:

- يا أختاه..!

واستحال كل شيء إلى الرماد..!

- ولماذا تريدان رداء فيروسياً واقياً يا آنستي رغم أنه باهظ الثمن..؟
هكذا رد مسؤول مخزن الأردية الفيروسية الواقية في مدينة
الفيروس على رامة التي اضطربت قائلة:

- أسباب كثيرة يا رفيقي، منها أنني لا أشعر بأمان أبداً بعدما حصل
في الولايتين المنكوبتين..

قاطعها المسؤول في حزم:

- لكن المشكلة حلت تماماً، وسيتم تطهير الولايتين بعد يومين أو أقل
من الآن..

ردت في توتر:

- عندما أكون مطمئنة تماماً فسوف أجعل هذا الرداء للذكرى، ثم
إنني صحفية ولي اهتمامات فنية، قد أستخدمه في مجال عملي كثيراً،
وقضية الفيروس موضوع شيق يصلح كثيراً لأن يكون مادة عمل
سينمائي ناجح..

فهقه المسؤول قائلاً في تودد:

- يا للفتنة ذات الخيال الجامح!

أنا سوف أصرف لك رداءً واقياً واحداً تبعاً لأوامر عليا، وليس ثلاثة
كما طلبت..

ردت في ستجداء ملهوف:

- لزوجي وابننا يا رفيقنا.. أنا أرجوك..!

هز رأسه بالنفي قائلاً في حزم:

- زوجك وابنك يأتیان شخصياً لأخذ نصيبهما..

ردت في استعطاف:

- لكنهما عاجزان، وسوف أدفع القيمة مضاعفة لو أردت، أرجوك يا
رفيقي..

قاطعها وهو يناولها صندوق الرداء قائلاً:

- الرداء يا فاتنتي، مقابل ألف وثلاثمائة دولار بعد الخصم..!

صمتت في يأس قبل أن تقول:

- أرجوك يا هذا..!

هز كتفيه وهو يغمز بعينه في وقاحة، فاهتزت وهي تقول في غضب:

- شكراً لك..!

وكررت في غضب:

- شكراً لك..!

(٤٠) الذلة أينما ثقفوا..

انطلقت صافرة جندي الحراسة العربي المسلم وهو يهتف من خلال مكبر الصوت:

- إلى الأمام أيها الفوج فوراً، هذا يكفي لهذه القافلة..

تعالّت صيحات المستوطنين اليهود:

- يجب الإسراع يا سيدي، يجب أن نغادر..!

رد عليهم من خلال المكبر في غلظة:

- ألا ترون أيها القطيع الغبي..؟ إن كل سيارة تحمل من الراحلين ما

يزيد على ضعف حملها..!

تعالّت صيحات الأطفال والنساء والرجال..

هؤلاء هم إخوان القردة والخنازير في تل أبيب..

وقد تكلفت حكومتهم المنسحبة بإخلائهم منها قبل تطهيرها بالسلح الشامل

الدمار، بمعاونة القوات الإسلامية المرابطة في الثغور التي افتتحت..

كانوا يقفون صفوفاً طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة على طرف

المدينة بانتظار أدوارهم للركوب في قوافل الرحيل إلى خارج الديار المقدسة..

حيث الجوع، والعطش، والعري، والمرض.. والموت!

أعطتهم القوات الإسلامية مهلة مدة يومين لتفريغ المدينة من السكان بأي طريقة..

من كان محظوظاً، فقد حصل على رقم يمكنه من الركوب في الحافلات المزدحمة، حتى ينزل في محطات مؤقتة وفرتها حكومتهم المنسحبة في الدول الحيادية..

ومن كان أقل حظاً فهو يقف أمام مكتب الحجز في صف طويل لا آخر له ليحصل على رقم خاص، فيما الدقائق تركض بلا توقف نحو موعد التطهير..

أما من كان أكثر ذكاء وأقل حظاً، فقد اتخذ من رجليه وسيلة لعبور نقاط الحدود المراقبة حول المدن..

لأن السيارات كانت تطالب بالوقوف ساعات طويلة أمام نقاط التفتيش، قبل أن تطالب بالرجوع، أو يسمح لها بالعبور نادراً..

كل هذه الذلة والمسكنة عادت لتضرب عليهم من جديد..

ليعيشوا حياة سوم العذاب مرة أخرى..

وليذوقوا ما اقترفته أيديهم النجسة..

وليبسهم الحق من جديد..

ويهتف الناموس الكوني من جديد:

﴿وَلَقَدْ بَقِيََتْ كَلِمَتَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

وكان وعد الله الحق..!

ضغطت رامة دواس الوقود منطلقة بقوة عبر المخرج النهائي المؤدي

إلى ميشجان، وتتهدد بقوة وهي تتلفت قائلة في نفسها:

- كل شيء موحش ومثير للحزن، حتى الطريق إلى هنا أصبح

مهجوراً..!

وزفرت في قلق وحزن متابعة:

- هل سأنجح..؟! تلکم خطتي..!

تحسست للمرة المائة زجاج سيارتها المصفحة التي استأجرتها

لعملياتها الإنقاذية، وحدثت نفسها قائلة:

- هي الفرصة الوحيدة هذه المرة، فإما النجاة بحول الله، وإما الموت

المحقق..!

وبترت عبارتها وهي تقول في دهشة:

- هه.. من يقف هناك..؟!

وخففت سرعة السيارة وهي تحقق في الرجل الواقف بجوار سيارته

كان ينتظر شخصاً على المخرج، وحدثت نفسها بأنه مسخ ينتظر فريسة

بطريقة سهلة، ولذلك دق قلبها في عنف وهي تقول:

- لو كان كذلك، فلسوف أطيّر بكل سرعتي..!

خفت السرعة لتقترب من الرجل الذي التفت جميعاً في اهتمام،
قبل أن يهتف:

- رامة...!

حبس الذهول كلماتها في حلقها وعيناها تتسعان على آخرهما،
عندما أوقفت سيارتها قبل أن تقول:

- ما الذي أتى بك يا منصور..!

رد عليها في صرامة حانية:

- أنا الذي يفترض أن يسأل هذا السؤال..!

ردت عليه وهي تتشبث بالمقود في خوف:

- كيف فكرت بأن تقابلني هنا..!

كيف وصلت إلى هنا بهذه السرعة...!

رد عليها في صرامة ساخرة:

- أبداً، كنت قد أخبرتني بنيتك البارحة، عندما افتقدتك، لحقتك،

هذا كل ما في الأمر..!

ردت في جمود:

- وماذا تريد..!

رد عليها في وله مكتوم:

- أرافقتك .

ازدردت ريقها وهي تقول في خوف:

- وما شأنك..! عد إلى نيويورك فوراً فلا داعي لمجيئك..!

رد عليها مبتسماً في عصبية ساخرة:

- أنا أتيت، لن أعود بسهولة..

ردت في صرامة وقلق:

- عد لكي لا تفسد خطتي..!

قهقه قائلاً في سخرية متوترة:

- إنها لن تفسد بحول الله، كيف تفسد وأنت قد اتخذت كل هذه

الاحتياطات..!

وأشار إلى قناعها الواقى وسيارتها المصفحة قائلاً:

- حواجز لا تقهر بحول الله، ولذلك فقط أريد مرافقتك على

سيارتك، لقد عدلت رأبي من ملاحقتك إلى مرافقتك..!

ردت في غضب وقلق:

- ليس لك أن تذهب معي، عد إلى نيويورك ولا تجازف!

اخترق أذنها صوته الرنان وهو يصرخ في صرامة شديدة وهو يتشبث

بمقبض الباب:

- رامة، أيتها الغبية، أنا قلت سأرافقتك، ولذلك فإما أن أرافقتك إلى

ميشجان، أو في الطريق إلى نيويورك.. وهذا ما أفضله الآن..!

تشنجت يداها على المقود وهي تحرق في الكف القوية التي تمسك مقبض الباب، ومرت دقيقة من الصمت قبل أن تقول في استسلام:

- اركب..!

أدهشها أن رد عليها في صرامة:

- بل انزلي وسأقود أنا السيارة..!

هتفت في اعتراض وهي تتشبث بالمقود:

- لكي تعود بي إلى نيويورك؟! هذا ما لن يكون..!

رد عليها في صوت عال صارم:

- قلت انزلي وسأقود السيارة إلى ميشيجان، وإلا فستنزلي قسراً

وأقودها إلى نيويورك..!

احتبست كلماتها قهراً وهو يردد في قسوة:

- هيا انزلي قبل أن أعدل عن رأيي..!

اتسعت عيناها بالقهر والاستنكار وهو يردد:

- أمامك ثوان فقط، وإلا سنعود إلى نيويورك..!

ازدرت ريقها وهي تفتح الباب في استسلام، وتنزل بهدوء بينما اتخذ

مكانه في مقعد السائق وهو يومئ إليها برأسه قائلاً:

- اركبي..

أطاعته في وجل، وهي تحبس أنفاسها بانتظار ما سيفعل..

أطلقت تنهيدة ارتياح طويلة..
 فيما زفر هو زفرة مفتاة ساخنة..
 عندما ضغط بدال الوقود باتجاه الأمام..
 باتجاه ميشجان!..

- أي بذلة رديئة هذه التي لا تكاد تغطي ركبتى..!؟

هكذا هتفت جون جولد في اعتراض غاضب وهي تتناول كسوة مهلهلة مضحكة من مخزن الألبسة في مدينة الفيروس، وحدثت فيها في احتقار وهي تقول:

- إنها أهون من العري على أية حال!..

قهقه أمين المخزن في سخرية وهو يراها تحشر جسمها الطويل في البذلة، فالتفت إليه صارخة في عصبية:

- عندما أخرج سأشتري أجمل ثوب وأحسنه نوعاً، أنا أرتدي هذه الخرقاة لئلا أخرج عارية بعدما جردتموني من بذلة الرقص الأنيقة أيها السفلة...!

رد عليها في سخرية:

- أنت محظوظة، فأنت المرأة الخامسة عشرة التي تستلم رداء تعويضياً بعد خروجها من المدينة، غيرك لم يحلم بالخروج عارياً!..

ردت في غلظة وهي تهم بالخروج:

- كنت أعلم أنني سأخرج.

أسرع يقول وهو يمد دفتراً:

- وقعي على استلامك..

أشاحت في احتقار وهي تقطع الطريق للخارج وقهقهاته تلاحقها.

كانت تحس بشعور غريب وهي تتجاوز أسوار المدينة الكئيبة..

لأول مرة منذ شهر ونصف ترى الشمس وتشم الهواء العطر الممزوج
بالغبار وعوادم السيارات وروائح الأزهار والنفائيات..

كان المفترض أن تكون سعيدة، لكنها كانت منقبضة وهي تشير إلى
سيارة أجرة لتحملها إلى نيويورك..

قطعت بها السيارة ساعة وثلاث الساعة قبل أن تصل إلى أحد
المصارف وتنزل على عجل..

شيئان كان عليهما أن تفعلهما، ولذلك فقط عرفت بالضبط أين تتجه..

أن تتزود بالمال، ولذلك اتجهت للمصرف..

وشيء آخر أمرت لأجله سائق السيارة أن يتجه لمجمع مبان ضخمة
وسط المدينة، يتوسطها مسجد كبير بمنارة مهيبة وقبة أنيقة..

نزلت على عجل ونقدت السائق أجره، ثم استقبلت تلك المباني..

واهتز قلبها شغفاً وهيبة عندما رأت المنارة..

قبل أن تردد في خشوع ودموعها تتصيب على خديها:

- إني آمنت بربكم فاسمعون..

إني آمنت بربكم فاسمعون..!



(٤١) المغامرة.. والموت..

هتف منصور في تماسك:

- والآن، هل أنعطف عبر هذا المنعطف..؟

ردت رامة وهي تشهق باكية في زعر:

- إلى اليمين، إلى اليمين، إنهم لن يتركونا، هذه الجثث مرعبة..!

رد عليها وهو يتحسس قلبه في إنهاك:

- لقد استطعنا تجاوز النقطة الحدودية بأعجوبة، ما بقي سهل، لأنك

لا تتعاملين مع بشر أسويا.....ء

صرخت في زعر:

- احترس أمامك..!

كان أحد المصابين يمد يده في توسل وهو ينثني من الألم والدماء

تتفجر من عينيه الحماوين، فأدار منصور المقود متجاوزاً إياه هاتفاً:

- رامة، أنت تعلمين أن أعصابي مشدودة بدون أن تثيرها بصراخك،

تشجعي حتى نصل للهدف..!

وضغط دواس الوقود بكل قوته لتصل السيارة سرعتها القصوى وهو

ينعطف اليسار قائلاً:

- والآن..؟

- ردت في ذعر: استمر للأمام..١
- أطاعها وهو يركز بصره على الطريق متجاهلاً الجثث التي يدوسها
بسيارته أو يمر من جوارها ..
- كان الدمار قد حل بكل شبر في المدينة ..
- والرماد انتثر في كل ركن من أركان الطريق الكئيب الصامت، حيث لا
حياة، ولا أثر لشيء واحد سوى الموت...١
- رددت رامة في قلق وذعر:
- ماذا لو كانا قد قبضنا بعد كل هذا ..
- وتفجر الدمع المحترق في عينيها وهي تتابع:
- أو التهما..١٩
- رد عليها في شجاعة لا مبالية وهو يتابع طريقه:
- الأمر سهل، نحن سننقذ أنفسنا بعد ذلك ونستسلم لشرطة
الحدود..١
- ردت عليه في قلق بالغ:
- هل تضمن أنك ستخرج سليماً دون أن تصاب...١٩
- لقد ورطت نفسك بمجيئك دونما قناع واق..١
- رد عليها في إيمان وخشوع:
- تعلمنا من كتاب الله أن الواقى هو الله تعالى..١

صمتت في خجل وهي تتابع نظراته المركزة على الطريق وقد تشنجت
كفاه حول المقود وهو يرواغ العقبات بمهارة، وجهه جعل قطرات عرقه
تتصبب على وجهه الوسيم الوقور..

مدت يدها الصغيرة لتمسح العرق المتكوم على عينيه، لينتفض في
نشوة لم يحس بها من قبل..

رمى إليها ببصره وهي تشيح مركزة على الطريق..
ترك لوساوسه العنان وهو يركز على الطريق، مسترجعاً تلك اللمسة
الحانية التي لم يذقها في حياته الجريحة كلها..

في هذه اللحظات داهمته ذكريات حياته الجحيمية الفوضوية قبل
أن يسلم..

مسيحياً.. يدرس في الأردن.. ثم مسيحياً في لبنان.. ثم مسيحياً
ملحداً في أميركا..

في حضن ألف مومس.. ثم سجيناً دون تهمة..
ثم مسلماً..

متى أحس بحنان امرأة.. ١٩..

متى سكن إلى زوجة في حياته المرهقة.. ١٩..

أحس بمغص الحرمان في قلبه.. رغم أنه طالما قاوم هذا الشعور..
لم يعترض حتماً.. لكنه يحس حتماً..

طالما تمنى أن تجلس بجواره زوجته..

امرأة.. أي امرأة.. المهم زوجة.. المهم أن تكون مسلمة.. أن تكون حنونة..

عريد الأمل في قلبه وهو يردد في سره:

- سنجد هذا الأحمر القبيح.. أم لا ١٩..

هل يعقل أن يبقى في مدينة الموات هذه شيء حي.. ١٩..

زفرت رامة في صبر نافذ وهي تتمتم: -

- هل سنجد ١٩

وانتظرت دقيقة وهي تحقق في جهاز هاتفها المتنقل، قبل أن تقول

في يأس:

- لا مجال للاتصال، جهازه معطل بالتأكيد.. ١٠

رد عليها في استغراب:

- ما يدهشني هو كيف اتصل بك ليخبرك برسالة مقطعة أنه في

ميشجان.. ١٩..

هزت كتفها في استغراب وهي ترد:

- أنا لا أعلم، فحسب ما قيل لي إن الاتصالات انقطعت بعد إغلاق

الحدود بيومين فقط، وهو لم يصل إلا بعد ذلك بأربعة أيام على أحسن

تقدير.... ١٠

هز كتفيه وهو يقول في توتر:

- ما علينا، كل شيء سيظهر في أوانه، المهم، ها هو الحي الثامن والعشرون، بعد عناء ساعتين متواصلتين.

أشارت أمامها قائلة:

- في نهاية هذه المسار، انعطف لتجد منزلي..

رد عليها وهو يحدق في مؤشر الوقود في قلق:

- الوقود بدأ في التناقص، لن يمكننا الخروج بذات السهولة يا

حبيبتي رامة.!

ردت عليه وهي تتناول بعنقها إلى الأمام:

- محطة الوقود على بعد خطوات من هنا، لكن هل نستطيع الوصول

إليها، وتعبئة السيارة لو وصلنا.!

رد عليها في حماس:

- أين هي.!

التفتت إليه في دهشة، وهو يحدق في وجهها الجميل، وقد التمع في

عينيه فجأة حب الحياة..

قالت وهي تشير بيدها في قلق:

- خلف هذا المنعطف مباشرة، ولكن...!

رد عليها وهو يدوس بدال الوقود في بهجة غريبة:

- اتركي الأمر لي..

وصرخت عجلات السيارة وهي تتوقف أمام المحطة المقفرة، فهتفت رامة:

- عليك أن تحترس يا منصور، أنت لا ..

قاطعها وهو يخرج مسدساً نصف آلي من جيبه:

- قلت اتركي الأمر لي يا حلوتي، أقفلي باب السيارة لو خفت!

هتفت في فزع:

- دعني أفعل ذلك، أنت لا ترتدي رداء واقياً، والهواء ملوث بالفيروس..!

تجاهلها وهو يتلفت حوله في حذر قبل أن يدخل في المحطة ويتفحص حاويات الوقود، لقد كانت تحتوي نسبة وقود تتراوح بين الربع إلى النصف، فابتسم في ارتياح وهو يحاول أن ينتزع أنبوب التعبئة بكل ما أوتي من قوة، حتى إذا أعياء ذلك عاد إلى رامة صائحاً في جسارة:

- ألا توجد لديك أداة حادة أو آلة حديدية. ١٩.

هزت رأسها بالنفي في خوف وهي تتلفت حولها داخل السيارة في زعر هائل متأملة عشرات الجثث المتعفنة المتناثرة وهي تحكم إغلاق الباب.

ترى.. كيف يجروء.. ١٩. أي شجاعة يملكها ١٩..

لا يدري لم راوده شعور غريب بأنها ستتركه وتفر، فالتفت إليها مبتسماً في تودد قبل أن يطلق ضحكة عالية استكرتها بصرختها الغاضبة:

- لا وقت لدينا للمرح يا هذا. ١.

تجاهلها وهو يدلف في ثقة وشجاعة إلى مخزن المحطة، حيث نظر حوله لتقع عيناه على مفتاح كبير معلق، فانتزعه في ظفر وهو يردد:

- حمداً لله.. لقد كتب لي أن أعيش بحمد الله..

وركض إلى الخارج حيث الحاوية وبدأ يعالج قفل الأنبوب في مهارة
وسرعة..

بغثة..

مزق السكون الرهيب صرخة رامة الهائلة:

- احترس يا منصور..!

قفز من مكانه في تحفز وهو يستدير خلفه ليواجه رجلاً مصاباً وهو
يهدر بالقول:

- تعال هنا..

تراجع منصور وهو يلوح بمسدسه هاتفاً في سخرية عصبية مذعورة:

- لنرقص معاً... أنا لا أجد الرقص للأسف..!

وضغط زناد مسدسه في ارتباك وخوف في اللحظة التي قفز فيها
المسخ ليعضه في عنقه..

لكن منصور كان قد نسي أن يبعد صمام الأمان في مسدسه الكبير..
ولذلك فقد أصدر مسدسه تكتكات متتابعة يعلن فيها رفضه العمل..

في لحظة الموت..

لحظة الافتراس..!



(٤٢) الصراع .. مع مسخ..!

انقض المسخ على عنق منصور وهو يصرخ في شراسة مخنوقة
بالدماء المتفجرة من فيه..

صرخ منصور في ذعر هائل:

- وغد..!

وقذف بمسدسه في وجه المسخ بكل قوته، ليترنح صارخاً في ألم:

- أيها اللعين.. أيها الد..

ولم يتم عبارته وهو ينقض مرة أخرى على منصور وهو يحاول الفرار
إلى السيارة، وأمسك بمعطفه من الخلف في إصرار وشراسة، فزقق
منصور وهو يدفع قدمه بكل قوته إلى بطن المسخ:

- اتركني يا ملعون..!

ترنح المسخ وهو يتشبث بمعطفه في إصرار ويدفع أسنانه القذرة نحو
منصور الذي يستमित في الخلاص..

وكان أن أنشب أسنانه الملوثة في المعطف، فزقق منصور في هلع
غاضب:

- رامة..!

كانت قد أبرزت مسدسها الصغير من جيبها بصعوبة في تلك اللحظة
وصوبته إلى رأس المسخ صارخة:

- لا تخف يا منصور..!

وأطلقت رصاصة ارتدت إلى جبهتها بعنف عندما اصطدمت بزجاج
السيارة المضاد للرصاص، فهتفت في ألم شديد:

- يا الله، كن معنا..!

لحظتها كان المسخ يشتبك في صراع عنيف مع منصور الذي يستमित
لكي لا يمس جلده جلد المسخ الملوث..

سدد إليه عدة ركلات موفقة في رأسه وبطنه جعلته يخر على الأرض
متلويًا في ألم..

فكان أن تراجع منصور مسرعاً إلى السيارة، في اللحظة التي أمسك
فيها المسخ بقدمه وجذبها ليسقط على الأرض، ويزحف إليه في ظفر..
صرخت رامة في هلع وهي تفتح باب السيارة:

- منصور..!

جثم المسخ فوق صدر منصور، ودماءه النازفة من فيه تتقاطر فوق
كتفيه ووجهه وهو يقاوم في يأس..

حتى إذا انقض بأسنانه المربعة على وجهه، صدها براحة يده القوية
وهو يصرخ:

- ربي.. ربي.. أنقذني يارب!

لحظتها دوى طلق ناري اخترق رأس المسخ الرهيب الذي تشنّج قبل
أن يرتخي ميتاً على الأرض..

وقد ارتطمت دفقة من دمه الأسود بوجه منصور الذي زعق في
يأس..

صرخت رامة في هلع:

- أنت بخير منصور..!٩٠

أزاح الجسد القذر من فوقه وهو يجلس نافضاً رأسه في ذهول..
كررت:

- أنت بخير. هيا بنا..!٩١

تأوه في ألم وهو ينفض كفه، فهتفت في جزع:

- أنت بخير..!٩٢

رفع رأسه إليها قائلاً في رهبة:

- لقد جرحني، لقد عضني في الغالب..!٩٣

صمتت في ذهول مرير، وهي تمسح وجهه الدامي بمنديلها مقاومة
رغبة عارمة في التقيؤ..

قبل أن تقول في تماسك:

- مهما يكن، دعني أملأ خزان وقودي قبل أن نكمل مهمتنا..

وجذبت أنبوب التعبئة ودسته في فتحة الوقود وهي تقول:

- وسأخذ احتياطاً في هذه الصفيحة.

والتفتت إليه قائلة:

- هيا بنا قبل أن يحصل شيء آخر...!

خفض رأسه في يأس، فصرخت وهي تركل ساقه:

- قم بنا، هيا..!

رد في يأس:

- لكنه عضني..!

صرخت في صبر نافذ:

- قلت قم أيها الغبي..!

نظر إليها في مرارة، قبل أن يقف في استسلام، ويتبعها إلى

السيارة..

توقف قليلاً ومد يده ليخلع معطفه الجلدي الملوث بدم المسخ ولعابه،

وقذف به بعيداً، وهو يقول في صوت خافت:

- لكنك ستقودين السيارة، وليس أنا....!

نظرت إليه قبل أن تجلس في مقعد السائق، ورددت في حزم متوتر:

- كن واثقاً بالله: فالله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء..!

تتهدد وهو يمسك رأسه بين كفيه، وانهمك في الحوالة والاستغفار..

شعرت برهبة كبيرة وهي تحقق في وجهه بين لحظة وأخرى.. هل
أصيب..؟

وأدارت المقود لتدخل إلى الشارع الذي فيه منزلها، ولهتت وهي
تحقق فيه في جزع..

قبل أن تدخل بسيارتها عبر الحديقة..

كان آمناً، مبنياً من الإسمنت المسلح بخلاف البيوت الأمريكية، وذا
باب حديدي متين..

إنني لن أطرق الباب.. هكذا قررت..

ألقت نظرة على ما حولها، وسحبت مسدسها ونزلت بهدوء قائلة:

- سأفقد الوضع..!

وفي خفة، قطعت الطريق المؤدي إلى نافذة كبيرة تعرفها..

مسورة بالحديد كباقي النوافذ، ولكنها تختلف عنها بشيء واحد لا
يعرفه غيرها..

كان سورها مثبتاً بمفاصل يمكن نزعها بسهولة لتمر من خلالها،
وذلك ما فعلته في ثوان..

لتستقر على أرض الصالة..

تهددت في ارتياح وهي تتجه إلى غرفة نومها في حذر، وتدير
مقبضها ببطء، وتدفع الباب..

- من هناك ١٩٠٠

انطلقت صرخة مذعورة مكتومة، من شبح الرجل الذي يرتمي على الأرض في إعياء شديد..

تفجر في صدرها شعور طاغ بالفرحة وهي تصرخ:

- عبد القادر ١٠٠

اتسعت عيناه في ذهول طاغ وهو يراها ترتمي عليه باكية في مرارة ممزوجة بالفرحة وهي تردد:

- عندما ننجو سنكون سعداء، سنكون أسعد زوجين، سأعد لك أشهى وجبة، سأعد لك سماقية و(تبولة) وكل ما تشتهي سأكده يا حبيبي ١٠٠
كان الدهول قد عقد لسانه، كان كمن يعيش حلمًا أشد من الغرابة نفسها وهو يستسلم ليدها وهي تقوده للخارج، قبل أن يتلفت إليها قائلاً:

- وعائشة! سنأخذها معنا ١٠٠

هزت رأسها بالموافقة وهي تقول:

- أسرع بنا... ١٠٠

وركضت خلفه لتتسمر قدمها أمام الجسد المسجى الذي جثا أمامه عبد القادر، وجاهد ليرفعه بين ذراعيه في صعوبة، ويبتسم في ظفر، قبل أن يقول في بلاهة:

- هيا... ١٠٠

حدقت في عائشة طويلاً في صمت حائر قبل أن تهرع راكضة إلى
سيارتها عبر باب المنزل، وأشارت وهي تفتح باب السيارة الخلفي:
- هنا..!

أسرع يرقد أخته في عناية ويركب في سرعة وهو يسعل بقوة..
وعندما انطلقت السيارة من جديد قال وهو يلتفت أمامه:
- والآن، كيف وصلت إلى... .

وبتر عبارته فجأة وهو يحدق في الرجل المطرق العاري المنكبين
بجوارها، حيث رفع رأسه ليقول بهدوء:
- أهلاً بـعبدالقادر...!

هتف عبدالقادر في جنون:

- أهو أنت مجدداً؟..

عقد منصور ساعديه أمام صدره في هدوء بينما هتفت رامة في
استعطاف:

- دعونا نخرج من المدينة بسلام، وبعدها تعاركا كما تشاءان..!

وضغطت دواس الوقود لتتطلق السيارة بعيداً..

وصمتت المشاعر.. إلى حين..!

خفض وزير الدفاع الأمريكي رأسه قائلاً في توتر:

- أنت تستخدم حقاً رئاسياً بصورة مشبوهة يا سيدي، ذلك قد يسبب فضيحة في الكونغرس، ولم يمض على توليك الرئاسة سوى سنتين..
رد الرئيس في شجاعة:

- أنا سوف أعلن استقالتني بعدما أنفذ ما أمرت به، هل تتصور أن الشعب سيتقبلني بعد كل النكسات التي حصلت في عهدي..١٩٠٠
رد وزير الدفاع:

- أي أنها ستكون خير ختام لفترتك الرئاسية العvisية!
رد الرئيس في صرامة:

- سيبدأ العد التنازلي لتطهير المدينتين في اللحظة نفسها التي سيتم فيها تطهير تل أبيب من الرأس الفيروسي.
صمت وزير الدفاع قليلاً قبل أن يقول:
- أمن الضروري أن تتزامن..١٩٠٠
رد الرئيس في حسم:
- إنه أمر...!

وخفض وزير الدفاع رأسه مرة أخرى..١٠

- الوقت يمر بسرعة..١٠
هكذا ردت رامة في توتر وهي تحاول استتطاق الرجل المطرق في
يأس جوارها، فزفر عبدالقادر وهو يقول:

- ما زال أمامنا الكثير من الوقت، ماذا تنتظرين يا رامة؟

ردت في صرامة:

- المدينة سوف تط... ..

قاطعها منصور بصوت مخنوق:

- دعينا لا نرعبهما أكثر يا رامة...!

هتف عبدالقادر في غيرة متفجرة:

- بماذا ترعبني أيها الرجل؟ هل هناك ما تخفيانه؟

تكهرب الجو ورامة تصيح:

- كفى.. كفى.. لم يبق أمامنا سوى خمس وثلاثين دقيقة!

هتف عبدالقادر في جنون:

- على ماذا؟

التفت إليه منصور قائلاً في هدوء ساخر مرير:

- اسمعني أيها الرجل، لم تحاول أن تتصرف دائماً كأسد منتفخ في

مواجهة امرأتك الضعيفة..!

قفز عبدالقادر من مكانه وأمسك بمؤخرة رأس منصور في هياج هاتفاً:

- اخرس أيها الأخرق وإلا قذفت بك من النافذة....!

ابتسم منصور وهو يرتجف بشدة، بينما تابع عبدالقادر في انتصار

وهو يحرق في رامة التي تحافظ على توازن السيارة بصعوبة:

- أنت ترتجف خوفاً، ألم أقل أنك متحذلق فاشل..!

اتسعت ابتسامة منصور وهو يلتفت إلى رامة قائلاً:

انتبهي لنفسك جيداً يا رامة...!

التفتت إليه في دهشة وهو يفتح باب السيارة قائلاً:

- هل تتكلمين بأن توقفني السيارة قليلاً، أم أن كل دقيقة تنفك قبل

أن يضرب الرأس النووي..؟!

هتفت رامة في جزع وهي تمسك ذراعه بقوة:

- ماذا تفعل..؟!

هتف عبدالقادر في انفعال:

- لقد كنت أمزح بشأن طردك يا هذا...!

قفز منصور ليتدحرج على رصيف الشارع بقوة في اللحظة التي

صرخت فيها عجلات السيارة وهي تتوقف، حيث قفزت منها رامة

وركضت هاتفة في جزع باكية:

- منصور، منصور، لم فعلتها..؟!

زحف الأخير إلى الرصيف وهو يفرك أنفه النازف بشدة قائلاً:

- لا تقتربي مني.. إنني مصاب..!

ركض عبدالقادر هاتفاً:

- ابتعدي، دعينا نذهب قبل أن يفترسنا..!

قهقه منصور في مرارة، قبل أن يبتتر قهقهته بسعلة قوية تفجر منها

صدره بدفقة كبيرة من الدم الأسود..!

(٤٣) نهاية بطل..

صرخت رامة وهي تجثو بجواره في جزع:

- منصور، منصور.. لا.. لا يمكن لهذا أن يحصل..!

تلوى من الألم وهو يستريح على ظهره متمتماً:

- أنا عربي يا عبدالقادر..

لذلك فقط سأموت دون أن أفترسك..!

زوى عبدالقادر حاجبيه في حيرة، وهو يرى الدماء تتدفق من فتحات

جسمه دون توقف، وهو يجاهد ليقول:

- العربي وحده هو من يموت دون أن يفترس الناس... لأنه.. لأنه

يأتي لإنقاذكم كما فعلت لأجلك..!

اهتز عبدالقادر وعيناه تتسعان ذهولاً، بينما تابع منصور وهو يدافع

أنفاسه المتقطعة:

- ولأجل هذه المسكينة..!

رد عبدالقادر في حيرة وحرص وهو يسيطر على حركتها:

- ولكن.. لكنك.. أنا لا أعرف ما أقول في الحقيقة..

قاطعه منصور وهو يلهث في صعوبة:

- أنا أعرف أنك نادم، أنا سأغفر لك لو وعدتني أن تسعد هذه

المسكينة المطحونة..!

رد عبدالقادر وهو يجثو بجواره:

- هيا بنا يا منصور، دعنا نعد إلى نيويورك، ربما شفيت.

ابتسم منصور وهو يسعل بقوة للتأثر دماؤه على صدره قائلاً

بصعوبة:

- لقد أخذت.. نصيبي من الحياة، لا تتعلقا.. بأمل مستحيل، افعل

ما.. أقول لك يا رجل، فمأساة.. هذه البنت هي خطيئة من خطاياي

التي.. لم يتسن لي.. أن.. أمحوها..!

صرخت رامة بكل المرارة في فؤادها وهي تجثو أمامه:

- لا يا منصور.. أنت كنت منقذي بعد الله تعالى..!

اتسعت عينا عبدالقادر وهو يجيل عينيه الحائرتين بين وجه زوجته

ووجه منصور الذي تابع:

- لقد.. جاءت طريدة.. من فلسطين لتلجأ إلى عمي النذل، هو

الذي.. شغلها في الحرام، وعذبها لأنه كان قواداً ونذلاً، لأنه كان.. يعبد

المال، أما أنا فقد استجدت بي مراراً.. دون أن.. أعرف ما يفعله بها،

حتى هربت.. منه أخيراً ولجأت إلي لتخبرني بما فعله بها..

وسعل وتأوه بقوة وهو يتابع لاهثاً:

- لحظتها.. أخذتها إلى أميركا، ولم يتسن لي.. أن أكفر عن خطيئتي العظيمة، .. لم يتسن لي أن أغرس البسمة على.. وجهها المسكون بالأسى.. تمنيتها.. زوجة.. تمنيتها بنتاً.. لم أستطع.. لذلك افعل.. ذلك يا عبدالقادر بدلاً مني، فلم يبق.. في عمري ما... يكفي لأن أمسح.. هذه الدمعة الجامدة في مآقيها طول ما عرفتها...!

صرخت رامة وهي تمسك كفه التي تفجرت عروقها بالدماء وهو يصرخ في ألم رهيب:

- اتركيني يا فتاة، ابتعدي لئلا تصابي بالعدوى...!
سحب أبو مسلم كفه بعنف صارخاً:
- اتركه.. إنه ملوث...!

هدأت أنفاسه المتقطعة وهو يرمي ببصره إليها مبتسماً في مرارة الولهان:

- يدك.. الطاهرة هي.. آخر ما لمستته كفي.. هل.. أشكرك يا.. صغيرتي...؟!

انعدم إحساسها وهي تصرخ في لا شعور:
- منصور.. منصور.. منصور...!

سحب كفه وهو يجاهد الموت صارخاً في ألم وعروقه تتمزق وتتفجر بالدماء:

- خذها.. أبعدھا لئلا تصاب.. أأ.. أ.. أسرعوا.. الرأس سيضرب قريباً، ستباد المدي..نة..أأ..

وجحظت عيناه وهو يتلوى صارخاً في ألم رهيب:

- آآآآآه.. يا للألم... يا آآآ.. للموت...!

كان سابحاً في بركة من دمائه..

كان يموت..

أمسك عبدالقادر برامة وسحبها بقوة إلى السيارة هاتفاً:

- قفازك ملوث بالدماء يا غبية..

وطرحها على الأرض وهي ترفس في جنون وهستيريا، وانتزع قفازها وقذفه بعيداً ليحملها إلى السيارة ويركبها قسراً..

أغلق الأبواب آلياً وهو يدير المقود..

لقد بقي من الزمن نصف ساعة فقط..

وضغط دواس الوقود..

وحانت منه التفاتة إلى منصور..

لم يتضح شيء كاتضاح ابتسامته الطاهرة وهو يرفع أصبعه قائلاً في راحة الموت:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبدالله ورسوله..

لقد مات مسلماً..

نعم مسلماً ..

ذلك هو المهم في المشهد ..!

دقت الساعة الإلكترونية الكبيرة المرتكزة على أرض قاعة الرأس
الفيروسي الضخمة، معلنة تمام العاشرة والنصف صباحاً ..
كان إياهو يلتهم شفثيه ارتباكاً وقلقاً وهو يحدق في الساعة قبل أن
يهتز في هستيريا وجنون:

- لم يبق من الموعد سوى نصف ساعة، ترى هل قرروا أن يبادوا
بفيروسي الجبار..؟!

وتابع وهو يهز ساقه في عصبية:
- إنني سأنفذ قراري في اللحظة المقررة، ولو كلفني ذلك حياتي
نفسها ..!

وملاً رثثيه بالهواء في حسرة ..
لقد روادته فكرة الموت مرة أخرى ..
ويا لهول الفكرة ..
لقد ندم .. بل لقد بكى ندماً على خطوته الحمقاء التي ساوم بها
حكومته المؤقتة، وخسر بها حياته في الحقيقة ..
كان سابقاً قد ضمن حياة مرعبة ملاحقاً كمجرم دولي، لكنه لم يكن
ضامناً للموت كالآن ...

بيده..

أو بيد عمرو...!

تفجرت في صدره مشاعر مجنونة وهو يتأمل الرأس الفيروسي

المتحفز..

الموت..

الهلاك..

الخوف..

ال..ال..

ودوت صرخته الرهيبة الهستيرية وهو يجري مبتعداً عن القاعة:

- سيقتلونني، سيقتلونني حتماً...!

وانهار أمام الزجاجاة الفاصلة بينه وبين الرأس الملوث، وانفجر ينتحب

في حسرة مردداً:

- لا شك أنهم سيقتلونني، سأقتلهم، سأثبت لهم أنني الأقوى...!

وعاد يحدق في ساعته الألكترونية، لقد بقي من الزمن ما يقل من

عشرين دقيقة..

لقد أزف الوقت ولم يتلق اتصالاً.. ترى ماذا يخبئون لي...!

اندفع تفكيره المجنون يحسب مرة أخرى..

يبدو أنهم سيسبقون إلى تدميري..

سيعدمونني .. الآن..

وكرر في زعر.. الآن..

حرق مرة أخرى في الرأس المتحفر، قبل أن يصرخ وهو يركض إلى
وحدة التحكم:

- لن تقتلونني دون أن أنتقم..!

وخيبط بكفه النجسة زر الإطلاق ليبدأ العد التنازلي لإطلاق الرأس
في ثلاثين ثانية..

ودوت لحظتها صافرات الطوارئ في أرجاء المبنى..

منذرة بالدمار...!



(٤٤) الخطر..!

- سأموت.. سأموت..

هكذا زعق إلياهو في جنون بعدما ضغط زر إطلاق الرأس
الفيروسي، في مهلة مضى منها خمس ثوان..
قام يركض إلى نهاية القاعة المغلقة، وانهمك يعالج شفرة الباب
الالكتروني في يأس، قبل أن يهتف:
- نعم.. فعلتها..!

وانفتح مع آخر حروفه رتاج الباب ليهرع راكضاً بكل قوته وهو يلتفت
كل ثانية إلى القاعة الفارغة في يأس.
واصل ركضه المحموم إلى باب طوارئ في نهاية ممر ضيق متصل
بالبهو الرئيس للمبنى، والتفت في عجل إلى لوحة التحكم التي أثار
وسطها ضوء أخضر مؤذناً بإمكانية فتح الباب بسبب حالة الطوارئ..
في تلك اللحظة فقط..

ارتج المبنى بقوة زلزالية رهيبة قذفت به عبر سلم الطوارئ بمنتهى
العنف، ليتدحرج فوق درجاته طويلاً قبل أن يستطيع الوقوف والتوازن
ليقفز عبر درجاته التي تمزق غير قليل منها..

وبعد خمس ثوان.. كان يركض عبر ممر طوارئ أرضي موصل إلى
المخرج النهائي للمبنى..

هنالك هتف في ظفر وجنون:

.. الآن نجوت حقاً!

وعبر الباب المفتوح آلياً وصافرات الطوارئ تصوت خلفه تاركة
الرعب والفرع في قلبه المجخي الأسود..

استنشق الهواء الملوث وهو يجيل عينيه القبيحتين في الفضاء الذي
اصطبغ بلون أصفر غريب..

وحانت منه التفاتة إلى قبة الرأس الفيروسي التي انفتحت على
آخرها استعداداً لانطلاق الرأس الملوث المفترس في نطاق صغير لا
يتجاوز عشرة كيلو مترات..

هي وسط تل أبيب..!

(٤٥) العد التنازلي..

- كل شيء جاهز أيتها الوحدة (١٩٠٠)!

هكذا قال القائد الأعلى للقوات الإسلامية في توتر شديد، مخاطباً وحدة التحكم بالرؤوس الصاروخية، حيث رد عليه صوت صارم:

- كل شيء، وننتظر شارة العد التنازلي.

رد عليه في صرامة مماثلة: يبدأ العد التنازلي فوراً، لم يعد ثمت وقت أكثر من ربع ساعة..!

رد عليه الصوت: التنفيذ جارٍ يا أيها القائد...!

قال هذا وهو يومئ بيده إلى الفريق العاكف على وحدة الإطلاق..

حيث بدأ العد التنازلي في عشرين ثانية..

لانطلاق الرؤوس الصاروخية الخمسة الضخمة المتجهة لتطهير تل أبيب..

بعد انفجار الرأس الفيروسي في مركزها قبل أربع دقائق وبضع ثوانٍ

وانتشار الفيروس المسخ في دائرة تتجاوز محيطها ببضع كيلو مترات..

لذلك وكما قدر الخبراء في أسوأ الأحوال كما حصل..

سيظهر كل رأس دائرة تلتقي مع دائرة رأس آخر، حتى خارج محيط

تل أبيب بخمسين كيلو متراً على الأقل..

وهكذا خطط..

وهكذا انطلقت الرؤوس الرهيبة..!

(٤٦) على شفير الموت..

- لقد وصلنا حدود المدينة بحمد الله..

هكذا هتف عبدالقادر وهو يتلفت إلى زوجته التي تتسمر في جمود ذاهل،
وابتسم غير مبال وهو ينظر إلى النقطة الحدودية غير بعيدة قائلاً:

- لو سلمنا أنفسنا الآن فسوف يكون أمامنا ما يزيد على الثلث ساعة
للطيران إلى مدينة الفيروس..

وصرخت عجلات سيارته وهو يهتف باسمًا:

- أيها الرفاق.. لقد عدنا.. نحن نحبذ أن يكون كل شيء شرعياً
تماماً وإلا فنحن متأكدون من خلونا من المرض..

كان كل شيء خالياً..

لفت انتباهه شيء واحد..

لم يكن هناك عربات ولا سيارات..

انتبه لصوت رامة العميق وهي تقول في جمود بأثس:

- هل الأيام التي أمضيته قد أصابتك بالغباء..؟

وتابعت بذات اللهجة الكسيرة الصارمة:

- لقد رحلوا.. إنهم لن يبقوا هنا أبداً..

شد نفسه وهو يضغط بدال الوقود قائلاً في تحد:

- حسناً.. هذا رائع، سنختصر وقتاً وجهداً وعذاباً!..!

- وانطلقت السيارة في الطريق إلى خارج الولاية، ومرت دقيقة كاملة

قبل أن يهتف عبدالقادر في قلق:

- رباه..! إن الطريق مسدود بحاجز إسمنتي سميك!..!

ردت رامة في جمود:

- ماذا ستفعل!..!

رد هو في هياج:

- ماذا تقترحين!..! لم يبق من الزمن سوى ربع ساعة!

ردت وهي تهز كتفها في برود:

- لا شيء نخسره، دعنا نجرب المشي، فلن نستطيع تجاوز الحاجز

بالسيارة إلا بعد غد...!

رد عليها في غيظ:

- وهل سنستطيع تجاوزه مشياً!..!

قال هذا وهو يضغط دواس السيارة لتراجع للخلف مسافة كافية، ثم

قال في صرامة وهو ينزل لحمل أخته على كتفيه:

- ترجلي، سوف نجرب في دقيقة ما إذا كنا نستطيع تجاوز

الحاجز!..!

ردت في جمود:

- ماذا عن الجسد الطاهر..؟

رد وهو يخرج ساقه من السيارة:

- لقد توفيت قبل ساعتين أو أكثر، سأدفنها بيدي.

سرقنت نظرة مهيبة إلى وجه عائشة الساكن، قبل أن تجثو بجوارها

قائلة في تماسك ودموعها تتصبب بغزارة:

- لقد مات منصور، ليس فقط أنت يا عائشة..!

وتشبثت بكفها وهي تهتز ببكاء شديد حارق، عندما ضغط زوجها

الدواس بقوة لتتطلق السيارة بسرعة قصوى نحو الحاجز الإسمنتي..

وقبل أن تصطدم به بلحظات.. قفز بمهارة لابتعد عنها، حيث ارتطم

الحاجز الأمامي بكومة الإسمنت بقوة أزاحت غير قليل من أكياسه

المكدسة، لتفتح طريقاً صغيراً عبر الطريق السريع..

هتف عبدالقادر في جذل:

- حمداً لله، لو فعلتها مرة أخرى فسوف نفتح ما يكفي السيارة

للمرور..

وركض إلى السيارة فيما هتفت رامة في لهجة غريبة:

- عبدالقادر إنها..

لم يلتفت إليها وهو يركب السيارة، ويضغط دواسها ليتراجع بمسافة

كافية، ثم انطلق بها قائلاً:

- رباح...!

وقفز في اللحظة الأخيرة لتتطلق السيارة مزيجة كمية أخرى من
الإسمنت، ومتجاوزة إياه بسرعة كبيرة لتخرج عن الطريق المتعرج، و..
وتقلب عدة مرات..

زعق عبدالقادر في جزع:

- يا الله...! كيف لم أفكر بهذا من قبل..!

ردت رامة في برود:

- السيارة لم تعد صالحة، لكن هذا لا يعني أنها لم تفعل شيئاً
جيداً..!

وأشارت إلى عائشة متابعة:

- لقد كفتنا مؤونة تسلق الحاجز الإسمنتي، وأعطينا وقتاً كافياً
للمشي بدلاً من عناء عبوره..!

رد عليها وهو ينحني إلى أخته في توتر:

- كيف تتحدثين عن المشي ولم يبق من الزمن سوى ثلاث عشرة
دقيقة..!

وحمل أخته على كتفيه وهو يهتف:

- لم يعد هنالك ما ندخر جهدنا لأجله، أطلقني ساقيك للريح..!

واختلط الغبار بآخر حروف كلماته..!

- ماذا لدينا هنا أيضاً..!٩١

هكذا هتف آخر جنود الفرقة الحدودية المنسحبة من ميشجان وهو
يحدق عبر منظار مكبر، فأجابه آخر:

- ماذا ترى.٩٢

رد عليه في توتر:

- شخصان يركضان باتجاهنا، أحدهما يحمل شيئاً..!٩٣

نظر إليه الجنود فيما ردد أحدهم:

- لا وقت لدينا، سنتجاوز نطاق الخطر بعد ثلاثة دقائق، ولم يبق من
الزمن سوى سبع دقائق..

رد آخر:

- ماذا لو كانا من سكان المدينة المصابين، ونشر الخطر من جديد..!٩٤

رد الأول في خسة وهو يستل مسدسه:

- هكذا لن نتفق، دعوني أقض عليهما حتى لا نختلف!

وصوب نحوهما قائلاً في سخرية:

- سامحاني أيها المسخان..!٩٥

هتف آخر وهو يمسك فوهة مسدسه في اعتراض:

- قف عندك، هل نسيت أن المسوخ لا تستطيع الركض بنشاط..!٩٦

ماذا لو كانا سليمين..!٩٧

رد الأول وهو يجذب مسدسه في خسة:

- وماذا سيضير أن يموتا؟ إنهما اثنان على أي حال، والرأس النووي سيبيد ملايين من الأسوياء دون أن يعترض أحد، ماذا..
قاطععه الآخر وهو يصوب نحوه مسدسه في غضب:
- ستترك المسدس وإلا سأردك قتيلاً باعتبارك مجرماً تهدد الأبرياء..!

حرق الأول فيه وفي النقطتين السوداءين اللتين تقتربان من سيارتهما الضخمة المصفحة، قبل أن يقول في استكار:
- تفعل ذلك لأجل مسخين..!

رد الآخر وهو ينتزع المسدس من يده:
- لو أنهما مسخان فسوف أحرقهما بنفسي..!
واتجه نحو قمرة القيادة بينما تبعه الأول هاتفاً:
- ماذا ستفعل..!

رد الآخر في ثقة:
. أنقذهما، إن هذه هي مهمة رجل الأمن، ألا تشاركونني الرأي يا أيها الأصحاب..!

تبادل الجنود العشرة النظرات قبل أن يهتف فيهم بشهامة وشجاعة:
- مازل أمامنا وقت طويل، خمس دقائق، سنستهلك منها دقيقتين لإنقاذهما..

تداخلت أصواتهم الهاتفة:

- لا.. لا يمكن ذلك..!

رد وهو يهز كتفيه في ظفر:

- إذاً نتركهما على الأقل..!

ضغط السائق دواس الوقود لتتطلق السيارة التي تقلهم بسرعة كبيرة

وهو يهتف:

- تجاوزنا منطقة الخطر أيها الرجال، لقد فعلناها..!

وتعالت صيحات الظفر والفرح

من السيارة الكبيرة، وقد خلفت خلفها غباراً كثيفاً، شقه سواد

الشخصين اللاهثين خلفهم..

عبدالقادر.. ورامة..

هو يحمل أخته على كتفه..

وهي تحمل حزنها الشديد..

يركضان في اتجاه مستقيم خارج نطاق الخطر..

كان الوقت يركض معهما سريعاً..

منذراً بلحظة التطهير الرهيبة..

سقط عبدالقادر على ركبتيه هاتفاً وصدره يتمزق باللهات المحموم:

- أمسكي جثة عائشة، إني أكاد أموت..!

تشبثت رامة بعائشة التي استرخت أطرافها على كتفي شقيقها وهي تهتف:

- ماذا دهالك، دعنا نركض ما دام في أطرافنا بعض القوة!

لهث وهو يقول في يأس:

- يخيل لي أنني أخطأت بحمل جثة أختي، لو أنني تركتها!

صاحت رامة وهي تدفع رأسه بعنف:

- ما هذا الذي تقول؟ إنها لم تمت بعد..!

التفت إليها والدنيا تسود في عينيه ذهولاً طاغياً..

لم تمهله حتى يبتلع المفاجأة الغريبة، بل صاحت:

- إذا كنت متعباً فأحملها على كتفي، لم يبق سوى دقائق أربع أو أقل..!

كانت هذه الكلمات كافية لتفجير ما بقي من الذعر في نفسه..

وجد نفسه يقفز راكضاً وأخته تهتز بقفزاته المدعورة، أما رامة،

فأطلقت ساقها للريح..

مثلما أطلقت الثواني سيقانها للريح..!



(٤٧) أزف الأوان..!

- لقد انتهت الشواني المتبقية، وبدأ العد التنازلي في ثلاثين ثانية لاستعداد الرؤوس العشرة للانطلاق نحو العاصمة، وميشجان!
تابعت الجماهير المتحفزة أمام شاشات التلفزة عرضاً حياً لانطلاق الرؤوس النووية العشرة..
وتحفزت وهي ترى الساعة الألكترونية تحسب اللحظات والشوان باتجاه الانطلاق..
وبدأ العد التنازلي..
وحبست أنفاسها وهي ترى منصات الإطلاق تشتعل..
والسقوف العازلة تفتح بالتدريج..
و..
وانتهى العد التنازلي..
وصاحت الجماهير عندما تحركت الرؤوس النووية ببطء رهيب نحو الأهداف المقررة..
بغته، قطع العرض بقول المذيع:
- وصلنا هذا الخبر مباشرة من وزارة الدفاع..

لقد صدر قرار رئاسي سام يقضي بتحريك رأس نووي نحو عاصمة الحكومة الشاؤولية الساقطة، تل أبيب، في معرض مشاركة الولايات المتحدة في تحقيق الشرعية الدولية.

هذا ويقضي القرار أن يتم تحويل وجهة الرأس النووي العاشر، من ميشجان إلى تل أبيب فوراً!

كل هذا كان خبراً قديماً..

لأن الرأس انطلق فعلاً مع بقية الرؤوس..

عابراً البر والبحر..

ولكن إلى تل أبيب...!



(٤٨) الموت.. ركضاً..!

هتفت رامة في صوت مخنوق:

- السماء تتلون بلون غريب يا عبد القادر..!

هتف وهو يركض وقد ناء بحمله:

- اركضي صامته..!

عثرت بقوة لتندحرج على الطريق، قبل أن تسعل بشدة وهي تحاول
التقاط أنفاسها قائلة:

- يخيّل لي أننا سنموت ركضاً..!

عند هذه اللحظة جثا عبد القادر لاهثاً وهو يضع أخته على الأرض،
قبل أن يتمدد في إعياء، فصرخت رامة:

- ماذا تفعل..؟!!

رد عليها وهو يستسلم للإعياء:

- أنا لن أتحرك من مكاني هذا..!

صرخت في قلق وجزع لا يوصف:

- الرأس سيضرب الآن..!

لم يرد عليها وجسده يسترخي على الأرض وهي تصرخ:

- عبد القادر.. عبد القادر.. تشجع يا رجل.. يا عبدال...!

وبترت عبارتها بصرخة هائلة عندما أضاءت السماء وقت الغروب
بأربعة شهب مرعبة تقترب بسرعة منتظمة..

جثت لحظتها في يأس وهي تكرر:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله..!

أشهد أن لا إله إلا الله..

وأن محمدا رسول الله..!

ووقف فؤادها المرتجف عند حنجرتها..

عندما ارتجت الأرض بزلزال رهيب..

آخر ما تتذكره منه، سحابة الفطر الهائلة التي ارتفعت حتى تجاوزت
رؤوس السحاب..

وأظلمت الدنيا لحظتها..

تماماً..!



(٤٩) وإن جندنا لهم الغالبون..

لو حدث شخص ما بأكبر سحابة نووية حدثت في التاريخ، لكانت هي تلك الناتجة عن عدد هائل من التفجيرات المتزامنة..
 في ذلك اليوم الرهيب، اجتثت قاعدة اليهود في فلسطين تماماً..
 وانمحي من الوجود شيء اسمه تل أبيب..
 شاؤول..

هيكل سليمان.. المذبح..

كلها مصطلحات اختفت من الوجود منذ ذلكم التاريخ المجيد..
 حيث كبر المجاهدون المسلمون معاً لأول مرة منذ تاريخ طويل..
 حيث صلى المسلمون ولأول مرة في الأقصى..
 بحرية.. ودون أن يكون ثمت مراقبون يهود أو سياح أجنب، أو
 مصلون يهود..!

وقد صير البيت المقدس طاهراً..

وليس سوى جاري الدماء له طهر..

حيث حط الإسلام رجاله هناك مرة أخرى..

بعد سنين الكفاح..

وليالي الرماد..!

(٥٠) الأجساد الثلاثة..

سيارة كبيرة تقطع الطريق السريع المؤدي إلى ولاية

مس عشرة ساعة من تطهيرها بأربعة رؤوس نووية..

سات ثقل فريقاً علمياً مدججاً بكافة التحصينات ضد التلوث الإشعاعي.

كان مؤشر قياس الإشعاع يزداد كلما اقتربت السيارة، منذراً باقتراب

دخولها في دائرة التفجير العظيمة..

- بقي كيلو متران أيها السادة، تأكدوا من ارتداء الأقنعة وفتح أجهزة

التقية..

هكذا كرر مسؤول الفريق في توتر، كان مطالباً بدخول منطقة

الخطر للتأكد من طهارة الولاية، والتأكد من خلوها من كافة مظاهر

الحياة بعد التفجير.

كان خائفاً، فلم يمض على التفجير سوى ساعات معدودة، لم تكف

لهبوط الجسيمات المشعة المكونة للسحابة بعد..

انتبه على صوت أحد أعضاء الفريق:

- انظروا هنالك..!

توقفت السيارة، وترجل منها جنديان مسلحان، اقتربا من الأجساد

الثلاثة المتمددة على قارعة الطريق..

قفز مسؤول الفريق، وترجل معه آخرون ليتفرجوا على ،
الذين اشتبكوا معاً في مشهد مؤثر.

قال المسؤول وهو يحدق في الثلاثة في إحباط:

- هل يكونون مسوخاً.. ١٩..

هذا يدل على أننا فشلنا في تطهير المدينة..!

تبادل الآخرون النظرات المحبطة، قبل أن يقول في صرامة:

- لن أدع هذه المسوخ تفشل مهمتي، أحضروا عليتي وقود.

قال أحد أعضاء الفريق في دهشة:

- ماذا تفعل.. ١٩..

رد المسؤول في صرامة:

- أحرق جثثهم، هذا كفيل بحسم مادة الفيروس في أجسامهم...!

وتابع في ذات اللهجة:

- سواء أكانوا مصابين أم لا..

قال هذا وهو ينظر إلى الجنود الذين بدؤوا يصبون الوقود على

الثلاثة، فهتف أحد أعضاء الفريق:

- هذه الفاتنة ترتدي ثوب الوقاية من الفيروس، هل تكون من فريق

الإنقاذ.. ١٩..

اقترب المسؤول منها قائلاً:

- فعلاً، لم ألاحظ هذا..!

وانحنى ليفحصها قائلاً:

- لا تبدو مصابة، إن بشرتها نقية، وليست ملوثة كما رأينا في مدينة الفيروس، كما أن أسنانها بيضاء جميلة، لا يوجد ما يدل على إصابتها..!

رد آخر وهو ينحني على الآخرين:

- ماذا عن الآخرين؟! إنهما شاحبان، لكنهما أبيضان، أوليا، لا أشك في أنهما سليمان..

رد المسؤول وهو يقف غير مبال:

- أياً كانوا، سنحرق جثثهم احتياطاً.. هيا..

مال أحد أعضاء الفريق على الفتاة مبتسماً في أسى، قبل أن يدوس على ذراعها قائلاً:

- يا للفتاة، إنني لأسف..!

بغثة، صرخ المسؤول:

- لحظة، لا تشعلوا النار..!

وقطع بخطوتين إلى الفتاة، حيث جثا بجوارها والتقط كفها الصغيرة وتحسسها لحظة، قبل أن يستدير إلى الآخرين قائلاً في ذهول:

- إنها حية..!

تبادل الآخرون النظرات المستكرة، قبل أن يهرع اثنان منهم إلى
الشخصين الآخرين ويتحسسا مواطن النبض فيهما ..

كان الرجل يتنفس، وكانت المرأة الطويلة تتنفس ببطء وصعوبة بالغة،
لكنهما في كل الأحوال لم يتحركا ..

ولم يصدرا صوتاً ..

مرة أخرى تبادل الأعضاء النظرات قبل أن يمسك المسؤول بجهاز
اتصاله قائلاً:

- مدينة الفيروس، نرجو إرسال حوامة إلى حدود ميشجان، هناك
ثلاثة مشتببه فيهم ..

وصمت قليلاً قبل أن يقول:

- ضابط أشقر، وامرأة شقراء .

وتابع وهو يحدق في رامة:

وعربية فاتنة...!

٥٤٨

نهاية أسطورة..

- الآن يمكنك الخروج بحرية، رغم أن أحوالك الصحية غير منضبطة.

هكذا خاطب مسؤول مدينة الفيروس رامة وهي ترقد على سريرها الأبيض في وهن شديد، قبل أن يلتفت إلى أبي مسلم الذي كان يقف وراءه في جذل قائلاً:

- لقد تأخر إجراء الفحوصات بسبب حالة الضعف العام التي انتابتها بمجرد دخولها المدينة؛ لذلك فقط استغرقت براءتها شهرين كاملين بدلاً من شهر..

اقترب عبدالقادر من رامة وهو يحدق في عينيها الجميلتين في حب قائلاً:

- عندي كومة من المفاجآت السارة، تنتظرك في منزلنا بنيويورك..
قال هذا وهو يساعدها على النهوض قائلاً وهو يتحسس رأسها:
- شعرك الأسود الجميل بدأ ينتثر بسرعة على تلك الصلعة اللامعة التي لا أحب تذكرها..

ردت في ضعف:

- أين الغطاء..؟

قهقهه في وله وهو يحيط شعرها القصير بغطاء حريري أسود وهو يهتف:

- نسيت فتنتي المتوهجة.. لا أريد التسبب في حادث مروي..!

رددت في وهن وهي تتحسس غطاءها:

- لن أستطيع المشي أبداً، ساقاي لا تقويان..!

بادرت ممرضة تسأل:

- هل أحضر كرسيّاً متحركاً..؟

رد عبد القادر في حزم حان:

- لا طبعاً، إنها تستطيع المشي، إنها ضعيفة قليلاً، لكنها سوف تستند

إلي، وستمشي..!

نظرت رامة إليه في حب وهو تردد في وهن:

- عبد القادر..!

أحاط ظهرها بذراعه القوية قائلاً في همة:

- هيا بنا، استعيني بالله..!

وقفت بصعوبة وهي تراوح قدميها الضعيفتين، وتتشبث بجسمه

القوي في خوف، فابتسم وهو يسندها بذراعه قائلاً:

- أنت بطلة حقيقية، لا يليق أن تكوني بهذا الضعف وقد أنقذتني

وأختي بإرادة الله..!

ارتسمت عليها ابتسامة شاحبة وهي تتكفأ بين ذراعيه في وهن، حتى استطاعت الوقوف بمفردها، بينما تابع وهو يقودها ببطء إلى السيارة:

- عائشة تتماثل للشفاء، وقد تجاوزت مرحلة الخطر بكثير، طيبها يقول: إنها ستفيق بحول الله بعد أسبوع، ستفاجأ إنها ما زالت على قيد الحياة..!

وساعدها لتركب قائلاً في مرح:

- أميرتي الصغيرة، أنت ستتوجين اليوم في مملكتك الواقعة في الشارع الخمسين بنيويورك..!

ابتسمت وهي تسترخي على المقعد، بينما هرع ليركب بجوارها هاتفاً:

- لقد وعدتني بطبقين، لا أتذكرهما، لكنهما عربيان كما هو واضح من نطقهما..

ردت في صوت واهن:

- كان ذلك عندما كنا في ميشجان..

قال محاولاً تغيير دفة الموضوع:

- ما اسمهما؟ كيف يصنعان؟

ردت في ذات الصوت وهي تشرد بعيداً:

- سماقية، وتبولة، علمتني أمي كيف أصنعها دون أن أستطيع فعل ذلك..

وتابعت في حرقه:

- لم تكن لدينا مقاديرهما .. قط..!

رد وهو يريت على كتفها في حنان:

- لكن كل شيء تغير..

لقد عادت فلسطين بحمد الله، وانتهت شاؤول كما لو لم تكن..!

توقفت السيارة، أسرع ليساعدها على النزول قائلاً:

- عديني أن تنسي كل تلك الذكريات الأليمة..!

جلست على أريكة الصالة قائلة في ذهول وجمود:

- هل تصدق أنني لم أصدق حتى الآن أن شاؤول انتهت؟ كل من

عاش ذلك الجحيم لا يصدق أنه سينتهي...!

هل يمكن أنني كنت قبل خمس عشرة عاماً.. هناك..؟

رد عليها وهو يقطع الطريق إلى إحدى الغرف هاتفاً:

- دعينا من كل ذلك، انظري ماذا خبأت لك..!

التفتت إليه لتجده يقول:

- حقيبتك.. ستعودين إلى عملك الصحفي..!

هتفت في ذهول:

- هل أخذتها.. كيف ذلك..؟

هز كتفيه في سرور وهو يقول:

- كنت أحتفظ بها في سيارتي، لقد عدنا للنعيش من جديد .. في أرض الله .. نعبد الله!
- أسرعت تخرج آلة تصويرها قائلة:
- اشبكها على الشاشة من فضلك.
- قال ساخراً في تودد وهو ينفذ أوامرها:-
- تبدو محطمة، هل ستعمل..؟
- وجثا عندها قائلاً في حب:
- متى ستعدين الطبق..؟
- ردت في ذهول:
- هل فعلتها..؟
- زوى حاجبيه قائلاً وهو يلتفت إلى الشاشة:
- من هي..
- وبتر عبارته بشهقة فزع قوية...
- كانت الصورة تهتز بقوة الشاشة، وقد ظهر مسخ يهجم مختلطاً بصوت صارخ فزع غير مفهوم التفت إليها في فزع وذهول بينما كانت تتابع في اهتمام الشاشة التي تهتز بقوة أكبر عندما سقطت آلة التصوير، وظهر صوت امرأة تهتف
- سأطلق النار أيها الكلب..

هتف عبدالقادر في ذهول رهيب:

- من هذه المرأة.. أأ..

وانتفض بشدة عندما اخترق سمعه صوتها وهي تصرخ بقوة، واختلط صراخها بصوت أربع طلقات نارية..

ردت رامة بعد ذلك كله في تماسك:

- هذه أنا طبعاً، وإذا كانت الآلة قد فعلت ذلك، فهي قد صورت العمدة حتماً..١٠

هتف عبدالقادر في زعر:

- أي عمدة..١١

أدارت الشريط ليظهر مشهد الرجل البدين في المسيح الكبير، وآلة التصوير تركز على وجهه القبيح المزرق، قبل أن تتلاحق صورته وهو يغطس ويطفو، حتى التمع المسيح بوميض الكهرياء العالية، وطفأ جسده المنتفخ المحترق على الماء..

مرت دقائق من الصمت قبل أن يقول عبدالقادر:

- هل فعلت كل ذلك.. هل أنت من أحرق العمدة في المسيح..١٢

ردت في جمود:

كان مسخاً.. صدقتني..١٣

رد عليها في ذهول بالغ:

- أعرف ذلك، لكن كيف تأتت لك الشجاعة لتفعلي كل ذلك..!٩٠

رد في جمود غريب ودموعها تطفر في عينيها:

- هل رأيت.. أنا لم أكن أكذب بشأن هذا..

تبادلت وإياه النظرات الذاهلة قبل أن تقول بصوت مخنوق بالدموع:-

- أنا نفسي لم أعلم كيف فعلت ذلك، رفضت تصديق نفسي، كل ما

فعلته كان غير معقول..

ازدرد عبدالقادر ريقه وهي تتابع في خوف:-

- لكنني فعلتها، فعلتها وقتلتها معاً!!

تنهد قائلاً في حماس مباغت مذهول:

- هذا الفيلم ستشتريه منك السي إن إن بملايين الدولارات لو أردت،

ولربما حصلت على فرصة للعمل فيها.. صدقيني..!

ابتسمت في سخرية مريرة وهي تغلق آلتها، فتابع في حماس:

- كنت تصيبييني بالجنون لأجل وظيفتك، الآن ستحصلين على ما

تريدين فوراً..

رفعت رأسها ليسترخي شعرها القصير إلى الخلف مبتسمة وهو

يقول:

- متى أذهب لمقرهم..!٩٠

ردت في هدوء:

- أريد قداحة..!

اتسعت عيناه دهشة وهو يقول:

- ماذا تريدان بالقداحة..!

ردت وهي تقف في وهن:

- أحضرها من فضلك..!

راقبها وهي تتجه إلى خارج المنزل بخطوات ضعيفة مضطربة، قبل

أن يقلب شفتيه قائلاً في استسلام:

- غريبة أطوار في كل الأحوال..!

وتبعها حيث كانت تقف في هدوء غريب، قبل أن يناولها القداحة

قائلاً:

- هل ستحرقينني..! أم أنك ستدخينين..!

ابتسمت وهي تضع آلتها على الأرض قائلة:

- سأحرق الآلة فقط..!

اتسعت عيناه ذهولاً وهو يصرخ:

- ماذا..! إنك لمجنونة حقاً.. هذا الشريط يساوي وزني ذهباً، هل

تدركين ما تفعلينه..!

وجذب يدها هاتفاً في غضب:

- إذا لم تريديه، فساخذه أنا، لا تحرقه أيتها المتهورة...!

ابتسمت ابتسامة غامضة وهو ينحني لأخذ الآلة قائلاً:

- ثم إنك فعلت المستحيل لتعملي ملفاً متميزاً تحصلين به على

وظيفة، من سيحصل على مثل هذا الملف..؟

ردت رامة وهي تنهالك على الأرض في حزن:

- هذه الآلة سببت المتاعب، دعني أقل لك إنني قاتلة حمقاء..!

رد عليها في سخرية وهو ينحني ليحتوي وجهها الصغير بين كفيه:

- كيف تقولين هذا..؟ هل بدأت هلاوسك تتطاير من جديد؟

لوت شفتيها في مرارة شديدة وهي تقول بصوت عميق ممزق بالحزن:

- بسببها..

بسببها..

طلبت البوليس ليقبض عليك باعتبارك من سكان ميشجان...!

واخترقت عبارتها صميم جوفه..

بلا رحمة..!

حدق فيها؛ وغامت عيناه وهو يقول في استكثار:

- أنت..؟

ساد الصمت برهة إلا من شهقاتها وزفراته الذاهلة المستكرة:

- بلغت عني..؟

أنت يا رامة.. ١٩..

أنت... ١٩..

هل أنت بكامل هواك العقلية الآن.. هل..

وانهمرت دموعه المستنكرة وهو يضم قبضتيه في مرارة..

واضطرمت في قلبه المكدود الظنون..

أكانت مجنونة.. ١٩..

أحقاً فعلت ذلك.. ١٩..

عثر الرماد القاسي في عينيه وهو يحاول المقاومة..

أيمكن أن تكون تهلوس.. ١٩..

كيف فعلت ذلك وهي تحبني..

أم أنها لم تحبني قط.. ١٩..

تجاهلته وهي تتابع في ألم وحسرة:

وبسببها ذهبت أنت إلى منطقة الخطر، وبسببها لحقتك، وبسبب

لحاقني إياك لحقني منصور.. ١٩..

وانفجرت تنتحب وهي تغطي وجهها هاتفة في مرارة:

- وبسببي مات منصور.. ألسنت قاتلة بعد كل ذلك.. ١٩!

واندفعت شهقاتها الأليمة تهز جسدها الضئيل بعنف، وهو يهز رأسه

في لا وعي..

مرت دقائق من الصمت القبيح ..

هي تنتحب، وهو يحاول أن يتخذ موقف مصدق أو غير مصدق ..!

هزت رأسها وهي تقف قائلة في أسى:

- أنا لو دفعت عمري ثمناً لما ارتكبته بحقك لما كان قليلاً، لذلك فقط

سأنسى كل ما فعلته ..

حدق فيها شزراً واستككاراً هائلاً وهو يغمغم بكلام غامض وهي

تتشبث بصدره في وهن وهي تقول في مرارة:

- سأنذر عمري لخدمتك، سأعمل من أجلك إلى أن يفرقنا الموت،

ستكون الشخص الأول والأخير في حياتي، لن أفضل عليك شيئاً بعد حب

الله ورسوله.

نعم ..

أنا كنت خائنة، لكنني تبت توبة نصوحاً ..

لأجل الله ستسامحني وتغفر لي ..

لأجل الله تعالى .. ستبدأ في تصديقي، بأني أحبك ..

ونبدأ حياة جديدة أكون فيها زوجتك الحقيقية ..!

واستدارت ذاهلة وهي تردد:

- أطبخ لك الطعام ..

انتظرك بفارغ الصبر وأنت في العمل ..

أكتب لك كلمات العشاق.. كلمات الوله والحب..

أحترق للقائك كما احترقت لأجلك وأنت محاصر في ميشجان..!

ارتعشت شفتاها وهي تردد في بلاهة:

- لم أتصور أنني كنت أحبك هكذا، لم أنتظر في يوم من الأيام أن
ينتصر أحد على قلبي بهذا الشكل..

أنا لست مجنونة يا حبيبي.. أنا أحبك حقاً.. حقاً هذه المرة.. لست أكذب..

أنا لست أحبك فقط.. أنا أعشقتك.. أذوب فيك.. أنا عاشقة.. أنا
مجنونة بالحب..!

أنا.. أنا... أم..

صدقني.. هذه المرة أنا لا أكذب ولا أهلوس.. أرجوك صدقني يا
حبيبي.. يا كل حياتي!

زفر وهو يهز رأسه في ذهول شديد وهي تردد:

- نعم حبيبي، وعشقي وكل شيء في حياتي، نعم.. أم.. أحبك..
أحبك..!

نظر إليها غير مصدق وهي تبسم ذاهلة وهي تردد بلهجة غريبة:

- ألم تر..! لقد تحققت كل أحلام حياتي دفعة واحدة..

ماذا أريد أكثر من ذلك..!

يجب أن أكتفي وأقتع.. ماذا أريد من الوظيفة..! هه..!

ولوحت بذراعيها في الفضاء هاتفة في سعادة هستيرية:

- مات أصدقائي، نعم، لكن أعدائي ماتوا ..

أصدقائي وإخوتي سأقابلهم في جنة عدن عندما تجمعنا معاً رحمة

الله ..

أما أعدائي فلن أرى وجوههم بعد اليوم أبداً ..

نعم لربما أشتاق لأن أراهم وأهتف في تشف:

- ها قد انتقمتم ..

ولكن ذلك محال؛ لأنهم ماتوا، وذهبوا إلى الجحيم حتماً .. إلى نار

حامية ...!

هز رأسه في شفقة عظيمة وهو يردد:

- يا لصغيرتي المسكينة .. يا لطفلي الضعيفة .. يا الحبيبتى رامة ..!

قامت تهز ذراعيها النحيلين هاتفة في لاوعي:

- يااااااه .. لكم أنا سعيدة ..

إني أتمنى أن أرقص، أن أدبك، أن أغني أغاني نابلس اللذيذة .. أو ...

وهتفت في شعور طاغ بالفرحة غريب وهي تحرق بعيداً:

- انظر هناك يا عبدالقادر .. هل ترى؟ هل تسمع؟

رد وهو يرفع رأسه إلى حيث تشير في الفضاء بيدها الصغيرة في

إصرار قائلاً:

- أرى ماذا..! أهدئي يا صغيرتي.. لا تفعلي هذا بنفسك..

لم تكن تسمعه.. وهي تتشبث ب صدره وتشير..

لم تكن تعي وهي تصرخ بكل الفرحه في نفسها المتشققه بالمآسي

وهي تهز أصبعها حيث تشير:

- إن الرماد ينجلي.. ألا ترى..! أين عيناك..!

المدن الرماد تتهدم.. انظر.. انظر هناك..!

لقد عاد كل شيء أخضر.. نعم.. إنه لأخضر.. أخضر..

العصافير تغرد، الأشجار تبتسم..

كل شيء يعود كما كان في عهد آدم وإبراهيم..

أجل..

مات الرماد..

لقد مات الرماد..

وانهارت بكل قوة...

انهارت مدن الرماد...



أخيراً وآخراً:

كتب التاريخ نفسه مرة أخرى بدون فرق..
وعاد الناموس يقرع بصرامة..
متى يتعظ المتعظون ١٩..
درس التاريخ السهل لا يحتاج سوى التطبيق..
دالت دول الظلم، وندمت..
ولم ينتصر غير الحق ولو بعد حين..
تحسرت الدول المخدوعة بطغيان الظلم، ودفعت الثمن غالياً..
حق لهذا الدرس أن ينقش على جدران القلوب الصديدية..
التي لا تفقه حتى ترى العذاب الأليم..
متى تفهم الدرس يا غافلاً ١٩..
وتعلم أن القروء وشبه القروء..
هي الكائن الحي من بيننا..
تمد إليه أكف التسامح..
لتبقى أشل بدون أكف ١٩!..

توضيح:

هذه بعض الكلمات الغامضة التي وردت في الرواية:

- **المزير:** كلمة عبرية يعيرون بها المسلمين العرب بالذات، ويعنون بها لعنهم الله أبناء غير الرشدة.
- **أدون:** كلمة عبرية تعني (السيد).
- **الجوييم:** مصطلح عبري يهودي عنصري، يعني القطيع البشري، وهو علم على كل غير يهودي.
- **الشين بيت:** جهاز المخابرات الداخلية الإسرائيلي.
- **بنت جبيل:** مدينة في طرف الجنوب اللبناني.
- **عز الدين القسام:** مناضل نابلسي معروف.
- **فوزي القاوقجي:** مناضل سوري، كان يعمل حارساً ليلياً - وترك عمله ليلتحق بمجاهدي فلسطين.
- **عبدالرحيم الحاج محمد:** ثائر فلسطيني ضد الانتداب، كانت سيرته مضرب مثل في البطولة والتضحية.
- **العاريل:** كلمة عبرانية يعيرون بها النصارى، وتعني غير المختون.
- **إبراهيم لينكولن:** الرئيس الأميركي الذي اغتيل على أيدي تجار النخاسة بسبب جهوده في مكافحة الرق، واشتعلت في عهده الحرب الأهلية بين الشمال الأميركي والجنوب.

● **حريق نيرون:** الإمبراطور نيرون كلاوديوس، اتهم بإشعال حريق روما الهائل الذي أودى بحياة نسبة كبيرة من الأهالي ليجد مساحة يبني عليها منزله الذي سمي بالنزل الذهبي، كان واقفاً في شرفة قصره يتطلع في الحريق وهو يعزف على القيثارة مقطوعة من الإلياذة عن إحراق طروادة، ووجدها فرصة سانحة لتوجيه الاتهام إلى النصارى الذين شكلوا طائفة واسعة في المدينة فقمعهم ببشاعة، ما بين تقديمهم فرائس للحيوانات المفترسة، أو بتجميعهم وتثبيتهم على الصليب بدق المسامير في أيديهم وأرجلهم، ثم طلي أجسادهم بالقار وإشعالها لتكون مشاعل ليلية.. انظر تاريخ الحضارات العام (جانين أوبواييه وأندريه إيمار).

● **الباستيل:** مصطلح فرنسي يدل على القسوة والصرامة، وهو علم على السجن الرهيب الذي بني في عهد أسرة لويس، والذي كان نموذجاً حياً لما عاناه الإنسان الأوروبي في ظل الحكومات المتعاقبة..

هدم هذا السجن في الثورة الفرنسية (القرن السابع عشر) بأيدي الثوار الغاضبين الذي أعدموا فيه قبل أن يهدموه ملكي البلاد: لويس السادس عشر والملكة ماري إنطوانيت..

● **الملون - الملونون:** تعبير عنصري يطلقه البيض على ذوي البشرة الحنطية كالعرب والهنود الحمر أو ذوي البشرة الصفراء كالجنس المغولي.

- **الكام:** نوع رخيص من المخدرات، خطير جداً، يسبب انتكاسات خطيرة وملحوظة في وقت قياسي للجهاز العصبي..
- **دول الطوق العربي:** تعبير دولي يطلق على الدول التي تحيط بالكيان الصهيوني المسخ وهي سوريا ولبنان من الشمال، الأردن من الشرق، ومصر من الغرب والجنوب.
- **الشكنازيم:** يهود الغرب، وهم الطبقة العليا من المجتمع اليهودي الذين يستحوذون على كافة الامتيازات الإدارية والمالية، منهم الأسر اليهودية الفاحشة الثراء مثل (هيرتزل) و(روتشيلد) و(دزرائيلي)، وكذلك أرباب المحافل الماسونية، وغيرهم الكثير، أما يهود الشرق فهم عامة المجتمع الإسرائيلي، ويدعون بالسفارديم، وهم الطبقة الكادحة المضطهدة، لاحظ أن الشكنازيم لا يتواجدون غالباً في فلسطين، وإنما يختبئون في ممتلكاتهم الضخمة في الدول المسألة، ويديرون معاركهم من هناك، كما فعل روتشيلد ودزرائيلي أثناء الثورة الفرنسية.
- **عيد البوريم:** ثاني أعياد اليهود الرئيسية المقدسة، والتي يتم فيها توزيع الفطائر المعجونة بدم الجويم، حيث يتم كما شهد بذلك من ضبطوا متلبسين بهذه الجريمة، سحب كل الدم الموجود في جسم الضحية وتجفيفه، ثم عجنه بيد الكاهن الأكبر مع فطير العيد الذي يوزع على كل اليهود المتمسكين بهذه الفكرة الدموية..

للاستزادة في هذا الموضوع الرهيب، اقرأ :

- خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، للدكتور عبدالله التل بيك، رحمه الله..

● **إعدام العش:** مصطلح روماني يدل على إعدام المتهم وكل ما يتصل به (منزله، أولاده) وهي وسيلة قهرية بالغة النجاح في كسر شوكة المعارضين والثوار - تدل على العقلية الأوربية القديمة، والتي كانت بذرة التشريعات الأوربية الجديدة.

روايتي رسالة مفتوحة للعالم الغريق..
وصرخة مخنوقة..
من ناصح شفيق..
أهديتها بكل حب..
للسائرين في الضباب..
والزاحفين نحو أشلاء العذاب..
روايتي أقصوصة صغيرة..
قد لا تكون قصة مثيرة..
أودبجت بأحرف منيرة..
أو رقشت من صفحة التاريخ أي سيرة..
لكنها ستبقى..
ورغم كل شيء روايتي الأثيرة..
روايتي رسالة مفتوحة للعالم الزيل..
كتبتها يا سادتي من دونما أمل..
لأنني قد أبصرت عيناى منذ أن ولدت فورة الظلم العريق..
فقررت هلاوسي..
أن تكتب التاريخ درساً طيع التطبيق..

للصغار الحافظين..
والكبار اللاهثين..
فما استعنت لحظة بفوكوياما أو سمويل..
وإنما رتلّت سورة الأنعام والرعء..
ورددت نبضات قلبي سورة الأعراف..
وقصة الأخدود..
كتبتها - روايتي - من دونما خط أنيق..
كتبتها - لا تسخروا - في دفتر ممزق عتيق..
دونتها في حاسبي العفن..
من أجلكم يا عالمي النتن..
من أجل جيل قادم كصاحب البروق..
كتبتها أبشر الجياع والرقيق..
بثورة عظيمة تهد عرش كل فرعون جديد..
تحرر الإنسان من قيد الهوى..
وتبعث الحياة إنسانية حقيقة في راية التوحيد..
من أجلكم يا عالمي الفريق..
كتبت خريشاتي..
أوضحت أنني أحبكم..

يا عالمي المغفل المحروق..
بالفولاذ بالريا بالنقار بالحديد..
بالأيدز هي جسوم داعراتكم..
بكل شيء أسود في ذلك الجهنم السحيق..
من أجلكم..
دونتها..
ألقيتها..
على قوراع الطريق..
رواية أسميتها مدائن الرماد..
أريدكم أن تقرأوها..
تحفظوها..
لتتقنوا رامتكم..
وفوق كل شيء..
لتتسفوا مدائن الرماد...)))

بدرية العبد الرحمن

الرياض

١٩ / ذو القعدة / ١٤٢١هـ

سبعة أشهر قبل ١١ سبتمبر..

الفهرس

٥	الإهداء
٧	قبل البدء
١٠	مدن الرماد
١٢	المجرفة
٢٠	يحيا الظلم
٣٣	منصور
٦٠	قدس
٧٥	أنطون
٩٧	لصوص اللحم
١١٩	الهروب الكبير
١٣٧	إلى الجحيم الصامت
١٤٤	الخال معن
١٥٣	غضبة قرد
١٥٨	في ميشجان
١٨٠	العلم الملعون
١٨٣	عبد القادر
١٩٦	الراقصة جون

٢١٦	آنسة الفضيلة
٢٣٠	البائسة
٢٣٥	الفيروس المسخ
٢٤٩	البطولة المرتجفة
٢٦٦	عندما كان اللقاء
٢٨٤	المسخ
٣٠٧	المشروع الأغرب
٣٣١	كلنا نكرهم
٣٤٣	الطفولة القاتلة
٣٤٨	حلم داود
٣٥٣	الثأر
٣٦٧	الحرب
٣٨٤	إنه مسخ
٤٠٣	ديمونا يدخل اللعبة
٤٠٩	مفتاح الفيراري يعمل
٤١٥	العمدة المسخ
٤٢١	لبيك يا قدس
٤٣٩	خيار أخير

٤٤٣		التأري رامة
٤٦٨		الذين يتبعون الشهوات
٥٢٠		الورقة الأخيرة
٥٣٧		التمرد
٥٤٦		الدمار
٥٥٧		البرفيسور المجنون
٥٦٧		الانتقام الزعاف
٥٧٤		الذلة أينما ثقفوا
٥٨٦		المغامرة.. والموت
٥٩٠		الصراع مع مسخ
٦٠٠		نهاية بطل
٦٠٧		الخطر
٦٠٩		العد التنازلي
٦١٠		على شفير الموت
٦١٨		أزف الأوان
٦٢٠		الموت ركضاً
٦٢٢		وإن جندنا لهم الغالبون
٦٢٣		الأجساد الثلاثة

٦٢٧	نهاية أسطورة
٦٤٢	أخيراً وأخيراً
٦٤٣	توضيح
٦٤٧	الفهرس

